

بسم الله الرحمن الرحيم
منتديات الوحدة العربية
http://arab-unity.net/forums/index.php





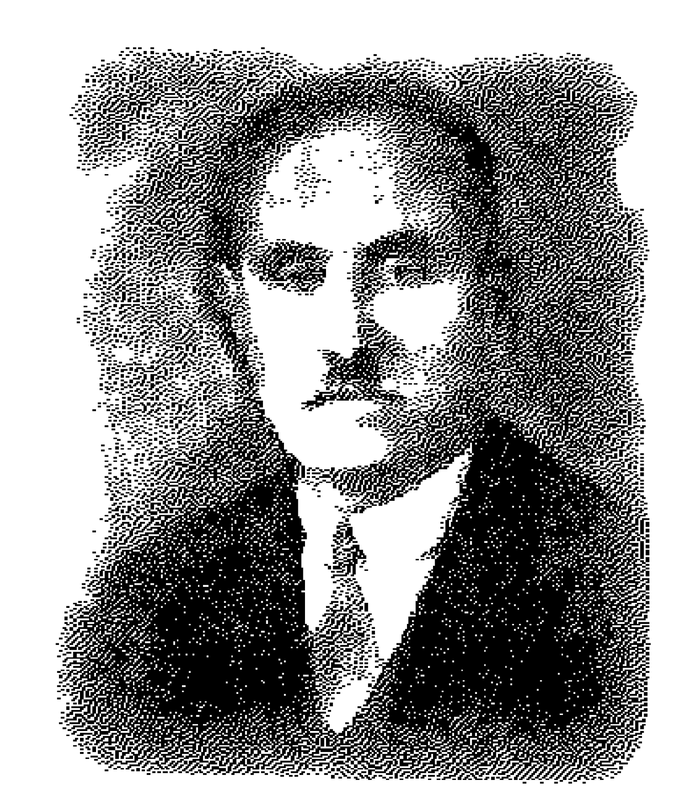
أعلام الوطنية والقومية العربية





مير بصري





دار الحكمة - لندن









أعلام الوطنية والقومية العربية

مير بصري

أعلام
الوطنية والقومية العربية

* أعلام الوطنية والقومية العربية

* تأليف: مير بصري

* الطبعة الأولى 1999 م.

* الناشر: دار الحكمة ـ لندن

88 Chalton Street, London NWI IHJ

Tel: 0171 383 4037 - Fax: 0171 383 0116

* التوزيع: بيسان للنشر والتوزيع

□ ص.ب 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان

□ هاتف: 351291 ـ فاكس 747089 ـ 1 ـ 961

المحتويات

الشمال الافريقي

الحجاز وجزيرة العرب

سورية ولبنان

دعاة القومية

العراق وثورة العشرين الكبرى

تقديم

مير بصري رائد فن التراجم
في الأدب العربي الحديث

بقلم: الدكتور جليل العطية

- ١ -

من عباءة التأريخ نشأ فن السِيَر والتراجم. وترعرعا واتخذا منهجاً محدداً، وتأثرا بآراء الناس عنهما عبر العصور، وتشكلا وفق تلك الآراء فكانا تسجيلاً للأعمال والاحداث والحروب المتصلة بالملوك والقادة.

وعندما تطور التأريخ وأضحت له فلسفة خاصة شغل المؤرخون بمناقشة سؤال ازدحم في صدورهم هو:

هل إن السيرة جزء من التأريخ؟

يرى - شوت ويل - أنه كلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها، فإن السيرة - في هذا الوضع - تحقق غاية تاريخية، وكلما كانت السيرة تجتزىء بالفرد وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى، وتنظر الى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون واهية، ضعيفة.

على أننا إذا استبعدنا هذه النظرة الحديثة، وجدنا أن فن التراجم من ناحية عملية كلما كانت الترجمة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو متأثرة بها، فإن الترجمة تحقق هدفاً تاريخياً.

وكلما كانت الترجمة تفصل المترجم عن مجتمعه ووطنه، وتجعله الهدف الأسمى وتنظر الى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتأريخ تكون هشة بل مبتسرة.

يوضح أندريه موروا - الاديب الفرنسي وكاتب السير المعروف - أهمية هذا الفن قائلاً:

»ربما تكون للسيرة ميزة على الرواية.. عندما نقرأ سيرة رجل مشهور، فإننا نعرف مسبقاً أية تغييرات أو أحداث تنتظرنا للوهلة الاولى، قد يتبادر الى الذهن أن ذلك سيجرد الكتاب من القدرة على الإمتاع، ولكن إذا أحسن إعداده ستكون النتيجة مغايرة تماماً.

لقد أنكر عدد من الباحثين والمفكرين أن تكون السيرة أو الترجمة جزءاً من التأريخ. ومن هؤلاء «كولنجوود» و «توينبي»، فهما يطردان من دائرة التأريخ ما يتصل بالسير الذاتية كاعترافات القديس أوغسطين وروسو أو حياة الملكة فكتوريا لستراتشي.

يقول إرنولد توينبي: »إن هذه الكتب تشتبك بالتاريخ لأنها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعية«.

وبعد أن بيّن خصائص بعضهم يقول: «إذا علّقنا التاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ من حيث الطريقة».

ولقد وعى ابن الجوزي (٥٩٧هـ/ ١٢٠١هـ) أن التاريخ عبارة عن مجموعة متنوعة من السير والتراجم وذلك عندما قرر في مقدمة كتابه (شذور العقود): «أن التواريخ وذكر السير راحة للقلب وجلاء للهم وتنبيه للعقل، فإنه إن شرحت سيرة حازم علّمت حُسن التدبير، وإن قصصت قصة مفرط خوّفت من إهمال التقرير.»

ومن يقرأ القرآن الكريم يلاحظ كثرة قصص الأمم السابقة، ولا شك أن الهدف من ذكرها كان: الاعتبار والاتعاظ.

ولاحظ إحسان عباس أن هذه الغاية الخلقية كانت أضعف المظاهر حين بدأ المسلمون بكتابة السير التي ابتدأت بسيرة الرسول (ص).

كان المظهر الأكبر للإسلام في بداياته: الجهاد، لهذا لم نستغرب قيام كتّاب السير بتسجيل المعارك الحربية، وما دار فيها من فنون، فعدّت السيرة جزءاً من الحديث تخضع الى الإسناد خضوعاً دقيقاً، ثم شغل المسلمون بكتب الطبقات والتراجم. وقد خصوا شخصيات مهمة بكتب كاملة منهم عمر بن الخُطاب، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن دينار، والحسن البصري، وهي التي عرفت بكتب المناقب.

غير أن الطابع الادبي اختفى من هذا اللون من التأليف الذي اهتم بالمواعظ والحكم والخوارق. ويمكن القول إن السير التاريخية ظلت حتى مطلع القرن العشرين

أقوى أنواع السير عند المسلمين. وهي تجمع أحياناً بين الغاية الخلقية، وغاية المتعة التي تحققها السير الادبية، ولم يحدث التغيير في الاسلوب إلاّ بتأثير الثقافة الغربية.

وربما كان كتاب (الساق على الساق فيما هو الفارياق) لأحمد فارس الشدياق، أول سيرة ذاتية ظهرت في الادب العربي الحديث، لكن مارون عبود الناقد اللبناني بالغ عندما وضعها الى جانب إعترافات روسو، معتبراً أن أيام طه حسين، لا شيء تجاهها!

وفي هذا الرأي إجحاف، فالأيام قمة في السيرة الذاتية، تابعها أحمد أمين في كتابه «حياتي». ويمكن أن نضيف عبقريات العقاد، وجبران وميخائيل نعيمة، وحتى كتاب «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، وإبراهيم الكاتب المازني، وسارة للعقاد، وأبو هريرة وكوجكا لذي النون أيوب، الى هذه السير الذاتية، رغم أن طائفة منها لاحقة فنياً بالقصص لا السير الذاتية المباشرة.

وفي سنة ١٩٢٧ قدم خير الدين الزركلي (توفي ١٩٧٦م) كتابه «الأعلام» الذي عُني فيه بترجمة المئات من أعلام العرب والمسلمين والمستعربين. وقد حقق هذا الكتاب رواجاً هو أهلٌ له، طبع أربع مرات على الأقل، وتحول الى مرجع علمي لا يستغني عنه باحث، وعيبه أن مؤلفه - رحمه الله - قدم ترجمات موجزة لأنه أراد استيعاب أكبر قدر ممكن من الشخصيات في كتابه الموسوعي الفذّ.

وفي العراق عُني عدد قليل من الادباء والكتّاب بفن التراجم لمع منهم: رفائيل بطي (١٩٥٦)، جعفر الخليلي (١٩٨٥)، عبد الرزاق الهلالي (١٩٨٥)، يوسف عز الدين، مير بصري، خيري العمري.

المؤسف أن الجهود المضنية التي بذلها (بطي) بقيت محدودة الفائدة، لأن التراجم التي نشرها في الصحف والمجلات العراقية والعربية لم تجمع في كتب.

أما (الخليلي) فإن كتابه (هكذا عرفتهم) بأجزائه السبعة المطبوعة، يعد مرجعاً مهماً لكل من يرغب رصد الحياة الادبية والثقافية في العراق خلال القرن العشرين. لكن المؤسف أنه رسم لمن ترجم لهم لوحات إنطباعية منتزعة من الذاكرة، لأن الوثائق والنصوص الأدبية والشعرية كانت بعيدة عنه أثناء كتابته تلك الصور القلمية الرائعة.

- ٢ -

ولد مير شاؤل بصري في بغداد في التاسع عشر من أيلول/ سبتمبر ١٩١١، في أسرة عراقية يهودية عريقة باسم (عوديا). وقد ذكر الرحالة «بنيامين الثاني» أنه التقى عم

أبيه الذي كان يشغل منصب رئيس المحكمة الشرعية في بغداد سنة ١٨٤٨م. درس مير في مدرستي التعاون والاليانس ١٩٢٨، ولازم الاب أنستاس ماري الكرملي والدكتور مصطفى جواد حيث أخذ عنهما آداب اللغة العربية وقواعدها، ودرس تاريخ العراق على عباس العزاوي والعروض على الشاعر محمود الملاح.

وظف أول مرة في وزارة الخارجية ١٩٢٨، وتنقل في مؤسسات رسمية عدة حتى سنة ١٩٥٢، وقد أهّلته كفاءته لتمثيل العراق في مؤتمرات عالمية عدة عقدت في نيويورك وباريس وغيرها.

وبعد سنة ١٩٥٣ انصرف الى الاعمال الحرة.

كان أثره الادبي الاول شعراً منثوراً عنوانه الحرية (بغداد ١٩٢٨) كتبه على نهج جبران والريحاني وأدباء المهجر، وعمل في أوقات مختلفة محرراً اقتصادياً وباحثاً في الصحف والمؤسسات الاقتصادية العراقية ونال عضوية العديد من المنظمات الثقافية، وله مؤلفات عديدة بينها:

مباحث في الاقتصاد العراقي (١٩٤٨)، رجال وظلال (١٩٥٥)، رسالة الاديب العربي (١٩٦٩)، أغاني الحب والخلود (١٩٩١)، رحلة العمر من ضفاف دجلة الى وادي التيمس (ذكريات وخواطر)، رحلة ليكلا ما، أ. نيهولت الى العراق سنة ١٨٦٦م (ترجمة).

وله نحو عشرة مؤلفات تنتظر النشر، هذا إضافة الى عشرات البحوث والدراسات المتنوعة المنشورة في المجلات والادلة الاقتصادية الدولية.

بقي مير بصري في بغداد يواصل نشاطه الادبي والاقتصادي والروحي حتى إذا تعرض الى الاذى - دون وجه حق ١٩٦٩ مما اضطره الى ترك وطنه عام ١٩٧٤ حيث استقر في لندن مواصلاً نشاطه الادبي والاجتماعي بكل همة وإخلاص وحب.

ومن شعره: قال معارضاً قصيدة ليل الصبّ.. لأبي الحسن القيرواني الحصري الشهيرة.

أحـديـث الـحـبّ تـردّده،	تـسـتـنـفـده وتـجـدده
وتـنـمـقـه وتـرقـقـه	وتـروّقـه وتـجـوّده
وتـروّعـه وتـنـوّعـه	وتـلـمـعـه وتـعـدّده
هـل ذقـت الـحـب لـعـمـرك أم	تـروي مـا لـم تَـكُ تـشـهـده؟
هـل صـادك ظـبـي ذو حَـوَرٍ	فـتـاك الـلـحـظ مـسـدّده

وضاء الثغر مُنمنمهُ — وأسيل الخدّ مورّده
ميّاس القدّ مهفهفهُ — موفور الدّل معوّده،
فسكرت بخمر مفاتنه — وعداك الرشد ومرشده؟
اسهرت الليل حليف ضنى — يرعاك النجم وفرقده،
ترجو الاصباح، وهل يأتي — بالسعد إذا وافى غده؟
هل فاض معين الدمع جوى، — والفجر يروعك مشهده،
أضفى من نوره بُرد سنى، — صرحاً للحسن تشيّده،
وسرت أنفاس الزهر شذا، — وشدا في الروض مغرّده؟
أو هل خفق القلب العاني — وطغى في النفس توجّده،
فبرمت به صبّاً دَنِفاً — يشقيه الذكر ويسعده،
ووددت فؤادك من حجر — يلهو بالحب ويجحده؟
إن لم تُشغف بالحب فدع — شعراً مصنوعاً تنشده،
وحذار الشوق تلفّقه — وحذا الوجد تبدّده
أخشى أن تبلى اليوم بما — قد كنت كِذاباً تسردُه

تتوزع اهتمامات مير بصري بين الشعر والقصة والرواية وكتابة التراجم والملاحم والترجمة والبحوث الاقتصادية، وقارىء آثاره التي أتيح لها النشر يقرّ له بالأصالة والجِدّة والمستوى الرفيع في كل الفنون التي طرقها.

يعتبر مير بصري نفسه شاعراً قبل كل شيء، ويعني ذلك أن مشاركته في ميدان الشعر كانت - في نظره - أهم إنجاز له من بين ما حققه في جميع المجالات التي مارسها بكل إخلاص وتجرد.

وهو يعتقد أن الشعر والادب يجب أن يرميا الى مَثَلٍ أعلى وهو التفاهم البشري والتعاون ونشر الاخوة والمحبة والسلام.

- ٣ -

ويبدو لي أنه وجد قصوراً من الادباء العرب في فن التراجم، واحسب أنه لمس من أستاذيه الكرملي ومصطفى جواد التشجيع في خوض هذا الفن الذي يكاد يكون جديداً على الادب العربي - كما ألمحنا - والذي لا يجرؤ على خوضه إلاّ من إمتلك ثقافة واسعة وأحاط بعلوم وفنون عدة في آن واحد.

ومنذ الاربعينات وبصري يدون ويوثق ويسجل تراجم الشخصيات التي ساهمت في النهضة العربية بشكل عام ونهضة العراق بشكل خاص.

وبلغ مجموع من ترجم لهم نحواً من ألف وخمسمائة مختلفي الملل والنحل، وخلال ربع القرن الماضي وفق في نشر طائفة منها في خمسة كتب هي:

* أعلام اليهود في العراق الحديث - القدس - ١٩٨٣، يضم تراجم نحو ٥٥ شخصية.

* أعلام السياسة في العراق الحديث - رياض الريس للكتب والنشر - لندن ١٩٨٧، ويحتوي تراجم ٣٨ شخصية.

* أعلام الكرد - رياض الريس للكتب والنشر - لندن ١٩٩١، ويحتوي على تراجم أكثر من ١٥٠ شخصية.

٢ أعلام الادب في العراق الحديث - جزءان - دار الحكمة، لندن ١٩٩٤ - ويضم نحو ٢٢٦ ترجمة (والجزء الثالث منه معدّ للنشر).

* أعلام الوطنية والقومية العربية - الذي شرفني الاستاذ بصري بكتابة هذه المقدمة له، هو السادس ويشتمل على تراجم نحو مائة وأربعين من رجال النهضة العربية، مع توطئة تحليلية لظاهرة نشوء وتنامي الشعور القومي العربي من خلال ثورتي مصر (١٩١٩) والعراق (١٩٢٠).

وإذا كان من البديهي أن يشتمل هذا الكتاب على تراجم المشاهير ممن دونت أخبارهم في الصحافة والاذاعات في النصف الاول من القرن العشرين من أمثال عرابي والبارودي وسعد زغلول والنحاس والخطابي والكواكبي والخالصي وأرسلان وعزيز علي المصري وطالب النقيب وأبي التمّن وسواهم.، فإن القارىء الكريم سيجد ترجمات لشخصيات لم تأخذ حظها الوافر في وسائل الإعلام أمثال أحمد الريسوني وسعدون باشا السعدون، وفخري كمونة وسعيد ثابت وغيرهم ممن قدموا خدمات جليلة للأمة العربية.

كما أنه سلط ضوءاً جديداً على حياة الملوك والزعماء العرب، لا تتوفر في المراجع والكتب المتداولة، ويرجع السبب في رأيي الى نجاح المؤلف في الحصول على وثائق ومراجع وشهادات أصلية ونادرة. ولا أريد أن أقطع متعة القارىء بإيراد نماذج أكشف فيها بعض الجديد في هذا الكتاب المهم.

ينفرد مير بصري عن كل كتّاب التراجم العرب بنقاء العبارة ورشاقة الاسلوب، وتوخي الايجاز غير المخل. ولا أبالغ إذا قلت إنه يمتلك كل المواصفات التي يحملها

العلماء، وهي الحيدة والتواضع والموضوعية، وهو يحيط بتاريخ الامة العربية إحاطة تامة، وقد رزق ذاكرة قوية، لا ينسى ما يقيّد ولا ما لا يقيّد.

وأتاحت له إجادته اللغات الفرنسية والانجليزية وغيرها الاطلاع على الآداب والثقافة الغربية فأفاد منها في كتبه وسيره. لكل هذا وسواه، لي الثقة أن يأخذ هذا الكتاب «أعلام الوطنية والقومية العربية» مكانته المتميزة في الخزانة العربية كواحد من أهم مراجع دراسة النهضة العربية في القرن العشرين وأعلامها البارزين .

ختاماً أبتهل إليه تعالى أن ينسأ في عمر الاستاذ مير بصري ليواصل رفد قرائه بنتاجاته الادبية والتاريخية والفكرية.

توطئة

حين نقرأ سيرة الاعلام الذين ترجمنا لهم في هذا الكتاب، جدير أن لا يغيب عن ذهننا أن مئات من رجال الفكر والزعماء الوطنيين قد برزوا في العقود الماضية من القرن العشرين وكان لهم الفضل في تنبيه الاذهان وتحرير أقطارهم الممتدة من المحيط الى الخليج من ربقة العبودية والاستعمار .

ويمكن القول إن الشعور القومي العربي ظهر في مطلع المائة العشرين واشتد بعد إعلان الدستور التركي سنة ١٩٠٨ وتفاقم أمر الحركة الطورانية التي دعا اليها الاتراك المتعصبون، وفي مقدمتهم ضياء كوك آلب، لتتريك العناصر التابعة للدولة العثمانية من عرب وأقوام أخرى. حدثني محمود صبحي الدفتري الذي كان في الآستانة في الاعوام الاخيرة من الحرب العظمى الاولى أن حملة شعواء أثيرت على العرب في المحافل الرسمية والادبية وفي الصحافة بعد رفع الشريف حسين علم الثورة في الحجاز، فوصم العرب بالخيانة. وغالى الكتاب في إبراز دور الترك في مساندة الاسلام وحمايته والدفاع عنه منذ عهد الخلفاء الراشدين (كذا). وانبرى محمود صبحي الدفتري نفسه، وكان من أبلغ أدباء اللغة التركية، للرد على تلك التخرصات والمبالغات التي لا سند لها من الحقيقة. واشترك في الدفاع عن العرب ورد التهم المنسوبة اليهم نفر من أحرار الترك كسليمان نظيف بك والي بغداد السابق وأبي الضياء توفيق بك صاحب جريدة «تصوير أفكار» وعلي كمال بك وغيرهم.

وقد نادى الطورانيون المتعصبون بتنقيح التركية من الكلمات العربية وبثوا روح التعصب القومي، أما الادباء الاحرار فدعوا الى التسامح والتعاضد وفندوا مزاعم القوميين ومفترياتهم.

كانت الاقطار العربية في مطلع القرن تابعة للدولة العثمانية التي يحكمها السلطان خليفة المسلمين من قصره المطل على البوسفور. وكان الناس معظمهم سعداء بالانتماء الى هذه الدولة العظمى الرافعة للواء الاسلام ويحسبون أنفسهم من رعاياها لا مستعمرين

ومحكومين. ولما ثار حزب تركية الفتاة على السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ وأعلن الدستور وأطلق الحريات العامة لم تر أكثرية الشعب في العراق وغير العراق خيراً في هذه الحركة وعدتها خروجاً على الدين وعصياناً على الخليفة. فقال الشاعر الكركوكلي الشهير الشيخ رضا الطالباني، وكان ينظم باللغات الكردية والفارسية والتركية: «إذا كان القانون الالهي موجودا، وهو الشريعة، فالباقي هذيان سواء كان سياسيا أو أساسيا» (ويقصد الدستور الذي كان يسمى «القانون الاساسي»). ولم يكتم القاضي البغدادي السيد اسماعيل الواعظ تأثره لخلع السلطان عبد الحميد، فكتب في مذكراته مثنيا عليه، آسفا على رحيله، وقال: «كان رحمه الله ذكيا فطنا، سياسيا داهية، وأكبر دليل على ذكائه ودهائه وسياسته (أنه) بقي ملكا ثلاثاً وثلاثين سنة، وكان كالغطاء على الحكومة العثمانية ولا يعلم أحد من الاجانب عنها... وكان يحترم أهل العلم والطرائق ويعلي قدرهم..». وألف أشراف بغداد ومشايخها الجمعية المحمدية لمناوأة الاتحاديين الداعين الى الحياة الدستورية، وكان في مقدمتهم السيد عبد الرحمن النقيب الذي أصبح رئيسا لوزراء العراق سنة ١٩٢٠ .

وحلت هذه الجمعية سنة ١٩٠٩ بعد القضاء على الحركة الرجعية في استانبول وخلع السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد رشاد الخامس العرش ليكون ملكا اسميا لا حول له ولا طول .

وحتى أحمد شوقي الشاعر المصري الكبير رثى السلطان عبد الحميد عند خلعه وبكى على مجده وقال :

خطب «الامام» على النظيم	يعزُّ شرحا والنثير
عظة الملوك وعبرة الايام	في الزمن الأخير
شيخ الملوك وإن تضعضع	في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر المولى له	والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصابه	أولى بباكٍ أو عذير
ونصونه ونجلّه	بين الشماتة والنكير
عبد الحميد، حساب مثلك	في يد الملك الغفور
سدت الثلاثين الطوال	ولسن بالحكم القصير
تنهي وتأمر ما بدا لك	في الكبير وفي الصغير
لا تستشير وفي الحمى	عدد الكواكب من مشير

كم سبّحوا لك في الرواح ... وألّهوك لدى البكور

ورأيتهم لك سجدا ... كسجود موسى في الحضور

خفضوا الرؤوس ووتّروا ... بالذل أقواس الظهور

ماذا دهاك من الامور ... وكنت داهية الامور؟

إن القضاء إذا رمى ... دك القواعد من ثبير!...

نشوء الشعور القومي العربي

كانت القرون الوسطى عصر الدين والقرنان التاسع عشر والعشرون عصر الوطنية. ويحلم البشر بعصر إنساني يأتي في القرون المقبلة، فهل تحقق الآمال ؟

ويحلم العرب باتحاد شامل يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي. وهذا الحلم لم يخطر على بالهم إلا بعد الحربين العالميتين الماحقتين اللتين غيّرتا خريطة العالم السياسية ومزجتا الحقائق التأريخية بالأخيلة، وفتحت الافآق واسعة للاماني والاحلام.

حلم الارمن والاكراد في نهاية الحرب العظمى الاولى بالسيادة القومية. وكادت معاهدة سيفر المعقودة بين الحلفاء والدولة التركية المندحرة سنة ١٩٢٠ تحقق آمالهما، لكن الغازي مصطفى كمال باشا (الذي عرف فيما بعد باسم كمال أتاتورك) مزق تلك المعاهدة بسيفه. وحلت محلها معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ فأغفلت ذكر هاتين القوميتين الموزعتين في جنوب روسية وتركية وأنحاء الشرق الاوسط. لكن العرب الذين رضخوا قرونا طويلة للأجنبيّ، الاسلامي والمسيحي، واتتهم الفرص فاستقلت أقطارهم بعد الحربين الواحد بعد الآخر. وألفت جامعة الدول العربية في القاهرة سنة ١٩٤٥، وقفز عدد أعضائها بعد نحو من ربع قرن الى أكثر من عشرين دولة. وظهرت ينابيع النفط الباذخة في عدد غير قليل من البلدان العربية فمنحتها ثروات جديرة بقصص ألف ليلة وليلة. ولعل الفشل الوحيد كان إنشاء دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ وقد فصلت بين الدول العربية في آسية وإفريقية، وضم الاسكندرونة الى تركية سنة ١٩٣٨ لتصبح ولاية هاتاي.

ويجب القول إن البلاد العربية التي كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية - وكانت تمتد في النصف الاول من القرن التاسع عشر فعليا أو اسميا من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر الى سورية ولبنان وفلسطين والعراق والجزيرة العربية - كانت راضية بوجه عام بحكم خليفة المسلمين وتعد نفسها جزءاً لا يتجزأ من السلطنة العثمانية. ثم استولت فرنسة شيئا فشيئا على الجزائر وتونس ومراكش، ووضعت بريطانية

يدها على مصر، وأنشأت الدول المسيحية الكبرى نظام حماية خاصة في جبل لبنان، واقتطعت إيطالية طرابلس وليبية. وظهرت الحركة الوهابية في نجد فأقضّت مضجع السلطنة التركية. وحاول محمد علي باشا والي مصر الاستيلاء على سورية، وكاد ينجح في مسعاه لولا أن الدول العظمى اضطرت جيشه المنتصر على الجلاء والتراجع الى وادي النيل.

ظلت الاقطار العربية التابعة للحكم العثماني راضية بانتمائها الى آل عثمان واستظلالها بظل الخليفة صاحب العرش القائم على البوسفور. وفرض السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩)حجابا بين بلاده ومبادىء الحرية والمساواة، فظهر له المناوئون من أبناء الترك الذين التجأوا الى البلاد الاوربية ونادوا بالحكم النيابي الدستوري، حتى إذا ما سنحت لهم الفرصة احتلوا إستانبول وقبضوا على السلطة سنة ١٩٠٨، ثم خلعوا السلطان المستبد في السنة التالية بعد ظهور الحركة الرجعية.

كان صغار الضباط من الاتحاديين مستولين على الحكم من وراء ستار، يؤلفون الوزارات من رجال الدولة السابقين كحسين حلمي باشا وكامل باشا ويتخذونهم أدوات لتنفيذ مآربهم وأعمال سياستهم الخرقاء.

وقد شاهد ذلك معروف الرصافي فقال قصيدته «شكوى الى الدستور» نشرها في جريدة المؤيد المصرية سنة ١٩٠٩، ومنها يخاطب الدستور :

نراك بايديهم على الخلق حجة ... وأنت عليهم حجة لا على الخلق
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به ... وسدّوا على من حولهم منبع الرزق
ألَمْ ترَ أنّا طول عهدك لم نقم ... نسابق أهل المجد في حلبة السبق ؟
ولم نك ندري لاهتضام حقوقنا ... أنحن من الاحرار أم نحن في رِقّ؟
ولم نستفد إلا سقوط وزارة ... وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق
ألم يبصروا للعدل غير طريقهم ... فإن طريق العدل من أوضح الطُرُقِ
وماذا عسى يجدي سقوط وزارة ... إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق
ولكن وراء الستر كَفّ خفيّة ... تزحزح من شاءت عن الأمر أو تبقي..

لم تنعم الدولة التركية الجديدة بالحرية أمدا طويلا، إذ سرعان ما قام صغار الضباط بالهيمنة على الامور والانفراد بالحكم بعد حروب طرابلس والبلقان. وقام هؤلاء، يدعمهم نفر من رجال الفكر المتعصبين، بالدعوة الى تتريك العناصر المتباينة التي تتألف منها الدولة. وقد شعر مفكرو العرب، وفي مقدمتهم الطلاب المدنيون والعسكريون

الذين يدرسون في إستانبول العاصمة، بالحس الوطني، فألفوا الجمعيات السرية التي تنادي بالقومية العربية وطالبوا بالحكم اللامركزي في سورية والعراق واستعمال اللغة العربية في المدارس ودور الحكومة والقضاء. وعقد المؤتمر العربي في باريس سنة ١٩١٣ فلم تخرج مقرراته عن تلك المبادىء ولم يدع الى الانفصال عن جسم السلطنة العثمانية. ومع ذلك أعلن رجال العرب مناوأة الدعوة وشجبها، فقال شاعر العراق معروف الرصافي النائب في مجلس المبعوثين:

أصبحت أوسعهم لوماً وتثريبا ... لما امتطوا غارب الافراط مركوبا..
راموا الصلاح وقد جاؤوا بلائحة ... خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
قد كلّفوا شططا فيها حكومتهم ... وخالفوا الحزم فيها والتجاريبا..

وقال:

قل للأُلى نطقوا بالضاد مُدغَماً: ... لم يدغم الضاد آباءكم فرطوا..
فيكم غلوٌّ وتقصير وبينهما ... ضاع المراد، أأنتم أمة وسط ؟
شطّوا بأقوالهم حتى لقد غضبوا ... إذ قلتُ يا قوم، في أقوالكم شطط!..

وجاءت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ فخاضت الدولة التركية غمارها الى جانب ألمانية واكتوت بنارها. وأعلن الشريف حسين الثورة في الحجاز مستعينا بالانكليز، فلم تضع الحرب أوزارها وتسفر عن تمزيق أشلاء المملكة العثمانية الكبرى حتى نال العرب في مصر وسورية ولبنان والعراق وشبه الجزيرة العربية استقلالهم، أو ما يشبه الاستقلال، وأسسوا دولا لم تلبث أن انتمت الى عصبة الامم والهيئات الدولية المعترف بها.

ظهرت عند ذلك فكرة الاتحاد أو الوحدة العربية. وكانت في مبدأ الامر حلما من الاحلام، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فعجّلت باستقلال المستعمرات والممتلكات الاوربية في آسية وإفريقية، وخلقت دولا لا تملك المقومات الاقتصادية والادبية والثقافية والاجتماعية. فكثرت الثورات والانتفاضات وحركات التمرد والاستيلاء على السلطة. وكان نصيب العرب من هذه الحركات، خيرها وشرها، كبيرا.

فاز العرب سنة ١٩٤٥ بإنشاء جامعة الدول العربية تجمع شملهم وتلم شعثهم، وكان عدد أعضائها في بادىء الامر لا يتجاوز السبعة، ثم زاد باستقلال الاقطار العربية في الشمال الافريقي والخليج وسائر الانحاء الى عشرين دولة. وسيطرت مصر على الجامعة العربية سنين عدة، لكنها كانت دائما مظهر خلافات العرب ومنافساتهم أكثر من

تضامنهم باستثناء قضية فلسطين وبعض القضايا الدولية الخارجية.

كان توحيد ألمانية وإيطالية في القرن التاسع عشر المثال الذي اتخذه مفكرو العرب في العراق وسورية في الثلاثينات من القرن العشرين لتوحيد أقطارهم. لكن توحيد كلٍّ من القطرين الاوربيين تم في ظروف تأريخية دولية وعسكرية خاصة، فاستطاعت بروسية بعد حربها مع فرنسة سنة ١٨٧٠ أن تحقق الوحدة الالمانية بزعامتها. أما إيطالية فان تجانس سكانها وتفكك دويلاتها ومساعدة الامبراطورية الفرنسية بصورة خاصة قد حقق لها الوحدة في ظل ملك سردينية فكتور عمانوئيل الثاني.

ويمكن القول إن البلاد العربية التي تمتد من المحيط الى الخليج لا تملك التجانس السكاني الذي حظيت به ألمانية وإيطالية، وليس فيها أي قطر يسيطر على سائر الاقطار سيطرة بروسية على ألمانية. فمصر والعراق كانا يتنازعان الزعامة في بادىء الامر، لكن توسع المملكة العربية السعودية واستقلال دويلات الخليج وحرص كل منها على استقلالها وثروتها الباذخة كل ذلك وقف حائلا دون الرغبة في الاتحاد فيما بينها أو مع سواها. وفي شمالي إفريقية حاولت ليبية الاتحاد مع مصر آنا ومع تونس والمغرب احيانا ولكن دون جدوى. وقبل ذلك حاولت مصر ضمَّ السودان، ولكن هذا القطر حين ظفر باستقلاله آثر أن ينزل الى الميدان الدولي كامل السيادة لا تابعا لجارته الشمالية. وحاول العراق ضمَّ سورية اليه فانكمشت عنه، ثم انضمت الى الرئيس المصري جمال عبد الناصر لتأليف الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨، فلم تلبث أن أشفقت من السيطرة المصرية وفصمت عرى الوحدة بعد ثلاث سنوات. وحاول العراق في أوقات مختلفة «استرجاع» الكويت التي انفصلت عن ولاية البصرة سنة ١٨٩٧ فكان ذلك من أسباب الفواجع التي حلّت بالملك غازي ونوري السعيد وعبد الكريم قاسم. وأنشأ نوري السعيد الاتحاد الهاشمي الذي ضم العراق والمملكة الاردنية فلم يقدّر له البقاء سوى بضعة أشهر لتقضي عليه ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .

حالف التوفيق عبد العزيز آل سعود فاستطاع خلال ربع قرن أن يستولي على الحجاز وسائر أقطار الجزيرة العربية عدا اليمن وأن يشكل المملكة العربية السعودية. أما اليمنان الشمالي والجنوبي فلم يهيّأ لهما الاتحاد أو الوحدة وبقيا منفصلين ينظر أحدهما الى الغرب ويميل الآخر الى الشرق السوفييتي، ثم هيّىء لهما الاتحاد سنة ١٩٩٠ .

إن الاقطار العربية تجمعها اللغة العربية الفصحى الواحدة وتوحدها راية الاسلام، لكن درجة ثقافتها وحياتها الاجتماعية ومشاكلها الداخلية والخارجية تختلف اختلافا بيّنا.

وفي كل منها تعيش أقليات كثيرة تختلف جنسا ولغة ودينا ومذهبا فتقف حائلا دون الائتلاف مع أهالي الاقطار الاخرى. ويحرص كل قطر عربي على استقلاله ويخاف سيطرة قطر آخر عليه لتفوقه في الثروة أو الثقافة أو المدنية.

وفي وسعنا أن نشبه العالم العربي اليوم ودوله المختلفة الممتدة من شمال إفريقية الى حدود إيران بدول أمريكة الوسطى والجنوبية: فهناك ١٨ جمهورية من أصل إيبيري (أسباني وبرتغالي)، وقد امتزجت دماء أهليها بالهنود الحمر والمهاجرين الاوربيين والسود الافريقيين. ومن تلك الجمهوريات ١٦ تتكلم الاسبانية وتنظر الى اسبانية ـ أو كانت تنظر اليها ـ بمثابة وطنها الأم ، واثنتان تتكلمان البرتغالية . إن التقارب العرقي والديني والاجتماعي واللغوي والسياسي بين هاتين الفئتين ـ الاسبانية والبرتغالية الاصل ـ لا يقل عن التقارب المماثل بين الاقطار العربية ، بل يجوز القول إنه يزيد عليها. ومع ذلك لم ترغب تلك الدول أو بعضها ـ وكانت جميعها من قبل مستعمرات اسبانية أو برتغالية - بالاتحاد أو الوحدة ، بل فضلت الاستقلال والسير كل منها في طريقها المرسوم، مكتفية بالتعاون والتعاضد فيما بينها.

ولذلك فحلم الوحدة أو الاتحاد بعيد المنال إن لم يكن مستحيلا. على أن هناك مجالات مختلفة للتعاون بين البلدان العربية لا تقتصر على الميدان السياسي في هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية والهيئات الدولية المختلفة. فمصر تصدر من أبنائها آلاف الأساتذة والخبراء والفنيين والعلماء ومئات الآلاف من العمال الى أخوتها اللواتي فاقتهن في العلم والثقافة وتكاثر النفوس. وهكذا شأن بقية الاقطار التي تتعاون فيما بينها في المجالات المختلفة على قدر الامكان. أما قضية فلسطين فقد حالت الاقطار العربية التي التزمت الامر دون حصول الفلسطينيين على حل مشرّف معقول، فاستبقتهم في الخيام والخصاص يعانون شظف العيش وتحرم أجيالهم المتعاقبة أبسط وسائل الحياة، مستفيدة من كارثتهم للمزايدة على العروبة واستثار الفئات الثورية بالحكم والسيطرة على الشعوب العربية وكمِّ أفواهها والتسلط على مقدراتها وتبديد ثرواتها ومرافقها.

إن مستقبل الامة العربية يقوم على استقرار الامور في بلادها المترامية الاطراف وقيام حكومات ثابتة ترعى مصالح الاهلين وتستعين بالثروات والخيرات الوطنية لانشاء المشاريع المفيدة وترقية الصناعة والزراعة وتوفير المواد الغذائية والاستهلاكية وتنمية الثروة القومية ورفع مستوى معيشة جميع الطبقات. ولا بد من إنهاء الحروب الخارجية والفتن الداخلية، وفي مقدمتها حرب العراق وإيران، ومنح الاقليات في مختلف الربوع

حقوقهم وأمانيهم المشروعة.

لقد أصبح العالم بسبب المواصلات الحديثة والاختراعات الباذخة وحدة شاملة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. فلا بد للعرب من التفاهم والتعاون فيما بينهم والتعاضد مع الاقطار الخارجية تحقيقا لمصالحهم وبلوغا لمقامهم السامي في الهيئة الدولية. وذلك مستقبل الشعب العربي في قاصي أقطاره ودانيها ومستقبل الامم العالمية عموما في فجر القرن الحادي والعشرين.

الثورة المصرية ١٩١٩

والثورة العراقية ١٩٢٠

إنتشرت حركات التحرر والاستقلال في أنحاء العالم في أعقاب الحرب العظمى ، فقامت الثورة المصرية على الحماية البريطانية ، ولم تمض سنة واحدة أو بعض السنة حتى نشبت الثورة في العراق للانطلاق من قيود المحتل الانكليزي. هل هناك وجه للمقارنة بين الثورتين ؟

بدأت النهضة المصرية منذ أكثر من مائة سنة . جاء الى مصر الجنرال نابليون بونابارت سنة ١٧٩٨ فنبش تراب الانحطاط والتأخر وزعزع حكم الدولة العثمانية في الآستانة وأتباعها المماليك الطغاة الذين تنافسوا على الحكم ولم يرعوا في أبناء مصر وفلاحيها إلاّ ولا ذمة. ثم استتب الامر للوالي الالباني محمد علي باشا فثبّت أركان حكمه في شبه استقلال واقعي عن أسياده الاتراك وقضى على المماليك وبعث في القطر المصري ، وهو الغريب شبه الامي، نهضة عسكرية ومدنية. أرسل البعثات التعليمية الى أوربة وأنشأ المدارس وأحيا التجارة والاعمال. ومهما كان حكمه جائرا وصلته بالشعب متعالية فانه حقق، خلال ولايته التي دامت أكثر من أربعين سنة ،نهضة مصرية لا تنكر وترك القطر مزدهرا قويا متقدما على غير ما كان عليه في مطلع القرن . وكان خلفاؤه مترددين بين الاصلاح والجمود ، فكان حفيده إسماعيل الذي أراد لمصر أن تكون قطعة من أوربة ، فاستدان المبالغ الطائلة وبذخ واسرف تحقيقا لمشاريعه الضخمة، ومكن بذلك لتدخل الدول الدائنة ومهد للاحتلال الانكليزي الفعلي . وكانت الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ فاخفقت وعززت السلطةالانكليزية المتمثلة في شخص إفلين بارنج (لورد كرومر) المندوب البريطاني الذي حكم مصر ربع قرن .

شجع اللورد كرومر رجال السياسة المعتدلين الذين تناوبوا على الحكم خلال العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين ، والذين سمّوا ظلما أذناب الاستعمار، على العمل بهدوء لنهضة بلادهم في ظل الظروف المحلية

والدولية السائدة آنذاك . وكانت النهضة الادبية في تلك الفترة رائعة والتقدم العلمي والثقافي حسنا لا مثيل له حتى في تركية المالكة إسميا لوادي النيل . لم يكن حكم اللورد كرومر سيئا كله ، فإنه وزملاءه من كبار الموظفين الانكليز ، مع مراعاتهم للمصالح البريطانية وكبتهم للشعور الوطني المتنامي، لم يقصّروا في مساعدة النهضة المصرية وتأييد الوزراء المصريين في حسن التصرف بالثروة لانشاء مشاريع الري ودعم الزراعة وتشجيع الصناعة الناشئة.

وكان في مصر في عهد الاحتلال البريطاني صحافة حرة تنطق بلسان المعارضة وتنتقد الحكومة الوطنية والمحتلة وترد على الصحف التي تؤيد الحكم القائم وتدافع عنه. وقد هاجر الى القطر المصري فريق كبير من أحرار سورية ولبنان وسائر البلاد العربية فهيئت لهم حرية القول والعمل والكتابة خلافا لما كانت عليه حالة الاضطهاد والكبت في الولايات التركية الخاضعة للاستبداد الحميدي. وكان الحزب الوطني برئاسة مصطفى كامل باشا يجاهر بمعارضة حكم الاحتلال ويدعو الى الحرية والاستقلال في داخل البلاد وخارجها. وجدير بالقول إنه كان في مصر هيئة نيابية استشارية تعرف بمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية تناقش شؤون السياسة والتشريع . ومع أن هذه الهيئة كانت محدودة السلطة، لكنها استطاعت أن توقف تمديد امتياز قناة السويس، ذلك التمديد الذي اعتبر مجحفا بحقوق مصر الوطنية ، سنة ١٩١٠ . ثم استعيض عن المجلس بالجمعية التشريعية التي افتتحت سنة ١٩١٤ ولم تلبث أن عطلت جلساتها عند نشوب الحرب العالمية وفرض الحماية البريطانية على القطر المصري .

إستطاعت القوات البريطانية المحتلة أن تسيطر على الامور بنفي الزعماء المطالبين بالاستقلال وتطبيق الاحكام العرفية بصرامة. ولما لم تسفر المفاوضات الرسمية في مصر ولندن عن نتيجة أعلنت بريطانية تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد، فرفعت الحماية واعترفت بمصر دولة مستقلة ذات سيادة. ومهدت للحكم البرلماني الذي بلغ أوجه في اوائل سنة ١٩٢٤ بحصول الوفد على الاكثرية النيابية وتولي زعيم النهضة سعد زغلول باشا رئاسة الوزراء على رأس حكومة وفدية مؤتلفة. واضطرت مصر بعد ذلك إلى الانتظار ١٣ سنة للانتماء الى عصبة الامم (أي خمس سنوات بعد العراق) وإلغاء الامتيازات الاجنبية بموجب اتفاقية مونترو المعقودة في شهر أيار ١٩٣٧ .

إن ثورة ١٩١٩ المصرية وثورة ١٩٢٠ العراقية تختلفان اختلافا كبيرا لسببين: أولهما طبيعة الشعب المصري الهادئة وثانيهما بنية الشعب المصري المدنية الوثيقة

المختلفة عن بنية الشعب العراقي المتعدد الطوائف والمذاهب والاجناس والطبقات الاجتماعية.

حدثني الشيخ محمد رضا الشبيبي في عودته من زيارة له إلى مصر لحضور اجتماعات مجمع اللغة العربية الذي كان ينعقد برئاسة الدكتور طه حسين، قال : إن طه حسين قال له بعد إحدى الجلسات إنه قرأ تأريخ العراق منذ العهد السابق للفتح الاسلامي حتى الوقت الحاضر فوجده بلدا ثائرا هائجا لا يكاد يخضع لحكم حاكم ولا ينصاع لقوة قاهرة. فقال الشبيبي: وأنا، أيها الدكتور، قد طالعت تأريخ مصر منذ أقدم عهودها حتى الآن فوجدتها بلدا خانعا مستنيما لكل تسلط لم يأنف أن يخضع حتى لحكم شجرة الدرّ! وقد اغتاظ طه حسين لجواب الشيخ، لكن أعضاء المجمع الحاضرين هدأوا من حدته وقالوا إن الشبيبي أعطاك الجواب اللائق بسؤالك .

إن هذه المحاورة بين الاديبين المفكرين تدلنا على الاختلاف الشاسع بين طبيعة الشعبين المصري والعراقي. فالشعب المصري مؤلف من أكثرية مسلمة سنية وأقلية قبطية أصيلة ومن طبقة مدنية وأخرى فلاحية منصرفة الى العمل المرهق. أما القبائل البدوية في الصحراء الغربية وسيناء فلا أهمية لها بتاتا. ولذلك كانت طبيعة الشعب المصري هادئة مستقرة تكاد تخلو من الكفاح الاجتماعي والطائفي وتاركة في الغالب شؤون السياسة الى رجال الحكم من الطبقة المثقفة. وقد رسخت في وادي النيل أركان الحكم خلال مائة سنة أو يزيد في ظل حكومات متتابعة فردية أو شبه برلمانية، وطنية أو منتمية الى السادة الاتراك أو الانكليز .

أما العراق فكان خاضعا خلال قرون طويلة للحكم الاجنبي أو التركي وللمدّ الريفي والعشائري الذي كان يغزو المدن سنة بعد سنة، لا سيما بعد الاوبئة المتتالية التي استمرت الى مطلع القرن العشرين وقضت على نسبة كبيرة من سكان المدن والقصبات، فحل محلهم أبناء الريف والقبائل البدوية التي بقي بعض أبنائها رحالين غير مستقرين في أراضيهم الى عهد متأخر. ثم إن الشعب العراقي لم يكن متلاحما مستقر التركيب على اختلاف أديانه ومذاهبه وطوائفه وأجناسه وطبقته الحاكمة والمثقفة الصغيرة إزاء طبقاته الجاهلة في المدن والارياف. ولم تشهد مصر في الغالب حروبا وانتفاضات وتمردات عشائرية وحركات تأديبية كما شهد العراق الى العهد التركي الاخير. ولا بد من الاشارة أخيرا الى شكل العراق الطبيعي المؤلف من السهول والجبال والهضبات والصحارى بعكس القطر المصري الذي يتجمع سكانه في رقعة صغيرة نسبيا على شواطىء النيل،

ولم يشهد موجات بشرية مختلفة العناصر تأتي لتقطن في أراضيه ولتؤلف مع سكانه الاصليين وحدة متنافرة متزاحمة.

تلك الاسباب جعلت الثورتين المصرية والعراقية في نهاية الحرب العالمية الاولى مختلفتين في جوهرهما كل الاختلاف، وكان لها الاثر الواضح في رسم تقدم البلدين نحو الاستقلال والسيادة الوطنية في العقود التالية.

مصر والسودان

أحمد عرابي باشا

زعيم الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ أمير اللواء أحمد عرابي باشا ينتمي إلى أسرة شريفة حسينية النسب من قبيلة المحامدة، وهو أحمد بن محمد عرابي بن محمد وافي بن محمد غنيم، ولد في قرية هربة رزنة المجاورة لبندر الزقازيق في مديرية الشرقية في أول أبريل ١٨٤١ ، وكان أبوه شيخ البلد أزهري الدراسة. درس الصبي أحمد في قريته وحفظ القرآن، ثم أرسله أبوه الى القاهرة سنة ١٨٥٣ فانتمى الى الازهر ولبث فيه سنتين تلقى خلالهما شيئا قليلا من الفقه والنحو ، ثم عاد الى قريته .

تولى محمد علي باشا ولاية مصر سنة ١٨٠٥ وحكمها نحوا من ٤٣ سنة واستعان على الغالب بالضباط والموظفين من الاتراك والشراكسة والاقوام الاخرى دون أبناء الشعب المصري. وسار خلفاؤه إبراهيم باشا وعباس باشا على منواله ،حتى إذا انتقل الحكم سنة ١٨٥٤ الى محمد سعيد باشا الذي اعتبر نفسه مصريا أصيلا وأخذ يبث الروح الوطنية في جنده ، أمر بدخول أبناء المشايخ وأقاربهم الى الجندية. وأتيح لفتانا أن ينتمي الى الجيش في ديسمبر ١٨٥٤ وانتظم في سلك الاورطة السعيدية بقناطر فم البحر. ونظرا الى إجادته القراءة والكتابة رفع مرة بعد أخرى حتى منح رتبة ملازم ثان في أغسطس ١٨٥٨ ، ثم رقي إلى ملازم أول بعد سبعة أشهر إثر إمتحان قدمه أمام لجنة برئاسة القائد سليمان باشا الفرنساوي وبحضور الوالي محمد سعيد نفسه. ولم يمض شهران حتى رفع الى رتبة يوزباشي (نقيب) والحق بحاشية الوالي.

ارتقى في السلك العسكري بعد ذلك بسرعة، فأصبح صاغا (رائداً) في سبتمبر ١٨٥٩ وبكباشي (مقدما) في يونية ١٨٦٠ وقائمقام (عقيداً) في سبتمبر ١٨٦٠ . وسافر في تلك السنة الى المدينة المنورة في حاشية محمد سعيد باشا، ولكنه أحيل على الاستيداع في السنة التالية لتقليصات أجريت في الجيش بالنظر الى الدَّيْنِ الكبير الذي ركب الخزينة.

عاد عرابي الى قريته، لكنه لم يلبث أن أعيد الى الجيش في سنة ١٨٦٢ ، قبيل وفاة الوالي ، وبقي في رتبته ١٩ عاماً دون ترقية بعد أن ولي الاحكام إسماعيل باشا الذي حصل بعد سنوات قليلة على لقب خديوي، أي أمير، من السلطنة العثمانية. وقد ظهر التحيز واضحا للضباط من الشراكسة والاتراك في حين حرم المصريون من الترقية. قال عرابي في سيرته الذاتية إنه تحمل مدة ولاية إسماعيل بكل صبر وثبات جأش الظلم والاستبداد إذ مكث كل تلك الاعوام الطويلة برتبة القائمقام، بينما كان يرى صغار الضباط الذين كانوا تحت إمرته يرتقون سلم الرتب العليا ويحظون بالأنعام والاقطاعات السنيّة. ولم يَكْفِه ذلك بل تحمل من رؤسائه الشراكسة وشايات مغرضة ووصف بالعناد وعدم الطاعة لحبه العدل والانصاف. وأخيرا أقصي من الخدمة وحرم من المائة فدان التي أمر الخديوي بمنحها له.

أعيد الى الخدمة في يناير ١٨٦٧ وعهدت اليه أعمال مدنية مختلفة، منها محافظة بحر مويس في أثناء الفيضان وتسهيل بناء قناطر قصر النيل وقطع الاحجار وشحنها بالمراكب الى تلك القناطر، ثم انتدب لاعمال تتعلق ببناء الجسور في بني سويف والجيزة والفيوم وتحديث السكة الحديدية في المنيا. وأعيد الى الخدمة العسكرية مرة أخرى بالرتبة السابقة نفسها في أوائل سنة ١٨٧٠متنقلاً بين آليات المشاة. وعهد اليه سنة ١٨٧٥ تدريب الجنود المحافظين للقلاع الحجازية ليحلوا محل الجنود النظاميين المصريين ، فقام بمهمته في قلعة نخل والعقبة والمويلح والوجه. وأرسل بعد عودته الى مصر مأمورًا للحملة الحبشية في مصوّع، تلك الحملة التي دعاها «المشؤومة»، فلما عاد منها رجع على رأس الآلاية في رشيد، ثم دعي في أوائل سنة ١٨٧٩ الى الحضور مع سائر الآلايات الى القاهرة.

وفي تلك السنة خلع الخديوي إسماعيل وحل محله ابنه محمد توفيق، وكان ميّالا الى الوطنيين المصريين، فرفع عرابي الى رتبة أمير آلاي (عميد) وعينه مرافقا له وآمرا لآلاي (فوج) المشاة الرابع ومركزه القاهرة، وظل يشغل منصبه حتى نشوب الثورة.

وفي سبتمبر ١٨٧٩ألف النظارة مصطفى رياض باشا وعهد بوزارة الحربية والبحرية الى عثمان باشا رفقي، وكان شركسيا متعصبا على العرب، فمنع ترقية الضباط المصريين.

أخذ هؤلاء بالتذمر وعهدوا الى عرابي أن يعرض ظلامتهم على رئيس النظار، ومعه علي فهمي بك أمير آلاي الحرس وعبد العال حلمي بك أمير آلاي السودان. لكن

رياض باشا استخف بالامر وقرر إحالة المشتكين إلى مجلس عسكري. وجردوا من السلاح واعتقلوا، لكن جنودهم أخرجوهم من السجن بالقوة وساروا بهم الى قصر عابدين حيث طلبوا من الخديو عزل وزير الحربية، فلم يكن من توفيق باشا إلا أن أجاب سؤالهم فعزل رفقي باشا واسند منصبه الى محمود سامي باشا البارودي الذي اشتهر بعدئذٍ كشاعر في طليعة شعراء النهضة الادبية (فبراير ١٨٨١).

إشتدت الريبة في نفوس الضباط المصريين وحقدوا على الخديو ورئيس نظارته، لكن البارودي كان ميالا اليهم يرعاهم بعنايته. وأصدر الخديوي بناء على اقتراحه أمرا عاليا بزيادة رواتب الضباط وتعديل الانظمة العسكرية، فاحتفل بتلك المناسبة في قصر النيل وخطب رياض والبارودي وأحمد عرابي نفسه وأثنوا على المكارم الخديوية.

وحدث حادث آخر بعد ستة أشهر أدى الى تجمهر الجنود على سراي رأس التين في الاسكندرية، فعزل البارودي في شهر أغسطس من وزارة الحربية وعين محله داود باشا يكن من أصهار الاسرة العلوية. وأرسل عرابي كتابا الى الخديو والى وزارة الحربية يخبرهم بأن الجيش سيحضر الى سراي عابدين لابداء اقتراحات تتعلق بصلاح البلاد، وكتب بذلك في الوقت نفسه الى قناصل الدول مبينا أن لا خوف من هذه الحركات على أبناء بلادهم. ونصحهم الخديو بالكف عن اجراءاتهم، لكنهم لم يرتدعوا.

سار عرابي بجنوده الى القصر الخديوي وعرض مطالبه، منها إسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نيابي وزيادة عدد الجيش وعزل شيخ الاسلام. واستقال رياض على أثر ذلك فألفت نظارة جديدة برئاسة محمد شريف باشا (سبتمبر ١٨٨١) وأعيد محمود سامي ناظرا للحربية والبحرية. ومنح عرابي رتبة اللواء وعين وكيلا لنظارة الحربية. وقام شريف باشا بتلبية طلبات الجيش، وصدر الامر العالي باعتماد لائحة مجلس شورى النواب، واجتمع المجلس في ٢٣ سبتمبر ١٨٨١ . سارت الامور سيرا حسنا وارتفعت سمعة عرابي باشا، ثم طلب مجلس النواب استقالة النظارة وتأليف نظارة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي، فتم ذلك في فبراير ١٨٨٢ وأصبح عرابي ناظرا للحربية .

في ١١ يونية ١٨٨٢ حدث نزاع في الاسكندرية بين حمّار ورجل مالطي فهاجت الخواطر وتفاقمت الامور. وفي ٩ يوليه أبلغ الخديوي بأن الاميرال سيمور سيباشر القتال بعد يومين. ولم يحل يوم ١١ يوليه حتى أطلق الاسطول الانكليزي مدافعه على حصون الاسكندرية فدكّها وأشتعلت النار في أحياء المدينة وعمت الفوضى بين أهليها وقضى نحو ألفين منهم نحبهم من رجال ونساء وأطفال. وعبرت القوات الانكليزية قناة

السويس والتحمت مع القوات العرابية في القصّاصين والتل الكبير. وكان النصر حليف الانكليز، فزحفوا الى القاهرة واحتلوها في ١٥ سبتمبر. وسلم عرابي وزملاؤه أنفسهم، فحكمت عليهم محكمة عسكرية انكليزية بالاعدام، وهم عرابي ومحمود سامي البارودي ومحمود فهمي ويعقوب سامي وعبد العال حلمي وعلي فهمي الديب وطلبة عصمت. ثم خفف الحكم الى النفي المؤبد مع مصادرة أملاك المحكومين وتجريدهم من رتبهم وألقابهم. ونفوا جميعا الى جزيرة سيلان في ٩ يناير ١٨٨٣ . ومكث عرابي في منفاه الى سنة ١٩٠١ إذ أصدر الخديو عباس حلمي الثاني عفوا عنه، فعاد الى القاهرة في الاول من أكتوبر ١٩٠١ .

كتب أحمد عرابي بعد ذلك سيرته وعاش في عزلة حتى وافته المنية في القاهرة في ٢١ سبتمبر ١٩١١ .

كانت الثورة العرابية التي أدت الى احتلال بريطانية لمصر مرحلة خطيرة من مراحل التاريخ المصري، وأصبح زعيمها بطلا من أبطال الوطنية والجهاد بالرغم من النتيجة السيئة التي أدت اليها. وقد مجد عرابي تمجيدا عظيما في تأريخ البلاد، لكن المحامي المصري إبراهيم طلعت أخذ على عرابي عدم وضعه خطة حربية متكاملة لمقاومة الجيش البريطاني المحتل وتراجعه الى الشرقية لملاقاة الغزاة وفراره الى القاهرة بالقطار تاركا جيشه يلقى مصيره التعس. وقال إن عرابي لو قاوم الجيش الانكليزي وإستشهد في القتال، أو لو انه قبض عليه ووقف رافع الرأس في أثناء المحاكمة يؤكد حق بلاده ويدافع عنها، لكان شهيدا الى الابد ولظل في نظر الاجيال المتعاقبة رمزا للبطولة والحرية والكفاح...

لكننا نرى أن إبراهيم طلعت يشتط في الحكم على عرابي وينسى أن سنة ١٨٨٢ لم يكن ممكنا أن تكون كسنة ١٩٥٢ أو ١٩٥٦ في أحداثها المحلية والدولية.

وقد كتب عرابي الى لورد دوفرين السفير البريطاني في الآستانة الذي أوفد في أكتوبر ١٨٨٢ الى مصر لمعالجة أمورها يعرض عليه منهجه الاصلاحي الذي يتضمن تقييد سلطة الحاكم وانتخاب مجلس نيابي يقر اللوائح والقوانين وتحقيق المساواة بين أبناء القطر من وطنيين وأجانب وتحسين أحوال أبناء الشعب والزرّاع وإبطال السخرة والضرائب المتعسفة وتوحيد القوانين القضائية وإلغاء المحاكم المختلطة وتحرير قناة السويس بكفالة الدول الموقعة على معاهدة برلين ونشر التعليم وجعله إلزاميا الخ. وقد كتب عرابي هذا البرنامج القومي وهو في السجن تنتظره أعواد المشانق .

محمود سامي البارودي

جدير بالقول إن محمود سامي البارودي (١٨٣٩ - ١٩٠٤) الذي ساند الثورة العرابية ونفي الى جزيرة سيلان في جملة زعمائها كان في منفاه لسان رجال الثورة الناطق في حنينه الى وطنه وصبره على الشدائد ودفاعه عن نفسه، فقال :

لم أقترف زلة تقضي عليّ بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحَرَبُ ؟
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أُدان به ظلماً وأغترب ؟
فلا يظنّ بي الحساد مندمة ... فإنني صابر في الله محتسب
لا يخفض البؤس نفساً وهي عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب . .

وقال :

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت ... عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن ذل خوف الموت كانت حياته ... أضر عليه من حِمام يؤدّه
وأقتل داء رؤية العين ظالماً ... يسيء ويتلى في المحافل حمده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش ... بها بطلاً يحمي الحقيقة شدُّهُ

وشعر البارودي في الشوق الى مصر وأهله فيها رائع، له في النفوس صدى يشجي ويؤسي ويهز. وقد قال من قصيدة له يصف سوء الحكم وظلم الحكام في عهد إسماعيل ويناشد قومه المطالبة بحقوقهم :

قامت به من رجال السوء طائفة ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
ذلّت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعد الملك حتى ظل في خلل
فبادروا الامر قبل الغوث وانتزعوا ... شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً ... لكل مستنزع سهماً ومختتل . .

لم يكن البارودي أسبق شعراء النهضة الحديثة في شعره الاصيل ونفسه الطويل وديباجته العباسية الناصعة فحسب ، بل كان في الوقت نفسه أسبقهم الى الدعوة الى الحرية والشورى ومكافحة الظلم والاستبداد وتحريض الامة على اليقظة والنهوض . وقد قال:

يــا أيــهــا الــظــالــم فــي مــلــكــه أغــرك الــمــلــك الــذي يــنــفــد؟
اصــنــع بــنــا مــا شــئــت مــن قــســوة فــالــلــه عــدل والــتــلاقــي غــدا

وقال:

تنكّرت مصر بعد العرف واضطربت قــواعــد الــمــلــك حــتــى رِيعَ طــائــره
فأهــمــل الارض جرًا الــظــلــم حــارثــهــا واسترجع الــمــال خوف الــعُــدْم تــاجــره
واستحكم الهول حتى مايبيت فتى فــي جَــوْشَــن الــنــيــل إلا وهــو ســاهــره
وَيْــلُــمِّــهِ ســكــنــا لــولا الــدفــيــن بــه مــن الــمــآثــر مــا كــنــا نــجــاوره . . .

ولما خابت الثورة العرابية وهزم جيشها نعى البارودي على الزعماء عرابي وصحبه لجوءهم الى الفرار، فقال :

مضوا غير معذورين، لا النّقع ساطع ولا الــبــيــض فــي أيــدي الــكــمــاة دوالــق
ولــكــن دعــتــهــم نــبــأة فــتــفــرقــوا كما انفض في سرب من الطير باشق
فــكــم آبــق تــلــقــاه مــن غــيــر طــارد وكــم واقــف تــلــقــاه والــعــقــل آبــق . . .

عاد محمود سامي الى مصر سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد البصر في منفاه، فكان إمام أهل الادب وواسطة عقدهم حتى وافاه الحمام بعد سنوات قلائل مخلّفا شعرا يفيض عاطفة إنسانية ويسمو بمعانيه ومبانيه.

قيّم الناقد المصري الدكتور شوقي ضيف أدب محمود سامي البارودي فقال إنه كان يريد أن يرد الى الشعر العربي جزالته ونصاعته ورصانته. إتخذ الشعراء العباسيين ومن سبقوهم نماذج يسير على خطاها، لكن ذلك التقليد في الاسلوب والبيان لم يلغ شخصيته. وقد صور في شعره الحروب التركية ـ الروسية التي شهدها، وصور حياته الخاصة ومُتَعه قبل منفاه وآلامه وهمومه في المنفى .

ثم قال الدكتور ضيف: «أما بعد ذلك فشخصيته في شعره قوية بارزة، شخصية تستكمل حريتها. وليس هذا فحسب، فإنه يستشعر الحرية القومية، فيتحدث عن مطامح أمته السياسية ويأسى لما تتردى فيه من ضعف وخذلان، ويعرض للاحداث الخطيرة التي مرت به، ويقارن بين ماضيها وحاضرها، ويصف أمجادها الغابرة.»

وقال في موضع آخر : «بل لا نبالغ إذا قلنا إنه في شعره السياسي إنما كان يصور نفسه وطموحه لحكم مصر أكثر من تصويره لحرية الشعب التي يريدها المصريون ويحلمون بها .»

نصير إنكليزي لعرابي
والحركة الوطنية المصرية

وجد عرابي والحركة الوطنية المصرية نصيرا إنكليزيا في شخص الشاعر الكاتب ذي الاطوار الغريبة Wilfrid Scawen Bluent ولفريد سكاون بلنت، كما وجد مصطفى كامل بعد ذلك نصيرة فرنسية هي الكاتبة جولييت آدم (١٨٣٦ - ١٩٣٦). ولد بلنت في ٢٧ آب (أغسطس) سنة ١٨٤٠، وكانت له صلة عائلية واجتماعية وثيقة بالطبقة الراقية الحاكمة في إنكلترة. إنتمى الى السلك الدبلوماسي سنة ١٨٥٨وخدم في ممثليات بلاده في أثينة ومدريد وباريس ولشبونة وجنوب أميركة، ثم اعتزل الخدمة وأنشأ إصطبلات لتربية الخيول العربية، وكان ذلك سبب اتصاله الطويل بالشرق وبلاد العرب وتعلمه اللغة العربية.

قام بأول رحلة له الى القاهرة سنة ١٨٧٦ ومر بسيناء وزار القدس. وتواصلت رحلاته بعد ذلك الى شمال أفريقية والاناضول وبلاد العرب، واشتد تعاطفه وتأييده للاسلام، فألف كتابه «مستقبل الاسلام» سنة ١٨٨٨ وعارض السياسة البريطانية في مصر والسودان.

وذهب الى مصر، فحضر دروس الازهر وصادق جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده، واستهوته فكرة الخلافة العربية وتحرير العرب من عبودية الاتراك. وكان في القاهرة حين بدأت الثورة، فقابل عرابي، وكان مع بلنت المعلم لويس صابونجي (١٨٣٨ - ١٩٣١)، فلاحظ أنه ابن فلاحين، نموذجي، طويل القامة، ضخم الجثة، بليغ الكلام ولكن متردد في أفعاله. وحاول التوسط بين الزعيم المصري والسر أوكلاند كولفن المراقب المالي البريطاني فجمعهما معاً. ووافق عرابي على خطط كولفن لانشاء مجلس تشريعي وجيش لا يزيد عدد منتسبيه على ١٥ ألف رجل لاسباب مالية. غير أن مساعي بلنت أفضت الى رد فعل شديد ضد عرابي في المحافل السياسية الانكليزية. وأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية في أوائل يناير ١٨٨٢ بلاغا مشتركا في تأييد

الخديو توفيق وشجب مطالب العرابيين.

زار بلنت عرابي ثانية في نظارة الجهادية التي كان وكيلا لها وحثه على قبول البلاغ، لكن أصوات الوطنيين ارتفعت في الاحتجاج، وقد شملت الجيش والعلماء والوجهاء والفلاحين في دعوة مشتركة لتحدي دائني مصر الذين احتجزوا نصف إيراد الميزانية لاسترداد قروضهم. واستمر بلنت في تأييد الوطنيين، وحضر اجتماعاً لهم في ١٣ فبراير بالقاهرة تكلم فيه الشيخ محمد عبده عن الحرية وأنشد الشعراء قصائدهم. وقال بلنت: «هل هناك أمة أخرى نالت حريتها بالحجة وليس بالسيف ؟ »

وفي أواخر الشهر نفسه عاد بلنت الى لندن لمواصلة دعايته للمصريين بعد أن نصح عرابي بوجوب الاستعداد للدفاع عن الحرية بالسلاح، قائلا إن رجال المال الاجانب يهددون مصر وليس السياسيين. واتصل بلنت باصدقائه ورجال الحكومة والسياسة والصحافة داعيا الى رفع الايدي عن مصر، لكن السر هنري راولنسن، رئيس الجمعية الآسيوية وعالم الآثار الشهير دارس الخطوط المسمارية البابلية، قال له: «ان المصريين كسائر الشعوب الشرقية خلقوا للخضوع للحكم الاستبدادي وسيكونون دائما عبيدا.»

ولعل الشخص الوحيد الذي حاول تفهم وضع المصريين كان الجنرال السر غارنيت ولسلي المندوب السامي السابق في قبرص والذي اشتهر في جنوب أفريقية. فقد وجه الاسئلة الكثيرة الى بلنت عن مصر والصحراء الشرقية بين الدلتا وقناة السويس، واقتنع بلنت أنه إذا حاول البريطانيون إنزال عسكرهم في مصر فإنهم ينزلونهم في تلك الناحية، وثبت رأيه صحيحا بعد ذلك. وقد أعلم عرابي فورا بالامر، لكن القائد المصري لم يستفد من الاعلام المسبّق.

قابل بلنت رئيس الوزراء غلادستون الذي وعده بالوقوف الى جانب الوطنيين المصريين وقال له إنه فاز في الانتخاب بدفاعه عن حرية الشعوب الصغيرة وسبق له أن كتب في إحدى المجلات مستنكرا الاعتداء على مصر. خرج بلنت من هذه المقابلة لايملك نفسه من الفرح، وبادر بالكتابة الى أصدقائه في مصر: «إذا كان غلادستون الى جانبنا فما الذي نخشاه؟» ولقي بلنت إدوارد أمير ويلز ولي عهد إنكلترة وشقيقته الاميرة لويز فحدثهما عن مصر وتطلعها الى الحرية، فلم يلق منهما اذنا صاغية، بل اهتم الامير في حديثه بالخيل العربية!

ثم جاءت الاخبار الى لندن في أبريل ١٨٨٢ أن الضباط الجراكسة يتآمرون على اغتيال عرابي، فلم تكن مدعاة لعدم الرضا، بل اتخذوها دليلا آخر على أن الحركة

الوطنية في مصر إنما كانت نزاعا بين جماعتين مضادّتين في الجيش. أما بلنت وأصدقاؤه فكان سرورهم عظيما حين علموا أن جنود عرابي نبّهوه الى المؤامرة فبادر الى اعتقال الفريق عثمان رفقي باشا ناظر الجهادية (الحربية) السابق وخصم عرابي اللدود مع خمسين ضابطا من المتآمرين. وقيل إن إسماعيل باشا الخديوي السابق كان وراء المؤآمرة الجركسية، ولو صح ذلك لكان المعنى أن الخديوي توفيق نفسه يعارض وزراءه ورئيسهم محمود سامي البارودي .

وتطورت الاحداث في مصر، فرفض الخديوي الموافقة على نفي الضباط الجراكسة بعد أن أكد له السر أدوارد ماليت القنصل العام البريطاني أن حكومته تسنده في معارضة الوطنيين. وفي الوقت نفسه قررت الحكومتان البريطانية والفرنسية إرسال سفنهما الحربية الى الاسكندرية. وأبرق بلنت الى عرابي: «لا تعمل بتهور». وقام بمحاولات للوساطة بين الخديوي ومجلس النواب المصري، فقابل اللورد روزبري، السياسي الشهير (الذي خلف غلادستون بعد سنوات عديدة في رئاسة الوزراء)، وسأله عما يراه بشأن القضية المصرية، فاجاب اللورد: «لا رأي لي سوى رأي حملة أسهم الدين.»

منيت مساعي بلنت بالخيبة إذ مضت الحكومة البريطانية في سياستها المقررة لتأييد الخديوي ضد عرابي والوطنيين، لا سيما أن محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب قد ترك صفوف الحركة الوطنية وإنحاز الى الخديو. وأرسل بلنت ثماني برقيات الي عرابي والوزراء يحثهم على التآزر والثبات في موقفهم، وأبرق الى سلطان باشا: «لا تخاصم عرابي فالخطر عظيم.» وأبرق الى ستة من النواب: «إذا انفصلتم عن الجيش فأوربة سوف تضم بلدكم.» وأتاه الجواب من رئيس مجلس النواب فورا يقول إن الخلاف بين الخديوي ووزرائه قد زال تماما. ووردته برقيات أخرى بالمعنى نفسه وإحداها من شيخ الجامع الازهر، ولكن سرعان ما أنكر سلطان باشا وشيخ الازهر برقيتيهما .

كتب بلنت رسالة مفتوحة الى غلادستون في جريدة «التايمس» يدافع عن القضية المصرية، لكن الصحف هاجمته ووصمته بأنه وكيل عرابي. ومنحت الحكومة البريطانية قنصلها العام في القاهرة حرية العمل كما يشاء، فأرسل بالاشتراك مع زميله الفرنسي، إنذارا في ٢٥ مايو الى الوطنيين بلزوم ذهاب عرابي الى منفى اختياري وإعادة الامن والنظام تحت سلطة الخديوي.

عاد بلنت من داره الريفية الى لندن عازما على دعوة الوطنيين المصريين الى نبذ

خلافاتهم، وإنذار الخديوي بعدم الانصياع الى رغبات القنصل البريطاني وزميله الفرنسي، وإسداء النصح الى الجميع بالاحتفاظ بالصلات الحسنة مع سلطان تركية والدول الاوربية الكبرى. وقال إن الحكومة البريطانية مرتبطة، على الرغم من عطفها، باعمال الحكومات السابقة، والفرنسيين متأثرون بمطامع أوساطهم المالية، والالمان ملتزمون بحاجتهم الى تحطيم التحالف الانكليزي ـ الفرنسي، والسلطان متأثر بأحلام الخلافة. وعلم بلنت على أثر ذلك أن القائد البحري مستعد للقبض عليه إذا حاول النزول في الاسكندرية. وخطب غلادستون في أول يونيو في مجلس العموم فحمل على عرابي وقال إنه كشف عن وجهه القناع. وَوُجِّهَ سؤال الى وزير الخارجية في المجلس: هل صحيح أن ولفريد بلنت ذاهب الى مصر ليرأس الثورة ؟ لم يذهب بلنت الى مصر، لكنه أرسل لويس صابونجي على حسابه، فوصل هذا في ٧ يونيو. وفي اليوم نفسه وصل الى مصر المندوب السامي التركي درويش باشا موفدا من جانب السلطان لتهدئة الحال. وفي ١١ يونيو حصل شغب في الاسكندرية وقتل ستون شخصا وجرح مئات، فاتهم عرابي بإحداث ما حدث ودمرت شهرته بالاعتدال في يوم واحد. وقيل إن المحافل المالية في لندن عرضت راتبا قدره ٤٠٠٠ باوند إسترليني سنويا على عرابي إذا وافق على مغادرة القطر المصري. واقترح مراسل جريدة «نيويورك هيرالد» في القاهرة أن يدعى عرابي الى الولايات المتحدة ويعطى ألف باوند سنويا ليكتب عمودا إسبوعيا في الجريدة ويظهر على منصة سركس بارنوم ! واستمرت برقيات صابونجي تترى على بلنت، فترهقه وهو يفكر في مصر في اليقظة والمنام، كما تدل عليه يومياته التي كتبها في ذلك الحين.

واصل بلنت دفاعه عن مصر في المراجعات والرسائل الى جريدة التايمس فلم يلق سوى التهجمات عليه في الصحف والبرلمان. وقال أحد اللوردات: ليس بلنت سوى عرابي آخر في ملابس «فراك الرسمية.» وادّعت إحدى السيدات أن بلنت رجل شرير يجعل مصر خارج حدود السواح. أما اللورد هوتن فقرر أن بلنت وعرابي كليهما يجب أن يرميا بالرصاص. وعقب ذلك إنذار قائد الاسطول البريطاني السر بيشم سيمور الى عرابي بوجوب تسليم حصون الاسكندرية خلال ٢٤ ساعة. فقال بلنت إن المصريين لا يمكنهم تسليم حصونهم بشرف. وفي ١١ يوليو في الساعة ٧ صباحا أطلقت البوارج الحربية البريطانية نيرانها بينما كانت المدافع المصرية متجهة الى الشرق لا تهدد الاسطول. وعلى الاثر استقال من الوزارة الوزير الشيخ المسالم جون برايت احتجاجا

على القصف. وفي مساء اليوم نفسه دكت الحصون وقتل المدفعيون أو جرحوا وتراجعت قوات عرابي الى القاهرة رافعة علما أبيض تاركة الاسكندرية في قبضة الحريق وأيدي الناهبين. وبقي الخديوي في الثغر بحماية البريطانيين .

واصل بلنت جهوده في لندن وقدم الى رئيس الوزراء رسالة أملاها عرابي على لويس صابونجي يشرح فيها موقفه. وقال البرنس أوف ويلز لوزير الخارجية انه سمع إشاعة مآلها «إنَّ اليسوعي الخائن الغريب الاطوار ولفريد بلنت عازم على الانضمام الى عرابي، وقد باع جواهر أسرته وأثاثها بعشرين ألف باوند لتدارك النفقة.»

وفي أواسط شهر أغسطس استعد الجنرال ولسلي على رأس ٣٠٠٠٠ جندي حسن التدريب للهجوم على عرابي في الاسماعيلية بإزاء قناة السويس. فأبرق فرديناند دي لسّبس الى عرابي قائلا: «لا تحاول قطع قناتي ! أنا هناك فلا تخف شيئا من تلك الجهة... أنا مسؤول عن كل شيء.» وفي ١٣ سبتمبر التقى الجيشان في التل الكبير وهزم عرابي خلال أربعين دقيقة. وكانت خسائر المصريين في الارواح ١٠٠٠وخسائر البريطانيين ٨٠ فقط. ووصف بلنت المعركة بأنها أربعون دقيقة من المجد ومجرد مجزرة للفلاحين. وسلم عرابي سيفه الى الجنرال درووري لاو في القاهرة في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ وأصبح أسيرا لدى البريطانيين. وقد كتب الجنرال غوردن، الذي قتل بعد ذلك في السودان الى صديقه بلنت من جنوب أفريقية، قبل أن يعلم بمصير عرابي، قائلا إن عرابي، مهما يكن من أمره شخصيا، سوف يحيا قرونا طويلة في ذهن الشعب، ولن يكون هؤلاء «خدّامكم المطيعين» مرة أخرى . في هذه المرحلة قرر بلنت أن يهيّيء على حسابه الخاص لعرابي وزملائه محاكمة قانونية عادلة لئلا يسلموا الى الخديوي ويحكموا بالموت. اختار المحامي ألكسندر برودلي(*) للدفاع عن المتهمين (وكان من قبل مراسل

(*) الكسندر ميريك برودلي Alexander Meyrik Broadly (١٨٤٧ - ١٩١٦) المحامي والصحفي والمؤلف، درس القانون وأجيز بالمحاماة (١٨٦٩)، ومضى بعد أربع سنوات الى تونس يمارس مهنته. ومثّل أمير تونس (الباي محمد الصادق) في خلافه مع الحكومة الفرنسية (١٨٨٠ - ٨١) وكان مراسل جريدة التايمس اللندنية في تونس (١٨٨١) ومصر (١٨٨٢). تولى الدفاع عن أحمد عرابي وزملائه في ديسمبر ١٨٨٢، وألف في ذلك كتابه «كيف دافعنا عن عرابي» (١٨٨٣). وكان مشاورا قانونيا للخديو إسماعيل بعد اعتزاله الحكم .
وضع عدة كتب أخرى منها تأريخ لتونس الخ.
وقد عرف برودلي في أثناء إقامته بمصر الشيخ محمد عبده فمدحه في كتابه وقال إنه ربما كان أعظم الناس موهبة بين الوطنيين المصريين. وأثنى على اعتداله الديني وحرية أفكاره.

التايمس في تونس ودافع عن الباي ضد الفرنسيين) يساعده مارك نابيير. ولم يذهب بلنت نفسه الى مصر لأن السلطات البريطانية عزمت على اعتقاله هناك وإخراجه من القطر.

بدأت المحاكمة في أواسط سبتمبر، ووجهت الى عرابي ثلاث تهم: العصيان وإساءة إستعمال العلم الابيض عند انسحابه من الاسكندرية وحوادث الشغب فيه. طالت المحاكمة وتعقدت، فأوفدت الحكومة البريطانية لورد دوفرين لحل العقدة. وأخيرا حكم على عرابي ورفاقه بالاعدام، لكن الحكم خفف فورا الى النفي. واستمر بلنت يضايق الحكومة حتى اختارت سيلان (شري لانكا في الوقت الحاضر) محلا للنفي، فقال بلنت: هذا منفى تقليدي، فإن أبانا آدم حين أبعد عن الجنة أخذ الى سيلان. واستمر بلنت خلال السنوات التالية يطالب بالعفو عن عرابي ورفاقه وإنهاء إحتلال مصر .

وفي سنة ١٨٨٣ سافر بلنت إلى باريس واجتمع بألافغاني وغيره من الوطنيين. وقرر أن يضع أمام المسؤولين ثلاث نقاط، وهي تخفيض الديون العمومية وجعل قناة السويس دولية واستقلال السودان. ثم مضى الى القاهرة حيث قابل افلين بارنج (أصبح بعد ذلك لورد كرومر) الذي تولى منصب المعتمد في مصر وكلمه في العفو عن عرابي ورفاقه، فكان الجواب: لا، قطعا. وقال بارنج إنه ينوي إسناد الخديوي بصورة تامة. وسافر بلنت الى الهند وزار كولومبو عاصمة سيلان حيث لقي عرابي الذي شرب نخب الملكة فكتوريا لأنها منحته منفى لطيفا في هذه الجزيرة .

ولما ثار المهدي في السودان أيّد بلنت حركته، وكان تحفظه الوحيد أن المهدي يوافق على تجارة الرقيق وله صلة بتجاره. لكن جمال الدين الافغاني قال: ألا يربح العبيد الافريقيون باستبدال حريتهم - حريتهم أن يأكلوا بعضهم بعضا - بنيل حياة أطيب بين المسلمين ؟

عرف بلنت بعد ذلك مصطفى كامل باشا وقال إنه شاب عجيب حقا. وبدّل رأيه السيىء في لورد كرومر، ولعل ذلك جاء بتأثير الشيخ محمد عبده الذي كان يحترم اللورد، فضلا عن «حماية كرومر للمصريين وتشجيعهم» وخطته القوية لمكافحة الفساد المالي. واحتج بلنت على حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ وإعدام الفلاحين المصريين الابرياء وكتب كراسا بعنوان «فظائع العدالة في مصر تحت الحكم البريطاني» جمع فيه كل الاعتداءات القضائية منذ سنة ١٨٨٢ . وقد تأثر جورج برناردشو تأثرا كبيرا بهذه الكراسة وخصص ١٥ صفحة من مقدمة كتابه «جزيرة جون بُل الاخرى» لـ «فظاعة دنشواي».

أصبح بلنت في شيخوخته نوعا من الانبياء لطالبي الحرية في الهند وغيرها. وأرسل اليه علي فهمي كامل، أخو مصطفى كامل ونائب رئيس الحزب الوطني المصري، من منفاه في باريس بعد حرب ١٩١٤ - ١٨ «ولاءه البنوي». وفي سنة ١٩٢٠ أيّد لجنة ألفت لمنح الاستقلال لمصر، وطلب منه سعد زغلول أن يرأس مقرها في إنكلترة قائلا «إن جميع المصريين ينظرون اليه كأبيهم». وطلب بلنت من لورد بارمور الذي عقد اجتماعا «لتقديم العدالة الامبراطورية الى كل الشعوب» أن يتصل بسعد زغلول «ذلك الرجل الطيب...»

في ٥ سبتمبر ١٩٢٢ قام بلنت بصعوبة من فراش مرضه فكتب الى صديقه ونستون تشرشل وزير المستعمرات يدعوه الى استعمال نفوذه لاطلاق سعد زغلول من منفاه وإعادته الى مصر. وقال: «ستكونون كلكم مجانين في داوننغ ستريت إذا لم تفعلوا ذلك.. أقول لكم ذلك وأنا على فراش الموت... وهذا آخر وداع لي لسياسة هذا العالم.» وأجابه تشرشل ببرقية عطف.

وكانت تلك آخر رسالة لبلنت، فلم تمض خمسة أيام حتى ودع الحياة في ١٠ سبتمبر ١٩٢٢ في الثانية والثمانين من عمره الحافل (تلخيصا عن سيرة ولفريد سكاون بلنت بقلم السيدة اليزابيث لونغفورد

A Pilgrimage of Passion of The Life of Wilfrid Scawen Blunt by Elizabeth Longford (London 1979).

عبد الله نديم

الاديب والشاعر الثائر، خطيب الثورة العرابية، عبد الله نديم، وهو عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الادريسي الحسني، ولد في الاسكندرية سنة ١٨٤٥ . قال شحاته عيسى إبراهيم في كتابه «عظماء الوطنية في مصر في العصر الحديث» إنه «خرج من صفوف الشعب، ولذا أحس باحاسيسه وأدرك ما كان يحيق به من مكاره وما يصب على رأسه من مصائب وما يفتقده من علاج وإصلاح، فنصب نفسه مثقفا له ومعلما ومهذبا يتولاه بالنصح والارشاد، ويحذره مما ينصب له أعداؤه من شراك ومؤامرات، وما يعدّونه له من مقالب ومكائد، بلغة واضحة صريحة. ينزل في ذلك تارة الى مستوى العامة، ويرتفع تارة الى مستوى الخاصة، ولذلك كان حديثه يخرج من القلب ليمس شغاف القلب».

نشأ عبد الله نديم في ثغر الاسكندرية، وكان أبوه نجارا يعمل بدار الصناعة المسماة بالترسانة، وأصله من بعض قرى مديرية الشرقية. ودرس الفتى في بعض الكتاتيب وحفظ القرآن وأظهر ذكاء مفرطا. ثم انتمى الى جامع إبراهيم باشا الذي كانت تسير فيه الدراسة وفق مناهج الجامع الازهر، لكنه لم يلبث أن تركه وعكف على تعلم الاشارات البرقية ووجد وظيفة صغيرة في مكتب التلغراف في القاهرة. وأخذ يحضر مجالس الادب وينمي مواهبه الادبية، ثم انصرف عن العمل وآثر حياة التشرد، وتنقل بين القرى والقصبات عاطلا حينا ومتكسبا حينا آخر بما يتاح له من عمل ضئيل.

وعاد بعد ذلك الى القاهرة وحضر دروس السيد جمال الدين الافغاني وأفاد منه في العلوم الاجتماعية والادبية. وعاد النديم الى الاسكندرية في أوائل سنة ١٨٧٩ بعد أن بارحها قبل ١٨ سنة. وانضمّ الى جمعياتها السرية التي ألفت لمناهضة إستبداد الخديوي إسماعيل وبذخه ومجازفاته المالية. وأنشأت جمعية مصر الفتاة مدرسة شعبية أسندت إدارتها اليه، وعرفت باسم مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية. وقد درّس فيها أيضا مادة الادب العربي والخطابة، وأخذ يكتب المقالات في جريدة مصر والتجارة. وألف

روايتين «الوطن» و «العرب»، فمثلتا في بعض الملاهي. وأنشأ بعد ذلك جريدة «التنكيت والتبكيت» في يونيو ١٨٨١ ثم استبدلها بالطائف.

ولمع نجمه عند نشوب الثورة العرابية في أوائل سنة ١٨٨١، وقد انضم اليها ونفسه تتأجج وطنية وتتطلع الى الحرية، وتجلت فيها مواهبه الخطابية. وخطب في الجيش مرصعا خطبه بالشعر، فقال:

اليكم يُرَدُّ الامر وهو عظيم ... فإني بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى ... فمن أين يأتي للديار نعيم ؟
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه ... تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا عنان الخيل نحو مخيم ... تقلبه بين البيوت نسيم
وشدوا له الاطراف من كل وجهة ... فمشدود أطراف الجهات قويم

وقد لازم النديم عرابي زعيم الثورة في كفر الدوار والتل الكبير، وكانت صحيفته الطائف تصدر في معسكر الجيش المصري. فلما أخفقت الثورة وطلبت الحكومة رجالها اختفى عبد الله نديم وظل مختفيا تسع سنوات لم يعثر له على أثر على الرغم من سعي السلطة في البحث عنه وإرصادها المكافأة لمن يرشد اليه. وشغل نفسه بالكتابة والتأليف بالرغم من حياة القلق التي كان يحياها، فنظم الشعر وصنف مصنفات في التصوف والعادات والاخلاق وفي مواضيع أخرى، وقال انه وضع عشرين مؤلفا بين صغير وكبير.

إنتهى به المطاف الى قرية الجميزة من أعمال مديرية الغربية، وافتضح أمره فيها، فاهتدت الحكومة إلى مقره سنة ١٨٩١ وقبضت عليه وقررت نفيه الى خارج القطر. رحل الى يافا وطاف في فلسطين وزار آثارها ومواطنها المقدسة. وفي فبراير ١٨٩٢ عفا عنه الخديوي عباس حلمي الثاني الذي خلف أباه المتوفى توفيق باشا، فعاد الى القاهرة بعد ثلاثة أشهر، وأنشأ صحيفة الاستاذ في أغسطس ١٨٩٢، وكانت خطتها مماثلة لجرائده الوطنية السابقة. ندد بالاستعمار ودعا الى الحرية والاصلاح وحث الجيل الطالع على العمل لتحرير البلاد من حكم المحتل الاجنبي الذي يرمي الى الاستكانة وإخماد الروح الوطني. وقد ضاق الانكليز ذرعا بمقالاته اللاذعة الشديدة واتهموه في الجرائد الموالية لهم بإثارة الفتنة والشقاق، وحملوا الحكومة المصرية على إبعاده ثانية. فأغلق صحيفته في يونيو ١٨٩٣ وبارح مصر الى يافا، ثم استقر في الآستانة عاصمة آل عثمان. ولكي يخرس السلطان عبد الحميد لسان النديم عينه مفتشا في قلم المطبوعات، وهناك

التقى باستاذه الافغاني الذي كان يقيم في العاصمة نفسها وأصبح سميره ورفيق منفاه. ثم احتدم النقاش بينه وبين الشيخ أبي الهدى الصيادي صنيعة السلطان وموضع ثقته، فكتب فيه النديم كتابا سماه المسامير هجاه به هجاء مقذعا. لم يستطع أبو الهدى الحصول على الكتاب، لكنه اغتاظ ووشى بمؤلفه الى السلطان. وأضنى النديم جهاده المتواصل وإعتلت صحته وصار يعاني من مرض السل الذي أودى به وأوصله الى حمامه في الآستانة في ١٠ أكتوبر ١٨٩٦ .

وضع مؤلفات منها: الساق على الساق في مكابدة المشاق، كان ويكون، النحلة في الرحلة، المترادفات، وديوان شعر. وجمعت طائفة من مقالاته في كتاب «سلافة النديم».

من شعره:

قال يصف ما لقيه من الشدائد في أثناء اختفائه:

أتحسبنا إذا قلنا بلينا ... بلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد تقتحم الدواهي ... فيحسب خامل أنا دُهينا
تناوشنا فتقهرنا خطوب ... ترى ليث العرين لها قرينا
سواء حربها والسلم إنا ... أُناس قيل هدنتها هدينا . . .
إذا ما الدهر صافانا مرضنا ... فإن عدنا الى خطب شفينا
لنا جلد على جلد يقينا ... فإن زاد البلا زدنا يقينا
علينا للعلى دين وضعنا ... عليه الروح لا الدنيا رهينا
إذا ما المجد نادانا أجبنا ... فيظهر حين ينظرنا حنينا . . .

واضطر الى تعطيل صحيفته الاستاذ سنة ١٨٩٣ فودّع القراء في عددها الاخير قائلا:

«ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الاهوال ومصادمة النوائب. والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تأريخه من العظمة والجلال، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا في أعين الواقفين عند الظواهر . وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلا:

أودعكم والله يعلم أنني ... أحب لقاكم والخلود إليكمُ
وما عن قِلىً كان الرحيل وإنما ... دواع تبدت فالسلام عليكمُ !»

وقد ذكر طرفا من شعره عبد الرحمن الرافعي في كتابه «شعراء الوطنية» فقال:

«وانك لترى هذا الشعر أقوى في الروح والاسلوب من شعره في إبان الثورة.

وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه، بل زادته قوة وحيوية وصلابة وبلاغة، وإن الشدائد صقلت مواهبه كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها في لهب النار، فاحتفظ النديم في سني المحنة بما حباه الله من إيمان صادق وعزم ثابت وصمود على الايام. وكذلك الشدائد والمحن يختلف أثرها في نفوس الناس، فبينما تبعث اليأس والجزع في النفوس الضعيفة نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة ثباتا وصبرا وشجاعة وإيمانا. ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه في أوج انتصارها.»

مصطفى كامل باشا

لم تشهد مصر زعيما كافح بقلمه ولسانه وحظي بحب المثقفين والجماهير الشعبية كمصطفى كامل الذي توفي في سن الشباب ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره. والحقيقة إنه لم يكن يطالب باستقلال القطر المصري، بل كان يناضل ضد السيطرة البريطانية التي أحكم حلقاتها لورد كرومر المعتمد البريطاني خلال ربع قرن والعودة بمصر الى التبعية العثمانية ـ الاسلامية التي أصبحت اسمية في عهد الخديوي محمد توفيق وولده عباس حلمي الثاني.

ولد مصطفى كامل في القاهرة في ١٤ أغسطس ١٨٧٤، وكان أبوه علي محمد ضابطا مهندسا أصله من بلدة كتامة الغاب بمديرية طنطا، وقد توفي وولده صبي في المدرسة الابتدائية. وظهرت مواهبه وهو في المدرسة الثانوية لاسيما في فصاحة اللسان وحسن الالقاء ومناقشة المسائل العلمية والاجتماعية. وقد استرعى ذكاؤه ناظر المعارف علي باشا مبارك فأخَصّه بمرتب شهري يصرف له بصفة مساعدة لاكمال دراسته. ثم انتمى الى مدرسة الحقوق المصرية نهارا ومدرسة الحقوق الفرنسية مساءً. ومضى الى تولوز فأتم في جامعتها دراسته القانونية ونال شهادتها النهائية قبل بلوغه العشرين من عمره.

إنصرف منذ عهد الدراسة الى الكتابة والخطابة والجهاد في سبيل القضية الوطنية. وأنشأ في سنة ١٨٩٣ مجلة أدبية باسم «المدرسة» ضمت المقالات الوطنية، وأخذ يراسل الصحف كالاهرام والمؤيد. واتصل برجالات مصر وأعضاء مجلس شورى القوانين، ومنهم الخطيب الصحفي الوطني عبد الله نديم وأمين فكري باشا وإسماعيل صبري باشا، فناقشهم وأفاد منهم في مواضيع الاسرار السياسية والثورة العرابية ودسائس الانكليز وتحكمهم في الشؤون المصرية .

ولما كان في فرنسة انتهز الفرصة لزيارة عاصمتها وأنحائها والمدن الاوربية فالتقى بساستها وألقى الخطب والاحاديث حول القضية المصرية. ونشر سنة ١٨٩٦ مجموعة مقالاته «مصر والاحتلال الانكليزي»، ثم شفعها بعد سنتين بكتاب «المسألة الشرقية».

قال شحاته عيسى إبراهيم في كتابه «عظماء الوطنية في مصر» إن مصطفى كامل كرس حياته للدفاع عن القضية المصرية وباع نفسه لوطنه يدافع عنه بكل ما أوتي من قوة. وقال: «والواقع إن حياته القصيرة حفلت باعمال تنوء بها العصبة من الرجال، وإنه كان في سباق مع الزمن، وكأنه يشعر بقصر أجله، لذلك كان يواصل العمل ليل نهار... ولا يغيب عن الذهن أنه بدأ جهاده من العدم: فقد كانت مصر مكبلة بسلاسل الاحتلال الغاشم، لا يستطيع انسان أن ينبس ببنت شفة ضد الاحتلال، ولا تستطيع صحيفة أن تخطَّ سطرا تؤذي به سمع المحتلين...»

كانت خطته أن يستثير حماسة مواطنيه ويستنهض هممهم وينبههم الى حقوقهم ليتمسكوا بها ويدافعوا عنها. وعمد في الوقت نفسه الى كسب الرأي العالمي يشرح القضية المصرية في المحافل الدولية والاستعانة بفرنسة التي كانت في نظره أمّ الحريات والمدافعة عن حقوق الضعفاء والمستعبدين. وتعرف الى السيدة جولييت آدم (١٨٣٦ - ١٩٣٦) الكاتبة الفرنسية الشهيرة صاحبة «المجلة الجديدة» والصالون الادبي الرائع الذي كان يؤمه كبار رجال السياسة والادب. كانت هذه السيدة حرة الفكر، مهتمة بالسياسة الدولية، فرعت الشاب المصري رعاية الأم لولدها وأفسحت صدر مجلتها لنشر مقالاته. وقالت انها لشدة كرهها للانكليز وحبها لمصر كانت ترتقب قومة قائم في وادي النيل للمناداة بالحرية، وقد وجدت هذا الشخص في الشاب مصطفى كامل وأوجدت له ميدانا واسعا في عالم الصحافة والمحافل الدولية.

وقد زارت مصر سنة ١٩٠٤ بدعوة من ولدها بالروح فلقيت ضروب الحفاوة والاكرام. وجمع علي فهمي كامل (١٨٧٠ - ١٩٢٦) أخو مصطفى رسائله الى مدام آدم وترجمها الى العربية والانكليزية وطبعها في مصر سنة ١٩٠٩ . ووضعت السيدة نفسها سنة ١٩٢٢ كتابا عن القضية المصرية أهدته الى روح مصطفى كامل وإلى أخيه علي فهمي. وهو كتاب «إنجلترا في مصر» عرّبه علي فهمي كامل ووضع مقدمة له وطبعه في جزءين بالقاهرة.

رحل مصطفى كامل الى أوربة مرارا مواصلا جهاده الوطني. وزار الآستانة وقابل السلطان عبد الحميد الثاني الذي منحه رتبة البكوية (١٨٩٦) وشفعها بعد ذلك برتبة الباشوية سنة ١٩٠٤ .

وأنشأ للدفاع عن آرائه جريدة «اللواء» التي صدر عددها الاول في ٢ يناير ١٩٠٠، ثم أصدر جريدتين باسم «اللواء المصري» باللغتين الفرنسية والانكليزية. وكانت صلته

بالخديوي عباس حلمي الثاني متينة الى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودي بين انكلترة وفرنسة، فانضوى الخديوي الى لواء السياسة الانكليزية، وآثر مصطفى كامل الابتعاد عنه والتحول عن خطة الاستعانة بفرنسة لاجلاء الانكليز عن مصر. وأصدر في تلك السنة نفسها كتابه «الشمس المشرقة» مشيدا بانتصار اليابان على الامبراطورية الروسية ونهضتها التي حازت إعجاب العالم. وأصدر سنة ١٩٠٦ كتابه «دفاع مصري عن بلاده».

وكان لمعاهدة ١٨٩٩ التي عقدتها انكلترة مع الحكومة المصرية واستئثارها بالحكم الثنائي في السودان بعد اعادة احتلالها وتعيين حاكم إنكليزي عام لهذا القطر أثر كبير في نفس مصطفى كامل، فرفع عقيرته بتفنيد المعاهدة والاحتجاج عليها. ثم حدثت حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦، وخلاصتها أن ضباطا بريطانيين زاروا هذه القرية في محافظة المنوفية لصيد الحمام فأصاب أحدهم إحدى الفلاحات خطأً وأودى بحياتها. وعلى أثر ذلك تجمع أهل القرية. وجاء الخفراء لابعاد الأهالي عن الضباط، لكن هؤلاء ظنوا أن الخفراء إنما أتوا للتنكيل بهم فاطلقوا عليهم النيران، فسقط شيخ الخفراء يتخبط في دمه وأصيب خفير آخر وأحد الاهلين. واشتد عندئذ هياج الناس فقذفوا الضباط بالحجارة وانهالوا عليهم ضربا بالعصيّ. ثم حضر مأمور الشرطة وأنقذ الضباط وأوصلهم إلى محل أمين، بعد أن كسر ذراع أحدهم وأصيب آخرون بجروح ومات ضابط فرّ يعدو مسافة طويلة تحت شمس الصيف اللاهبة فسقط من شدة الإعياء وفارق الحياة .

غضب رجال الاحتلال لهذا الحادث دون وجه حق، فحوكم ٥٢ شخصا من أهالي القرية أمام محكمة مخصوصة عقدت في شبين الكوم في ٢٤ يونيو ١٩٠٦، ولم يمض على الحادث سوى ١١ يوما، في جو تسوده الرهبة والفزع. وبعد ثلاثة أيام صدر الحكم بالاعدام على أربعة من المتهمين وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين وبأحكام السجن والجلد على الباقين. فنفذت الاحكام بقساوة بالغة وعلى مرأى من أسر المحكومين وذوي قرباهم بين صراخ الاطفال وعويل النساء ونحيب الرجال.

لم يرتفع صوت يحتج على هذا الظلم الصارخ سوى صوت مصطفى كامل، وكان آنذاك في فرنسة، فما إن وصله النبأ حتى نشر مقالا في جريدة «الفيغارو» وصف فيه الحادث وانتقد الحكم المجافي للعدالة والاخلاق وفظاعة تنفيذه التي بثت في نفوس المصريين مشاعر الحزن الصامت والالم الممض والنفور من أعمال الاستعمار البغيض. وكان لهذا المقال دويّ في المحافل الدولية تناقلته الصحف الاوربية ونددت بالاعمال البربرية التي يزاولها الاحتلال في مصر. ودفع مصطفى كامل تهمة التعصب الديني عن

المصريين، تلك التهمة التي اتخذوها ذريعة لتبرير عملهم وفتكهم بالابرياء من الفلاحين البسطاء. ثم سافر الى لندن والتقى بعدد كبير من الصحفيين والمفكرين الانكليز وأعضاء مجلس العموم من حزب الاحرار فبسط لهم سياسة بلادهم في مصر وحادث دنشواي. وكان لمقالاته وخطبه أثر بالغ في مصر، فألفت لجنة للاحتفال به عند عودته وتقديم هدية له. لكنه كتب الى رفيقه في الجهاد محمد بك فريد يطلب اليه تخصيص الاكتتاب لإنشاء جامعة يتلقى فيها المصريون في بلادهم، أغنياؤهم وفقراؤهم، على السواء تعليمهم العالي. وكانت تلك أول دعوة لإنشاء الجامعة الأهلية المصرية. ثم أخذ الامراء والاثرياء يتبرعون بالاموال التي بلغت ثمانية آلاف جنيه لمشروع الجامعة ونفذ سنة ١٩٠٨ وبدىء بكلية للآداب. وبقيت الجامعة أهلية حتى سلمت الى الحكومة سنة ١٩٢٥ .

كان لحادثة دنشواي أثرها في تحريك الرأي العام في إنكلترة والاقطار الاوربية، فصدر عفو خديوي عن مساجين دنشواي وأطلق سراحهم. وقد قال شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم قصيدة في هذه الحادثة نشرها بعد خمسة أيام فقط من صدور الحكم فيها، ومطلعها:

أيها القائمون بالأمر فينا، ... هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟
خفِّضوا جيشكم وناموا هنيئا ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
إنما نحن والحمام سواء ... لم تغادر أطواقنا الاجيادا...
ليت شعري أتلك (محكمة التفتيش) ... عادت أم عهد (نيرون) عادا ؟
كيف يحلو من القويّ التشفي ... من ضعيف القى اليه القيادا ؟

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي:

يا دنشواي على رباك سلام ... ذهبت بأنس ربوعك الايام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا ... هيهات للشمل الشتيت نظام
كيف الارامل فيك بعد رجالها ... وبأيّ حال أصبح الايتام ؟
يا ليت شعري في البروج حمائم ... أم في البروج منيّة وحِمام ؟...

وقال إسماعيل صبري باشا يشكر الخديوي على عفوه عن المسجونين:

وأقلت عثرة قرية حكم الهوى ... في أهلها وقضى قضاء أخرق
إن أنّ فيها بائس مما به ... أو رنّ جاوبه هناك مطوّق
وارحمتا لجناتهم ماذا جنوا ... وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا ؟

وقد أقيل اللورد كرومر في سنة ١٩٠٧ بعد أن كان خلال السنين الاربع والعشرين

الماضية عميد الحكم الانكليزي في مصر أحكم هيمنته على القطر وقبض على زمام الامور فلا يخالف له أمر ولا تقام معارضة. وعيّن الانكليز عميدا جديدا ليّن الجانب ميالا الى الاعتدال والتفاهم. وأصدر مصطفى كامل في تلك السنة جريدتين باسم «اللواء المصري» باللغتين الفرنسية والانكليزية ليوصل دفاعه عن الحرية والاستقلال الى آذان الاوربيين من الاجانب.

وأنشأ أخيرا الحزب الوطني الذي عقد أجتماعه الاول بدار اللواء في ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧، فتمثلت فيه طبقات الامة من عمال ومثقفين. وخطب قائلا: «اننا لسنا حزبا سياسيا فقط، بل قبل كل شيء حزب حياة للأمة وإنهاض لها، فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة، وهو يرمي الى الاستقلال أسّ كل سعادة... ويسعى للوفاق بين الامة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الاخرى...»

غير أن جهاد الزعيم الوطني الشاب أوهن جسمه وقصف عود حياته، فأدركه الحِمام في القاهرة في ١٠ فبراير ١٩٠٨ . وكان لوفاته رنة حزن وأسى، فشيع تشييعا نادر المثال وأقيم له تمثال وسميّت باسمه الشوارع والمدارس والمعاهد. ورثاه الشعراء بقلوب دامية وعبرات هامية، وكرروا رثاءه والاشادة بذكره في شتى المناسبات. وقال إسماعيل صبري واقفا على قبره :

أداعي الاسى في مصر، ويحك داعيا   هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا
فقدناك فقدان الكميّ سلاحه   وساري الدياجي كوكب القطب هاديا

وقال أحمد شوقي :

المشرقان عليك ينتحبان   قاصيهما في مأتم والداني ...
دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها   فالذكر للانسان عمر ثان ...
يزجون نعشك في السناء وفي السنى   فكأنما في نعشك القمران
وكأنه نعش الحسين بكربلا   يختال بين بكىً وبين حنان

ووقف حافظ إبراهيم على قبر مصطفى كامل فقال:

أيا قبر، هذا الضيف آمال أمة   فكبّر وهلل والقَ ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى   شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا ...

وقال من قصيدة أخرى:

إني أرى، وفؤادي ليس يكذبني،   روحا يحف به الاكبار والعِظَمُ

أرى جلالا، أرى نورا، أرى ملكا، أرى محيّا يحيّينا ويبتسم
الله أكبر، هذا الوجه أعرفه، هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته من القلوب إذا لم تسعد الكلم
وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه فنحن في موقف يحلو به القسم
لبيك نحن الألى حرّكت أنفسهم لما سكنت ولما غالك العدم
جئنا نؤدي حسابا عن مواقفنا ونستعد ونستعدي ونحتكم . . .

وقال خليل مطران:

أعلى مكانتك الاله وشرفا فانعم بطيب جواره، يا مصطفى

وقال أحمد محرم:

ما زلت تقتحم المصاعب مجهدا نفسا موطّنة على الاهوال
حتى طواك الموت غير مجامل شعبا يجلّك أيّما إجلال

وقال أحمد نسيم:

ما بال دمعك لا هام ولا جاري، هل اكتفيت بما في القلب من نار ؟

وقال أحمد الكاشف:

لهفي عليك وقد رحلت اليوم لم تدرك لغرسك في البلاد ثمارا

وقال أحمد زكي أبو شادي:

مات الرئيس وماتت بعده همم قد كان نبراس فكر منه يجليها

وقال غيره غير ذلك.

من كلمات مصطفى كامل المأثورة

– إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

– فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الجنايات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية .

– بلادي، بلادي ! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك لبّي وحياتي، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك، يا مصر.

علي فهمي بك كامل

لا يسع المتصدي لذكر مصطفى كامل إلا أن يشير الى أخيه وسنده علي فهمي كامل. كان يكبره أربع سنوات، فقد ولد في القاهرة سنة ١٨٧٠ ودرس في مدرسة الألسن ثم انتمى، بعد سنتين، الى المدرسة الحربية وتخرج ضابطا في العشرين من عمره (١٨٩٠). خدم في السودان وحضر وقائعه، فلما برز شقيقه على مسرح الحياة السياسية أصبح موضع اضطهاد الضباط الانكليز. حكم عليه بالاعدام ثم بدل الحكم الى إنزال رتبته الى جندي بسيط . وتوسط له مصطفى كامل فعفي عنه وأعيدت اليه رتبته العسكرية، لكنه استقال من الجيش سنة ١٨٩٨ وعاد الى القاهرة وتولى ادارة مدرسة مصطفى كامل بمرجوش .

كان عضدا قويا لاخيه في تحرير جريدة اللواء وإدارتها وتأسيس الحزب الوطني. ولما قضى مصطفى كامل انتخب علي فهمي وكيلا للحزب برئاسة محمد فريد . واشترك في مؤتمر بروكسيل سنة ١٩١٠، ثم حوكم مع محمد فريد في مارس ١٩١٢وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر .

إعتقلته السلطات العسكرية عند إعلان الحماية على مصر مع فريق من رجال الحزب الوطني في طُرّة. وفي سبتمبر ١٩٢١ نفته السلطة العسكرية فلم يعد الى مصر إلا بعد رفع الاحكام العرفية في أكتوبر ١٩٢٣ . خدم القضية المصرية بكل قواه، ولم يثنه ذلك عن دراسة الحقوق في كهولته . وأصدر جريدة «العَلَم المصري» سنة ١٩٢٠وجريدة «العلم» في السنة التالية. وأدركته الوفاة في ٢١ أكتوبر ١٩٢٦ بالسكتة القلبية في القاهرة .

جمع علي فهمي آثار أخيه في كتاب «تأريخ مصطفى كامل باشا» في ستة أجزاء. وألف «المسألة المصرية» وترجم عن الفرنسية كتاب «إنجلترا في مصر» لجولييت آدم .

وكان لمصطفى كامل شقيق اخر هو حسين واصف باشا، تدرّج في المناصب حتى أصبح وزير الاشغال (١٩٢٢ و ١٩٢٩)، وتوفي سنة ١٩٤٠ .

مصطفى كامل:
كلمة اخيرة

توفي في ١٠ فبراير ١٩٠٨ وقيل إن نصف مليون مصري خرجوا لتشييع جنازته، وكان تعداد نفوس مصر آنذاك لا يزيد على أربعة ملايين. وقد كتب قاسم أمين يصف يوم التشييع فقال: هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق. المرة الاولى يوم تنفيذ حكم دنشواي. أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا في قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر. هذا الاحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الامة، من دمها وأعصابها، هو الأمل في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل.

من أقول مصطفى كامل

ـ إن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لا يحسبون لاشخاصهم وجودا مستقلا عن المبدأ الذي يعملون لنصرته، بل يندمجون في المبدأ نفسه، فكل تحية اليهم فهي تحية اليه.

ـ الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها هي أن الامم لا تنهض إلا بشعوبها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها.

ـ إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع.

ـ إننا وهبنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا الى أشرف غاية اتجهت اليها الأمم في ماضي الايام وحاضرها وعلى مطلب ترمي اليه في مستقبلها. فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي

تصغر بجانبها كل غاية .

ـ إن أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبداً. وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميراً لاذ بالوطن عن وجهته .

ـ ما فائدة الاموال التي تجمع والخزينة التي تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الاسوار قائمة بين الفقراء والعلم والاحوال الصحية على أسوأ حال، والعدل مزعزع الاركان؟

ـ الحقيقة الساطعة التي لا ريب فيها أن الوطنية والدين يتفقان.

ـ الحقيقة الاسلامية بين المسلمين من أكبر الاسباب الموجودة للتسامح والتعرف بين الشعوب الاخرى، إذ لا تعصب مع علم ولا نفرة من نور ورشاد.

ـ الاسلام والجهل عدوان لا يتفقان، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وإنسانية.

وقال مصطفى كامل يخاطب خصومه: «أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد وانهم إنما يطلبون خروج الانكليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد فهي دعوى لا تقبلها دولة ولا يسلم بها أحد من العقلاء. فإننا نطلب الاستقلال لوطننا والحرية لديارنا ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظة من حياتنا.» وكرر القول مرارا إن مصر للمصريين وهم أهل لحكم أنفسهم بأنفسهم، ولا يريدون إعطاء مصر للدولة العثمانية وإعادتها لحكم الاتراك، بل يريدون التحرر من الاحتلال الانكليزي واتباع خطة التحالف مع تركية «على أساس الاحترام المتبادل». ودعا الى قيام حكومة دستورية نيابية في القطر المصري ونشر العلم بين الشباب، فكان في مقدمة الداعين الى إنشاء الجامعة المصرية الاهلية.

ولابد من القول إن مصطفى كامل قد أراد رفع السيطرة البريطانية المهيمنة على مصر وإعادة بلاده الى الحكم العثماني. وكانت الدولة العثمانية في ذلك العهد خاضعة للاستبداد الحميدي الذي شرد الاحرار وكمّ الافواه وقضى على حرية الفكر والكلام، حتى اضطر المفكرون الى مبارحة تركية الى أوربة للنضال في سبيل رفع الكابوس المخيم على بلادهم. أما مصر الخاضعة آنذاك للحكم البريطاني فكانت تنعم بحرية نسبية واسعة، وفيها جرائد مؤيدة ومعارضة، وقلما تعرّض الاحرار – إلا ما ندر –

للسجن والارهاب والتضييق. وقد لجأ الى مصر أحرار سورية ولبنان ووجدوا فيها ضالتهم من العمل والقول.

وجدير بالذكر أن حزب الامة وصحيفته الجريدة التي كان يحررها أحمد لطفي السيد كانا أكثر اعتدالا، وقد ارتأيا أن مصر يجب أن تكون للمصريين بمعزل عن الخلافة العثمانية.

محمد بك فريد

مضى مصطفى كامل الى الرفيق الاعلى فحمل لواء الجهاد بعده خليفته ووكيل حزبه الوطني محمد فريد. وإذا كان مصطفى كامل لم يلق في حياته عنتا ولا جفاء فإن محمد فريد لقي من السجن والتشريد والاضطهاد الشيء الكثير حتى مات في دار الغربة بائسا حزينا.

كان مصطفى عصاميا من أبناء الشعب المصري، أما محمد فريد فكان عظاميا من أسرة تركية ضحى بالمناصب والثروة والجاه ونزل الى ميدان الكفاح دفاعا عن حرية مصر واستقلالها .

ولد محمد فريد في القاهرة في ٢٠ يناير ١٨٦٨، وكان أبوه أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنيّة، أما أمه فقيل إنها كانت «أميرة من فضليات سيدات الخلفاء العباسيين». أتم دراسته الثانوية وانتمى إلى مدرسة الحقوق، وكانت تعرف آنئذ بمدرسة الادارة والالسن، فنال إجازتها في مايو ١٨٨٧ . وعين مترجما بقلم قضايا الدائرة السنيّة فوكيلا للقلم ورئيسا له، ومنح رتبة البكوية. وانتقل الى النيابة العامة بوظيفة مساعد في محكمة مصر الابتدائية فوكيل نيابة. ورقي في مايو ١٨٩٥ وكيل نيابة بمحكمة الاستئناف، ثم استقال من خدمة الحكومة في نوفمبر ١٨٩٦ وزاول المحاماة .

بدأ بعد تخرجه في المدرسة يكتب المقالات في جريدة المؤيد في المواضيع الوطنية. ووضع كتابه «البهجة التوفيقية في تأريخ مؤسس العائلة الخديوية» (١٨٩٠) و«تأريخ الدولة العثمانية» (١٨٩٣) و «تأريخ الرومانيين» (١٩٠٢)، ثم «رحلة محمد فريد» وهي تتضمن رحلته الى الاندلس والجزائر ومراكش سنة ١٩٠١ ورحلته في السنة التالية الى إيطالية وتونس والجزائر وطرابلس الغرب ومالطة ورحلته الى تركية سنة ١٩٠٣ وسياحته في النرويج سنة ١٩٠٤ . وأنشأ سنة ١٨٩٨مجلة «الموسوعات» بالاشتراك مع أحمد حافظ عوض ومحمود أبو النصر، وكانت مجلة علمية نصف شهرية. توثقت الصلة بين محمد فريد ومصطفى كامل وتعاهدا على العمل في القضية الوطنية وتحرير

البلاد من ربقة الاحتلال. أمدّ محمد فريد صاحبه بالعون المادي والادبي ولازمه في كثير من رحلاته إلى أوربة، واكتتب بمبلغ ضخم لانشاء جريدتي اللواء بالفرنسية والانكليزية. ولما أُنشيء الحزب الوطني سنة ١٩٠٧ انتخب محمد فريد وكيلا له، ثم آلت اليه رئاسة الحزب عند وفاة مصطفى كامل بعد أمد قصير. وبادر الى إرسال برقية الى السر أدوارد غراي وزير الخارجية البريطانية مجددا الاحتجاج باسم الحزب على احتلال القطر المصري. ورفع الى الخديوي عباس حلمي طلبا بالغاء المحكمة المخصوصة التي أنشئت سنة ١٨٩٥ لمحاكمة المتهمين بالتعدي على ضباط وجنود جيش الاحتلال .

واصل جهده كاتبا مئات المقالات وملقيا الخطب منحيا على الوزارة المصرية باللائمة لاستسلامها للمحتلين واستهانتها بمصالح البلاد. طالب بالدستور والحياة النيابية وجلاء الانكليز وتوحيد الجهود للفوز بمطالب الامة. وقدّم العرائض وحث على التظاهر للمطالبة بالدستور، فخرج الطلاب وأبناء الشعب في القاهرة وطنطا وبعض المراكز الاخرى ينادون بالدستور والجلاء. وصارت الحكومة وسلطة الاحتلال وحتى حزب الامة الذي ألف آنذاك، صارت جميعها تنظر الى محمد فريد وحزبه الوطني بعين الريبة والحذر .

وأصدرت الحكومة قرارا في مارس ١٩٠٩ باعادة العمل بقانون المطبوعات لسنة ١٨٨٨ الذي يخول وزير الداخلية تعطيل الصحف مؤقتا أو نهائيا دون محاكمة ويقضي على حرية الصحافة. فاحتج الحزب الوطني وقامت المظاهرات التي انتهت بمعركة مع الشرطة ووقوع الاصابات. ثم حبس الشيخ عبد العزيز جاويش لنشره مقالا أعتبر طعنا في رئيس النظار بطرس غالي باشا، وأنذرت جريدة اللواء لسان الحزب الوطني. قرر محمد فريد عقد مؤتمر في باريس في سبتمبر ١٩١٠ للمذاكرة في الشؤون الوطنية دعا الى حضوره المثقفين المصريين وصفوة من الشخصيات الدولية الحرة من فرنسة وانكلترة وسائر الاقطار الاوربية وتركية والهند. وسافر الى العاصمة الفرنسية لاعداد العدة لعقد المؤتمر، لكن الحكومة الفرنسية أبلغته عدم موافقتها على عقد مثل هذا الاجتماع المعادي لانكلترة في أراضيها. على أثر ذلك نقل محل المؤتمر الى بروكسيل فعقد فيها في موعده وحضره جمهرة من رجال السياسة والقانون والادب، فعالجوا المواضيع التي تمس القضية المصرية والاحتلال الانكليزي لوادي النيل. ثم جمع محمد فريد الخطب والكلمات التي ألقيت في المؤتمر وعمل على ترجمتها الى الفرنسية وطبعها في كتاب وزع على الصحف والمعاهد الاوربية. ولخصت قرارات المؤتمر بعدم شرعية الاحتلال

وضرورة الجلاء العاجل عن مصر، ووجوب رد الدستور وبطلان اتفاقية السودان ووجوب إلغاء قانون المطبوعات والقوانين المجحفة الاخرى .

قام محمد فريد بعد ذلك بجولة في العواصم الاوربية للتعريف بالقضية المصرية وزار الآستانة ثم عاد الى مصر في ديسمبر ١٩١٠ . إستقبله الشعب المصري بمظاهر التقدير والاكرام، لكن الخديوي وحكومته وسلطة الاحتلال أبطنت له الحقد والغيظ. وحدث في صيف تلك السنة أن أصدر الشاعر الوطني الشيخ علي الغاياتي مجموعة شعرية بعنوان «وطنيتي»، وصدرت المجموعة بمقدمة لمحمد فريد في موضوع تأثير الشعر في تربية الامم وأخرى للشيخ عبد العزيز جاويش. وحوكم الشاعر بتهمة العيب بالذات الخديوية وحكم عليه بالحبس غيابا لوجوده خارج مصر. وحكم على عبد العزيز جاويش بالسجن أيضا. ولما حضر محمد فريد الى مصر أوعزت الحكومة بمحاكمته بتهمة تحبيذ كتاب الغاياتي فحكم عليه بالحبس ستة أشهر قضاها في السجن صابرا راضيا .

وقام محمد فريد في تلك السنة نفسها بمعارضة تمديد امتياز شركة قناة السويس لمدة أربعين سنة تنتهي في آخر سنة ٢٠٠٨وكتب المقالات في جريدة اللواء في تفنيد المشروع وبيان مضاره . وأخيرا قررت الجمعية العمومية رفض المشروع وأيدت الحكومة قرارها.

لم يثبط السجن من عزيمة الزعيم الوطني فواصل جهاده يعارض الحكومة وينتقد أعمالها بلا هوادة . واجتمعت الجمعية السنوية للحزب الوطني في مارس ١٩١٢ فخطب محمد فريد خطبة ضافية تناول فيها موضوع الدستور والحركة التعاونية ونقابات العمال وشؤون الفلاحين والمدارس الشعبية وانتقد سلطة المعتمد البريطاني. فاتهمته الحكومة بالتحريض على كراهيتها وازدرائها وقدم الى المحاكمة فحكم عليه بالسجن سنة مع الشغل. لكن هذا الحكم جاء متأخرا لأن محمد فريد أحس بالخطر فبادر الى السفر وغادر الاسكندرية في ٢٦ مارس على باخرة روسية تقصد اليونان. أطل من سطح الباخرة ينظر الى الشاطىء المصري يحز في نفسه الالم، ولعله شعر أن تلك كانت آخر لحظة يحظى فيها برؤية وطنه الذي كافح في سبيله ولقي الاسقام من أجله. ومضى الى الآستانة واستدعى عائلته لموافاته فيها، ثم ذهب الى جنيف ليكون في مأمن من القبض عليه وتسليمه الى خصومه.

واصل جهوده في سبيل مصر في أوربة، متخذا مقره في جنيف ومتنقلا بين المدن

الاوربية ليحضر المؤتمرات الدولية ويلقي الخطب ويبث الدعوة الوطنية. وأنشأ في جنيف جريدة «ترقي الاسلام» في فبراير ١٩١٣ وغايتها بحث أحوال الشرق والعالم الاسلامي والدفاع عن الامم الشرقية .

كان محمد فريد من المفكرين الاحرار، طالب قبل الحرب العظمى الاولى بالدستور والحياة النيابية الصحيحة . ودعا الى حياد مصر وقناة السويس والى إنشاء نقابات العمال والنقابات الزراعية ونشر التعليم الابتدائي المجاني، وقام الحزب الوطني فعلا بانشاء مدارس ليلية في الاحياء الفقيرة لتعليم أبناء الشعب. ودعا الى قيام المظاهرات للمطالبة بالحقوق والدفاع عن المصالح الوطنية وإلى تأمين حياة العمال وضمان المعاش لهم في حالة المرض والعجز والشيخوخة. ونادى بالغاء الرتب والنياشين لمخالفتها النظام الديمقراطي.

كان محمد فريد واسع الثقافة، خطيبا مفوها بالعربية والفرنسية وكاتبا نحريرا مؤثرا في بيانه الواضح المبسط المقرب الى أذهان عامة القراء. وكان ثابتا على مبدأه، عرضت عليه الوزارة فرفضها قائلا: كيف أكون مشاركا في الحكم في ظل الاحتلال وأنا أناهض الاحتلال؟ ورث عن والده أملاكا ضخمة وأموالا جسيمة صرفها كلها على الحزب الوطني في سبيل ترسيخ مبادئه وتنفيذ مشاريعه حتى أملق وهو في المنفى يرضى بالعيش الكفاف ويركب القطار في درجته الثالثة .

واشتعلت نيران الحرب العامة سنة ١٩١٤ وقطعت بريطانية صلة مصر بتركية وفرضت عليها حمايتها. بقي محمد فريد في سويسرة وقد أصبح مجال النضال ضيقا وصار يعاني العسر ويعالج الداء الممض. ولما تألف الوفد المصري وبدأ نضال سعد زغلول سنة ١٩١٩ أرسل اليه محمد فريد الى باريس برقية يهنئه فيها محييا في شخصه الوطن الغائب وراجيا له كمال التوفيق. لكن سعدا الذي لم يكن يرغب أن يشاركه أحد في زعامته تجاهل البرقية ولم يرد عليها .

وجه محمد فريد آخر رسالة له الى المصريين فقال: «إن الصوت الذي يناجيكم اليوم لصوت منعته الظروف عن الارتفاع في صحف مصر من نحو سبع سنوات، ولكن منعه عن الارتفاع على ضفاف وادي النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية في عواصم أوربة، سواء قبل هذه الحرب أم في أثنائها أم بعدها».

قال إن صوته الضعيف لم يخفت يوما واحدا ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين. وقد هنأ الامة المصرية على تضامنها في المطالبة بحقوقها المغتصبة

وطالبها بمواصلة طريق الكفاح .

كان ذلك آخر توهج تلك الشعلة اللاهبة. فقد ضاقت الحال بمحمد فريد واشتد عليه المرض في دار الغربة التي اختارها ميدانا لجهاده، فقال لبعض خاصته وقد علم أنه مشرف على النهاية: لست أخاف الموت، ولكنني أتمنى أن أرى مصر تنعم بتمام الاستقلال. وتوفي في مصح ببرلين في ١٥ نوفمبر ١٩١٩، فأودع جثمانه في صندوق لينقل الى مصر ويدفن فيها حسب وصيته .

وقد نقل رفات الزعيم على نفقة الحاج خليل عفيفي تاجر القطن في الزقازيق فدفن في مدافن الاسرة بالقاهرة في يونيو ١٩٢٠ . ولما قامت الثورة المصرية احتفل احتفالا رائعا في ١٥ نوفمبر ١٩٥٣، بعد ٣٤ سنة من وفاته، بتشييع جنازته الى مقرها الاخير بجوار رفيق جهاده مصطفى كامل .

رثاه عند موته الشعراء، فقال حافظ إبراهيم:

من ليوم نحن فيه، من لغد؟   مات ذو العزمة والرأي الاسدّ. .
يا غريب الدار والقبر ويا   سلوة النيل إذا ما الخطب جدّ
قل لصب النيل إن لاقيته   في جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصرا لا تني عن قصدها   رغم ما تلقى وإن طال الامد. . .

وقال أحمد شوقي :

كل حيّ على المنية غادي   تتوالى الركاب والموت حادي. . .

وقال أيضا في ذكراه:

نجدد ذكرى عهدكم ونعيد   وندني خيال الامس وهو بعيد. . .
فلا زلت تمثالا من الحق خالصا   على سره نبني العلا ونشيد
يعلم نشء الحي كيف هو الحمى   وكيف يحامي دونه ويذود

وقال خليل مطران يرثيه:

أفريد، لا تبعد على الادهار،   أنت الشهيد الخالد التذكار
بالاهل بالدم بالرفاهة بالغنى   فديت مصر وفُدِّيتَ من دار

وقال أحمد محرم :

يا سيد الشهداء بعد رفيقه   أرضيت ربك في جهادك فاغنمِ

وقال عباس محمود العقاد:

أطلقت وجداني ومثلك يطلق   فالنفس تألم والجوانح تخفق. . .

أفريد، لا يلمم بسيرتك الردى ... أبدا ولا يبرح سلاحك يمشق
ما كان ذاك العمر الا وقعة ... الدهر حومة حربها لا الخندق

ولأحمد نسيم شاعر الحزب الوطني قصائد قالها يؤيد محمد فريد في جهاده ويواسيه في سجنه، ثم قال في رثائه:

رمانا الزمان بإحدى الكبر ... ومنه العظات ومنه العبر
شهيد تصارع في حومة ... رماه القضاء بها والقدر
وخلّف من بعده أمة ... كسرب النجوم فقدن القمر

وقال محمد عبد المطلب :

بعيني من نادى مناديه للنوى ... فودع لا يأني ولا يتوقف
يدافع آلاما تياسرن قلبه ... لها حرمة تدمي القلوب فتنطق
ففي قلبه مما دهى النيل زفرة ... يكاد لها من تحته البحر ينشف
وفي عينه من لوعة البين عبرة ... يكفكفها كبرا فلا تتكفكف
وفي نفسه عتبى على البلد الذي ... قسا أهله جهلا عليه وأجنفوا

ضؤل شأن الحزب الوطني بعد ظهور الوفد بزعامة سعد زغلول. وقد ظل على مبادئه أعلام منهم علي فهمي كامل شقيق مصطفى كامل، والمحامي أحمد بك لطفي وكيل الحزب ونقيب المحامين وقد توفي سنة ١٩٢٦، وأمين بك الرافعي محرر صحف الحزب، لكنه أصدر بعد ذلك جريدة الاخبار وانضم الى الوفد المصري، ثم اختلف مع سعد وعاد الى صفوف الحزب الوطني وتوفي سنة ١٩٢٧ .

وانتخب محمد حافظ رمضان (باشا) رئيسا للحزب الوطني سنة ١٩٢٣ بعد أن أصدر جريدة اللواء المصري يومية قبل ذلك بسنتين. وانتخب نائبا سنة ١٩٢٦ وتزعم المعارضة فيه. وأصبح وزيرا للدولة في ديسمبر ١٩٣٧ ثم تولى وزارة الشؤون الاجتماعية والعدل. وفصل من الحزب الوطني في يناير ١٩٥٠، وتوفي في يناير سنة١٩٥٥ .

الشيخ عبد العزيز جاويش

الكاتب الوطني الاسلامي عبد العزيز بن خليل جاويش، ولد في الاسكندرية في ٢١ يونيو ١٨٧٦ لاسرة تونسية الارومة. مضى الى القاهرة سنة ١٨٩٢ وطلب العلم في الازهر، ثم انتقل الى دار العلوم وتخرج في سنة ١٨٩٧ . عين مدرسا للغة العربية في مدرسة الزراعة، ثم اختير في بعثة دراسية، فلما عاد الى مصر سنة ١٩٠١عين مفتشا للمدارس. ووضع كتابين للمدرسين أولهما «غنية المؤدبين» (١٩٠٣) ومرشد «المترجم»

عهد اليه بعد ذلك تدريس العربية في جامعة أكسفورد حتى استقال سنة ١٩٠٦ . ومثل في تلك الاثناء الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة ١٩٠١ وقدم الى المؤتمر كتابه «الاسلام دين الفطرة» .

تأثر الشيخ عبد العزيز جاويش بالشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الافغاني واستلهم مبادىء مصطفى كامل ومحمد فريد في جهادهما الوطني. وإفتتحت صفحة جديدة في حياته في مايو ١٩٠٨ إذ اختاره محمد فريد رئيس الحزب الوطني بعد وفاة مؤسسه رئيسا لتحرير جريدة «اللواء» الناطقة بلسان الحزب. وقدم الى القضاء في تلك السنة نفسها لمقال كتبه عُدَّ ماسّا بكرامة الحكومة، لكن بُرِّئت ساحته. وفي السنة التالية أحيل ثانية الى المحاكم لمقال نشره في ذكرى فاجعة دنشواي فسيق الى السجن حيث قضى ثلاثة أشهر. وفي سنة ١٩١٠ قدّم إلى المحكمة مرة ثالثة بسبب مقدّمة كتبها لديوان «وطنيتي» للشاعر علي الغاياتي فحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر أيضا .

أنشأ مجلة الهداية في فبراير١٩١٠ وتولى إنشاء معاهد ليلية لتعليم اللغة الفرنسية للأزهريين. وفي تلك السنة نشأ خلاف على ملكية جريدة «اللواء» بين بعض ورثة مصطفى كامل فطرح الامر على القضاء. فأصدر الحزب الوطني جريدة «العَلَم» لتنطق باسمه. وأغلقت هذه الجريدة فعوض عنها بجريدة الاعتدال فالشعب فالعدل فالاعتدال ثانية حتى عادت العلم الى الظهور. وكان للشيخ جاويش اليد الطولى في تحرير هذه الصحف وتغذيتها بالمقالات والبحوث الوطنية .

وعقد سنة ١٩١١ مؤتمر في مصر الجديدة للبحث في الاصلاح العام، فتناول جاويش موضوع الاصلاح الاجتماعي. دعا الى إصلاح الاسرة لأنها أساس المجتمع وتقييد الطلاق الذي يؤدي الى الاسواء الاخلاقية والاجتماعية. وقال إن للاسلام قوانين هي مناط الاحكام ومآخذها .

واضطر سنة ١٩١٢ على مزايلة مصر والمضي الى الآستانة حيث أصدر مجلة الهداية والهلال العثماني والعالم الاسلامي. وتبدّلت السياسة التركية إزاء المُبعدين المصريين الأحرار بعد تأليف وزارة أحمد مختار باشا في يوليو ١٩١٢، وكان من أعضائها كامل باشا صديق الانكليز. وبدأت المخابرات بين هؤلاء والحكومة التركية لتسليم خصوم الاحتلال المقيمين في بلادها لمناسبة إصدار مناشير سياسية، ففطن محمد فريد للأمر وبادر الى مغادرة تركية. وأشار على عبد العزيز جاويش بأن يحذو حذوه، لكن هذا استبعد أن تسلمه تركية الى السلطات الانكليزية في مصر.

كان حسن ظن جاويش في غير محله، فسرعان ما قبض عليه وأرسل الى مصر. أودع في السجن رهن المحاكمة لكن أفرج عنه، وذهب الى المدينة المنورة وأنشأ فيها الجامعة الاسلامية سنة ١٩١٤ . وفي السنة التالية تولى إدارة كلية صلاح الدين في القدس الشريف، ورافق الحملة التركية التي انتدبت للهجوم على قناة السويس. تنقل خلال الحرب العامة بين تركية والشام وأوفدته الحكومة التركية الى برلين للدعاية لها. وأنشأ صحفا في استانبول وسويسرة للدفاع عن استقلال مصر، واشترك سنة ١٩١٨ في المؤتمر المعقود في استكهولم للذود عن الامم المستعبدة .

عاد الى تركية قبيل نهاية الحرب، فلما شعر باندحار حكومتها وتقدم الحلفاء لاحتلال إستانبول، صح عزمه مع نفر من المصريين والترك على الفرار الى ألمانية عن طريق روسية. وقال الدكتور يحيى أحمد الدرديري رئيس تحرير مجلة الشبان المسلمين ورفيق الشيخ جاويش في جهاده بعد ذلك في مصر إن الشيخ كان مصابا آنذاك بالحمّى، فغادر فراشه ونزل مع صحبه في سفينة صغيرة أقلتهم الى بعض الموانىء الروسية. ثم استقلوا قطارا مُعَدا لنقل الحيوانات مشحونا بالخنازير، والروائح الكريهة تتصاعد منه، فقضوا اسبوعين ذاقوا خلالها ألوان الذل والهوان حتى بلغوا ألمانية وشدوا رحالهم منها الى سويسرة.

قال الدرديري ان الشيخ عبد العزيز وصحبه أنفقوا المال الذي في حوزتهم وضاق بهم الامر حتى قرروا أن يخرجوا الى الغابات للاحتطاب والارتزاق من وراء بيع

الاخشاب. لكن الله قيّض لهم رجلا محسنا عطف عليهم فانتشلهم من حالة البؤس التي كانوا يعانونها.

عاد الشيخ الى تركية سنة ١٩٢٢ إذ استدعاه الغازي مصطفى كمال باشا (كمال أتاتورك فيما بعد) وعينه رئيسا للجنة الشؤون التأليفية الاسلامية في أنقرة. ولم يلبث أن اختلف مع مصطفى كمال لعزمه على إلغاء الخلافة، فعاد الى مصر خلسة في ديسمبر ١٩٢٣ . واعتقلته الحكومة المصرية فيمن اعتقلتهم على أثر الاعتداء على سعد زغلول باشا في يوليو ١٩٢٤، وأفرجت عنه بعد أن قضى نحوا من خمسين يوما في السجن.

كان جاويش ينتهج سياسة مصطفى كامل في تحرير مصر من ربقة الاحتلال البريطاني وربطها بالخلافة الاسلامية. ومع أن محمد فريد فقد ثقته بتركية سنة ١٩١٢، فقد ظل جاويش يناصر الدولة التركية ويدافع عنها. غير أن الظروف بعد الحرب العظمى تبدلت تبدلا أساسيا، فتقلصت رقعة السلطنة العثمانية عقب اندحارها ثم ألغت الخلافة الاسلامية وأصبحت دولة علمانية . ورفع الوفد برئاسة سعد زغلول علم الجهاد، ورفعت الحماية عن مصر على أثر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، فرأى جاويش أن جهاده قد بلغ نهايته وقرر الانصراف الى خدمة التعليم الذي اتخذه مسلكا له في أول حياته. وعيّن سنة ١٩٢٥ مراقبا للتعليم الاولي بوزارة المعارف المصرية. وتوفي في القاهرة في ٢٥ يناير ١٩٢٩ .

شارك الشيخ جاويش في سنواته الاخيرة في تشكيل جمعية الشبان المسلمين . وقد قال يحيى الدرديري الذي لازمه في تلك السنوات إنه كان رجل عاطفة دينية ووطنية، لكنه لم يكن رجلا سياسيا فيزج نفسه في كل مأزق حرج غير حاسب لنفسه ولأصحابه حسابا. كان كثيرا ما يعثر في طريقه، لكن الكبوة لم تكن لتكبح همته وتخمد جذوة فكره، بل كان يتخذ منها ذريعة لمواصلة العمل والتغلب على المصاعب.

أنشأ مجلة الهداية لنشر الدعوة الدينية، غير أنه كان بعيدا عن التعصب، مكافحا للبدع والخرافات، ينهج نهج أستاذه الشيخ محمد عبده في التسامح والاصلاح. دافع عن الاسلام في كتيّبه «الاسلام دين الفطرة»، وبيّن محاسنه وسموّه الاخلاقي، وقد ترجم الى اللغة الانكليزية فكان موضع التقدير والاعجاب.

نشرت له ١٩٠٩ مجموعة مقالات في جريدة اللواء بعنوان «خواطر في التربية النفسية والاجتماع». كانت دعوة قاسم أمين في تحرير المرأة تنتشر آنذاك فتقسم المفكرين الى قسمين مناصرين ومعارضين، فكان جاويش بطبيعة الحال في صفوف

المعارضة، وكتب يقول إن واجبات المرأة تنحصر في تدبير نفسها ومنزلها وأولادها، يحسن أن تكون حياتها في غالب أمرها منزليا، لكن لا بد من تهذيبها لئلا تكون متاعا في يد الرجل .

ووضع أيضا من الكتب «إرشاد المعلمين» طبع سنة ١٩٠٦، ونشر له بعد وفاته «أذى الخمر ومضاره» (١٩٤٩) و «أثر القرآن الكريم في تحرير الفكر البشري».

كان كاتبا بليغا حرا في صراحته، تلك الصراحة الجريئة التي كثيرا ما جلبت عليه الويل والاضطهاد. كتب يرثي القلم فقال : «أيها القلم، لو كنت سيفا لاغمدتك في صدور من يحاربونك أو سهما لأنفذتك الى أعماق قلوبهم . ولو كنت جوادا لوجدت لك في ميادين النزال مجالا للكر والفر . ولكنك ذلك العود الذي أيسر ما ينال منه عدوه أن يعالجه بالمبراة فيشقه أو بالاصابع فيكسره ويحطمه» .

رثاه عند موته الشعراء، فقال شكيب أرسلان :

إنّي أحنّ الى اجتماع الشمل في ... الاخرى كأنّا في الحياة الاولى
ربُّ الوفاء وصفوة الخلان، قل ... أتركت بعدك من أعدُّ خليلا؟
أبقت عليك الحادثات كلومها ... والسيف يكسب بالجلاد فلولا . . .

وقال الشاعر عبد الحليم حلمي المصري في حفلة تكريم الشيخ جاويش عند خروجه من السجن في أغسطس ١٩٠٩ :

تصف السجون وما بها ... من جائر للمستجير
أيام كنت تخال نفسك ... بين سكان القبور
متقلبا فوق الفراش ... تقلّب العاني الأسير
وتود رؤية زائر ... يحنو على ذاك المزور
ما خفت من سجن الخيال ... وخفت من سجن الضمير
في جانب الوطن العزيز ... تهون هائلة الامور

تعرّف شاعر العراق معروف الرصافي، وكان نائبا في مجلس المبعوثان في إستانبول، بالشيخ جاويش فذكره في كتابه «نفح الطيب في الخطابة والخطيب» المطبوع في العاصمة التركية سنة ١٩١٧ . وقال إنه عالم نحرير وخطيب مفوه، وكان من زعماء الحزب الوطني في مصر فأثار حربا عوانا على الانكليز وناوأ سياسة الخديوي عباس حلمي الثاني، فاضطر على اللجوء الى إستانبول. وقد طلبته الحكومة المصرية فسلمته تركية اليها. فقال الرصافي في ذلك قصيدته :

إنـي عـهـدتـك لا تـكـون يـؤوسـا مـهـمـا لـقـيـت مـصـائـبـا ونـحـوسـا
كـم قـد صـدمـت الـنـائـبـات بـهـمـة جعلت لها الصبر الجميل لَبُوسًا . .

قال أحمد شوقي يرثي عبد العزيز جاويش :

أصـاب الـمـجـاهـد عـقـبـى الـشـهـيـد وأعـطـى عـصـاه الـمُـضَـاف الـشـريـد
وأمـسـى جـمـادا عـدو الـجـمـود وبـات عـلـى الـقـيـد خـصـم الـقـيـود
طـريـد الـسـيـاسـة مـنـذ الـشـبـاب لـقـد آن أن يـسـتـريـح الـطـريـد
لـقـيـت الـدواهـي مـن كـيـدهـا ومـا كـالـسـيـاسـة داءٍ يـكـيـد
حـمـلـت عـلـى الـنـفـس مـا لا يـطـاق وجـاوزت الـمـسـتـطـاع الـجـهـود
وقُـلِّـبْـتَ فـي الـنـار مـثـل الـنـضـار وغـرِّبـت مـثـل الـجـمـان الـفـريـد

وقال خليل مطران في رثائه:

طـيـبـوا قـرارا، أيـهـا الاعـلام وعـلـى ثـراكـم رحـمـة وسـلام
عـبـد الـعـزيـز، لـعـل مـوتـا سُـمْـتَـهُ قـد كـان أيـسـر مـا غـبـرت تُـسـام
عـمـر تـقـضّـى فـي جـهـاد لا تـنـي فـيـه ولا يـلـهـيـك عـنـه حـطـام

وقد كان عبد العزيز جاويش أعرف بقدر نفسه، يفاخر بعلمه وأدبه . كتب في إحدى رسائله يقول :

«أكتب فأين لعبد الحميد الكاتب قلمي، وأشعر فأين الشعراء إلا تحت علمي، وأبذل فأين حاتم من كرمي، وأحلم فأين أحنف من حلمي» .

علي الغاياتي

الشاعر الصحفي المصري المجاهد علي محمود الغاياتي ولد في دمياط في ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥ ودرس في معهدها الديني. قدم القاهرة سنة ١٩٠٧، وكان محررا في جريدة الجوائب المصرية لصاحبها خليل مطران، ثم بهرته مبادىء الحزب الوطني وأعجب بزعيمه مصطفى كامل فحرر في جرائد الحزب ونظم الشعر في تمجيده. وأصدر في سنة ١٩١٠ ديوان شعر بعنوان «وطنيتي» صدره بمقدمتين لمحمد فريد وعبد العزيز جاويش. وقررت السلطات مصادرة الديوان لتطرفه وتحامله على الخديوي عباس حلمي الثاني وأحالت الشاعر على محكمة الجنايات. واستطاع الغاياتي الفرار الى الآستانة في شهر يوليو ١٩١٠، وحكم عليه في الشهر التالي غيابا بالحبس سنة واحدة.

تولى في العاصمة التركية تحرير جريدة «دار الخلافة». وفي أواخر تلك السنة نفسها مضى الى سويسرة وانتمى الى جامعة جنيف ودرس اللغة الفرنسية. وقام بالتحرير في جريدة «تريبون دي جنيف»، ثم أصدر في فبراير ١٩٢٢ جريدة «منبر الشرق» باللغتين العربية والفرنسية، فواصلت الصدور الى مايو ١٩٣٧، وكانت نصف شهرية. عاد الى مصر سنة ١٩٣٧ فأعاد إصدار جريدة «منبر الشرق» بالعربية وجعلها منبرا للدفاع عن قضايا مصر الوطنية وقضايا العروبة والاسلام. وأصدر ديوان «فجر الثورة» ١٩٤٧ وألف أيضا «على هامش الحج» ١٩٤٧ و «قلة ذوق» ١٩٥١ . وكانت وفاته بالقاهرة في ٢٧ أغسطس ١٩٥٦ . كان الغاياتي الشاعر وطنيا ثائرا متحمِّساً، خاطب مصطفى كامل قائلا:

اصدع بقولك إن أردت مقالا   فالقوم جندك إن دعوت رجالا

ودعاه الى مواصلة رسالته في إنهاض الامة والمطالبة بالتحرر والاستقلال. وأطلق لسانه في التظلم لبلاده التي أرهقها الجور وحاقت باهلها البأساء وأودت بحلمها الارزاء. وهاجم الوزارة المتولية الحكم فاستمطر عليها النقمة الإلّهية وسأل الله أن يخيب مسعاها ويقضي على آمالها.

ومن شعره الناري الملتهب :

وعداة ملكوا الامر ولم يحفظوا للشعب في حقٍ ذماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا كلما رام العدا منهم مراما
طال يوم الظلم في مصر ولم تَذرِ بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتل أنا أمة مذ عرفنا السلم لا ندري الخصاما؟
أو يرى الظالم فينا أننا نحمل الخسف ولا نبغي انتقاما؟
زعموا زورا فما من أمة سامها الخسف ظلوم ثم داما
كتب النصر لشعب ناهض في سبيل المجد لا يخشى الحماما

قال الدكتور شوقي ضيف إن الغاياتي يتأثر في ديوانه «وطنيتي» تأثرا واسعا بمبادىء العدالة والحرية ويعلن الجهاد على ظلم الحاكمين. غير أنه وغيره من الشعراء الذين عاصروا أحمد شوقي وحافظ إبراهيم لم يكونوا من قوة الشعر وأصالته بحيث يثبتون لهذين الشاعرين اللذين تغنيا غناء عذبا جميلا باحاسيس الشعب وآماله .

سعد زغلول باشا

سعد بن إبراهيم زغلول ولد على أصح الاقوال في أول يونيو ١٨٦٠ في قرية إبيانة من أعمال مركز فوه بمديرية الغربية، وتوفي أبوه وهو في الخامسة من عمره، وكان عميد بلدته ومن أثرياء الزراع. أما أمه السيدة مريم فكانت ابنة الشيخ عبده بركات من أصحاب الغنى والجاه في إقليمه. كفل الصبي اليتيم أخوه الكبير وزوج خالته الشناوي أفندي، وكان رجلا حازما كريما، فأدخلاه مكتب القرية حيث تعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وحفظ القرآن. ثم أرسل الى دسوق لمواصلة الدرس، وحضر الى القاهرة فالتحق بالازهر سنة ١٨٧٣ ومكث فيه خمس سنوات درس خلالها العلوم من لغة وأدب ومنطق وتشريع على فطاحل العلماء كالشيخ حسن الطويل والمهدي العباسي وأبي النجا الشرقاوي ومحمد عبده. وهبط مصر آنذاك السيد جمال الدين الافغاني فلازمه وأفاد منه .

أخذ يكتب المقالات في صحف ذلك العهد كجريدة مصر والمحروسة والبرهان والتجارة . واختاره الشيخ محمد عبده الذي عهد اليه برئاسة تحرير جريدة الوقائع المصرية سنة ١٨٨٠ مساعدا له في تحرير الجريدة الرسمية، وكانت وقتئذ تعنى بنشر البحوث الادبية. وكتب سعد نفسه مقالات في الاخلاق والاستعباد والشورى. وترك الزي الازهري من قفطان وعمامة ليرتدي اللباس العصري والطربوش. ثم نقل معاونا في نظارة الداخلية في عهد وزارة محمود سامي باشا البارودي فناظرا لقلم قضايا الجيزة في سبتمبر ١٨٨٢ . وقامت بعد قليل الثورة العرابية وحامت حوله الشبهات لصلته الوثيقة بمحمد عبده، فأقصي من وظيفته في ٢ أكتوبر ١٨٨٢ . وطرق باب المحاماة في أبريل ١٨٨٣، لكن اتهم وزميلا له بتكوين جمعية سرية للانتقام من أعداء الثورة العرابية، فقدم الى القضاء وبرئت ساحته لفقدان الدليل بعد أن مكث في السجن مائة وخمسة أيام. وأفرج عنه في ٣ أكتوبر ١٨٨٣ .

درس سعد القانون على نفسه وزاول المحاماة في القاهرة، فاشتهر بنزاهته وصدقه

وبراعته، وكان لا يقبل التوكل في قضية إلا إذا أيقن بصحتها. ويؤثر عنه أنه مكث ساعات يدافع عن متهم، فقال له القاضي إن الوقت ثمين. ولم يكن منه إلا أن أجابه على البداهة: ولكن حياة المتهم أثمن! وفي سنة ١٨٨٨ اختارته الحكومة عضوا في لجنة ألفت لتنقيح قانون العقوبات. ونعم بالشهرة والجاه والثروة، وأصبح وكيل أعمال الاميرة نازلي فاضل، وكان لها «صالون» أدبي يحضره كبار الناس من وزراء وأمراء وأدباء .

وعيّن نائب قاضٍ بمحكمة الاستئناف في يوليو ١٨٩٢، فأقيمت له حفلة بصفته أول محام تدرج الى منصب القضاء، حضرها أحمد بليغ باشا رئيس محكمة الاستئناف ووكيلها إسماعيل صبري باشا والمحامي العام أحمد حشمت باشا. ورفِّع بعد ذلك مستشارا في المحكمة (١٨٩٩)، واقترن في ٢٨ نوفمبر ١٨٩٥ بصفيّة ابنة رئيس النظار مصطفى فهمي باشا، وقد عرفت فيما بعد باسم «أم المصريين». وتوفيت في يناير ١٩٤٦ عن ٦٨ عاما. ودرس خلال هذه المدة اللغة الفرنسية وتبحّر في العلوم القانونية ومضى الى باريس سنة ١٨٩٧ فأدى امتحان الحقوق ونال الاجازة فيه.

بقي في منصبه بمحكمة الاستئناف الاهلية ١٤ سنة، ثم عين في أكتوبر ١٩٠٦ ناظرا للمعارف في وزارة مصطفى فهمي. واستمر في هذه النظارة في وزارة بطرس غالي باشا التي خلفتها في ١٢ نوفمبر ١٩٠٨ . ونقل ناظرا للحقانية (العدل) في وزارة محمد سعيد باشا على أثر مقتل بطرس غالي (٢٣ فبراير ١٩١٠) حتى استقال في أول أبريل ١٩١٢ لخلاف وقع له مع اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في مصر.

ظل سعد في الوزارة نحوا من ٦ سنوات ناظرا للمعارف أولا وللعدل بعد ذلك. واستطاع في النظارة الاولى أن يحدّ من سلطة المستشار الانكليزي وأن يحقق دوره في الهيمنة على التعليم وإصلاح المناهج الدراسية وإرسال البعثات الطلابية الى الخارج. وكتبت جريدة «التايمس» اللندنية عنه تقول إنه من شيعة محمد عبده الذين امتازوا بالتهذيب والترقي، وقد سماهم لورد كرومر المعتمد البريطاني «فريق الجيروند» في النهضة الوطنية المصرية. وأضافت قائلة إنه مصري صميم أجمع الناس على احترامه والاعجاب به لما اشتهر عنه من الاستقامة والاستقلال. وقام سعد زغلول بإنشاء مدرسة القضاء الشرعي لتخريج قضاة شرعيين متنورين، وقدم المساعدات المالية للجامعة المصرية الاهلية التي أسست آنذاك .

وتولى وزارة العدل فأنشأ أول نقابة للمحامين. وأخذ عليه موافقته على إحياء قانون

المطبوعات القديم الذي يحد من حرية الصحافة ودفاعه في الجمعية العمومية عن مشروع مدّ امتياز قناة السويس أربعين عاما، ذلك المشروع الذي اعتبر مضرا بمصر وكتب له الفشل.

وقررت الحكومة المصرية إنشاء الجمعية التشريعية لتكون نوعا من الهيئة البرلمانية وتحل محل الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين. وتؤلف من النظار وأعضاء منتخبين وآخرين معينين. صدر القانون الخاص بالجمعية في أول يوليو ١٩١٣، ثم جرى الانتخاب، فرشح سعد نفسه عن دائرتين وفاز في الانتخابات. واجتمعت الجمعية في فبراير ١٩١٤ فانتخب سعد وكيلا الى جانب الرئيس والوكيل المعينين، وبذلك أصبح زعيما للمعارضة. وانتهى دور الانعقاد الاول للجمعية في يونيو ١٩١٤، فلم تعد الى الاجتماع لنشوب الحرب العامة وفرض الحماية البريطانية على مصر وما نتج عن ذلك من خلع الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان غائبا في تركية وتعيين عمه حسين كامل سلطانا في ١٩ ديسمبر ١٩١٤ .

خيّمت ظلال الحرب على القطر المصري أربع سنوات. فلما أعلنت الهدنة ذهب سعد باشا مع زميليه علي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك الى دار الحماية في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ وقابلوا المندوب السامي البريطاني السر رجينالد ونجيت وسألوه أن يسمح لهم بالسفر الى لندن لعرض مطالب البلاد على الحكومة البريطانية. ولما لم يجدوا منه تجاوبا قرر سعد باشا وصحبه تأليف الوفد المصري ليكون هيئة ممثلة للشعب وتحصل على توكيلات من الامة تخولها هذه الصفة لأجل السعي بالطرق السلمية المشروعة للحصول على استقلال البلاد.

طلب سعد وصحبه من سلطة الاحتلال العسكرية السماح لهم بالسفر الى إنكلترة فقوبل طلبهم بالمماطلة والرفض. وتوالت الاحتجاجات والاجتماعات تأييدا لمطالب الوفد الممثل للأمة، فأنذرت السلطات العسكرية البريطانية سعد باشا وأعضاء الوفد بوجوب وقف نشاطهم وإلا تعرضوا للمعاملة الشديدة بموجب الاحكام العرفية. ولما لم يعر الوفد هذا الانذار اهتماما اعتقلت السلطة سعدا وثلاثة من زملائه، محمد محمود باشا وإسماعيل صدقي باشا وحمد الباسل باشا، في ٨ مارس ١٩١٩ ونفتهم الى جزيرة مالطة. عند ذلك هاجت الخواطر وبدأت الاضرابات والتظاهرات الشعبية، وكان ذلك بداية الثورة المصرية المطالبة بالحرية والاستقلال.

لم ير الانكليز بدّاً من الرجوع عن غيهم فقرروا في ٧ ابريل الافراج عن سعد

وزملائه والسماح لهم بالسفر، فمضوا الى باريس للاتصال بمؤتمر الصلح المعقود في فرساي. لكن الرئيس الاميركي توماس وودرو ولسن صاحب المبادىء الاربعة عشر في حق الشعوب في تقرير مصيرها قلب للمصريين ظهر المجن واعترف بالحماية على بلادهم. وأوفدت الحكومة البريطانية لجنة برئاسة اللورد ملنر الى القاهرة للتحقيق في أسباب الاضطرابات وتقديم تقرير عن شكل القانون النظامي الذي يحل محل الحماية. لكن المصريين قاطعوا اللجنة ورفضوا الاتصال بها فعادت الى لندن في مارس ١٩٢٠ . ودعي الوفد للحضور الى العاصمة البريطانية للمفاوضة، فلم تسفر المباحثات عن نتيجة وعاد الوفد الى باريس .

إتضح للورد ملنر أن الحماية التي فرضت على مصر لا يمكن أن يتقبلها المصريون فنصح حكومته بالعدول عن سياستها واستبدال الحماية بمعاهدة تعترف باستقلال مصر مع المحافظة على المصالح البريطانية فيها. وعلى أثر ذلك ألفت وزارة جديدة برئاسة عدلي يكن باشا وعاد سعد من باريس الى القاهرة في أبريل ١٩٢١ . وكان المفروض أن يشترك الوفد المصري مع الوفد الوزاري الرسمي في المفاوضات، ولكن الخلاف قام على رئاسة الوفد بين سعد وعدلي. ودبّ الخلاف في داخل الوفد نفسه إذ اختلف بعض الاعضاء مع رئيسه فانسحبوا. أما عدلي باشا فمضى على رأس الوفد الحكومي الى لندن وفاوض اللورد كرزن وزير الخارجية طوال أشهر الصيف، وفي الاخير رفض مشروع الاتفاق الذي عرضه المفاوض البريطاني وعاد الى مصر في ديسمبر ١٩٢١ واستقال من الوزارة.

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩٢١ اعتقلت السلطة العسكرية سعد باشا ونفته مع خمسة من أعضاء الوفد الى جزيرة سيشل في المحيط الهندي. ونقل سعد في ١٨ أغسطس ١٩٢٢ الى جبل طارق لمرضه. ورأت الحكومة الانكليزية في هذه الظروف أن تتخذ إجراءات منفردة، فأصدرت في ٢٨ فبراير ١٩٢٢ تصريحا يقضي بانهاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وإلغاء الاحكام العرفية على أن تحتفظ انكلترة لنفسها بحق تأمين المواصلات الامبراطورية والدفاع عن مصر في حالة الاعتداء الخارجي عليها وحماية المصالح الاجنبية والاقليات والتحفظ في قضية السودان. وتتابعت الاحداث بعد ذلك، فاتخذ السلطان أحمد فؤاد لقب الملك، وأصدر الدستور في ١٩ ابريل ١٩٢٣ . وأفرج عن سعد وصحبه في ٢٧مارس ١٩٢٣ .

عاد سعد الى مصر في ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ فقوبل بمظاهر الحفاوة والفرح العظيم.

وجرت الانتخابات النيابية ففاز الوفد بـ ٩٠ في المائة من مقاعد مجلس النواب. ودعي سعد الى تأليف الوزارة فشكلها في ٢٨ يناير ١٩٢٤ متوليا الرئاسة ووزارة الداخلية ومدخلا عناصر وطنية من خارج الوفد كمحمد سعيد باشا ومحمد توفيق نسيم باشا من رؤساء الوزراء السابقين وستة أعضاء وفديين.

وقرر سعد السفر الى لندن لمفاوضة حكومة العمال الجديدة التي ألفت برئاسة جيمس رمزي مكدونالد، لكن اعتدى عليه شاب في محطة قطار القاهرة في ١٢ يوليو ١٩٢٤ فأصيب بجروح في ساعده الايمن. وظل رابط الجأش وقال: نموت ويحيى الوطن. وكان لهذا الاعتداء على الزعيم الشعبي أثر بالغ في النفوس، فقال أحمد شوقي بك يهنئه بالنجاة:

نجا وتماثل ربّانها   ودقّ البشائر ركبانها
وهلل في الجو قيدومها   وسير في الماء سكانها
نجا نوحها من يد المعتدي   وضلّ المقاتل عدوانها
يد للعناية لا ينقضي   وإن نفد العمر شكرانها
وفي الارض شر مقاديره   لطيف السماء ورحمانها
ونجّا الكنانة من فتنة   تهدّدت النيل نيرانها

حتى قال:

حوت دمك الارض في أنفها   زكيا كأنك عثمانها
ورقّت لآثاره في القميص،   كأن قميصك قآنها
وريعت كما ريعت الارض فيك   نواحي السماء وأعنانها
ولو زُلْتَ غيّب عمرو الامور   وأخلى المنابر سحبانها

والقصيدة طويلة في ٥٠ بيتا وفيها من المبالغات التي يستسيغها الشعر العربي في ذلك العهد.

وقال محمد حافظ بك إبراهيم:

الشعب يدعو الله، يا زغلول   أن يستقل على يديك النيل
أيموت سعد قبل أن نحيى به؟   خطب على أبناء مصر جليل!
يا سعد، إنك أنت أعظم عدّة   ذخرت لنا نسطو بها ونصول...

وأبلّ من مرضه فسافر في أواخر شهر يوليو نفسه الى باريس، وبارحها في سبتمبر الى العاصمة البريطانية للمفاوضة. غير أن حكومة العمال لم تكن أكثر سخاء من

حكومات الاحرار والمحافظين التي سبقتها فعاد الى مصر .

وفي ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ اغتيل الجنرال السر لي ستاك باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام فأنذر المندوب السامي البريطاني اللورد اللنبي الحكومة المصرية وتقدم بمطالب جائرة، فلم يسع سعد إلا رفضها وتقديم استقالته في ٢٣ منه. وقبلت استقالته في اليوم التالي ودعي أحمد زيور باشا الى تأليف الوزارة الجديدة التي قبلت شروط الانكليز المتعلقة بدفع غرامة نصف مليون جنيه وسحب الجيش المصري من السودان وقمع المظاهرات الشعبية.

حلّ مجلس النواب وجرى الانتخاب للمجلس الجديد في مارس ١٩٢٥ ففاز مرشحو الوفد وانتخب سعد رئيسا للمجلس الذي حل فورا. وأخيرا استقالت الوزارة الزيورية في ٧ يونيو ١٩٢٦ وألفت وزارة ائتلافية من حزبي الوفد والاحرار الدستوريين برئاسة عدلي يكن باشا. وانتخب سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب الجديد.

مرض سعد مرضا شديدا وتوفي في القاهرة في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧، فانطوت بموته صفحة باهرة من صفحات الزعامة والجهاد والتضحية الوطنية.

كان سعد خطيبا مِدْرَهاً بليغا فصيح العبارة. قال محمد توفيق دياب: «لم يعد سعد رئيس الوفد فحسب، بل انعقدت له فوق زعامته السياسية زعامة نفسية أخرى هي أبقى وأمتن، زعامة الخطيب العبقري الفَذّ، زعامة العاطفة القوية الجبارة تنطبع بها عواطف السامعين، زعامة النفس الحساسة الفوّارة، يبكي السامعون لبكائها ويضحكون لضحكها ويثورون لثورتها حتى ليهون عليهم بذل الحياة راضين». ثم قال: «كانت قوة كمينة أثارتها محنة الوطن، كانت سراجا ينقصه الثقاب ليشتعل وينير. وقد جاءت الثورة القومية ثقابا لهذا السراج فاشتعل وأنار. وهل تبدو الكواكب وضّاءة إلا في الليلة الظلماء؟...»

من كلمات سعد المأثورة

- أقسم بالوطنية وعزتها لو كنت أعرف أني أقود أمة بلهاء تنقاد لكل زعيم بدون تصور ولا إدراك كما يصفها أعداؤها ما رضيت أن أكون قائدا لها .

- لا استعباد، ولا استعمار، لا حماية، لا رقابة، لا تدخل لأحد في شأن من شؤوننا. هذا ما نريد وهذا ما لا بد أن نحصل عليه.

ـ إن قوتنا ليست مستمدّة من الخارج بل هي في نفوسنا، فلتكن نفوسنا قوية نصل الى غايتنا.

ـ لا يمكن أن نعتبر للحكوميين مذهبا لأن المذهب يقتضي مبادىء وقواعد، أما هم فقاعدتهم القوة، وما يعتمد على القوة لا يصح مذهبا.

ـ كل تقييد للحرية لا بد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها، وإلا كان ظلما.

ـ نحن نحب الحرية ولكنا نحب أكثر منها أن تستعمل في موضعها.

ـ الصحافة حرة تقول في حدود القانون ما تشاء وتنتقد ما تريد، فليس من الرأي أن نسألها لم تنتقدنا. بل الواجب أن نسأل أنفسنا لم نفعل ما تنتقدنا عليه.

ـ الجبان ليس أهلا بالحرية، فإمّا أن نكون جبناء فنظل مستعبدين، وإما أن نكون شجعانا فنصير أحرارا بين الامم.

ـ إما أن آخذ حقي كاملا وإمّا أن لا آخذه.

ـ لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم. لا أقول ذلك ولا أدّعيه، بل لا أتصوره. إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الاسرة المالكة محمد علي. وللحركة العربية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الافغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير. وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضا، وكذلك للمرحوم فريد بك.

ـ تعوّدتم طاعتي وأنا لم أكن أميرا فيكم ولا قريبا لبيت من بيوت ملك اعتدتم الخضوع له... بل أنا فلاح ابن فلاح من بيت صغير يقول عليه خصومنا إنه حقير، ونعمت الحقارة هذه. ولم أكن غنيا ليكون التفافكم حولي طمعا في مالي، ولا أنا ذو جاه أوزع الجاه على من يطمع فيه. ولكنكم التففتم حولي فدللتم بذلك أنكم لا تطلبون مالا ولا جاها بل السجن في بعض الاوقات .

ـ ليس في الامة طبقات يمتاز بعضها عن بعض، بل كلها طبقة واحدة.

ـ كل شريعة تؤسس على فساد الاخلاق فهي شريعة باطلة.

ـ الحق فوق القوة والامة فوق الحكومة.

- إننا إذا احترمنا أمرا للحكومة نحترمه لانه نافع للامة لا لأنه صادر من تلك القوة المسيطرة.

- يعجبني الصدق في القول والاخلاص في العمل وأن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون.

- الذي يلزمنا أن نفاخر به هو أعمالنا في الحياة لا الشهادات التي في أيدينا.

- أعاهدكم عهدا لا أحيد عنه على أن أموت في السعي الى استقلالكم، فإن فزت فذاك، وإلا تركت لكم تتميم ما بدأت به.

- كلمتي ووصيتي فيكم أن تحافظوا على هذا الاتحاد المقدس وأن تعرفوا أن خصومكم يتميزون غيظاً كلما وجدوا هذا متينا فيكم .

- يجب أن ننقاد للقانون وألا نعتبر الانقياد اليه مهانة ومذلة بل عزا وشرفا.

وقد قال للانكليز وهو يفاوضهم في لندن: «إن مصر تملك زرّاً كهربائيا إذا ضغطت عليه لبتها بلاد العروبة جميعا».

ألف في شبابه كتابا في «فقه الشافعية» وجمعت خطبه في أواخر أيامه في كتابين مطبوعين. وكتبت في سيرته وجهاده وآثاره عشرات الكتب.

وصفه حافظ إبراهيم في «المرآة» فقال: «رزقه الله بسطة في الجسم والجاه فهو ملء العيون ملء الصدور... إذا غشي مجلسا وفيه قوم جلوس رأى القوم أنفسهم وقوفا ولم يريدوا، وتنحّوا عن الصدر ولم يقصدوا، وخاطبوه بالرياسة ولم يتعمدوا، ورأى سعد نفسه رئيسا ولم يتطلع... إذا وقف سعد يخطب الناس وثبت الالفاظ من مكامنها واسفرت المعاني عن وجودها وتغايرت في السبق الى ذهنه ولسانه... فإذا جلس سعد الى الانشاء وقعت منه على اسلوب لا يغبط عليه كاتبه، فلو أن حالفا حلف أن سعدا الخطيب هو غير سعد الكاتب لبرّت يمينه». وقال: «إنه يتشدد في الحق ولا يترخص فيما يعتقد أنه حق. ذلك كان شأنه قبل الزعامة، فكما ملك يومه وأصبح الزعيم الاكبر أبت عليه طبيعة السياسة أن يأخذ دائما بذلك التشدد، فهو إذا وقفت به الحزبية بين الصواب وبين هوى العامة لا يلبث أن يعدل الى الثانية تمكينا لسلطانه عليهم، يفعل ذلك وهو يعدها في نفسه على نفسه قبل أن يعدها خصومه عليه... وزاره في بدء الحركة الوطنية أحد المتطرفين فتجادل في أمر من الامور وحمي الجدال فأغلظ المتطرف

القول. فقال له سعد: أتجبهني بمثل هذا القول وأنت في بيتي؟ قال: لم أكن في بيتك! قال: ففي بيت مَنْ إذن؟ قال في بيت الامة! فسرّي عن سعد وقال له: صدقت، إنه بيت الامة. ومن ذلك الحين أصبح بيت سعد بيت الامة».

وقال حافظ إبراهيم أيضا: «وهو كثير الذهاب بنفسه، ولم يجئه ذلك من ناحية الزهو كما يزعمون، ولكن جاءه من ناحية التمكن من النفس» .

وقال الشيخ عبد العزيز البشري: «ملء السمع، ملء القلب، ملء البصر. لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلا عظيما ما استطاع. وهيهات لامرىء أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله. وقد سوّى له الله هذه العظمة من يوم مَدْرَجه، فكان طالبا عظيما، وكان مِدرَها عظيما، وكان قاضيا عظيما، ثم تناهت اليه زعامة أمة فهو فيها ملء السهل والجبل».

وقال عباس محمود العقاد: «إن سعدا الخطيب شجي الصوت تمتزج فيه العذوبة بالمضاء وتشترك الجوارح والارواح بالعكوف عليه والاصغاء.»

وقال عبد القادر حمزة باشا صاحب جريدة البلاغ: «من الفضول على ما أظن أن أحاول تصوير سعد باشا كاتبا وخطيبا، فإن خطبه وبياناته تملأ أسماع مصر والشرق والناطقين بالضاد جميعا. . . ولكني أحب هنا أن أقول شيئا يقوله سعد باشا نفسه عن نفسه، وهو أنه لا يقول إذا قال ولايكتب إذا كتب إلا بدافع من عقيدته ووجدانه. .»

وقال الدكتور محمد حسين هيكل باشا: «تجسمت في سعد فكرة مصر في عصره بكل قوة الايمان الوطني، لذلك آمن الشعب به وقدس آماله في شخصه . لذلك لم يمت سعد لانه فكرة هذه الآمال وذكراها المتجددة في نفس الشعب».

وقال إبراهيم عبد القادر المازني: «كان زعيما بفطرته، يساير الشعب ثم يملك زمامه ويستولي على قياده، ويسير به الى حيث يشاء، فلا ينبو الشعب في كفه.»

سعد في بلاد العروبة

قام سعد يطالب بحق أمته في الحياة الحرة المستقلة، وقامت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وسورية والعراق تتطلعان الى الاستقلال والنهضة وترومان تحقيق مطالبهما الوطنية، فلا عجب أن أعجب رجال البلدين وسواهما من أقطار العروبة بزعيم مصر المناضل، تتبعوا أخباره واقتفوا آثاره واستوحوا معالم جهاده. فلما جاء نعيه سنة ١٩٢٧ أقيمت له المآتم وكتبت في ذكره المقالات ورثاه الشعراء والأدباء.

وقد كتب الصحفي العراقي إبراهيم صالح شكر صاحب البيان الرائع والأسلوب اللاذع في جريدته «الزمان» بعنوان «هل يموت زغلول؟ تهنئة لمصر بموت زعيمها وعزاء للعراق بحياة المتزعمين فيه». قال: « سعد زغلول مات، هكذا نقل الينا رويتر. وإذا اهتزت أسلاك رويتر لهذا الخبر فإنما تهتز له أعصابنا وتضطرب له أفئدتنا، ولكن بغير العامل الذي دفع رويتر الى هذه الاذاعة وإن اتفقنا في الاهتزاز. وساعة قرأنا النبأ قلنا: أيموت سعد زغلول ؟ وهل عقمت البطون التي أنجبت على ضفاف النيل أضراب زغلول في الوطنية وفي العبقرية وفي النبوغ وفي الجهاد الحي الدائم؟...» ثم قال: «تلبس مصر والبلاد العربية الناهضة ثياب الحداد على الزعيم العظيم، ولكننا لا نبكي كما يبكون، ولا نرثي كما يرثون إلا ساعة نعتقد أن مصر لم تقم لها قائمة بعد سعد.

«والدمعة التي ترقرقت في أجفان المصريين ففي عيون العراقيين لا تزال جافة أو حائرة في أجفاننا، ولا ندري أنسكبها من أجل الراحل العزيز أم نسكبها من أجل أمة عظيمة القدر، جليلة الأثر، ليس فيها من يسد الفراغ في بلاد الفراعنة ويثبت لمن فرح وجذل بمصرع البطل أنّ في السويداء رجالا وأبطالا، ولذلك قلنا في مطلع المقال: هل يموت زغلول؟ ونقول الآن إن زغلولا مات إذا ماتت الامة المصرية وتبعثرت فيها الحركة الوطنية بعد رحيله...

«لا ترتدي مصر ثوب الحداد اليوم، وإنما هي ترتدي ثوبا فضفاضا ناصع البياض. زغلول إذا لبس الكفن فإنه لم يلبسه أسود بل أبيض. وهكذا تستقبل الامة المصرية بثغر بسام طوارق الحدثان كما استقبل سعد الموت الزؤام... إنّا لموقنون أن مصر ستكون أكثر إقداما وشجاعة في ميدان النضال بعد زغلول، وما ذلك إلا لأن مصر هي التي خلقت هذا الزعيم وجهزته بأمضى الأسلحة وأقواها... فتهنئة حميمة لمصر بوفاة زعيم عظيم ترك له من الأثر الخالد أن أمته تهنأ بحلول أبطال كثار بعد فقده، الواحد تلو الآخر. ولكن عزاءً لهذا العراق بحياة المتزعمين فيه، فهم يفرّقون شملا مجتمعا ويباعدون بين قلوب ما عرفت إلا التآلف والمحبة والوفاق ...».

وكثرت مراثي الشعراء لسعد وكلها يتدفق حماسة ويلتهب إخلاصا ويتسامى إكبارا للزعيم الجليل. فقال شاعر الشام شفيق جبري :

نَمْ في ظلال الخالدينْ   جبّار مصر على السنين
في جانب الحرز الحريز   وفي حمى الحصن الحصين
العبقرية عَن شمالك   والخلود عن اليمين...

يا سعد، كلّ في الكنانة ... باسمك الأعلى يدين

وقال شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي :

لقد كان سعد خير قرم مجاهد ... ولكن سعدا قد مضى غير عائد
وكان لجيش الحق مذ كان يافعا ... برغم الرزايا والرقيب المراصد . . .

ورثاه بقصيدة ثانية فقال :

كبر الحزن في العراق لسعد ... فهو في مأتم على البعد شاجي
شاركت بغداد الكنانة فيه ... فهي في لهف مثلها وهياج . . .

ورثاه بقصيدة ثالثة مطلعها :

مات سعد فما عسى أن تقولا ... فيه حتى تهزّ جمعا حفيلا ؟

وتسابق الى رثائه سائر شعراء العراق، ومنهم عبد الحسين الازري ومحمد بهجت الاثري ومحمد علي اليعقوبي وإبراهيم أدهم الزهاوي وأنور شاؤول وعبد الرزاق الهاشمي ومصطفى جواد وحسين علي الاعظمي وكمال نصرت وأكرم أحمد وخضر عباس الطائي ومحمد هادي الدفتر ورباب ابنة الشيخ عبد المحسن الكاظمي.

وقد كان شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي شديد الصلة بسعد مذ أجرى له راتبا من خزانة الاوقاف بعد وفاة الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ . وقد أشاد بذكره وقوة جهاده الوطني وأثنى عليه في منفاه وفي حله وترحاله وعند إبلاله من المرض وهنأه بالوزارة ورثاه عند موته بأربع قصائد طوال. وقال فيها :

من ذا رأى قبل هذا ... أرضا تواري السماءا ؟
يا أرض زغلول تيهي ... على السماء إزدهاءا

وقال الشيخ فؤاد الخطيب يرثي سعدا :

يا رافع الصوت ينعى المفرد العلما ... زلزلت في الشرق ركن الشرق فانحطما

شخصية سعد زغلول

قال أحمد شفيق باشا في «حولياته» يحلل شخصية الزعيم المصري إنه رجل ولا كالرجال. فهو من صميم المصريين، قويّ الشكيمة، شديد القناعة بأنه دائما على حق، يندفع وراء فكرته غير حاسب للعواقب حسابا. لا تزحزحه أية قوة عن رأي اقتنع بأحقيته. صبور على المكاره لا تثنيه القوة عن عزمه ولا يلين لخصمه إذا غلبه على أمره، غير أنه يكون شديد الوطأة عليه إذا ظفر به. يضحي بالكثير في سبيل

الانتصار. . . وهو الى جانب ذلك واسع الاطماع، ذو شخصية بارزة كل البروز، وقّاد القريحة، فصيح البيان، طلق اللسان، خطيب قويت فيه ملكة الجدل والاقناع، رقيق اللفظ، عذب المقال، في مجانة غير مرذولة. فهو الزعيم بأوسع معاني الكلمة.

ذكر أحمد شفيق أن سعدا امتاز بالصراحة والشجاعة والتضحية. وقال إنه حين اضطلع باعباء الحكم فطن الى ما كان من شدته في الحكم على من سلفه من الوزراء، فلطّفت هذه التجربة من حدّته الوطنية. وانتقد أحمد شفيق استسلامه لداء «المحسوبية» في تعيين الموظفين وتأثره بالوشايات ولجوءه الى خطة البطش بالموظفين الذين قعدوا عن مناصرة حزبه. وقد ناقض سعد كثيرا من آرائه التي صرح بها قبل أن يلي الحكم، وهدد بالاستقالة كلما حزبه الامر، وحاول كبح جماح الصحف التي لم تؤيده، ثم ارتضى لنفسه ما قرّع به خصومه من مواقفهم في مفاوضة الحكومة البريطانية!

سعد زغلول وحرية الفكر

وقف سعد زغلول، وهو من دعاة حرية الفكر، موقفا مريبا من المعركة التي قامت ضد الشيخ علي عبد الرازق مؤلف كتاب «لاسلام وأصول الحكم» والدكتور طه حسين صاحب «في الشعر الجاهلي» سنة ١٩٢٥/٢٦، وذلك لاسباب تعود الى السياسة الحزبية. فاشترك في إدانة الرجلين، وقال: «قرأت كثيرا للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم في الاسلام حدّة كهذه الحدّة في التعبير على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق. لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه بل بالبسيط من نظرياته.» وقال إن قرار هيئة كبار العلماء بإخراجه من زمرتهم صحيح لا عيب فيه.

ولما ثارت قضية «في الشعر الجاهلي» عاد سعد زغلول فانتقد منهج طه حسين وقال إن الدين الاسلامي متين لا يخشى عليه من مثل تخرصاته، بل ذهب الى أبعد من ذلك فشبهه برجل مجنون يهذي في الطريق ولا يضير العقلاء شيء من ذلك الهذيان.

وهكذا نرى أن التحزب السياسي يطغى على الافكار ويقلب زعيما عظيما كسعد، كان تلميذا لجمال الدين الافغاني ومحمد عبده، الى رجل ضيّق الفكر مناوىء للحرية الفكرية لمجرد معارضة خصوم «الوفد» من رجال الحزب الحر الدستوري الذين وقفوا الى جانب علي عبد الرازق وطه حسين .

مراثي سعد زغلول

رثى شعراء مصر سعد زغلول، فقال أحمد شوقي:

شَيَّعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها
تسكب الدمع على سعد دماً أمة من صخرة الحق بناها
لُقِّن الحق عليه كهلها واستقى الايمان بالحق فتاها

وقال خليل مطران:

لينتشر بعد طي ذلك العلم ولينتعش أمل يكبو به الالم
لا خطب أكبر مما راع أثبتكم لكن أعيذكم أن تضعف الهمم

وقال محمد حافظ إبراهيم:

إيه يا ليل، هل شهدت المصابا كيف ينصبّ في النفوس انصبابا؟
بلِّغ المشرقين قبل انبلاج الصبح أن الرئيس ولّى وغابا
وانعَ للنيِّرات سعدا فسعد كان أمضى في الارض منها شهابا

وقال عباس محمود العقاد في الذكرى الاربعين لوفاة سعد:

أمضت بعد الرئيس الاربعون عجبا! كيف إذن تمضي السنون
فترة التيه تغشّت أمة غاب موساها على طور سنين . . .

والقصيدة طويلة تعدّ نحوا من ١٩٠ بيتا متساوي النفس. وكان العقاد قد نظم قصيدة أخرى عدّتها ٦٨ بيتا لدى عودة سعد من منفاه في سيشل وجبل طارق سنة ١٩٢٣ قال في مطلعها:

الشوق يبلغ ما لا تبلغ النُّجُبُ واليوم يشهد ما لا تشهد الحقب

ونقل رفات سعد الى ضريحه الجديد فقال علي محمود طه:

طال انتظارك بين اليأس والأمل، يا كعبة المجد حيّي موكب البطل
هذا المآب المرجّى شُقّةٌ قَصُرت وغربة عن ثراك الطُّهر لم تَطُلِ

مصطفى النحاس باشا

حينما توفي سعد زغلول سنة ١٩٢٧ لم يخلفه في زعامة الوفد والأمة أحد من السياسيين الكبار ذوي الماضي الباهر والمقدرة والخبرة الفائقة، كاسماعيل صدقي ومحمد محمود وعبد العزيز فهمي وعلي ماهر وغيرهم من الذين أبلوا بلاءً حسنا في الجهاد الوطني في نهاية الحرب العظمى الاولى، بل خلفه رجل دونهم شهرة وخبرة ماضية في مناصب الدولة، وكانت مزيته الوحيدة إخلاصه للزعيم الراحل وسيره وراءه بغير مناقشة ولا سؤال وخدمته له في السراء والضراء.

ذلكم هو مصطفى النحاس الذي ارتقى فجأة الى أضواء المسرح السياسي، لكنه لم يلبث أن أبرز شخصيته الفائقة وعناده الوطني وجهاده الذي لم يعرف الكلل ولا الملل خلال ربع قرن . وقد قال الدكتور رفعت السعيد في كتابه الصغير «مصطفى النحاس: السياسي والزعيم والمناضل» إن ٧٠ وزارة ألفت في مصر من النظارة الاولى برئاسة نوبار باشا سنة ١٨٧٨ الى وزارة علي ماهر في أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢، لكن لم يحدث طوال هذا التأريخ أن أقيل رئيس وزراء إلا مصطفى النحاس باشا. وقال: «كانت كل الازمات أو التغييرات الوزارية تسوّى بأن يقدم رئيس الوزراء إستقالته، أما النحاس الذي كان مقتنعا اقتناعا تاما لا يتزعزع بأنه صاحب الاغلبية البرلمانية، ومن ثم صاحب الحق الدستوري المطلق في الحكم، فقد رفض أية تسويات لأزماته مع الملك، ورفض أن يقدم أية استقالة، ومن ثم فقد كان السبيل الوحيد أمام القصر للإطاحة بحكومات الاغلبية هو إقالتها.»

ولد مصطفى محمد النحاس في مركز سمنود في ١٥ يونيه ١٨٧٦ وكان أبوه تاجر أخشاب في تلك البلدة الصغيرة. درس في مدرسة الحقوق بالقاهرة فتخرج فيها في يونيه ١٩٠٠ . مارس المحاماة في المنصورة ثم عيّن سنة ١٩٠٤ قاضيا بالمحاكم الأهلية. وخدم في القضاء الى ظهور الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ فاستقال في يوليو والتحق بالوفد المصري، وكان موضع ثقة سعد زغلول الذي اختاره سكرتيرا للوفد. ونفي مع الزعيم الى جبل طارق وجزيرة سيشل في ديسمبر ١٩٢١ . ولما جرت الانتخابات النيابية

انتخب عضواً في مجلس النواب وأصبح وزيرا للمواصلات في الوزارة الوفدية الاولى برئاسة سعد (٢٨ يناير ١٩٢٤) الى استقالتها في ٢٤ نوفمبر من السنة نفسها بعد مقتل حاكم السودان العام السردار السر لي ستاك باشا.

وكان في السنة التالية وكيلا لمجلس النواب الذي حُلّ فورا، ثم اختير رئيسا للمجلس إثر وفاة سعد في أغسطس ١٩٢٧ كما اختير رئيسا للوفد. ألف النحاس سبع وزارات أولاها في ١٦ مارس ١٩٢٨ حيث تولى وزارة الداخلية مع الرئاسة، ثم أقيل في ٢٥ يونية من السنة نفسها بدعوى أن الائتلاف الذي قامت على أساسه الوزارة قد أصيب بصدع شديد. وعاد الى سدة الحكم في أول يناير ١٩٣٠ متوليا رئاسة الوزراء والداخلية أيضا، واستقال في ١٧ يونية ١٩٣٠ . ويبقى في المعارضة الى ٩ مايو ١٩٣٦ حين ألف وزارته الثالثة بعد وفاة الملك أحمد فؤاد، ثم ألف وزارته الرابعة في أول أغسطس ١٩٣٧ عقب تولي الملك فاروق سلطته الدستورية، لكن وزارته أقيلت في ٣٠ ديسمبر من تلك السنة بحجة «أن الشعب لم يعد يؤيد طريقة الوزارة في الحكم ويأخذ عليها مجافاتها لروح الدستور وبعدها عن احترام الحريات العامة وحمايتها».

خلال تلك المدة فاوض النحاس بريطانية وعقد معها معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ التي أقرّت استقلال المملكة المصرية نهائيا. ثم عقد معاهدة مونترو في ٩ مايو ١٩٣٧ لالغاء الامتيازات الاجنبية، وقبلت مصر عضوا في عصبة الامم في ٢٦ من الشهر نفسه. وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٣٧ أطلق الشاب عز الدين عبد القادر الموظف في وزارة الزراعة النار على النحاس فأخطأه، وقيل إنه كان له اتصال بزعماء العرب في فلسطين.

إستمر الصراع بين الوفد والحكومات المتعاقبة التي تسندها السراي الملكية الى نشوب الحرب العالمية. وقد صرح النحاس أن الانكليز الذين يحاربون دفاعا عن الديمقراطية في بلادهم يدأبون على العمل ضد الديمقراطية في مصر. لكن السر مايلز لامبسن السفير البريطاني أرغم الملك فاروق على إقالة وزارة حسين سري باشا ودعوة النحاس الذي يتمتع بتأييد شعبي عظيم الى العودة الى الحكم .

ألف النحاس وزارته الخامسة في ٤ فبراير ١٩٤٢ متوليا وزارتي الداخلية والخارجية أيضا. وقال إنه لم يجد بدأ من التقدم لانقاذ الموقف وتحمل المسؤولية عن تطورات جلبها غيره على البلاد بأعماله أو باهماله. واتصل في الوقت نفسه بالسفير البريطاني وحصل منه على وعد بتنفيذ المعاهدة المصرية ـ البريطانية على أساس الاحترام والولاء المتبادلين ومعاملة مصر معاملة الند للند من غير مساس باستقلالها وحقوق سيادتها أو

تدخل في شؤونها الداخلية .

ثم إختلف مع وزير ماليته مكرم عبيد باشا الذي اتهم الوزارة بالتقصير وسوء التصرف فأعاد النحاس تأليف وزارته السادسة في ٢٦ مايو ١٩٤٢ . وتخلى عن وزارة الداخلية في ٢ يونية ١٩٤٣، ثم أقيلت الوزارة في ٨ أكتوبر ١٩٤٤ بحجة حرص الملك فاروق، كما قال، على أن تحكم البلاد وزارة ديمقراطية تعمل للوطن وتطبق أحكام الدستور نصا وروحا وتسوّي بين المصريين جميعا في الحقوق والواجبات وتقوم بتوفير الغذاء والكساء لطبقات الشعب.

وضعت الحرب أوزارها ونشبت حرب فلسطين واغتيل خلال هذه المدة رئيسان للوزارة هما أحمد ماهر باشا في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ومحمود فهمي النقراشي باشا في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ . وتعاقبت الوزارات على الحكم، وأخيرا دعي النحاس الى تأليف وزارته السابعة والاخيرة في ١٢ يناير ١٩٥٠ فاستمرت الى ٢٧ يناير ١٩٥٢ حين أقيلت مرة أخرى بسبب حريق القاهرة وسير الامور سيراً، كما ذكر الامر الملكي، يدل على أن جهد الوزارة قد قصّر عن حفظ الأمن والنظام. ولم تمض أشهر معدودة حتى حدثت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي قضت على النظام الملكي وأعلنت الجمهورية في ١٨ يونية ١٩٥٣ .

إن تأريخ مصطفى النحاس خلال ربع القرن الذي سبق ثورة يوليو كان مرادفا لتأريخ مصر في كفاحها لنيل استقلالها وتوطيد الحكم البرلماني والصراع بين السراي الملكية التي تؤيد حزب الاحرار الدستوريين وسواه من الاحزاب ورجال السياسة وبين الوفد الذي تؤيده جماهير الشعب. وقد امتدت الحركات المتطرفة الى مصر خلال سنوات الثلاثين، فصرح حسن البنا رئيس الاخوان المسلمين مطالبا بحكومة إسلامية قائلا إن «الاسلام دين ودولة». وظهر حزب «مصر الفتاة» برئاسة أحمد حسين الذي تأثر بفاشية موسوليني الايطالية ونازية هتلر الالمانية، فدعا الى نبذ الدستور والنظام البرلماني والقيام بانقلاب فاشي شامل لاصلاح الحكم الفاسد كما ادّعى. واحتمى المتطرفون بالقصر الملكي والاحزاب المعارضة، فقاوم الوفد وعلى رأسه النحاس دعاواهم مقاومة عنيفة تشد أزره جماهير الشعب المؤمنة برسالة خليفة سعد زغلول. وكان النحاس نزيها بعيدا عن الشبهات، لكن أسرة زوجته التي اقترن بها على كبر وبعض كبار الملاكين والاثرياء المنتمين الى الوفد اتهموا باستغلال الحكم لتأمين مصالحهم وتحقيق مطامعهم.

وقال الدكتور رفعت السعيد إن النحاس أدرك في وقت مبكر أهمية الوحدة العربية

وكان أول من وضع اللبنات الحقيقية لتأسيس جامعة الدول العربية. وتولى أيضا مساندة القضية الفلسطينية، وقاوم مظاهر الاستعمار الجديد بعد الحرب العالمية الثانية، وعارض سياسة الاحلاف العسكرية، وأعلن ضرورة انتهاج موقف الحياد. وأضاف السعيد إن النحاس كان في مقدمة الساسة المصريين الذين فكّروا في إقامة كتلة لدول عدم الانحياز. فقد خطب في سبتمبر ١٩٥٠ قائلا إنه كرر القول لممثلي الدول الصغيرة أن في وسعها تأليف كتلة وسطى تتبنى السلام وتدافع عنه وتعمل على إقرار كلمته وبسط سلطانه على العالم متذرعة بالتضامن والتعاون والشجاعة لتحقيق أهدافها.

وقام النحاس بإعلان إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ومعاقبة العمال المصريين الذين يعملون في القاعدة العسكرية البريطانية ومنع السكك الحديدية من نقل المواد والمهمات إلى القاعدة. ثم كان حريق القاهرة واختلال الحكم الملكي وتوالي سقوط الوزارات حتى حدثت ثورة يوليو التي افتتحت صفحة جديدة في الحياة السياسية المصرية.

فوجىء النحاس بنشوب الثورة، لكنه تعاطف معها وأعلن أن الوفد يرى مشروع تحديد الملكية والاصلاح الزراعي يتفق مع أهداف الحزب في إشاعة العدالة الاجتماعية والتقريب بين الطبقات. ثم ارتأى النحاس وجوب عودة الضباط الى ثكناتهم وإجراء انتخابات نيابية حسب أحكام دستور ١٩٢٣، فقام رجال الثورة بالتشهير بالنحاس وتقديم زوجته الى محكمة الثورة. وحددت اقامتها سنة ١٩٥٤، لكن الزعيم الذي بلغ الثامنة والسبعين من عمره اعتكف في داره واعتزل العمل السياسي ولم يفقد احترام جماهير الشعب التي شيّعته عند وفاته تشييعا مهيبا.

توفي مصطفى النحاس في الاسكندرية في ٢٣ أغسطس ١٩٦٥ وقد أوفى على التاسعة والثمانين. والعجيب أن الموت قد أدركه في اليوم نفسه الذي مضى فيه رئيسه سعد زغلول الى الرفيق الاعلى قبل ٣٨ سنة!

منح النحاس رتبة الباشوية سنة ١٩٢٤ عند استيزاره لأول مرة، ثم منح رتبة الرئاسة ولقب صاحب الدولة وصاحب المقام الرفيع. ومنحته الحكومة البريطانية وسام القديسين ميخائيل وجورج بدرجة قائد أكبر ولقب «سر» فخري.

إن ثورة يوليو طمست جهاد النحاس وحزب الوفد، لكن مرت ثلاثون سنة أو نحو ذلك فسمح للوفد الجديد بالعودة الى الظهور والمشاركة في الحياة السياسية المتطورة.

قال خليل مطران يحيي مصطفى النحاس وصحبه بعد عقد المعاهدة مع إنكلترة سنة ١٩٣٦:

يا عائدا من الجهاد، سلام | عاد الصفاء وطابت الايام
بالأمس آلام جرعتم صابها | واليوم أجنت شهدها الآلام
حققتم الامنية الكبرى ولم | تُزج الجيوش ولم يُسَلَّ حسام
يا مصطفى مصر الرفيع مقامه | هيهات يعدل ما بلغت مقام
ناضلت حتى لم تدع في جُعْبَةٍ | سهما، ومن حُجج المُحِقّ سهام
وغصبت إعجاب الألى فاوضتهم | فاليوم تكريم وأمسِ خصام
لا بدع أن تلقى بمصر حفاوةً | كلّت عن استيفائها الأقلام

مصطفى النحاس في نظر الرصافي

قال فيه معروف الرصافي في نيسان ١٩٤٢:

أرى مصطفى النحاس في مصر تنطوي | سياسته للانكليز على الودّ
وقد كان قبل اليوم يمقت دأبهم | وينهج في تفنيدهم منهج الوفد
فهل كان كرسي الوزارة غاية | لمظهره من قبل في مظهر الضد؟
ألم يعتبر، والاعتبار أخو النهى، | بما قام من سوق السياسة في الهند...

وجدير بالقول إن النحاس انشغل بكفاحه في سبيل استقلال مصر فلم يستطع الالتفات الى الشؤون العربية عموما. لكنه اشترك في تأسيس جامعة الدول العربية ووقع على ميثاقها في الاسكندرية في ٨ أكتوبر ١٩٤٤.

أحمد زكي باشا

أحمد زكي باشا المعروف بـ «شيخ العروبة»، الكاتب البحاثة المصري، ابن إبراهيم بن عبد الله، أصله على حد قول خير الدين الزركلي في «الاعلام»، من آل النجار من عكّا. ولد في الاسكندرية في ٢٧ مايو ١٨٦٧، ودرس في بني سويف، ثم انتقل الى القاهرة في الثالثة عشرة من عمره. وانتمى الى مدرسة الادارة والحقوق فنال إجازتها، وعيّن في العشرين كاتبا ومترجما في محافظة الاسماعيلية.

إنتقل بعد سنتين للعمل في جريدة الوقائع المصرية ولم يلبث أن وظف في مجلس النظّار رئيسا لقلم الترجمة (١٨٨٩)، وأصبح سكرتيرا للمجلس سنة ١٨٩٦..

لم تلهه الوظيفة عن الدرس والبحث والتتبّع، فأتقن الفرنسية وألمّ ببعض اللغات الاخرى . وانتدبته الحكومة المصرية لتمثيلها في مؤتمر المستشرقين الدولي في لندن سنة ١٨٩٢وجنيف سنة ١٨٩٤ وهامبورغ سنة ١٩٠٢ وأثينة سنة ١٩١٢ . إشترك في تأسيس الجامعة المصرية الاهلية في القاهرة وكان سكرتيرها العام وعضواً بمجلس إدارتها، وألقى على طلابها سنة ١٩١٠، محاضرات عن الحضارة الاسلامية تناولت أحوال الامة العربية في جاهليتها ودول الاسلام. وكان عضوا بالجمعية الجغرافية والمجمع العلمي المصري وفي بعض الهيئات العلمية البرتغالية، ثم اختير بعد الحرب العالمية الاولى عضوا بالمجمع العلمي العربي في دمشق.

نقل رئيسا للتشريفات الخديوية سنة ١٩٠٦ فسكرتيرا ثانيا لمجلس النظار (١٩٠٧)، ثم أصبح سكرتيرا أول للمجلس حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩١٩ .

إهتم أحمد زكي بالتراث العربي وجمع مكتبة خاصة هي «الخزانة الزكية» التي ضمّت آلاف المطبوعات والمخطوطات ونافست «الخزانة التيمورية» التي أنشأها أحمد تيمور باشا، وقد آلت بعد وفاته الى دار الكتب المصرية. قام برحلات عديدة فطوّف في أوربة والآستانة واليمن. سمّى داره في القاهرة «بيت العروبة» وجعل منها واحة في العاصمة المصرية يؤمها رجال الفضل والادب من العرب في شتى أقطارهم. وقام برحلة

الى اليمن سنة ١٩٢٧ ، وبرفقته نبيه بك العظم، فقابلا الامام يحيى حميد الدين وسعيا لديه لازالة الجفاء بينه وبين الملك عبد العزيز آل سعود. وقد قال الامير شكيب أرسلان فيه انه «كان يقظة في إغفاءة الشرق وهبّة في غفلة العالم الاسلامي وحياة في وسط ذلك المحيط الهامد».

أدركته الوفاة في القاهرة في ٦ يوليو ١٩٣٤ .

مؤلفاته:

منها: ترجمة إسماعيل باشا الفلكي، السفر الى المؤتمر (١٨٩٣)، الدنيا في باريس (١٩٠٠)، قاموس الجغرافية القديمة (بالعربية والفرنسية، ١٨٩٩)، موسوعات العلوم العربية وبحث على رسائل إخوان الصفا (١٨٩٠) الحضارة الاسلامية (١٩١٠/١١)، الترقيم في اللغة العربية (١٩١٣)، أسرار الترجمة، قاموس الاعلام القديمة. وله عدا ذلك العدد العديد من المقالات والبحوث بالعربية والفرنسية نشرت في الصحف والمجلات.

ومما نقله الى العربية: الرق في الاسلام (لأحمد شفيق بك، ١٨٩١)، آثار بلاد المشرق (لعالم المصريات غاستون ماسبيرو مدير الآثار العام في مصر)، نتائج الافهام في تقويم العرب قبل الاسلام (لمحمود باشا الفلكي، ١٨٨٨)، أربعة عشر يوما سعيدا في خلافة الامير عبد الرحمن الاندلسي (١٨٨٦)، رسالة في المعارف العمومية بالديار المصرية (من تأليف محمد سعيد باشا، ١٨٨٨)، مصر والجغرافيا (للدكتور فريدريك بونيولا، ١٨٩٢)، تأريخ الشعوب الشرقية (للبروفسور ماسبيرو، ١٨٩٦)، الرق في الاسلام (لأحمد شفيق باشا) .

أما الكتب التي نشرها فمنها: الادب الصغير لابن المقفّع (١٩١١)، كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ (١٩١٤)، مسالك الابصار لابن فضل العمري، نكت الهميان في نكت العميان لخليل بن ايبك الصفدي (١٩٢٤)، كتاب الاصنام لهشام بن محمد الكلبي (١٩١٤)، أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام لابن الكلبي (١٩٤٦).

عرف أخوه محمود رشاد بك (١٨٥٤ - ١٩٢٥)، كان في بادىء أمره ضابطا في الجيش المصري، ثم انتقل مفتشا بوزارة المعارف ورئيسا لمحكمة مصر. كتب مقالات كثيرة في الصحف والمجلات ووضع كتبا مدرسية في التربية والادب والجغرافية. له أيضا: بحث في دار لقمان، رحلة الى الروسيا، الخ. ولد في الاسكندرية وكانت وفاته في القاهرة.

وقد كان لاحمد زكي باشا صوت ذائع في سائر أقطار العروبة، فلما أدركه الحمام رثاه الشعراء. قال معروف الرصافي :

لقد أفزع الناعي المروءة والندى غداة نعى شيخ العروبة أحمدا
علا بالمعالي صوته في حياته وآثاره من بعده كانت الصدى
تردى رداء المجد شيخا ويافعا فعاش به في طول محياه سيدا...

وقال خليل مطران المعروف بـ «شاعر القطرين» (لبنان ومصر):

إن تأس مصر فما أساها انها مفجوعة في لوذعيّ عالم
أو كاتب كالنيل في فيضانه أو خاطب كالزاخر المتلاطم...
شيخ العروبة، أين صائن إرثها ومعيد نضرة عهدها المتقادم
بل أين في الفسطاط موئل قومها من بارح يخلي المزار لقادم؟
يفد الغريب اليه وهو كأنه يمشي من الاشواق بين معالم

محمد طلعت حرب باشا

إذا كان سعد زغلول زعيم النهضة الوطنية في مصر في أعقاب الحرب العظمى الاولى فإن محمد طلعت حرب زعيم نهضتها الاقتصادية ومحرر الاقتصاد المصري من القبضة الاجنبية.

ولد محمد طلعت بن حسن بن محمد حرب في القاهرة في ٢٥ ديسمبر ١٨٧٦، وتخرج في مدرسة الحقوق فعين في قسم قضايا الدائرة السنيّة. ثم انصرف عن خدمة الحكومة واصبح مديرا لمكتب شركة كوم أمبو. وانتقل سنه ١٩٠٥ الى الشركة العقارية المصرية فكان مديرها الى سنة ١٩٢٠ حين أسس بنك مصر الذي افتتح في ٧ مايو من تلك السنة، وكان نائب رئيس مجلس إدارته. ثم كان اللولب المتحرك الفعال في تأسيس الشركات المتفرعة من البنك للمشاريع المختلفة كالطباعة وصناعة الورق وحلج الاقطان والنقل والملاحة والحياكة والنسيج والتمثيل والسينما وصيد الاسماك ونسج الحرير والطيران والتأمين.

لكن نشاط طلعت حرب بدأ مع مطلع القرن. فقد ترجم كتابا عن الفرنسية لعثمان كامل بك سكرتير السلطان عبد الحميد الثاني بعنوان «كلمة حق عن الاسلام والدولة العثمانية». ثم رد بكتابه «تربية المرأة والحجاب» (١٩٠٥) على كتاب نصير المرأة قاسم بك أمين «تحرير المرأة». وأنشأ سنة ١٩٠٨ شركة التعاون المالي، ثم أصدر بعد سنتين رسالة «قنال السويس» عارض فيها المشروع الذي تقدمت به الحكومة المصرية لتمديد امتياز القناة. وألف في سنة ١٩١٠ أيضا كتابه «علاج مصر الاقتصادي» مقترحا إنشاء بنك مصري وطني. ومن مؤلفاته «البراهين البيّنات على تعليم البنات» و «تأريخ دول العرب والاسلام» (الجزء الاول). ونشرت مجموعة خطبه في ثلاثة أجزاء ظهر ثالثها سنة ١٩٤٠ . وقد عيّن بعد نشوء الحياة البرلمانية في المملكة المصرية عضوا بمجلس الشيوخ (١٩٢٤).

توفي في القاهرة في ١٣ أغسطس ١٩٤١ . قال خير الدين الزركلي في «الاعلام»

انه سمعه مرة يتحدث عن قبائل حرب القاطنة في الحجاز فرجّح أن يكون أصله منهم. وعرف من رجال أسرته الفريق محد صالح حرب باشا المتوفى سنة ١٩٦٨ وكان وزير الدفاع والرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين المصرية.

تحدثت عن طلعت حرب من دار الاذاعة العراقية عند وفاته في صيف سنة ١٩٤١ فمما قلته: ان النهضة المصرية الحديثة التي بدأت في مطلع القرن التاسع عشر بقيت أمدا طويلا بتراء غير مستكملة الاسباب: ذلك ان المصريين، إذ أكبّوا على العمل والدراسة واستمسكوا بعرى الحضارة والعمران، قد أهملوا ناحية الاقتصاد واستهانوا بشؤون المال والاعمال، فتركوا مشاريع التجارة والصيرفة والصناعة أرضا بكرا لا تتعهدها أيديهم ولا ترعاها عنايتهم، وأفسحوا للأجانب مجال التغلغل في صميم الحياة الاقتصادية والهيمنة على مقدرات البلاد المالية. تدفقت على وادي النيل سيول المهاجرين من مختلف الامم والشعوب فتعاطوا التجارة والاعمال، وأنشأوا الشركات والمصانع، وافتتحوا المتاجر والمصارف والحوانيت، واستخدموا نشاطهم وأيديهم ورؤوس أموالهم في كل مصدر ومورد ومرفق، لا يستصغرون عملا ومهنة ولا يستكبرون مسعى وجهدا، اقتطفوا من حقول الجدّ ثروات دانيات وسيطروا على الاقتصاديات المصرية التي كان لهم في إنهاضها وإنعاشها القسط الاوفر.

أما الشباب المصري المتعلم فاشرأب باعناقه الى الوظائف والمناصب وشخص بابصاره نحو المراتب والدواوين، يتخرج في مدارسه متواكلا متهاونا، متطلبا للمعالي بغير عناء، مترفعا بهمته عن الاعمال الحرة، مستهينا في غفلته بأمر التجارة والاقتصاد. ولو علم هذا الشباب المضيّع الذي قدّر لأغلبه أن يذوق مرارة الفشل وخيبة الآمال فأنفق حياته رخيصة في زاوية مهملة من زوايا الدوائر الحكومية وأحيى شيخوخته براتب تقاعد ضئيل لا يكاد يسد رمقه، لو علم هذا الشباب أن الشعب لا يمكن أن يكون جميعه وزراء ومديرين وموظفين، وان تضخم الوظائف والمناصب كلٌّ على الامة وعبء على البلاد، لأشاح بوجهه عن مراتب تخمد الهمة بالاشغال الراتبة المتماثلة وانصرف بجهوده الى ميادين العمل والانتاج، ففتح لنفسه أبواب الرزق الوفير وهيّأ لوطنه أسباب الثروة والبسطة والرخاء.

وضعت الحرب العظمى أوزارها فاجتاحت البلاد الدانية والقاصية موجة من الشعور الوطني وهبّت الامم والشعوب تستفيد من الفرصة السانحة لتقرير مصيرها وتحقيق سيادتها واستقلالها. ولم يمض طويل وقت حتى اضطرمت الربوع المصرية بسعير حركة

وطنية فوارة صاخبة، حمل لواءها رجال الكنانة وشبانها ينافحون الاستعمار بما أوتوا من حول ويعتصمون بالتآلف والتضامن والاتحاد.

في ذلك العهد المفعم بالعواطف الفيّاضة، المتأجج بالحماسة الوطنية، فكّر مصري فذ في نهضة بلاده ومستقبل شبابها، فتبادر الى ذهنه أن الاستقلال الذي لا تدعمه السيادة الاقتصادية ولا تعززه المنعة المالية ناقص لا غناء فيه. وعقد العزم على رأب هذا الصدع في حياة وطنه القومية.

هذا الرجل الفذ هو محمد طلعت حرب . إنصرف الى خدمة وطنه عن سبيل المال والاعمال منذ شبابه، وجالت في خاطره منذ أمد بعيد فكرة تأسيس المشاريع الوطنية العامة التي تنافس المشاريع الاجنبية وتستخلص الحياة الاقتصادية المصرية لابناء مصر وتفتح أمام الشباب العامل آفاقا جديدة ومرامي بعيدة. واختمرت هذه الفكرة في رأس الوطني الصامت حتى آن لها أن تخرج الى حيز الوجود سنة ١٩٢٠ بمؤازرة نفر من رجال الثروة والجاه والغيرة الوطنية، أمثال أحمد مدحت يكن باشا ويوسف أصلان قطّاوي باشا وفؤاد سلطان باشا وأحمد عبد الوهاب باشا وغيرهم، فاحتفل في ٧ مايو من تلك السنة بتأسيس «بنك مصر» برأس مال قدره ٨٠ ألف جنيه .

وكان رأس المال على ضآلته مصريا صرفا، فلم تمض سنوات خمس حتى ارتفع الى نصف مليون. وأقبل المصريون غنيهم وفقيرهم على الاكتتاب في أسهمه. واتسع بنك مصر بعد ذلك اتساعا عظيما فتضاعف رأس ماله وتوسعت أعماله وأسست له فروع عديدة في داخل القطر وخارجه وساهم في الحركة المالية بقسط وفير .

لقد كانت غاية طلعت حرب الذي كان بمثابة الدماغ المفكر واليد المدبرة لهذه المؤسسة أن تصبح مظهر النشاط المصري وعنوان العمل والمزاحمة الشريفة، لا وسيلة الى الربح الشخصي والفائدة المادية. كانت الغاية من تأسيس بنك مصر استثمار الاموال المصرية في الديار المصرية والاستعانة بها لشدّ أزر التجارة والصناعة والزراعة واستغلال مرافق الثروة وتوجيه الشباب وجهة جديدة تفيدهم وتفيد بلدهم . ولم يلبث البنك أن اتجه الى اقتطاع شطر من أرباحه لتأسيس مشاريع تجارية وصناعية تحقق الغرض المقصود، فساهم في استحداث الشركات المتعددة لتعمل في مختلف الميادين الاقتصادية .

ولم يقتصر فضل طلعت حرب وبنك مصر على تأسيس تلك الشركات على كثرة عددها ووفرة أموالها وتنوع أعمالها، بل حقه أن ينسب اليه فخر توجيه الاهتمام الى

المشاريع الاقتصادية في القطر المصري وجاراته العربية. وكان تأسيس بنك مصر وشركاته مقدمة نهضة إقتصادية آتت ثمارها اليانعة في وادي النيل وامتدت آثارها الحميدة الى ربوع سورية ولبنان والعراق. واصبح بنك مصر قدوة صالحة نسج على منوالها رجال البلاد وأثرياؤها، فتكاثرت الشركات وتعددت المشاريع واشتد الاقبال على الصناعة والاعمال الحرة .

كان طلعت حرب، الى جانب جهاده الاقتصادي، رجلاً مفكرا داعيا الى النهضة والاصلاح. والخطب التي ألقاها خلال أعوام طويلة تزخر بالمعاني والمعلومات وتفيض بالعبر والعظات وترمي الى تحقيق أهداف عملية تشبعها درسا وتمحيصا. وقد قال إن الثروة واسطة لا ينبغي أن تكون غاية، إن مطالبنا متواضعة: فنحن نريد فقط أن نتبوّأ مكانا تحت الشمس وأن نعيش مع الآخرين كما يعيش الآخرون. نريد أن نكون منتجين وأن نحسن الانتاج، ونريد أن نصدّر ما ننتج وأن نحسن التصدير، ونريد أن نستهلك وأن نحسن الاستهلاك.

وقال في خطبة له القاها سنة ١٩٢٧ في حفلة انتقال بنك مصر إلى عمارته الجديدة:

«ونحن في هذه الدار وفي التي قبلها لا نستغلّ المال حبا فيه، فاننا لسنا من عبّاده أو ممن يتعلقون بنواصيه. إننا نعرف أن المال قوة في هذا العالم، وإنه كما يكون قوة للشر في أيدي الاشرار يكون قوة للخير في أيدي الاخيار.»

وقد نظر الى مشاريعه نظرة حبّ واعزاز وأحلها من نفسه محلّ الولد من الوالد، واتخذها مُثلاً عليا ومبادىء سامية يشفق عليها أن يعلق بها غبار من الشك والريبة. وهذا الحب الناطق باعتزاز العامل بعمله ليبدو واضحا في أقوال طلعت حرب كما بدا واضحا في أفعاله .

من أقواله في خطبه:

ـ «وها هو البنك قد وجد والحمد لله والشكر له. وهو في أول يوم من أيام حياته يشهد الله جهارا . . .أنه لا يضمر عداء لأحد ولا يريد الا أن يعيش كما يعيش غيره وأن يكون له نصيب من خيرات بلاده ويجاهد في معترك هذه الحياة لمصلحة مصر وبنيها غير ناظر الا الى هذه المصلحة، ويولي وجهه شطرها أينما كانت. . .»

- «فليس بنك مصر بقائم والحمد لله على قوة الاشخاص. ليس بنك مصر قائما على شخص طلعت حرب أو شخص فؤاد سلطان. والاشخاص قد يزولون لأي سبب من الاسباب، وهم زائلون حتما في حكم الحياة. إنما بنك مصر يقوم على نظام سائر في ذاته متحرك من تلقاء نفسه من غير ما حاجة الى محرك شأن الاعمال الدائمة الخالدة التي لا تعيش مرتبطة بحياة الافراد . . .»

- «إن لكل بلد في العالم سياسة مالية واستقلالا اقتصاديا يجب أن يعمل للحصول عليه والاستمرار فيه .والمهيمن على هذه السياسة وهذا الاستقلال الاقتصاديين في كل بلد من بلاد العالم هو بنكها الوطني . . . ونقول إن الامة التي تريد استقلالها الاقتصادي يجب عليها أن تشتري هذا الاستقلال بقليل من التضحية، بل بتضحيات كبيرة . . .»

وعرف طلعت حرب قيمة التعليم التجاري وأثره في التجارة والاقتصاد فنّوه بذكره مرارا ودعا الى التربية الاستقلالية. ونصح الشباب بأن لا يتصوروا النجاح في الحياة معلقا على وظيفة ينالها الشاب في الحكومة، ارتأى أن النجاح معلّقٌ قبل كل شيء على الصفات التي تتحلى بها نفوس الاشخاص. ونادى بلزوم إيجاد عقلية مصرية موحدة متشابهة في سموها مع أسمى الامم ثقافة، عقلية مستقلة تكون وليدة الماضي الذي لا مفر عن الخروج من تأثيره ووليدة الحاضر الذي - كما قال - «نسعى الى أن نربطه بماضينا كما نسعى أن نقوده ونسيّره الى مستقبل حسن». ورأى أن تكون هذه العقلية متأثرة بالحضارة العالمية، مشتركة في طرق العلم الثابتة، مستوحاة من جهود المتعلمين أنفسهم حتى تكون عقلية مصرية مصبوغة بخواص الذكاء المصري ومرآة صادقة للحسن من الطبع المصري.

وأدرك أن الواجب يقضي على الحكومة والشعب أن يتعاونوا في إنهاض الاقتصاديات الوطنية ليكون إنماء ثروة البلاد وتحقيق رخائها على أساس برنامج قومي واسع الاطراف تقوم به الطبقات العاملة وتعاونها حكومة دستورية رشيدة. وطلب من القناصل المصريين في الخارج أن يزدادوا معرفة باحوال مصر الاقتصادية وأن يرشدوا عن طرق الانتفاع من التبادل التجاري وأن يتفهموا طرائق كل قوم يعيشون بين ظهرانيهم في الانتاج والتوزيع ليخدموا رجال الاقتصاد المصريين عن طريق الارشاد والاقتباس .

وعلم أهمية الصناعة فقال: «أرض بلادنا خصبة وغنية، ولدينا خامات كثيرة،

فلماذا لا نستعملها في حاجاتنا ونصنعها في بلادنا فنزيد ثروتنا ويكون لنا مع ربح الزراعة أرباح الصناعة مما تخرجه أرضنا ؟»

وعلم أخيراً أن بنك مصر ومؤسساته لم تكن الا بداية الطريق فقال: « ذلكم هو بنك مصر الذي لا نفاخر به، فإننا نحن المصريين قطعنا به مرحلة ونعرف أن وراءها مراحل طويلة ينبغي علينا أن نقطعها . . .

ولكن بنك مصر كما قدمنا جدير بأن يساق مثلا في كل بلد من بلاد الشرق ودليلا ناهضا على أن الارادة القومية قادرة على تذليل الصعاب من الامور.»

ذلكم طلعت حرب الذي خاطبه الشاعر محمد الاسمر قائلا:

تخطُّ الرقم فهو قضاء قاضٍ — وتجلو اللفظ فهو من اللئالي
رعاك الله من قمر مطلّ — على دنيا الحقيقة والخيال

وقال أحمد شوقي من قصيدة له في الاحتفال بانشاء بنك مصر :

قف بالممالك وانظر دولة المال — واذكر رجالا أدالوها بإجمال . .
يا طالباً لمعالي الملك مجتهدا — خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبني الناس ملكهم — لم يُبْنَ ملك على جهل وإقلال

***

زار طلعت حرب بغداد في نيسان (أبريل) ١٩٣٦ على رأس وفد اقتصادي مصري فأقام له ياسين الهاشمي رئيس الوزراء حفلة تكريم أنشد فيها معروف الرصافي قصيدة مطلعها:

أهلا بأضياف العراق — أتوه من مصر العزيزة
من مثل «طلعتهم» نشاطا — في فعائله الحريزة. . .

وأنشد الرصافي قصيدة أخرى في حفلة ثانية أقيمت للوفد فقال:

أتى من مصر طلعتها ابن حربٍ — فأهلا بالمذلل كل صعب . . .
تعهد بالمساعي الغر مصرا — فبدل جدب تربتها بخصب
أحب بلاده فسمعت منها — له شكر الحبيبة للمحب

ومنها (وهي على شكل مخمسات مختلفة القوافي):

إذا مصر بالمال استقلت — فلا تخشى التأخر في السياسة
فإن المال أكبر ما يرجّى — به نيل السيادة والرياسة
إذا ما الشعب كان أسير فقر — فما تجدي السياسة والحماسة . . .

محمد طلعت حرب في الشعر

كان لتأسيس بنك مصر أثر كبير في المحافل المصرية، الاقتصادية منها والاجتماعية والادبية . وقد ألقى أحمد شوقي قصيدة في الاحتفال بوضع الحجر الاساسي للبنك في مايو ١٩٢٥، وقال :

نُـرَاوَحُ بـالـحـوادث أو نُـغَـادَي ونـنـكـرهـا ونـعـطـيـهـا الـقـيـادا
تـدفـق مـصـرف الـوادي فـروّى وصـاب غـمـامـه فـسـقـى وجـادا
فـيـا دارا مـن الـهـمـم الـعـوالـي، سُـقِـيـتِ الـتـبر لا أرضـى الـعـهـادا
تـأتّـى حـيـن أسـسـك ابـن حـرب وحـيـن بـنـى دعـائـمـك الـشـدادا
بـنـى الـدار الـتـي كـنـا نـراهـا أمـانـيَّ الـمُـخَـيَّـل أو رقـادا . . .

وقال شوقي في حفلة افتتاح الدار في يونيو ١٩٢٧ :

مصر التقت في مهرجان محمدٍ وتـجـمـعـت لـتـحـيـة وسـلام
هـزّت مـنـاكـبـهـا لـه فـكـأنـه عـرس الـبـيـان ومـوكـب الاقـلام
شرفاً، محمدُ، هكذا تبنى العلى بـالـصـبـر آونـة وبـالاقـدام
همم الرجال إذا مضت لم يثنها خـدع الـثـنـاء ولا عـوادي الـذّام
ما زلت تبني ركن كل عظيمة حتى أتيت برابع الاهرام . . .

وقال خليل مطران في حفلة رفع الستار عن تمثال طلعت حرب، وقد حضرها الملك فاروق :

تـجـلّـى مـحـيّـاه فـحـيّـوا مـحـمّـدا وقـد آب فـي ذكـراه حـيّـا مـخـلَّـدا

وقال خليل مطران أيضا في بنك مصر :

مـا بـنـك مـصـر غـيـر مـسـتـقـبـل يُـعَـدُّ أو مـاضٍ مـجـيـد يُـعـادْ
لـه زهـى الـشـمـس ومـن حـولـه نظام تلك الشركات العداد . . .

اللواء محمد نجيب

أول رئيس للجمهورية المصرية تألق اسمه سنتين وبضعة أشهر ثم نحّي واختفى كالشهاب الذي يمرق في السماء .

ولد محمد نجيب في الخرطوم في ٢٠ فبراير ١٩٠١ لأب مصري وأم سودانية. حارب أبوه اليوزباشي (النقيب) يوسف نجيب في السودان مع لورد كتشنر سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٩ ، أما جده لأمه فخدم في الجيش المصري وقتل مع الجنرال غوردن في حصار الخرطوم (١٨٨٥). درس في كلية غوردن، وتوفي والده سنة ١٩١٥. ورحل الى القاهرة بعد سنتين فانتمى الى المدرسة الحربية وتخرج فيها ملازما ثانيا في يناير ١٩٢١ . ثم ارتقى في مراتب الجيش فرفّع الى رتبة ملازم أول (١٩٢٤) ويوزباشي (١٩٣١) وصاغ (١٩٣٨) وبكباشي (١٩٤٠) وقائمقام (١٩٤٤) وأمير آلاي (١٩٤٨) وأخيرا حاز رتبة اللواء في دسمبر ١٩٥٠ . وتخرج في الوقت نفسه في كلية أركان الحرب سنة ١٩٣٩ ، وحصل وهو يخدم في الجيش على ليسانس الحقوق ودبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد السياسي والقانون الخاص، وألمّ باللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية والايطالية .

خدم في بادىء أمره في السودان واهتم بالسياسة وانضمّ الى الجمعيات السرية الوطنية. ثم نقل الى القاهرة سنة ١٩٢٤ والحق بالحرس الملكي، ولم تمض أشهر قليلة حتى نقل الى إدارة البوليس. وفي سنة ١٩٣٥ خدم في الصحراء الغربية، ثم أعيد الى القاهرة ليعمل في دائرة الاركان الحربية. وقد اهتم بالتدريب العسكري وأنشأ مجلة الجيش المصري، وأوفد سنة ١٩٣٩ الى بريطانية في بعثة لكلية الاركان. ولما نشبت الحرب العالمية خدم في مناصب عسكرية مختلفة. وكان النائب العمومي للأحكام العسكرية .

نشبت حرب فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨، فذهب الى ساحة الحرب قائدا للواء الثاني فاللواء الرابع، وخاض معارك أشدود والشيخ نوران والتبّة بدير البلح. وكان ينزل

الى ساحة القتال على رأس جنوده، فجرح ثلاث مرات وأصيب برصاصة اخترقت صدره من أسفل القلب ونفذت من الظهر. ومنح وسام نجمة فؤاد الاول العسكرية تقديرا له.

عاد الى القاهرة فكانت أعوامه الاخيرة قبل الثورة حافلة. عين مديرا لسلاح الحدود (يناير ١٩٥١) فمدير سلاح المشاة (أكتوبر ١٩٥١). وانتخب في يناير ١٩٥٢ رئيسا لنادي الضباط ضد رغبة الملك فاروق، فلم يكن من الملك إلاّ أن أمر بإغلاق النادي. واختير أيضا رئيسا لجمعية مشوهي الحرب فعمل في سبيل رعاية المنتسبين اليها ومساعدتهم.

فاتحه جمال عبد الناصر سنة ١٩٤٩ بوجود جماعة سرية من الضباط الاحرار غايتهم القيام بانقلاب لتطهير الجيش والبلاط الملكي والادارة. فلما قامت الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ دعي الى تسنم الزعامة بالنظر الى رتبته العسكرية العالية وما عرف عنه من اعتدال وما يتمتع به من شخصية قوية. وتولى محمد نجيب القيادة العليا للقوات المسلحة وكلف علي ماهر باشا من رؤساء الوزارات السابقين بتأليف الوزارة. وخلع الملك فاروق في ٢٦ يوليو وغادر الاسكندرية الى إيطالية (حيث توفي في ١٨ مارس ١٩٦٥)، ونودي بابنه البالغ سبعة أشهر من العمر ملكا باسم أحمد فؤاد الثاني برعاية مجلس وصاية يرأسه الامير محمد عبد المنعم .

ثم ألف محمد نجيب الوزارة خلفا لعلي ماهر في ٧ سبتمبر ١٩٥٢ وتولى الرئاسة ووزارة الحربية والبحرية. وبدأ بعد ذلك الصراع على السلطة، فأعلن في ١٧ يناير ١٩٥٣ نبأ إكتشاف مؤامرة للاطاحة بمحمد نجيب اشترك فيها القائمقام المتقاعد محمد رشاد مهنا عضو مجلس الوصاية السابق وفؤاد سراج الدين (باشا) والنبيل عباس حليم.

وألفت لجنة لوضع دستور جديد يحل محل الدستور لسنة ١٩٢٣. وفي ١٨ يونية ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية وأنهيت ولاية الملك الطفل أحمد فؤاد. وتقلد محمد نجيب رئاسة الجمهورية مع احتفاظه برئاسة الوزراء، وأصبح البكباشي (المقدم) جمال عبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية .

أقيل محمد نجيب من رئاسة الجمهورية في ٢٥ فبراير ١٩٥٤ وجرده مجلس الثورة من جميع مناصبه واعتقله في داره. وأسندت رئاسة الوزراء الى جمال عبد الناصر. لكن شهرة نجيب ومكانته الشعبية دعت المجلس الى إعادته الى رئاسة الجمهورية في ٢٧ فبراير. وفي ٩ مارس أعيدت اليه رئاسة الوزراء أيضا وعاد عبد الناصر نائبا للرئيس. وفي ١٨ أبريل تنحّى نجيب مرة أخرى عن رئاسة الوزراء، ثم أُعْفِيَ نهائيا من رئاسة

الجمهورية في ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ .

فرضت عليه الاقامة الجبرية في داره بعد ذلك حتى أطلقت حريته في يوليو ١٩٦٠.

وقد عرف بالبساطة والرغبة في العودة الى الحياة الديمقراطية .

رفض رتبة الفريق التي عرضت عليه عند قيام الثورة، وألغى الالقاب من باشوية وبكوية وألقاب أمراء الاسرة العلوية المالكة سابقا ونبلائها. وقد وضع مذكراته بعنوان «مصير مصر» (١٩٥٥) .

تتابعت الاحداث في مصر، لكنه أخلد الى الراحة والسكون حتى قضى نحبه في القاهرة في ٢٨ أغسطس ١٩٨٤ .

إسماعيل الازهري

أرسل محمد علي باشا والي مصر سنة ١٨٢٠ حملة عسكرية بقيادة ابنه إسماعيل كامل باشا لفتح بلاد النوبة، وكان ذلك أول اتصال بين مصر وجارتها الجنوبية في العصور الحديثة. توغل الجيش المصري في السودان وحكمتها مصر بعد ذلك. وأخذت بريطانية تتدخل في السودان في عهد الخديو إسماعيل، فعيّن ضباطها في المناصب الادارية والعسكرية تحت سيادة الخديو. وأعلن محمد أحمد بن السيد عبد الله نفسه المهدي المنتدب لتحرير السودان دينيا وسياسيا من ربقة «الاتراك الكفّار»، وذلك في شهر مايو ١٨٨١ .

دعا المهدي (وقد سماه المصريون «المتمهدي السوداني») الى تطهير الاسلام من البدع والتخلص من ربقة الاجنبي، وشرع بمحاربة المصريين في جبال النوبة واحتل الابيض قاعدة كردفان في يناير ١٨٨٣ ، ودحر قوة مصرية عظيمة أرسلت لصده بقيادة الفريق وليم هيكس باشا في أكتوبر من السنة نفسها. وأخيرا استولى المهدي على الخرطوم وقتل القائد الفريق غوردن باشا في ٢٦ يناير ١٨٨٥ . ولكن المهدي لم يعش طويلا لينعم بانتصاراته فقضى نحبه في أم درمان في ٢٢ يونيو ١٨٨٥، وحل محله خليفته عبد الله التعايشي الذي حكم السودان حتى استرده الجيش المصري بقيادة لورد كتشنر في سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٩ . وأعلن السودان «ممتلكة مشتركة» بين بريطانية ومصر بموجب الاتفاقية المعقودة بين الحكومتين في ١٩ يناير ١٨٩٩ .

أمّلت مصر بعد حصولها على الاستقلال سنة ١٩٢٢ أن يتوحد القطران تحت راية الملك أحمد فؤاد الاول «ملك مصر والسودان»، لكن آمالها بددت أخيرا بمقتل الحاكم البريطاني العام وسردار الجيش المصري السر لي ستاك باشا في القاهرة في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ ، فأنذرت الحكومة البريطانية حكومة مصر بسحب الجيش المصري المرابط في السودان .

بدأ جهاد السودانيين لتحرير بلادهم من ربقة الاستعمار البريطاني بعد الحرب

العالمية الثانية، فلما توّج كفاحهم بالنصر قررت الجمعية التأسيسية الدخول الى عالم الحرية مستقلين عن شقيقتهم الشمالية، فأعلنت الجمهورية في أول يناير ١٩٥٦ وكان إسماعيل الازهري أول رئيس لحكومة السودان .

ولد إسماعيل الازهري في أم درمان في ٣٠ أكتوبر ١٩٠٠ في أسرة دينية بديرية من فرع الدهمشية، وهي تدعي التحرر من العباس عم النبي. وكان جد أبيه أحمد إسماعيل الازهري المتوفى سنة ١٨٨١ وليّا يدرّس في الابيض، وكان جده وسميّه إسماعيل (١٨٦٨ - ١٩٤٧) مفتي السودان من ١٩٢٤ الى ١٩٣٢ .

تخرج في كلية غوردن بالخرطوم ثم درس الادب في جامعة بيروت الاميركية. وعاد الى السودان فعمل في التدريس. وأنشىء مؤتمر الخريجين للمطالبة بحقوق السودان سنة ١٩٤٣ فكان الازهري محركه النابض. ثم اشترك في تأليف حزب الاشقاء برعاية السيد علي الميرغني شيخ الطريقة الختمية، بينما راح السيد عبد الرحمن المهدي، ابن محمد أحمد المهدي الكبير الذي ولد بعيد وفاة أبيه، يرعى حزب الامة الذي نذر جهوده لنيل الاستقلال بالتعاون مع بريطانية. أما الازهري وحزبه فكانا يؤيدان الاتحاد مع مصر. وزار على رأس وفد مصر والعراق وبعض الاقطار العربية الاخرى في مارس ١٩٤٧ للدعوة الى تحرير السودان .

أصبح حزب الازهري يدعى سنة ١٩٥١ حزب الاتحاد الوطني. واشتدت الصلة بمصر على أثر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢برئاسة اللواء محمد نجيب الذي كان نصف سوداني من جهة أمه. وجرت الانتخابات للجمعية التأسيسية السودانية في نوفمبر ودسمبر ١٩٥٣، وأيد المصريون الازهري الذي نادى بوحدة وادي النيل ففاز في الانتخابات وألف أول وزارة في ظل الحاكم البريطاني العام في ٩ يناير ١٩٥٤ متوليا وزارتي الداخلية والدفاع مع الرئاسة.

لكنه سرعان ما تنكر للوحدة مع الجارة الشمالية خوفا من انفصال جنوب السودان. وقررت الجمعية التأسيسية استقلال السودان في ١٩ دسمبر ١٩٥٥، فأعلنت الجمهورية في أول يناير ١٩٥٦ .

أعاد الازهري تشكيل وزارته في فبراير ١٩٥٦ متقلدا الرئاسة والداخلية، ثم استقال في يوليو من تلك السنة وتسلم رئاسة الوزراء عبد الله خليل. ثم استولى الفريق إبراهيم عبود على مقاليد الحكم في ١٦ نوفمبر ١٩٥٨، فاعتقل إسماعيل الازهري في يوليو ١٩٦١ وظل في الاعتقال الى يناير من السنة التالية. ولما عادت الحياة الديمقراطية اختير

الازهري رئيسا لمجلس السيادة في ١٠ يونيو ١٩٦٥ الى ٢٥ مايو ١٩٦٩، حين استولى العقيد جعفر محمد نميري على السلطة .

وقد اعتقل الازهري مرة أخرى فأدركته الوفاة في سجنه في ٢٦ أغسطس ١٩٦٩ بالخرطوم. وضع مؤلفات منها «الطريق الى البرلمان».

حلم المصريون دائما بوحدة وادي النيل منذ أيام الوالي محمد علي باشا وحفيده الخديو إسماعيل. وقد قال أحمد شوقي في ذلك:

ولـن نـرتـضـي بـأن تُـقَـدَّ ... ويُـبْـتَـرُ مـن مـصـر سـودانـهـا
فـمـصـر الـريـاض وسـودانـهـا ... عـيـون الـريـاض وخـلـجـانـهـا
ومـا هـو مـاءٌ ولـكـنـه ... وريـد الـحـيـاة وشـريـانـهـا

وكان الدكتور محجوب ثابت في العشرينات أكبر الدعاة لوحدة القطرين. وقد قال الشيخ عبد-العزيز البشري في «مرآته»: «ولا أحسب رجلا في مصر ولا في إنكلترا مشغولا بالسودان شغل الدكتور ثابت، فحديث السودان يجري منه مجرى النفس. ولو هيىء له، أو لوهيّىء لك أنت على الاصح، أن تستمع له لحدثك في شأن السودان ثلاثين عاما متصلة لا ينقطع ولا يتحبّس، ولا يتلجلج ولا يتلعثم، ولا يمل ولا يكل، ولا يبطىء ولا يزلّ...»

ولكن هل كان الساسة المصريون يطمعون في ضم السودان استئثارا بمائه وخيراته أم كانوا يرغبون في إصلاح القطر ورعاية أهله ؟ كنت في القاهرة سنة ١٩٤٤ في وفد غرفة تجارة بغداد. وقد دعانا الى حفلة شاي فؤاد سلطان باشا رئيس الجمعية الزراعية، فقلت له في أثناء الحديث عن السودان : «هل يحتاج السوداني القادم الى مصر الى استحصال تأشيرة دخول ؟» قال : «نعم.» قلت: «إذا كنتم تريدون وحدة القطرين فلمَ لا تبيحون لأهل السودان بالقدوم الى مصر بلا تأشيرة ولامعاملات ؟» فأجاب: «إننا نضيق ذرعا بأهل الصعيد يفدون على القاهرة يزحمون أرجاءها ويزاحمون أبناءها على أرزاقهم، فهل تريد لنا تعقيد المسلبة واغراق السودانيين لمدننا وأعمالنا ؟».

خابت دعوات الوحدة بين مصر والسودان، لكن الشاعر المصري علي محمود طه خاطب ابن الجنوب الذي يريد الاستقلال قائلا :

أخـي، إن وردت الـنـيـل قـبـل ورودي ... فَـحَـيِّـي ذمـامـي عـنـده وعـهـودي
وقَـبِّـلْ ثـرى فـيـه امـتـزجـنـا أبـوّة ... ونـسـلـمـه لابـن لـنـا وحـفـيـد
أخـي، إن حـواك الـصـبـح ريّـان مـشـرقـا ... أفـقـت عـلـى يـوم أغـرّ سـعـيـد

أخي، إن طواك الليل سهمان سادرا نبا فيه جنبي واستحال رقودي

أخوّتنا فوق الذي مان وادّعى وما بيننا من سائد ومسود

إذا لم تحررنا من الضيم وحدة ذهبنا بشمل في الحياة بديد

الشمال الأفريقي

عمر المختار
والجهاد في طرابلس الغرب

إتخذ عمر المختار رمزا للبطولة والجهاد في طرابلس الغرب التي عرفت فيما بعد باسم ليبية إذ أعدمه الايطاليون المحتلون للبلاد سنة ١٩٣١ .لكن رجالا كثيرين واصلوا الجهاد في تلك الربوع منذ غزتها إيطالية في تشرين الثاني ١٩١١ واستخلصتها من يد الاتراك .

وعقدت معاهدة الصلح بين إيطالية وتركية في أُوشِي في تشرين الاول ١٩١٢، لكن الايطاليين في الحقيقة سيطروا على السواحل فقط واستمرت المقاومة الشديدة لحكمهم في المناطق الداخلية، حمل لواءها السنوسيون بقيادة أحمد الشريف السنوسي.

وأحمد الشريف حفيد السنوسي الكبير محمد بن علي الخطابي الحسني الادريسي المجاهري (١٧٨٧ - ١٨٥٩) الذي أنشأ طريقته في الحجاز سنة ١٨٣٧ وانتقل بمريديه الى واحة جغبوب (١٨٥٥). ولد أحمد الشريف في جغبوب سنة ١٨٦٧ وتولى رئاسة الطريقة السنوسية على أثر وفاة عمه محمد المهدي سنة ١٩٠٢. وقد حارب الايطاليين الى جانب الاتراك، فلما عقد الصلح بين الدولتين استمر على محاربة الغزاة. ثم نشبت الحرب العظمى وأعلنت إيطالية الحرب على ألمانية وتركية في أيار ١٩١٥، فشد الاتراك أزر أحمد الشريف بنوري بك أخي أنور باشا وزير الحربية وجعفر باشا العسكري البغدادي وهاجموا حدود مصر الغربية بقوة قوامها ٥٠٠٠ من أتباع السنوسي والعشائر التي التحقت به ونحو ١٠٠٠تركي. واستولوا على واحة السلوم بينما انسحب البريطانيون المدافعون عن مصر الى مرسى مطروح، لكنهم واصلوا الكرّة وطاردوا السنوسيين وأسروا القائد جعفر العسكري في شباط ١٩١٦. ورجع أحمد الشريف الى سيوة وهزم فيها في شباط ١٩١٧ .

أخذ الى الآستانة في غوّاصة عن طريق النمسة، وتولى في العاصمة التركية تقليد السلطان محمد وحيد الدين السادس السيف عند ارتقائه العرش في ٣ تموز ١٩١٨. وأنعم عليه برتبة الوزارة. ولما قامت حركة مصطفى كمال بعد الحرب العامة والاها وأقام في مرسين.

ودعي الى الخروج من تركية لاتهامه بالاتصال ببعض أمراء الاسرة العثمانية المخلوعة، فقصد دمشق ورحل منها الى الحجاز حيث أكرمه الملك عبد العزيز آل سعود. وأقام في المدينة وتوفي بها سنة ١٩٣٣ .

وبرز بعده من السنوسيين محمد إدريس بن محمد المهدي الذي ولد في جغبوب في ١٣ آذار ١٨٩٠ . وقد أيد البريطانيين خلال الحرب العظمى الاولى فأرسلوه من الاسكندرية في تشرين الثاني ١٩١٥ لدعوة ابن عمه أحمد الشريف الى التفاهم مع بريطانية، ولم يفلح في مسعاه. وأوفد أخاه الرضا الى روما في تشرين الثاني ١٩٢٠ فاعترف بالسيادة الايطالية. وانسحب إدريس الى مصر سنة ١٩٢٣ وأقام فيها. ولما نشبت الحرب العالمية الثانية تزعم الحركة الاستقلالية في برقة وشد أزر بريطانية في حربها ضد الايطاليين والالمان. ووضعت الحرب أوزارها فعينه البريطانيون أميرا لبرقة (٢ حزيران ١٩٤٩)، ثم اعترف به ملكا على ليبية في ٢٤ كانون الاول ١٩٥١. وخلع في أول أيلول ١٩٦٩ في ثورة العقيد معمّر القذّافي، فلجأ الى القاهرة ثانية وتوفي بها في ٢٥ ايار ١٩٨٣ .

سليمان باشا الباروني

من المجاهدين الطرابلسيين سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني، ولد في كاباو من بلاد طرابلس الغرب سنة ١٨٧٠ ودرس في تونس والجزائر ومصر. وعاد الى طرابلس، وكانت تابعة للدولة التركية، فانتقد سياستها وأبعد الى مصر.

عاد الى بلاده بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ فاختير نائبا عن طرابلس في مجلس المبعوثين. ولما اعتدى الايطاليون على طرابلس سنة ١٩١١ عاد اليها مجاهدا وأبى الاعتراف بالصلح المعقود بين الدولتين وواصل مقاومة المحتلين. ثم مضى الى تونس وعاد الى الآستانة فعيّن عضوا بمجلس الاعيان (١٩١٣). وفي أثناء الحرب العامة عاد الى طرابلس الغرب في غواصة المانية وإشترك في القتال ضد الايطاليين. ولما أعلنت الهدنة وعقد الطرابلسيون الصلح مع إيطالية سنة ١٩١٩ رحل الى أوربة. وحج سنة ١٩٢٤. وزار بغداد سنة ١٩٣٤ فكانت له محاورات مع أدبائها. ثم مضى الى مسقط وعمان، وكان إباضيّ المذهب، فاتخذه السلطان سعيد الثالث بن تيمور مستشارا له سنة ١٩٣٥. ومضى الى بومباي مستشفيا فتوفي بها سنة ١٩٤٠.

عمر المختار

وهو عمر بن مختار المِنْفِي من قبيلة المِنْفة النازلة في بادية برقة. ولد في البطنان ببرقة سنة ١٨٥٨ وتعلم في الزاوية السنوسية في جغبوب. أقامه محمد المهدي السنوسي شيخا على زاوية القصور بالجبل الاخضر وسافر معه الى السودان (١٨٩٤) فأقيم شيخا لزاوية كلك. وعاد الى برقة سنة ١٩٠٣ متوليا مشيخة زاوية القصور ثانية. وشدّ في هذه الاثناء أزر أحمد الشريف السنوسي في محاربة الفرنسيين في وداي. ولما احتلت إيطالية بنغازي سنة ١٩١١ كان في طليعة الناهضين للجهاد. واستمر في كفاحه بعد عقد الصلح في أوشي وبعد ذلك خلال الحرب العظمى. وتهادن الايطاليون والطرابلسيون سنة ١٩٢٢ ودب الخلاف بينَ زعماء طرابلس وبرقة ونفض السنوسيون يدهم من المعركة، فاعتصم عمر المختار بالجبل الاخضر والتحقت به القبائل واعترف به الرؤساء قائدا أعلى للمجاهدين. وتوالت الوقائع مع القوات الايطالية في الرحيبة وعقيرة المطمورة وكَرِسَّة، وكلها في الجبل الاخضر، فلم يهن عمر المختار ولم تخضد شوكته .

نقل خير الدين الزركلي في «أعلامه» أن القائد الايطالي العام المارشال غرازياني قال في بيان له عن المعارك التي نشبت بين جنوده وعمر المختار إنها كانت ٢٦٣ معركة في خلال عشرين شهرا، ذلك عدا ما خاضه المختار من المعارك في خلال عشرين سنة قبلها.

وبينما هو في سريّة من رجاله قوامها نحو خمسين فارسا بناحية سلنطة يستكشف مواقع العدو فوجىء بقوة إيطالية أحاطت به فأسرته بعد قتال عنيف جرح فيه وقتل أكثر من معه. وأرسل الى سوسة ومنها الى بنغازي، وحوكم فاعترف باعماله غير هيّاب ولا وجل. وشنقه الايطاليون في مركز سلوق ببنغازي في١٦ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣١، وكان عمره ٧٣ سنة. وقد رثاه الشاعران المصريان أحمد شوقي وخليل مطران وبعض شعراء العراق.

كان عمر المختار شديد الورع، عظيم الجرأة، ثابت العزيمة، مزدريا للمجد

الدنيوي، لا يهن على الرغم من كبر سنه. تزعم العشائر في حرب العصابات، ومنع رجاله من السلب والنهب والاعتداء، وأقلق الجيش الايطالي بظهوره المفاجىء في أماكن مختلفة على قاعدة «أضرب واهرب»، وخلخل سلطة الحكومة خارج المدن والقصبات.

وعيّن الجنرال بادوليو Badoglio حاكما عاما على طرابلس فاتفق في يونيو (حزيران) ١٩٢٩ مع عمر المختار للتفاوض على الصلح. وأعلنت هدنة استمرت خمسة أشهر جرت خلالها المباحثات، لكنها أخفقت وعادت المناوشات في تشرين الثاني (نوفمبر) من تلك السنة.

ضاق زعيم إيطاليا بنيتو موسوليني ذرعا بهجمات عمر المختار ورجال القبائل على القوات الايطالية في الواحات والارياف، فأمر بقصف مضارب العشائر بالقنابل انتقاما من الثوار الذين لا يستطيع مواجهتهم ومنازلتهم. وفي ٣١ تموز (يوليو) ١٩٣٠ ألقت طياراته غاز الخردل السام على واحة تيزربو التي يسكنها الشيوخ والنساء والاطفال فقتل وجرح عدد من السكان الآمنين.

وكان في مقدمة انصار عمر المختار الزعيم القبائلي فاضل بن عمر، إشترك في الكثير من المعارك وأبلى فيها بلاء حسنا حتى قتل في المعركة في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٠ .

قال أحمد شوقي يرثي عمر المختار :

ركزوا رفاتك في الرمال لواءا ... يستنهض الوادي صباح مساءا
يا ويحهم، نصبوا منارا من دم ... توحي إلى جيل الغد البغضاءا
ما ضرَّ لو جعلوا العلاقة في غدٍ ... بين الشعوب مودّة وإخاءا
في ذمّة الله الكريم وحفظه ... جسد ببرقة وسُدُ الصحراءا
لم تبق منه رحى الوقائع أعظما ... تبلى ولم تبق الرماح دماءا
بطل البداوة لم يكن يغزو على ... (تَنْكٍ) ولم يكُ يركب الأجواءا
لكن أخو خيل حمى صهواتها ... وأدار من أعرافها الهيجاءا

وقال خليل مطران

أبيتَ والسيف يعلو الرأس تسليما ... وجدت بالروح جود الحرِّ إن ضيما
لله، يا عمر المختار، حكمته ... في أن تلاقي ما لاقيت مظلوما
إن يقتلوك فما إن عجّلوا أجلا ... قد كان مذ كنت مقدورا ومحتوما

وجدير بالذكر أن فيلما سينمائيا قد وضع عن حياة عمر المختار وبطولته باسم «أسد الصحراء»، وقد مثل دوره الممثل الانكليزي الشهير أنطوني كوين.

مولاي أحمد الريسوني

أحمد بن محمد بن عبد الله الرَّيسوني الحسني الادريسي العِرُوسي من زعماء الثوار المناوئين للحكم الفرنسي في المغرب، ولد في زينات في نحو ١٨٥٤. ويسميه الفرنسيون الرسولي أو الريسولي، أما رجاله فيدعونه الشريف الريسوني. ثار في أيام سلطان مرّاكش الحسن الذي تولّى الحكم سنة ١٨٧٣، وتبعه الناس من قبيلته بني عرّوس وأخواله بني مصوّر. ووقع في قبضة السلطان فسجنه في ثغر الصُّوَيْرة ثلاث سنوات، فلما مات المولى الحسن سنة ١٨٩٤ وتولى الملك ابنه عبد العزيز، وكان حدثا في الثالثة عشرة من عمره، أطلق سراحه. واضطربت أمور الدولة، وتطلع الفرنسيون الى المطالبة بحقوق خاصة في المغرب الاقصى فأقرتهم على ذلك بريطانية وأسبانية وناوأتهم ألمانيا التي زار إمبراطورها ولهلم الثاني طنجة سنة ١٩٠٥ وحصلت حكومته على امتياز لبناء مينائها.

وفي تلك الاثناء ثار جالالي الزربوني الملقب «بو حمارة» على الحدود الجزائرية، وخرج الريسوني في منطقة طنجة سنة ١٩٠٤ واستولي على الريف المجاور للمدينة وخطب باسمه في جبال بني عرّوس.

سعى السلطان الى مصالحته وعيّنه معتمدا له في طنجة فأعاد الامن الى ضواحيها وتولى الامور مستقلا حتى أثار المطامع الاجنبية فعزله السلطان. وعاد الى قريته زينات رافعا علم الثورة على السلطان عبد العزيز وحارب الدولة سنتين. وأنزلت فرنسا قواتها في الدار البيضاء سنة ١٩٠٧ على أثر مقتل أحد الفرنسيين في مراكش. وفي السنة التالية خرج مولاي عبد الحفيظ على أخيه عبد العزيز وبايعه علماء مرّاكش بالسلطنة فتولى الحكم في محله. ووالاه الريسوني وشدّ أزره.

وفي سنة ١٩١٢ فرضت فرنسة حمايتها على المغرب الاقصى وعقدت معاهدة فرضتها على السلطان عبد الحفيظ. لكنه أقصي هو نفسه في أغسطس من تلك السنة وعيّن أخوه الآخر مولاي يوسف سلطانا. وفي سنة ١٩١٣ توسع الاسبانيون في احتلال

بعض الجهات الغربية ودخلوا تطوان واتجهوا الى ناحية العرائش فنهض الريسوني لمقاتلتهم بجموع من القبائل. وحالفه الظفر ففتح بلدة شفشاوة. ثم صالحه الاسبانيون في سبتمبر ١٩١٥ على أن تكون له الجبال دون السواحل. ولم يطل أمد الصلح، وتجددت المعارك، وامتدت الى سنة ١٩٢١ حين قامت ثورة محمد بن عبد الكريم الخطّابي في جهات الريف. وصالح الريسوني الاسبانيين بعد أن بذلوا له الوعود، وأخذ يدعو القبائل الى نصرتهم ولم يجد إبن عبد الكريم بداً من محاربته وأسره في تازروت، وكان شيخا مريضا، فحمل الى بلدة تماسنت في الريف ولم يلبث أن أدركه الحمام فيها سنة ١٩٢٥ .

وضع فيلم سينمائي يمثل حياة الريسوني (الريسولي) وجهاده سنة ١٩٧٥، وقام بدور البطل الممثل الاسكتلاندي المعروف سين كونّري. واسم الفيلم «الريح والاسد» .

محمد بن عبد الكريم الخطّابي

زعيم الريف محمد بن عبد الكريم الخطّابي، وقد عرف باسم عبد الكريم أو ابن عبد الكريم، ينتمي الى قبيلة ورياغل البربرية وكان أبوه من رؤسائها، ولد في بلدة أجدير المجاورة لمليلة سنة ١٨٨١، وأرسله أبوه للدراسة في جامع القرويين في فاس، وأرسل أخاه، واسمه محمد أيضا، الى أسبانية حيث درس هندسة التعدين.

عاد محمد بن عبد الكريم الى مليلة فوظف في دائرة الشؤون المحلية وتولى القضاء في المدينة. وحصل نزاع بينه وبين قائد الجيش الاسباني الجنرال سلفستر ففرّ الى الجبال سنة ١٩١٩. وكانت مليلة بلدة قديمة مبنية على الصخور على ساحل الشمال الشرقي من المغرب، ولم تكن نفوسها تتجاوز الثلاثة آلاف عدّاً في أواخر القرن التاسع عشر، لكن الاسبان وسّعوها وعمّروا ميناءها واتخذوها قاعدة عسكرية واستثمروا المناجم المعدنية القريبة منها وربطوها بالسكة الحديد، فلم تلبث أن ارتفع عدد سكانها الى ٤٠ ألفا أغلبهم من المستعمرين.

وامتد احتلال الاسبان من مليلة وتطوان الى شفشاون، فاعتصم بطلنا بمعاقل قبيلته في جبال الريف، وانضم اليه أخوه بعد برهة وجيزة، فاستنفرا القبائل وألّباها على المستعمرين. وهجم ابن عبد الكريم برجاله على الحامية الاسبانية في أنوال واحتلها في يوليو ١٩٢١، وقتل الجنرال سلفستر في المعركة أو إنه إنتحر. فأخليت المخافر العسكرية ولاذ الجنود بالفرار. وأقبلت العشائر الريفية من كل حدب وصوب فأمعنت في الجيش الهارب تقتيلا وتشريدا، ولم تنته المعارك حتى قضي على ستة عشر ألف أسباني، وعبر الناجون الى المغرب الفرنسي. وبلغ الريفيون أسوار مليلة، وكان في وسعهم دخولها لكنهم انقلبوا عائدين الى معاقلهم الجبلية. وكانت السنوات التالية طافحة بالكفاح لمع خلالها اسم ابن عبد الكريم وأصبح بطلا تتناقل أخباره الصحف العالمية ويزوره المراسلون من أنحاء أوربة وأميركة. وكان لثورته الجريئة صداها في أسبانية نفسها، فسقطت حكومتها في أيلول ١٩٢٣ واستولى على مقاليد الاحكام الدكتاتور

الجنرال بريمو دي ريفيرا الذي قرر سحب قواته الى تطوان والساحل وإخلاء المناطق الداخلية.

عظم شأن ابن عبد الكريم وتفاقم أمره وحقق نجاحا تلو نجاح، وقدّر عدد جنوده بمائة ألف رجل. وأسر غريمه أحمد الريسوني الذي والى الاسبان وأصبح سيد الريف بلا منازع. بيد أن الخطر داهمه من الجنوب، فقد تقدم الجيش الفرنسي واحتلّ المناطق التي ادعى الفرنسيون بامتلاكها. وهبّ ابن عبد الكريم الى نصرة القبائل، فتوغل في أراضي المغرب الفرنسي وهدد مدينة فاس في حزيران ١٩٢٥. وثارت ثائرة الفرنسيين فجلبوا قوات كبيرة من فرنسة والجزائر واتفقوا مع الحكومة الاسبانية على محاربته. وعهدوا بالقيادة الى المارشال بيتان والمارشال ليوتي، وكلاهما من أعظم قوادهم، فردوا زعيم الريف الى جباله. وثبت أمام قوات الدولتين وشن عليها حربا يائسة دامت شهورا حتى اضطر في آخر الامر الى إلقاء السلاح في ٣٠ أيار ١٩٢٦ والاستسلام الى الجنرال بواشو الفرنسي في تازة. وكانت خسائر الفرنسيين في الارواح ٢١٦٢ رجلا عدا المجندين المحليين. وبلغت النفقات نحوا من ٢٦ مليون فرنك استوفيت من الميزانية المغربية.

نفاه الفرنسيون الى جزيرة ريونيون في المحيط الهندي مع أخيه وبعض أقاربه، فقضى في الاسر ٢١ سنة. وفي أيار ١٩٤٧ قررت الحكومة الفرنسية السماح له بمغادرة الجزيرة للعيش في بلادها، فلما مرت الباخرة بقناة السويس وتوقفت في بورسعيد، تمكن من مغادرتها واللجوء الى القاهرة.

وقد أمضى المجاهد الشيخ بقية حياته في العاصمة المصرية حتى قضى نحبه فيها في ٦ شباط ١٩٦٣ بعد أن كتب صفحة رائعة من صفحات البطولة والكفاح.

أعجب بابن عبد الكريم الشاعر المصري علي محمود طه المهندس فتغنى ببطولته في ديوانه «شرق وغرب»، قال :

لا السيف قرٌّ ولا المحارب عادا ... ويحُ البشر! بأي سلم نادى؟
الأرض من أجساد من قُتِلوا بها ... تجني العذاب وتنبت الأحقادا
راع الطغاة شعاعه فتساءلوا: ... من نصّ هذا الكوكب الوقّادا؟
إن تجهلوا فسلوا به آباءكم ... أيام شعّ عدالة ورغادا
هل أبصروا حرية إلا به ... أو شيّدوا لحضارة أوتادا؟
حملت سناه لهم يدا عربية ... تبني الشعوب وتنسج الآبادا

في المغرب الأقصى فتى من نورها قدحت به كفّ السماء زنادا
سلّته سيفاً كي يحرر قومه ويزيل عن أوطانه استعبادا

ثمّ قال يخاطبه:

أنّي نزلت بمصر أو جاراتها جئت العروبه امّة وبلادا
مدّت يديها واحتوتك بصدرها أمّ يضمّ حنانها الأولادا
ولو استطاعت ردّ ما استودعتها ردّت عليك العهد والميلادا . . .

الشيخ عبد العزيز الثعالبي

الشيخ عبد العزيز الثعالبي من أحرار تونس وفضلائها أقام أعواماً عدة في العراق، درّس في جامعة آل البيت، وكان ديوانه مركزا من مراكز بغداد الثقافية يؤمه رجال العلم والادب والشباب الناهض.

ولد عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي في تونس الخضراء سنة ١٨٧٤من أسرة جزائرية الاصل، وتخرج في جامع الزيتونة (١٨٩٦). أصدر جريدة «سبيل الرشاد» (١٨٩٥ - ١٨٩٧)، وانتمى الى حزب تونس الفتاة، وساهم في الحركة الوطنية. ثم أغلق جريدته وطاف في بلدان المشرق، فزار طرابلس الغرب ومصر وسورية والعراق واليونان وتركية، وأقام أمدا في الآستانة والقاهرة. وكتب في هذه الأثناء في جريدة المؤيد القاهرية وغيرها.

عاد الى تونس سنة ١٩٠٣. ولم يلبث أن زايلها فزار المغرب والجزائر والمغرب الأقصى وأسبانية عائدا الى مسقط رأسه في السنة التالية. ونسبت اليه قضية تتعلق بالتطاول على الدين الحنيف فسجن أشهرا. وساعد المجاهدين في طرابلس على أثر الاحتلال الايطالي. وسجنه الفرنسيون سنة ١٩١١، فلما أطلق سراحه قصد باريس وقام بسياحة في تركية والهند وجاوة.

وآب الى تونس سنة ١٩١٤. ونشبت الحرب العامة فواصل نشاطه الوطني مع زملائه في الخفاء، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها، سافر الى باريس وطبع كتابه «تونس الشهيدة» باللغة الفرنسية، فاعتقل ونقل الى تونس حيث سجن نحوا من تسعة أشهر.

وأطلق سراحه سنة ١٩٢٠ فتولى رئاسة حزب الدستور التونسي وواصل نضاله، وأصدر جريدة «الارادة». ثم غادر بلاده في حزيران ١٩٢٢ قاصدا مصر وفلسطين، وجاء الى العراق سنة ١٩٢٥ فكان موضع الحفاوة والتكريم.

قال فيه جميل صدقي الزهاوي :

أحيّيك يا عبد العزيز، تحية | لها الحب أم والوفاء لها أب
أحييك من ضيف لبغداد نافست | به فهي عن إحساسها اليوم تعرب
أحييك من حَبْر رسا طود علمه | وبحر خضم ماؤه ليس ينضب
لقد لحت في الزوراء تومض للهدى | كما لاح في ليل الدجنّة كوكب
حللت بها، والروض ليس بمخصب | فما حلّ الا وهو ريّان مخصب
الى الادب العصري بالعرب حاجة | وإنك، يا عبد العزيز، المؤدّب
وكم لك في الايام من وطنية | بآثارها سرّت نزار ويعرب

وقال معروف الرصافي :

أتونس، إن في بغداد قوما | ترفّ قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإيّاك انتساب | الى من خُصّ منطقهم بضاد
ودين أوضحت للناس قبلا | نواصع آيه سُبْل الرشاد
فنحن على الحقيقة أهل قربى | وإن قضت السياسة بالبعاد

حتى يقول :

لنا بثعالبيك خير مُلْقٍ | على أشتاتنا حبل اتحاد
وأكبر حامل بيد اعتزام | لحب بلاده علم التفادي
وأسمى من سما أدبا وعلما | وأفصح من تكلم عن سداد

وقال أنور شاؤل :

أيها الراقدون والشمس تزهو | إنهضوا للكفاح فالليل ولى
أيها البائسون في الكون هلاّ | تطلبون السعود والرغد هلا ؟
فاطلبوا الحق واعضدوه ونادوا | أنت، يا حق، طبت فرعا وأصلا
إنما الحق خير ما نفثته | روح من عزّ في السماء وجلاّ
وإذا المرء عاش مغصوب حقّ | من حقوق الانسان فالموت أولى!

ألقى الثعالبي عصا الترحال في بغداد فنال حظوة من الملك فيصل الاول ورجال الحكم والادب. وعيّن أستاذا في جامعة آل البيت في كانون الاول ١٩٢٥، فكان مجلسه ندوة أدبية وثقافية. ونشرت محاضراته في مجلة الجامعة متسلسلة بعنوان «فلسفة التشريع الاسلامي» و «تأريخ التشريع الاسلامي».

ولما أغلقت الجامعة أوفد الى مصر سنة ١٩٣٠ مراقبا لبعثة الاوقاف العلمية العراقية. وأقام في القاهرة أمدا، ثم زار الحجاز والهند وجاوة، وعاد الى تونس في

تموز ١٩٣٧. واعتزل الحياة العامة، وأدركته الوفاة في مسقط رأسه في ٢ تشرين الاول ١٩٤٤ .

كان خطيبا كاتبا محدثا لبقا. من مؤلفاته: معجز محمد رسول الله صلعم (في جزءين)، مذكرات (في ٥ أجزاء عن رحلته الى مصر والشام والحجاز وغيرها) تأريخ شمالي أفريقية، روح القرآن، الخ.

وكان يحسن الطهي، روى لي الشاعر محمود الملاح أنه دعاه ذات يوم الى تناول الغداء مع الشاعرين الزهاوي والرصافي. فلما قدم الطعام، وكان لذيذا فاخرا، قال الثعالبي : لقد طهيت هذا الطعام بيديّ هاتين، ولو ضاقت بي سبل العيش لاستطعت أن أعمل طاهيا فأسد رمقي ؛

وتعرف الى الثعالبي فيَ بغداد الاستاذ المصري أحمد حسن الزيات الذي انتدب للتدريس فيها في أواخر سنة ١٩٢٩، فكتب عنه يقول :

«دعاني الزعيم (التونسي) ذات نهار من أنهار تموز الى الغداء، فتحاملت على نفسي وذهبت اليه في الظهيرة. فوجدته في الحجرة السفلى من داره متهالكا على فراشه، وقد تعرّى جسده البدين البطين إلا من إزار كإزار الحمام. فقلت مداعبا : أتُحرِم، يا أستاذ، في غير وقت الحج ؟ فقال على البديهة وهو يضحك ضحكته العريضة العذبة: وكيف لا أحرم وهذه شمس بغداد ترمي الجمرات ؟ فعجبت من جمال توريته وحضور ذهنه على الرغم مما كان يقاسي من لهاث الحرّ وتفصّد العرق..»

حدثني أحمد حامد الصرّاف قال : كنّا في شبابنا نقصد مجالس الادب ونصيخ باسماعنا الى أحاديث الشيوخ وأرباب الكمال. وقدم بغداد الشيخ الثعالبي فأصبحت داره محجة الناس كبيرهم وصغيرهم يحفون بالزعيم الوطني التونسي ويلتقطون نفثات علمه الزاخر وقريحته الوقادة .

قال الصراف : كان الشيخ رحمه الله يعلم جميع العلوم حديثها وقديمها ويتصرف في فنون القول غمر البديهة حلو البيان مطواع اللسان ثابت الجنان، لا يرد سائلا ولا يعفي من التعقيب قائلا. فعجبنا لأمره كيف لا تعجزه مسألة ولا يعييه موضوع، فقلنا : لنمتحنْه امتحانا عسيرا. وأزمعنا أمرنا أنا وبعض رفاقي من أدباء الشباب فمضينا الى منتداه الحافل وجلسنا نصغي بأدب واحتشام، حتى إذا ما سنحت الفرصة تنحنحت وقلت : «يا أستاذ، سمعنا بكتاب نفيس مخطوط اسمه «قلائد النحور في بدائع وشي المنظوم والمنثور» لابن بيكال النيباري (أو ما جرى مجرى ذلك من الاسماء التي اتفقنا على

تلفيقها)، فهل وقفتم عليه في سياحاتكم وتحقيقاتكم ؟» ولم تطرف للشيخ عين بل أجاب على البداهة : «أجل، إن هذا مخطوط جليل القدر، وقد وجدت نسخة منه في مكتبة الاسكوريال في مدريد وأخرى في مكتبة الفاتيكان، ومؤلفه أندلسي فاضل من أبناء القرن السابع الهجري. . . » وأفاض في ذكر سيرة المؤلِّف وفحوى المؤلَّف حتى حسبنا أنه يقرأ في كتاب مفتوح. وقمنا وقد أيقنا أن للشيخ على جلالة قدره وجزالة فضله قريحة تسعفه حيث يعجز العلم. وقلنا : لعله خلط مخطوطنا بآخر مما وقف عليه ونظر فيه من وفير المصنفات، والله أعلم.

آمن الثعالبي بوحدة العرب وبعث الدولة العربية الكبرى. وقد سألته مجلة الرابطة العربية الصادرة بمصر سنة ١٩٣٦ هل أزف وقت الدعوة الى بعث الامبراطورية العربية، فقال :

«أجل، هذا هو وقت العمل لايجاد كيان هذه السياسة الجديدة، ومصر هي التي ينبغي أن يستقر فيها أولاً التبشير ببعث الامبراطورية العربية لانها تقع على شاطىء البحرين المتوسط والاحمر. واتصالها عن طريق الحدود البرية بالعالم العربي في آسية وشمال أفريقية ووسطها وشرقها ييسّر لها القيام بهذا الدور الخطير. ومصر الآن مركز الثقافتين العربية والاسلامية، ومن هذه النقطة - نقطة العمل الثقافي - يجب أن يبدأ المبشرون بالامبراطورية العربية عملهم. . »

وارتأى التمهيد بتأسيس رابطة قلمية لتغذية الفكرة، وزيادة البعثات العلمية التي تفد على المعاهد المصرية، والعناية بدرس التأريخ العربي والادب، والبحث في العناصر التي اجتمعت للدين الاسلامي وشعب الجزيرة ولسان العرب فهيأت لها التوسع والانتشار. ودعا الى التعاون الاقتصادي بين الاقطار العربية، ونادى بالتقارب بين أبناء الشعب العربي وتوحيد الرأي العام المستنير وإيجاد سياسة مشتركة. . .

وقال علي الخطيب فيه:

هو الحر يطوي في مناه الفيافيا ... ليبلغ منها ما يسرّ المعاليا
يجدّ الى نيل الاماني مخاطرا ... وإن هو يلقى دون ذاك الدواهيا
وما الحر الا كالسفين بزاخر ... تروح به الامواج غورا وعاليا
وتذهب فيه الريح شرقا ومغربا ... ولم يك من هول الشدائد ناجيا
وها أنت ذاك الحر يزجي ركابه ... فيطوي الموامي تارة والطواميا
حوى بين جنبيه عزائم همّة ... وأظهر منها ما يدك الرواسيا

ركبت سفين الاغتراب عن الحمى | لتلقيَ في عز الحياة المراسيا
فعزّ علينا أن نراك أخا نوى | وما أنت بالجاني لتغدوَ نائيا
ولكنّما الاحرار في الشرق طالما | تعاني من الاوصاب ما كان قاضيا..
فأهلا وسهلا بالعزيز ومرحباً | فمثلك من نبغيه في القطر هاديا

ومرّ ببغداد سنة ١٩٢٩ الزعيم الهندي محمد علي، فاحتفى به الثعالبي وأنشد معروف الرصافي بين يديه قصيدة «الفيل الحمل» قال منها:

إليك، زعيم الهند، أورد هاهنا | سؤالا له أرجو الجواب تفضّلا
إذا ما سمعت الهند في قول قائل | تخيّلت فيلا بالحديد مكبّلا
تزجيه كف الاجنبي مسخّرا | فيمشي بأعباء الاجانب مثقلا

حتى قال:

لنا حَمَل، وهو العراق، نظنّه | غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا
فإن ينجُ هذا الفيل من قيد أسره | نجونا وإلا أصبح الامر معضلا

وكان الثعالبي خطيبا مفوها، ذكره معروف الرصافي في كتابه «نفح الطيب في الخطابة والخطيب» المطبوع في إستانبول سنة ١٩١٧ باسم «عبد العزيز التونسي»، وقال إنه اجتمع به في الآستانة قبل بضع سنين فرآه من أبين الناس وكان معجبا بحسن بيانه كل الاعجاب، فهو يتكلم بالعربية الفصحى دون تلجلج ولا تلعثم. وقد قيل للرصافي عنه إنه يخطب بالفرنسية كما يخطب بالعربية. وقرنه الرصافي بكبار خطباء العرب في ذلك العهد أمثال عبد العزيز شاويش وشكيب أرسلان وأسعد شقير ومحمد كرد علي ومحمد رشيد رضا ومصطفى الغلاييني وأمين الريحاني الخ.

الحبيب بورقيبة

الزعيم التونسي المناضل ورئيس الجمهورية الذي قضى نحواً من ثلث قرن يهيمن على مقدرات بلاده الحبيب بن علي بورقيبة ينتمي الى أسرة فلاحية الاصل، لكن أباه كان موظفا في حكومة الباي (الأمير) أنجب ثمانية أبناء أحدهم الحبيب.

ولد في مدينة المناستير في ٣ أغسطس ١٩٠٣ ودرس في المدرسة الصادقية ومدرسة ثانوية فرنسية في تونس. ثم سافر الى باريس سنة ١٩٢٤ والتحق بكلية الحقوق ومدرسة العلوم السياسية فحصل على إجازتها وعاد الى تونس سنة ١٩٢٧.. مال الى النضال الوطني وهو فتى يافع فانتمى الى حزب الدستور سنة ١٩٢١. وأخذ يكتب في جريدة «صوت التونسي» باللغة الفرنسية منذ عودته الى الوطن، ثم أصدر سنة ١٩٣٢ جريدة «العمل»، وقد استمرت على الصدور وأصبحت بعد الاستقلال لسان الحزب الحاكم. وأنشأ حزب الدستور الجديد في مارس ١٩٣٤ وجمع في مبادئه الوطنية والاشتراكية لتحقيق حرية البلاد ونهضتها.

كوفىء جهاده الوطني بالنفي في سبتمبر ١٩٣٤ الى منطقة برج الثور في قلب الصحراء، فلم يكد يطلق سراحه في مايو ١٩٣٦ حتى شد الرحال الى باريس أملا منه أن يحصل على شيء من التساهل من حكومة الجبهة الشعبية الجديدة. لكن آماله خابت، فعاد يدعو الى فكرة الحكم الذاتي في ظل الادارة الفرنسية. وأعيد اعتقاله في أبريل ١٩٣٨، وسجن في مارسيلية بعد اندلاع الحرب العالمية حتى أفرج عنه سنة ١٩٤٣. لكن بورقيبة لم ينبهر بالانتصارات الالمانية، بل ظل مخلصا لمبادىء الحرية ومؤمنا بتحقيق كفاحه على يد فرنسة وحلفائها.

وفي مارس ١٩٤٥ خرج بورقيبة من تونس وعبر الصحراء الليبية حتى بلغ القاهرة. واتصل بالساسة المصريين والعرب في جامعة الدول العربية المؤسسة حديثا آنذاك لدعم استقلال بلاده. وزار البلاد العربية الاخرى وجاء الى بغداد مواصلا مساعيه.

حدثني الشيخ محمد رضا الشبيبي أن بورقيبة زاره في داره فيمن زارهم من رجال

الدولة فقابله بالترحيب والاكرام. ولما هم بالخروج وقام الشبيبي يودّعه الى باب الدار، قال له: إنني بالمناسبة مندوب جريدة الايام الدمشقية، وهي ترسل اليكم منذ سنواتٍ، فهلا دفعتم لي بدل الاشتراك؟ فأجابه الشبيبي: أجل، إن «الايام» تصلني أحيانا ولم أطلبها، فلست على استعداد لدفع شيء لقاءها.

عاد بورقيبة من رحلته الطويلة في سبتمبر ١٩٤٩. واعتقل مرة أخرى بعد ثلاث سنوات وقضى في السجن والمنفى هذه المرة سنتين. ودعا الى التفاوض مع فرنسة وأوعز الى أتباعه بالقاء السلاح بينما راح منافسه صالح بن يوسف يدعو الى مواصلة الكفاح المسلح تضامنا مع ثورة الجزائر. ودخل بورقيبة تونس العاصمة في الاول من يونيو ١٩٥٥ممتطيا صهوة حصان. ومنحت فرنسة البلاد استقلالها رسميا في ٢٠ مارس ١٩٥٦، وانتخب التونسيون مجلسا تأسيسيا اجتمع في ٨ أبريل واختار بورقيبة رئيسا للوزراء، وتقلد الرئاسة ووزارتي الخارجية والدفاع. وفي ٢٥ يوليو ١٩٥٧ خلع سيدي محمد الامين آخر البايات الذين دام حكمهم ٢٦٦ سنة (منذ ١٦٩١)، وأعلنت الجمهورية وانتخب الحبيب أول رئيس لها.

أعيد انتخابه للرئاسة سنة ١٩٥٩ و١٩٦٤ و ١٩٦٩ و ١٩٧٥. وفي مارس ١٩٧٥ قرر إختياره رئيسا مدى الحياة. وقد انتهج خلال هذه المدة الطويلة خطة معتدلة موالية للغرب وفرنسة والولايات المتحدة الاميركية على الاخص. وصدر الدستور في أول يونيو ١٩٥٩ مقرا الحريات الديمقراطية. وخلق بورقيبة دولة عصرية متقدمة إقتصادياً ودعم الصناعة الناشئة والزراعة الآلية. لكنه أخذ في الاعوام الاخيرة يشدد حكمه الدكتاتوري ويعزل وزراءه الواحد بعد الآخر. وفي ٢ أكتوبر ١٩٨٧ فصل رئيس وزارته رشيد صفر، وعين للرئاسة في محله زين العابدين بن علي وزير الداخلية والقائد العسكري السابق، فلم يمض شهر واحد حتى قرر إبن علي إنهاء رئاسته بحجة عجزه وانحطاط صحته بسبب الشيخوخة وخلفه في رئاسة الجمهورية في ٧ نوفمبر ١٩٨٧ .

ألف بورقيبة كتابين باللغة الفرنسية: الدستور وفرنسة (١٩٣٧) تونس وفرنسة (١٩٥٥).

حيا استقلال تونس الشاعر المصري عزيز أباظة، قال:

كرمت علينا العزة القعساء ... وتأشبت يا تونس الخضراء
قرطاج في حضنيك أيّ سماوة ... خضعت لفارع مجدها الارجاء . .
قل للرئيس أبي رقيبة: هكذا ... فلتُرسِ مجد بلادها الرؤساء!

قد صنت موعودا لتونس عِرْضَها ودفعت عنها الهون وهو صِلاء
وبعثتها ملء العيون مهابةً وكذا يصول الكابر الأبّاء
جاهدت بدريّ الجهاد مؤزرا وشهود ضخم جهادك الشهداء

مصالي أحمد الحاج

الزعيم الوطني المناضل الجزائري ولد في تلمسن سنة ١٨٩٨وتطوع في الجيش الفرنسي خلال الحرب العظمى الاولى، وأقام في فرنسا في نهاية الحرب واقترن بفتاة فرنسية، ثم بدأ حركته الوطنية بعد ذلك طلبا لاستقلال الجزائر التي احتلتها فرنسة منذ سنة ١٨٣٠ وجعلتها جزءا من الوطن الفرنسي فيما وراء البحار.

كان الامير عبد القادر الحسني (١٨٠٧ - ١٨٨٣) أوّل المناضلين في مقاومة الاحتلال، وقد أشغل الجيش الفرنسي ١٥ سنة حتى أعياه الكفاح واستسلم الى أعدائه سنة ١٨٤٧. أبعد الى فرنسة، ثم سمح له بالشخوص الى بروسة في تركية. وانتقل سنة ١٨٥٥ الى دمشق حيث توفي في ٢٦ أيار ١٨٨٣. وجدير بالذكر أن الامبراطور نابليون الثالث الذي أطلق سراح الامير عبد القادر كان له رأي خاص في استعمار الجزائر، فصرّح بأن هذه البلاد قطر عربي وامتنع عن تشجيع نزوح الفرنسيين اليها للإقامة فيها واستغلالها. وقد أصدر مرسوما في ٢٢ نيسان ١٨٦٣ يعطي القبائل حق امتلاك الاراضي التي يستغلونها. وأصدر بعد سنتين مرسوما جديدا يعتبر الجزائريين رعايا فرنسيين، لكن مراسيم الامبراطور لم تحظ بالتأييد. وحدثت بعد ذلك ثورات على الفرنسيين في منطقة وهران وقسنطينة والقبائل وسواها تزعمها الشيوخ المحليون، لكن فرنسة أخمدتها بشدة وواصلت سياستها الرامية الى استيعاب القطر و«فَرْنَسَة» أهليه وتركيز الحكم فيه.

سار الجزائريون في ركاب الحكومة الفرنسية وأخلصوا لها، فلما نشبت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ التحق ١٧٣٠٠٠جزائري بالقوات المسلحة فضلا عن العمال الذين بلغ عددهم ١١٩٠٠٠. وكانت ضحاياهم في الحرب نحواً من ٢٥ ألف جندي. وبادرت فرنسة الى منح الجزائريين سنة ١٩١٩ حقوقا مدنية وسياسية وقبلت ممثليهم في المجالس الوطنية المحلية. وانتخب نواب لهم بعد ذلك في مجلسي الاعيان (الشيوخ) والنواب في باريس.

لعلّ مصالي الحاج أول جزائري فكّر في استقلال بلاده، فاشترك سنة ١٩٢٤ في

تأسيس حزب وطني باسم «النجم الافريقي الشمالي». وكان متصلا في بادىء الامر بالحركة الشيوعية، لكنه إنفصل عنها وتبنّى الحركة الاسلامية. وقد إعتقل سنة ١٩٢٩ وألغي حزبه، ثم أعاد تنظيمه سنة ١٩٣٣ فلم يلبث أن اعتقل مرة أخرى. وأنشأ سنة ١٩٣٦ حزب الشعب الجزائري، وكان يرمي الى إستقلال الجزائر خلافا لفرحات عباس الذي إعتنق مبدأ منح بلاده حكما محلياً في ظلّ فرنسة.

أعيد اعتقال مصّالي سنة ١٩٣٩، وحكم عليه بعد سنتين بالسجن لمدة ١٦ سنة، غير أنه أطلق سراحه سنة ١٩٤٣ بعد نزول الحلفاء الى شمال أفريقية واكتفي بابعاده واعتقاله في داره. وفي ٨ أيار ١٩٤٥ تزعّم حركة ثورية في الجزائر الشرقية بادرت السلطات الفرنسية الى إخمادها، وقتل فيها أكثر من ٨٠٠٠ جزائري.

واصل مصّالي الحاج حركاته الثورية، وأنشأ سنة ١٩٤٦ حزبا جديدا باسم «الحركة لانتصار الحريات الديمقراطية» في سبيل المطالبة بالاستقلال التام.

واعتقل مرارا خلال السنوات التالية، وقيل انه قضى زهاء ثلاثين سنة من حياته النضالية في السجون والمعتقلات. لكنه أصبح بعد الحرب العالمية الثانية بعيد الصلة بمجاهدي الجيل الناشيء، وفي مقدمتهم أحمد بن بيلا وكريم بلقاسم وحمد خضر. ونشبت الثورة المسلحة في أول تشرين الثاني ١٩٥٤ فحصل الشقاق بين مصّالي والزعماء الجدد، وندد بالثورة وقادتها. وأعيد اعتقاله، فلما أطلق سراحه سنة ١٩٦٢ فضّل العيش لاجئا في فرنسة. وأدركته الوفاة في باريس في أوائل حزيران ١٩٧٤.

فتح الجزائر

من أهم المصادر القديمة لاحتلال فرنسة للجزائر واستعمارها مذكرات المارشال ماكماهون التي ترجمها الى العربية حامد مصطفى المدون القانوني في وزارة العدلية العراقية وطبعها في بغداد. تخرّج موريس دي ماكماهون في كلية سان سير العسكرية وخدم، وهو ضابط صغير، في الحملة الفرنسية الى الجزائر سنة ١٨٣٠ . ثم خدم في الجزائر مرة أخرى من ١٨٣٣ الى ١٨٥٤ مع فترات وجيزة من الانقطاع وعاد اليها بعد ذلك قائدا للجيش الذي أخضع القبائل. وفي سنة ١٨٦٤ عين حاكما عاما للجزائر، ثم أصبح ثاني رئيس للجمهورية الفرنسية سنة ١٨٧٣- ١٨٧٩ .

نزل الضابط الخيّال في أرض الجزائر لأول مرة وهو شاب في الثانية والعشرين من عمره. روى في كتابه الهجوم الاول على الجنود «الاتراك» الذين سلطوا على الجنود المحتلين نيرانا حامية. لكن الجيش الفرنسي واصل تقدمه على الرغم من الدفاع المستمرّ حتى دخل الى العاصمة. وعلى أثر ذلك أخرج الاتراك وارسلوا الى القسطنطينية، وضمنت سلامة الداي ونقل مع خزينته الخاصة وحريمه بحرا الى ليفورنو.

احتلت فرنسة المدن الساحلية فقط. واستمرت المقاومة، ثم برز عبد القادر بن محيي الدين الحسني (١٨٠٧ - ١٨٨٣) فنهض بالجهاد وقاتل الفرنسيين خمسة عشر عاما، وكانت له مقدرة عسكرية وسياسية فائقة. التفّت حوله قبائل الجزائر الغربية وأنشأ حكومة لها نقودها ومعاملها وادارتها الحربية والمدنية. واستمرت الحرب سجالا مع جيش الاحتلال. وأخيراً علم الجنرال الفرنسي لامور سيير، وهو في وهران، أن سلطان مراكش وهو عبد الرحمن بن هشام خرج بجيش كبير لقتال الامير عبد القادر لأنه أدرك أن نفوذه اتسع حتى شمل قبائل تابعة للسلطان. وفي ٢٢ ديسمبر ١٨٤٧جاءت الانباء بوقوع قتال عنيف في المولوية بين جيش عبد القادر والسلطان. حوصر الامير عند النهر فقاتل يومين قتالا شديدا ضد قوات تفوقه كثيرا حتى أفلح في عبور النهر. وقد بلغ من استماتته أنه كان يزجّ برجاله في الميدان بلا تحرّج حتى فقد نصف جنوده النظاميين مشاة

وفرساناً. وفي خلال هذه الاحداث اتجه الجنرال الفرنسي بجمع جيوشه صوب قسّ. ولما أظلم الليل أرسل فصيلا من السباهيين بإمرة ضابط من أهل البلاد ليرابط عند ثنية بني سناسن حيث ظن أن عبد القادر سيمرّ ناجيا في طريقه الى الجنوب. ولم يكد الفرنسيون يبلغون ذلك المكان حتى وصل الامير. وعند ذلك ترامى السباهيون تحت أقدامه، ثم حيّاه الضابط باحترام وأخبره أنه لا يسمح له بالمرور. أيقن عبد القادر أنه أصبح بين الجيشين المراكشي والفرنسي، فقرر الاستسلام وكتب بذلك الى القائد الفرنسي مشترطا الابقاء على جميع رجاله وخلفائه ورؤساء جنوده النظاميين والسماح لهم بالالتحاق بالقبائل التي يتنسبون اليها. أما هو فيرغب أن يرسل الى أحد الموانىء الاسلامية ويفضل أن يكون ذلك أزمير.

اعتبره الفرنسيون أنفسهم رجلا شريفا وخصما نبيلا. ومع أنه اضطرَّ في إحدى المرّات على إباحة قتل الجنود الاسرى فقد وجدوا له العذر لشحة الطعام في المنطقة ورفض القائد الفرنسي الماريشال بوجوب مبادلة الاسرى لئلا يؤخذ ذلك منه بمثابة اعتراف بالامير ومعاملته ندّاً له. وذهب عبد القادر الى بلدة جمع الغزوات ليسلم نفسه اسيراً وكان معه خمسون فارساً من حرسه. ومضى دون أومال حاكم الجزائر، وهو نجل لويس فيليب ملك الفرنسيين،الى البلدة، فجاء اليه عبد القادر بكل إباء وهدوء. خرج الدوق من خيمته فترجّل الامير وتقدم منه قائلاً: يسرّني وأنا في حالتي هذه، أن أسلم نفسي الى ابن ملك فرنسة. وفي اليوم الثاني أبحر الاسير الى طولون تصحبه أسرته والحاشية. وكان على الساحل عند نزوله الى السفينة جموع غفيرة من الاهلين وبينهم جنود وسباهيون من الفرنسيين، فلما مرّ من بينهم أظهروا له أوفى آيات الاحترام، وقبّل بعضهم طرف ردائه. ولما وطئت قدماه القارب رفع يده بالتحية، ونظر الى السماء وقال: تلك إرادة الله!

بقي عبد القادر في فرنسة الى سنة ١٨٥٢ حين أطلق سراحه الامبراطور نابليون الثالث بعد أن أقسم ألا يذهب الى الجزائر. ومضى الى بورصة في الأناضول إنتقل منها الى دمشق سنة ١٨٥٥ حيث استقرّ الى وفاته بعد ٢٨ سنة في ٢٦ أيار ١٨٨٣ .

وقد رتبت له الحكومة الفرنسية راتبا سنويا. ولما هاجم المسلمون منازل النصارى في دمشق في شهر تموز ١٨٦٠ أنقذ منهم مع رجاله عددا كبيرا. وثارت الجزائر سنة ١٨٧١ فنصح الثائرين بالخضوع للحكم الفرنسي.

وجدير بالذكر أن خالد الجزائري حفيد الامير عبد القادر شرع بالنضال ضد

الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٣٠ . ولما توفي سنة ١٩٣٧ خلفه في النضال الزعيم مصّالي الحاج الذي أسس حزب الشعب. غير أن فرنسة حلّت الحزب وطاردت أعضاءه وألقت بهم في السجون.

وانطلقت ثورة الجزائر من جبال الاوراس في أول تشرين الثاني ١٩٥٤ .

فرحات عبّاس

الزعيم الجزائري المناضل فرحات عبّاس ولد في طاهر بمنطقة القبائل في ٢٤ آب ١٨٩٩ ودرس في المدارس الفرنسية وتخصص في الكيمياء. وتطوّع في الجيش الفرنسي في الحرب العامة، وعاد الى الجزائر فدرس في الجامعة ومارس الصيدلة وعمل في الصحافة.

كان أول الذين رفعوا صوتهم مطالبين بتحرير البلاد مصالي الحاج الطالب الجزائري في باريس الذي أصدر سنة ١٩٢٤ صحيفة وطنية بمساندة الحزب الشيوعي الفرنسي. وقد ذاق مرارة السجن، فلما أفرج عنه سنة ١٩٣٦ ألف حزب الشعب الجزائري. أما فرحات عباس فتولى رئاسة إتحاد الطلبة الجزائريين المسلمين (١٩٢٦ - ١٩٣١) ودعا الى الاتحاد مع فرنسة على أساس المساواة التامة.

نشبت الحرب العالمية الثانية ونزلت قوات الحلفاء الى شمال افريقية. وفي ٢٢ ديسمبر ١٩٤٢ قدم فرحات على رأس جماعة من رفاقه مذكرة الى السلطات الفرنسية وقيادة الحلفاء طالب فيها بانتخاب جمعية تأسيسية بعد نهاية المعارك لتقرير مصير البلاد. وأصدر في السنة التالية «بيان الشعب الجزائري» مطالبا بالاصلاحات الفورية وتأسيس دولة جزائرية وجعل العربية لغة رسمية. غير أن السلطات الفرنسية الحاكمة صمّت آذانها عن سماع تلك النداءات ولم تعرها اهتماما.

وأسس فرحات سنة ١٩٤٤ جمعية «أصدقاء بيان الحرية» للمطالبة بالاستقلال وإنشاء جمهورية جزائرية. وقامت المظاهرات والاضطرابات العديدة في بلدة ستيف في مايو ١٩٤٥ فأخمدت بعنف وكانت ضحاياها نحواً من ١٥ ألف جزائري. اعتقل فرحات على أثر ذلك وأفرج عنه في مارس ١٩٤٦، فصار يدعو الى إنشاء دولة جزائرية ضمن الاتحاد الفرنسي. وانتخب في تلك السنة نائبا في الجمعية التأسيسية الفرنسية كما عضوا في مجلس الاتحاد الفرنسي، انتخب عضوا في الجمعية الجزائرية سنة ١٩٤٨ و ١٩٥٤.

أعلنت جبهة التحرير الوطني الثورة في أول نوفمبر ١٩٥٤، إندلعت في جبال

الاوراس واتسع مداها. وانضم فرحات اليها في أبريل ١٩٥٦ فكان عضو وفد الجبهة الى الجمعية العامة لهيئة الامم سنة ١٩٥٧ ورئيس الوفد الى مؤتمر الشمال الافريقي في طنجة (١٩٥٨). ثم إلتجأ الى القاهرة وألف حكومة جزائرية وقتية فيها في ١٩ ايلول ١٩٥٨. وانتقل الى تونس، وتخلّى عن الرئاسة في ٢٧ آب ١٩٦١. وأعلن الرئيس الفرنسي الجنرال شارل ديغول إستقلال الجزائر في ٣ يوليو ١٩٦٢، وأصبح فرحات رئيسا للجمعية التأسيسية في ٢٥ سبتمبر من تلك السنة، وألف الوزارة أحمد بن بيلاّ.

وحصلت منازعات بين السياسيين فاستقال فرحات عباس من رئاسة الجمعية في أغسطس ١٩٦٣. واعتقل في يوليو ١٩٦٤ ونفي الى الصحراء. ثم أفرج عنه في يونيو ١٩٦٥ واعتزل الحياة السياسية. توفي في ٢٤ دسمبر ١٩٨٥ في القبّة بالجزائر. ألف باللغة الفرنسية : الجزائري الصغير (١٩٣١) الليلة الاستعمارية (١٩٦٢) تشريح جثة حرب (١٩٨٠).

وقد حيّا الشاعر المصري عزيز أباظة باشا الجزائر الثائرة، قال:

حيّ قوّامة الجهاد الجزائر — حيّ مليون ثائر في المقابر
حيّ أرضاً قامت عليها البطولات — ذرىً لا تنالها عين ناظر
كتبوا بالدم الزكيّ أساطير — فداءٍ لها الليالي ذواكر . .

الحجاز وجزيرة العرب

الملك حسين عاهل الحجاز

رفع الشريف حسين علم الثورة في مكة في التاسع من شعبان ١٣٣٤هـ (١٠ حزيران ١٩١٦) فكان ذلك يوما مشهودا في تأريخ العرب الحديث.

ينتمي الحسين الى فرقة العبادلة من أشراف الحجاز. وكان جده الاعلى قتادة بن إدريس الحسني العلوي رأس عشيرته ملك مكة سنة ١٢٠١م واتّسع ملكه الى المدينة واليمن وتوفي سنة ١٢٢٠. وخلفه أبناؤه وأحفاده في شرافة مكة، وكان آخرهم قبل الحسين الشريف علي باشا بن عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون الذي عزل سنة ١٩٠٨، فعين الاتراك الذين كانوا قد إستولوا على الحجاز سنة ١٥١٧، عبد الاله باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون خلفا له. لكنه توفي قبل أن يتسلم منصبه فعهد بالشرافة الى الحسين.

والحسين بن علي باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون ولد في الآستانة عاصمة السلطنة والخلافة سنة ١٨٥٤، وكان أبوه منفيا بها، ثم انتقل معه الى مكة وعمره ثلاث سنوات. وأخذ الى البادية حينا لتنشئته نشأة عربية، ثم تثقّف وحصّل علوم العربية والفقه ومارس الفروسية والصيد. وأقام في كنف عمه الشريف عبد الله كامل باشا أمير مكة الذي أحبه وزوّجه ابنته عابدية، ووجّهه في المهمات فمضى الى نجد وأحكم صلته بالقبائل. ومات أبوه ثم عمه الشريف عبد الله سنة ١٨٧٧، وانتقلت الشرافة الى عمه الآخر حسين باشا الذي اغتيل سنة ١٨٨٠ وآلت بعد فترة سنتين الى عم آخر له هو عون الرفيق باشا الذي تولى الحكم ٢٣ سنة الى وفاته سنة ١٩٠٥ .

حدث للحسين خلاف مع عمه عون الرفيق فطلب السلطان عبد الحميد الثاني اليه القدوم الى الآستانة، فوافاها سنة ١٨٩٢ واستقدم بعد ذلك أولاده علي وعبد الله وفيصل (وكانت أمهم قد توفيت من قبل) فالتحقوا به في العاصمة التركية. وعيّن عضوا

بمجلس شورى الدولة برتبة وزير، لكنه كان شبه رهينة لدى العاهل العثماني. مكث في العاصمة التركية ١٧ عاما واقترن فيها سنة ١٨٩٤ بزوجته الثانية عادلة بنت صالح بك من إحدى الاسر المعروفة، وقد أنجبت له الامير زيد وابنتين.

مرت الاعوام متشابهة في تسلسلها حتى حدث الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد في السنة التالية. وفي هذه السنة خلت سدة الشرافة في مكة بوفاة صاحبها فعيّن الشريف حسين للمنصب الشاغر وعاد الى مكة بأهله عن طريق مصر فوصل الى جدة في ٣ كانون الاول ١٩٠٨ .

جمع الشريف في شخصه الدهاء السياسي الذي تعلمه خلال إقامته الطويلة في العاصمة التركية الى معرفة النفسية العربية وأحوال البادية، فسار في حكمه سيرا معتدلا. وقام بإخماد ثورة عسير سنة ١٩١٠فأرسل حملة بقيادة ولديه عبد الله وفيصل لأداء هذه المهمة. ثم اختلف سنة ١٩١٣ مع الحكومة التركية وعارض مدّ خط السكة الحديدية الى مكة.

وفي تشرين الثاني سنة ١٩١٤ أعلنت تركية الحرب على بريطانية وحلفائها وانضمت الى جانب الالمان، فخطب رئيس الوزراء البريطاني هربرت هنري أسكويث قائلا «ان الامبراطورية التركية قد أقدمت على الانتحار». وكان في رعاية الامبراطورية البريطانية في الهند والمستعمرات الاخرى نحو مائة مليون مسلم أشفقت أن يستجيبوا لنداء الجهاد الصادر من السلطان خليفة المسلمين على ضفاف البوسفور، فقررت قصم شوكة الدولة العثمانية وتمزيق شملها.

بادرت إنكلترة الى فرض حمايتها على القطر المصري واقتطاعه من رابطته التركية. لكن مصر كانت مهددة في أوائل سنوات الحرب من جهة قناة السويس شرقا والصحراء الغربية غربا، فوضعت الخطة لتقويض الجبهة الشرقية وفصل جزيرة العرب. إستعانت بريطانية بفريق من علماء الاستشراق أرسلتهم الى القاهرة سنة ١٩١٥ برئاسة المستشرق ديفد جورج هوغارث (١٨٦٢ - ١٩٢٧) الذي أسس المكتب العربي للاتصال بزعماء العرب، وكان معه الكولونيل توماس ادوارد لورنس (١٨٨٨ - ١٩٣٥) الذي اشتهر بعدئذ باسم «لورنس العرب»، ومارك سايكس (١٨٧٩ - ١٩١٩) صاحب اتفاقية سايكس بيكو مع الفرنسيين، ومس جرترود بيل (١٨٦٨ - ١٩٢٦) التي خدمت بعد ذلك في العراق وتوفيت في بغداد، وكنهان كورنواليس الذي أصبح فيما بعد مستشار الملك فيصل الاول في العراق وغيرهم. وقد قام هذا المكتب بالاتصال بالشريف حسين

وأبنائه وتنظيم العمل مع ثورة الحجاز.

لكن القصة تبدأ قبل ذلك: فقد ذكر الملك عبد الله بن الحسين عاهل المملكة الاردنية الهاشمية في مذكراته أنه كان في مصر سنة ١٩١٣ وقام بزيارة للخديو عباس حلمي الثاني الذي عرّفه باللورد كيتشنر المندوب البريطاني العام. وقال له اللورد: إذا حدث حادث تحتاج فيه الى أية خدمة أقدمها فأنا مستعد. ثم قال إنه علم أن تركيا تنوي القيام بتغييرات أساسية في بلاد العرب، فإذا كان من جملة هذه الاجراءات أي تغيير في شخصية الامير فهل سيرضي سموه بذلك؟ قال عبد الله: إن الشريف في العرف موظف من حق السلطان تغييره، فهو لا يعارض إن وقع ذلك. ولكن إذا رأى أن الدفاع من منفعة الوطن المقدس فهل تساعدون الامير في دفاعه أنتم؟

وأجاب اللورد كيتشنر جوابا دبلوماسيا فقال إن بين بريطانية وتركية صداقة تقليدية لا تبيح لها التدخل في شؤونها الداخلية.

ولما نشبت الحرب العامة كتب الشريف حسين الى السلطان محمد رشاد الخامس يحذره من الدخول في الحرب. وختم رسالته - على ما ذكر الملك عبد الله - يقول: «أستحلف جلالتكم بالله أن لا تدخلوا الحرب الى جانب الالمان، فالحرب الى جانبهم معناها عدم التمييز أو هي الخيانة الكبرى.» لكن السلطان لم يكن لديه حول ولا طول، بل كان الامر في يد أنور باشا وزير الحربية ورجال حزب الاتحاد والترقي الذين سيطروا على مقدرات الدولة بيد من حديد.

وقد تفاقمت الامور بعد ذلك. أشاع حكم الارهاب في سورية أحمد جمال باشا الوالي الذي عرف بالسفاح، وشنق أحرار العرب في عاليه وبيروت. وبدأت المراسلات مع الشريف حسين سنة ١٩١٥. وكان يحررها المستشرق رونالد ستورس ويعدّها المكتب العربي في القاهرة ويوقعها المندوب السامي البريطاني الذي خلف لورد كيتشنر في مصر، وهو السير آرثر هنري مكماهون (١٨٦٢ - ١٩٤٩)، وفي تلك المراسلات وعود بالمساعدة المادية والمعنوية والاعتراف باستقلال البلاد العربية بعد تحريرها من النير التركي.

ذكر الملك عبد الله أن المخابرات كانت تجري في الوقت نفسه مع الاحزاب العربية في الشام عن طريق الشريف فيصل الذي حضر الى الطائف والتقى بوالده، ثم عاد الى دمشق. قال عبد الله: «وفي هذه المدة استعدت الافكار العربية للحركة بسبب انقطاع موارد البحر والغلاء وعدم الرخاء، وأن ليس للعرب في متابعة هذه الحرب إلا

نتيجة واحدة، وهي أنهم سيبقون تحت ربقة الحكم إن ظفر الترك والالمان او انتصر الفرنسيس والبريطان. وكان لا بدّ من اعلن الحركة العربية والتخلص بالحرب من عواقب الاستكانة لتحكم الغير.»

وفي ١٠حزيران ١٩١٦ أعلنت الثورة العربية في مكة وسائر أنحاء الحجاز، وكان فيصل قد عاد تواً من الشام متخلصاً من قبضة جمال باشا. لكن المدينة لم تستسلم بل بقيت محاصرة الى نهاية الحرب حتى سلمها الوالي التركي فخري باشا الى الشريف عبد الله في كانون الثاني ١٩١٩ .

أعلن حسين نفسه ملكا في ٢ تشرين الثاني ١٩١٦، ثم اتخذ لقب «ملك العرب» في ٢١ حزيران ١٩١٧، غير أن بريطانية وفرنسة وحلفاءهما اعترفوا به ملكا للحجاز فقط. وجدير بالذكر أن الملك حسين أعلن نفسه خليفة للمسلمين في ٧ آذار ١٩٢٤ في عمّان على أثر خلع عبد المجيد الثاني آخر خلفاء آل عثمان، لكن لم تعترف به الاقطار الاسلامية.

أمدّت بريطانية الحسين بالمال والسلاح ومواد الغذاء. وسمحت للضباط العرب الذين في أسرها بالالتحاق بجيشه، وفي مقدمتهم جعفر العسكري ونوري السعيد ومولود مخلص وجميل المدفعي وعلي جودت الايوبي وابراهيم الراوي وغيرهم. والتحق به رستم حيدر ورفيق التميمي وخليل السكاكيني وتحسين قدري وأخوه الدكتور أحمد قدري من الشام، وفؤاد الخطيب الشاعر اللبناني والدكتور أمين المعلوف من مصر. وجاء اليه بطل القومية العربية القائد عزيز علي المصري في ايلول ١٩١٦ فعينه وكيلا لوزارة الحربية وعهد اليه بتنظيم جيش الثورة. لكن هذا لم يلبث أن إختلف مع الملك حسين بعد أشهر قليلة فعاد الى القاهرة.

ووفد على الحجاز الكابتن (فيما بعد الكولونيل) لورنس وفريق من الضباط البريطانيين. وعيّن الامير فيصل قائدا للمنطقة الشمالية، فنسفت خطوط السكة الحديد مرارا، وتقدم الجيش العربي فاحتلّ ينبع والوجه والعقبة ومعان والشوبك. ودخل فيصل دمشق على رأس الجيش العربي في أول تشرين الاول ١٩١٨ .

قيل إن الحسين أصبح بعد الثورة صلبا معتدا بنفسه مستقلا في آرائه مستبداً في أفعاله. أصدر جريدة «القبلة» وتولى الاشراف على تحريرها. وفي حين كان الجيش يناضل في الشمال أصدر الملك منشوراً في جريدته بمكة يقول إن بعض المغفّلين يسمون جعفر باشا قائدا للجيش في حين أنه ليس في الجيش العربي رتبة كهذه وإن أعلى رتبة هي رتبة رئيس

يخدم فيها الشيخ جعفر كغيره. وعلى أثر ذلك استقال جعفر العسكري وسائر الضباط، واستقال الامير فيصل، وشلت الحركة في المعسكرات. وسوّيت المسألة بعد تدخل الجنرال اللنبي القائد الانكليزي العام فاستأنف الجيش نشاطه.

وفّق الحسين في ولده فيصل الذي قاد الجيش الشمالي وحضر بعد الحرب مفاوضات الصلح في فرساي وأجرى المباحثات السياسية في لندن وباريس وروما. وقُبِلَ الحجاز عضوا أصليا في عصبة الامم، لكن الملك حسين رفض إبرام معاهدات الصلح.

ولم يوفّق الحسين في ممثله الدكتور ناجي الاصيل الذي كان رسوله في لندن ومؤتمر لوزان سنة ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤، فتعثرت المفاوضات مع الحكومة البريطانية، والحقيقة أن الملك حسين لم تكن لديه المرونة السياسية للحفاظ على عرشه وبلاده في الظروف التي سادت بعد الحرب العامة. وساءت علاقاته مع عبد العزيز آل سعود سلطان نجد، واندحرت قواته في تربة ووادي الخرمة سنة ١٩١٩، ثم احتلّ ابن سعود خيبر والتّيم سنة ١٩٢٢. وهجم على الطائف في أيلول ١٩٢٤ وأخذها فتنازل الحسين عن الملك في ٥ تشرين الاول ١٩٢٤ لولي عهده الامير علي الذي استطاع أن يقاوم الوهابيين سنة أخرى وشهرين.

مضى الملك حسين الى العقبة، وكانت تابعة لابنه عبدالله أمير شرقي الاردن، فأقام فيها اشهراً ثم نقلته بارجة بريطانية الى جزيرة قبرص في حزيران ١٩٢٥، وفيها توفيت زوجته الثانية أمّ زيد سنة ١٩٢٩. ومرض بعد سنتين مرضا شديداً فسافر الى عمّان حيث مكث ستة أشهر وتوفي بها في ٤ حزيران ١٩٣١، فحمل جثمانه الى القدس ودفن فيها.

قابله أمين الريحاني فيلسوف الفريكة في جدّة في شهر شباط ١٩٢٢ فكتب عنه يقول انه جاء من نيويورك وفي ذهنه أنه رجل قطوب جاف قاس، فوجد في محيّا الملك حسين جلالاً طبيعيا تتجلى فيه روحانية شرقية قرنت بالتأدّب الغربي. وقال ان لحديثه مصدرين من الأنس والكياسة، الاول أخلاقي نبوي والثاني اجتماعي اكتسابي حصل عليه من إقامة عشرين سنة في الآستانة. ووصفه فقال إنه رقيق أديم الوجه صافيه، عدل الأنف دقيقه، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة. وفي ناظريه نور يشعّ من حدقتين عسليتين تحيط بهما هالة زرقاء. وله فوق ذلك ابتسامة لم يعرف الريحاني أجذب منها للقلوب غير ابتسامة خصمه السلطان عبد العزيز آل سعود.

قال الريحاني ان في أحاديث الحسين السياسية كثيراً من الألغاز والرموز وقلما يصرّح بفكره. وكان حين يذكر الانكليز يستحوذ عليه الحنق والغمّ، وقد رفض في آخر الامر مفاوضاتهم ومعاهداتهم.

وقد كان عبد المحسن الكاظمي الشاعر من أشدّ المؤيدين للشريف حسين في ثورته على الاتراك فحياه بقصائد مثيرة تفيض حماسة وتشيد بالمفاخر العربية وتذكر مناقب الشريف الثائر وتحثه على مواصلة القَتال. قال:

مليك، وهل للعرب مثل حسينها مليك توالى برّه وأب برّ
أمحيي رجاء العرب من بعد موته أسيفك أمضى أم عزيمتك البكر؟

وقال:

هذا الحسين وذاك أول من دعا والرأس أولى بالعلى أن ترأسا

وقال محمد مهدي الجواهري يذكر الحسين وقد أبعد الى قبرص:

أما السؤال فقبرص وأبو عليّ جوابه
البرّ ضاق فسيحه والبحر جاش عبابهُ
يوم استقلّت بالمليك أبي الملوك ركابه
يا نازحا عَوْد الكرامة عوده وإيابه
الله يعرف ما أتيت وبيتُهُ وشعابه
سيّان شُهْدُ الدهر عند العاملين وصابه
ولعزّة الاوطان هان على «الشهيد» مصابه...

وقال علي الشرقي:

يا ثورةً أعقبتها ندامة الثوّار
كم في سراريَ عتب لو يسمعون سراري...

ورثاه عند موته الشعراء، فقال معروف الرصافي:

بدا وجه العروبة في حلوك غداة قضى الحسين أبو الملوك
قضى متنازلا بعد اعتلاءٍ كذاك الشمس تجنح للدّلوك...

وقال عبد الحسين الأُزري:

تركت وراءك البلد الأمينا يسائل عنك يثرب والحَجُنَا
ورحت ضحيّة ولو استطاعت وقتك بنفسها مُضَرُ المنونا...

حتى يقول:

وثقت بحلفهم فنهضت حتى إذا ما استيقنوا النّصر المبيّنا
لوت خِدع السياسة عنك جيداً وغضّت عن وفاكَ لها عيونا

وقال عبد الرزاق محيي الدين:

ما على الشاعرِ لو عزّ البيانُ سكت القلب فما يقوى اللسان
رجل كان كألف، رأيه ينظر الغيب كما شاء العيان...

وقال شاعر الشام شفيق جبري:

تلكُمْ قريش وما جفّت عواليها على الحطيم ولم تنشف مواضيها
نار بمكة أذكاها حُلاَحِلُها فهاجت النار بالفيحاء تذكيها

وقال الرصافي أيضا يخاطب الملك فيصل:

عزاءً، أيها الملك المفدّى ويا خير الملوك أباً وجدّا
لئن عظم المصاب ففيك عزم على الايام أعظم منه جدّا
وما مات الحسين ومنك أبقى، أبا غازي، لنا ملكاً مفدّى

وقال محمد مهدي الجواهري يمدح «سجين قبرص» بعد إجلائه عن عرش الحجاز:

شيخ الجزيرة، أنت اليوم مرتهن بحسن فعلك من صدق وإيثار
لتحمدنّ من الدنيا عواقبها فقد أرينك عقبى هذه الدار

وعاد يشيد بذكره فقال:

سلام على شيخ الجزيرة كلها سلام على تأريخه المتألّق
سلام عليه يوم شطّت ركابه سلام عليه يوم نحظى فنلتقي
سلام على عمر تقضّي بصالح سلام على ما فات منه وما بقي...

وقال خير الدين الزركلي على أثر خروج الملك حسين من مكة واستيلاء النجديين عليها:

صبر العظيم على العظيم جبّار زمزم والحطيم
انّ القضاء اذا تسلّط ضاع فيه حجى الحكيم

قال أحمد شوقي يرثي الملك حسين:

لك في الارض والسماء مآتم قام فيها أبو الملائك هاشم
قعد الآل للعزاء وقامت باكيات على الحسين الفواطم

وقال خليل مطران:

أرنّ سهم الردى إرنان منتحب | وسال بالدمع وجه السيف ذي الشُطَبِ
دهى العروبة خطب فتّ ساعدها | من حيثُ لا يُتّقى بالبيض واليَلَبِ[1]
مضى الحسين مغذّيها ومنقذها، | فأيّ قلب لهذا البين لم يَذُبِ؟

قال فؤاد الخطيب يحيّي الملك حسين:

حيِّ الشريف وحيِّ البيت والحرما | وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما
واسمع قصائد ثارت من مكامنها | إن شئتها شهباء أو شئتها رجما
يا ابن النبي، وأنت اليوم ناصره | قد عاد متصلا ما كان منفصما
والتفّ حولك أبطال غطارفة | شمّ الأنوف يرون الموت مغتنما
فاصدم بهم حدثان الدهر معترضا | سدّاً من الترك إن تعرض له انهدما

وله في الملك حسين وثورته العربية قصائد كثيرة منها قصيدته:

وأغرّ أبلج من ذؤابة هاشم | رفع اللواء ولمّ شمل الضاد

وحيّاه رشيد أيوب من المهجر الاميركي:

من أقاصي الروم نهديك السلام | مع نسيم السّحر
يا شريفا كلما ناح الحمام | فوق غصن الشجر
صاحب السيف الصقيل المستهاب | في دياجي المحن
أنت من قوم لهم تحنو الرقاب | من قديم الزمن...

وقال مصطفى وهبي التّل شاعر الاردن يرثي الملك حسين:

لانت قناتك للمنون | وقلّما كانت تلين
فعفا الحمى عمّن أعزّ | وغادر الليث العرين
أمحرّر الشعب الهضيم | وناشر الحق الدفين
علّمتنا كيف الفناء | بحبّ أمتنا يكون

آراء الملك حسين في الثورة على الأتراك

في تقرير قدمه توماس إدوارد لورنس (لورنس جزيرة العرب) إلى السلطات البريطانية أنه اجتمع بالملك حسين في جدة في ٢٨ تموز ١٩١٧ بحضور العقيد سيرل إدوارد ولسن قنصل بريطانيا فتكلم الملك بإسهاب عن آرائه الدينية والسياسية وشرح أسباب ثورته.

---

(١) البيض: السيوف، واليلب: الدروع.

تكلم الملك حسين في بادئ الأمر عن المذهب الوهابي وأشار إلى صفائه وزهده، لكنه ذكر أن المذهب تطرف بعد ذلك فكفّر السنيين السلفيين والشيعة خصوصاً وحتى أمير مكة والأتراك.

وعن الشيعة قال الملك إنهم موالون لآل البيت أسرته وأن معارضة الأحناف للشيعة سياسية وليست عقائدية. وهو يراهم مخطئين في إنكار خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. أما شيعة الهند فهم في الغالب زنادقة في آرائهم شأنهم شأن الكثيرين من أصحاب المذاهب الفارسية.

وقال لورنس إن الشريف في ظاهر أمره شافعي يتخذ موقفاً وسطاً بين الشيعة والسنّة المعتدلين. وذكر للشريف أن عرب الشمال يدعونه «أمير المؤمنين» فاستنكر ذلك، وقال إن الشعب ينسب إليه مطامع لا يحملها. وشرح موقفه من الخلافة فقال إن الخلافة انتهت بأبي بكر (كذا) وكل بعث للفكرة اليوم سخافة وكفر. وأضاف قائلاً إن الخلافة الإسلامية اقترحها البريطانيون على السلطان عبد الحميد الثاني واستغلها هذا «عصاة يضربنا بها». دعاتها في الوقت الحاضر أربعة، هم: عبيد الله وعبدالعزيز شاويش والأمير شكيب أرسلان وأسعد شقير، وحاملها السلطان محمد رشاد الخامس «مسخرة تستوجب الرثاء».

وقد اتخذ الدين أحبولة سياسية مما سبب الاضطراب في العالم الإسلامي من تركيا وبلاد العرب إلى جاوة والهند.

وقال الملك حسين إنه لا يستطيع الاعتراف بخليفة آخر ولا يتقلّد الخلافة بنفسه ولا يقرّ بوجود الفكرة. وسياسته الإسلامية تقوم على الحفاظ الشريف للأماكن المقدسة في مكة والمدينة وتيسير الحج وإصدار القرارات والفتاوى الشرعية.

قال الملك حسين إن دواعي ثورته على الأتراك اثنان: الأول غرض سياسي هو تحرير العالم العربي من السيادة التركية، وسوف يحقق هذا الغرض دون مساس بالأديان والمذاهب. والسبب الثاني ديني، إسلامي خالص في صفته، غايته وضع الأماكن المقدسة تحت حكم إسلامي روحي. وهو لا يريد حكومة دينية، بل يحمل سلطته الزمنية ملكاً للأقطار العربية وسلطته الروحية أميراً لمكة .

وقد أثنى لورنس على أمانة الملك واستقرار فكره وعمله للتخفيف من الاحتكاك بين المذهبين على أساس من الاعتدال.

استقلال العرب بعد الحرب العظمى الأولى

كانت مكاتبات الشريف حسين أمير مكة مع مكماهون المعتمد السامي البريطاني في القاهرة خلال الحرب العظمى الأولى أساس الاستقلال الذي عمل العرب في سبيله. وأعلن الحسين نفسه «ملك العرب» لكن بريطانيا وحلفائها اعترفوا به ملكاً للحجاز فقط، وحضر مندوبوه مؤتمر الصلح في فرساي سنة ١٩١٩ ممثلين عن الحجاز.

في تشرين الثاني ١٩١٩ زار الجنرال اللنبي القائد البريطاني العام الملك حسين زيارة رسمية في جدّة. وانتهز الحسين الفرصة السانحة فأكّد على وجوب احترام بريطانيا احتراماً تاماً لوعودها ومعارضة المطالب الفرنسية في سوريا، وكتب إلى ولده الأمير فيصل، وكان آنذاك في باريس، يؤنّبه على تساهله ومخالفته لأوامر أبيه ويعده أن يقف إلى جانب السوريين إذا قرروا الحصول على استقلالهم.

لكن المعركة كانت خاسرة منذ البدء بالنظر إلى الظروف السياسية الدولية السائدة في ذلك الحين. وعقد مؤتمر القاهرة في آذار ١٩٢١ برئاسة وزير المستعمرات البريطاني ونستن تشرشل لتسوية شؤون منطقة الشرق الأوسط، فقرر ترشيح فيصل لعرش العراق وخلق إمارة لأخيه عبدالله في شرقي الأردن والتخلي عن سوريا ولبنان للفرنسيين وفقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو المعقودة سنة ١٩١٦ . واعتبر ذلك وفاءً لدين بريطانيا تجاه الحلفاء في الحرب.

قال آرون كليمان في كتابه «أسس السياسة البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة لسنة ١٩٢١» (طبع بالإنكليزية سنة ١٩٧٠): «إن السياسة التي نتجت عن مؤتمر القاهرة لم تكن كافية للأزمنة القادمة. فهي قد بخست حقّ العرب ومدى يقظتهم السياسية، وانتقصت من رغبتهم في الاستقلال والوحدة وعزمهم على تحقيق ذلك حتى بثمن مساعدة بريطانيا. وفي الوقت الذي أخذ تصميم بريطانيا في إدارة امبراطوريتها وحمل «عبء الرجل الأبيض» بالاضطراب، اتخذ المؤتمر قراراته في جوّ من الثقة بالنفس. ولم يسلم من التفعية، فقد قال تشرشل: يجب أن يكون لنا بعض الأصدقاء، فليس في إمكاننا أن نواصل العمل في هذه الأقطار بقوة عسكرية متضائلة ونفقات جسيمة ودون أصدقاء من أي نوع. فعليك أن تجد بعضهم من خلال المناوشة وتضعهم إلى جانبك».

وكان عبدالعزيز آل سعود صاحب نجد معارضاً للهاشميين، وقد قررت بريطانيا، على أثر ترشيح فيصل لعرش العراق، ترضية ابن سعود بزيادة الإعانة الممنوحة له من

٦٠ ألف باوند سنوياً إلى ١٠٠ ألف. ولما عاد السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني إلى بغداد، أرسل له في ٤ أيار ١٩٢١ رسالة عن طريق وكيله أحمد بن ثنيّان يؤكد له مواصلة دفع الإعانة له، وفي الوقت نفسه أرسلت له هدية نقدية قدرها ٢٠ ألف باوند وأنبئ أن بريطانيا مستعدة للاعتراف به سلطاناً لنجد وملحقاتها. وطلب منه الامتناع عن اتخاذ أية خطوة عدوانية تجاه الملك حسين في الحجاز وتجاه الكويت والعراق، والتعاون في تسهيل الحج إلى مكّة، وقبول الاستشارة البريطانية في سياسته الخارجية، والاستعداد للتفاهم مع فيصل إذا تسنّم عرش العراق.

وقد أجاب عبد العزيز بالإيجاب موافقاً على مقترحات كوكس.

وحلّت الذكرى الأولى لمؤتمر القاهرة، فقال ونستن تشرشل في مجلس العموم في ٩ آذار ١٩٢٢ إن الملك فيصل، مستفيداً من مشورة السير برسي كوكس، يعمل على خلق مملكة حيّة مسؤولة في العراق مع شعور بالوطنية العراقية.

وقال فيصل قبل أيام قليلة من تتويجه في بغداد: «إن حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) وأنا في نفس السفينة ولا بدّ لنا أن نغرق أو نسبح معاً».

الثورة البلشفية والعرب

في تشرين الثاني ١٩١٧ استولى الشيوعيون البلاشفة على مقاليد الحكم في روسيا، فأسرعوا إلى عقد صلح منفرد مع ألمانيا القيصرية وفضح نوايا الحلفاء تجاه الولايات التركية المحرّرة ولاسيما اتفاقية سايكس بيكو. وأذاع الزعماء البلاشفة نداء إلى مسلمي روسيا والشرق، ومنهم المسلمون العرب والفرس والأتراك والهنود، داعين إياهم إلى دعم الثورة ومناهضة الاستعمار الأوروبي.

قامت حرب أهلية في داخل روسيا نفسها لمكافحة الحكم الشيوعي ترأسها عدد من القواد وأمراء البحر في الجيش القيصري السابق وأيدتها بريطانيا وفرنسا وحلفاؤهما.

وقد استمرت هذه الحرب إلى سنة ١٩٢٠ وانتهت بتغلب الجيش الأحمر في القفقاس وسيبيريا وتشريد زعماء «روسيا البيضاء» وقتلهم. وفي تلك الأثناء التحق بالقوات الروسية البيضاء ضابط عثماني عراقي الأصل اسمه صديق رسول القادري كان في أسر الروس، فأوفد إلى الحجاز وقابل الملك حسين وعلماء الدين وحصل على فتاواهم في تكفير الشيوعية ودحضها. ولكنه عاد إلى سيبيريا فوجد الجيش الأبيض قد انهار، فبادر إلى النجاة بنفسه والعودة إلى العراق.

وجدير بالقول إن السياسة البريطانية بصدد الأقطار العربية في نهاية الحرب العالمية الأولى كانت متذبذبة، فكانت وزارة الخارجية تلتزم جانب الحجاز وتؤيد مليكها الحسين، بينما كانت وزارة الهند ذات النفوذ الواسع في العراق والخليج العربي تساند عبدالعزيز آل سعود المناوئ للحسين وتعدّه الكوكب الطالع في سماء جزيرة العرب. وقد قال السير رونالد ستورس Sir Ronald Storrs في كتابه شرقيات Orientations (١٩٣٧) إنه لم يكن هناك من يتولى تنسيق الآراء والسياسات المختلفة لوزارة الخارجية ووزارة الهند ووزارة البحرية ووزارة الحربية وحكومة الهند ودار الاعتماد في مصر.

خلاصة القول في الملك حسين

إذا صحّ إيجاز القول في صاحب النهضة العربية فيمكن وصفه بأنه كان على العموم مسلماً سلفياً تفضيلياً بسبب نسبه العلوي، غير متعصب يحترم كل المذاهب الإسلامية التي يأتي أفرادها لأداء شعائر الحجّ. أما في حكمه المدني فكان مستبداً يحصر في يده كل السلطات كبيرها وصغيرها من العلاقات الخارجية والشؤون الإدارية وسياسة العشائر والإشراف على أمور الحرب والسلام إلى تحرير جريدة القبلة وما ماثل ذلك من دقائق الحكم حسب الأفكار السائدة في القرون الخالية.

كان الملك حسين زعيماً فذاً في مطلع القرن العشرين، مؤمناً بمجد العروبة والإسلام. وقد رأى الوقت ملائماً لبلوغ أهداف الحرية والاستقلال بمساعدة الإنكليز خلال الحرب العامة التي قذفت تركيا نفسها في ميدان النار. كان موالياً للخلافة وسلطنة آل عثمان، لكنه رأى حزب الاتحاد والترقي متسلطاً على البلاد، خافضاً لشأن الخليفة، زاجاً بها في حرب مدمّرة لا ناقة لها فيها ولا جمل، فانتهز الفرصة السانحة لإعلان الثورة الكبرى مؤملاً أن يحرر العرب في مختلف أصقاعهم. ظنّ أن في وسعه إقامة دولة في مكة أو دمشق تجمع شمل العرب في الجزيرة وشرقي البحر المتوسط، ولم يحسب حساباً لأطماع دول الحلفاء ومصالحها التاريخية في تلك الأقطار.

ظهر له منافس قويّ في شخص أمير نجد عبد العزيز آل سعود الذي حلم هو الآخر بتحقيق أحلام أجداده في السيطرة على الجزيرة العربية دينياً ودنيوياً. وقد استعان هو أيضاً بالإنكليز لتحقيق مطامحه البعيدة. ثم جاءت موارد النفط الغزيرة في الثلاثينات لمنحه ومنح أبنائه قوة سياسية هائلة.

أما الملك حسين فقد رهن آماله في الإنكليز وحسب أنهم يعينونه على تحقيق

مقاصده، ولم يحاول تفهم أساليب السياسة الحربية والدولية التي تقعد بهم عن السير معه إلى نهاية الخط. وظنوا أنهم كافؤوه بما فيه الكفاية بخلق عروش في العراق وشرقي الأردن لولديه فيصل وعبدالله، ووقفوا حائلاً دون اجتياح الإخوان الوهابيين المتحمّسين لبلاده حتى سنة ١٩٢٤ حين آثروا الوقوف على الحياد لتعنّده وعدم تفاهمه، فسقط السدّ الذي أقاموه بوجه ابن سعود وأتيح لهذا أن يستولي على الحجاز.

رفض حسين الاعتراف بمعاهدة فرساي ومعاهدة سَيْفْر وسائر اتفاقيات السلام، وشكا الظلامات الناشئة للبلاد العربية عن أحكامها إلى بريطانيا العظمى وعصبة الأمم، لكن دون جدوى. وحاولت بريطانيا إقناعه بقبولها واتخاذها أساساً للمباحثات، فلم تفلح. واعتبرت موقفه الصارم عناداً وصلابة مبادئه حدّة طبع وعدم رغبة في التعاون، فقطعت الإعانة التي واصلت منحها إليه وتخلّت عن حمايته ضد خصومه.

كان الحجاز بلداً فقيراً متأخراً، وقد حلم سيّده بالخلافة وتوحيد البلاد العربية تحت لوائه.. فكيف يمكن تحقيق ذلك إزاء المطامع الاستعمارية لدول خرجت منهوكة القوى مختلة الاقتصاد من حرب ماحقة، وقد هُيِّىء لها المجال لتحقيق أحلامها القديمة وتقسيم العالم الخاضع لحكمها والاستئثار بموارده الاقتصادية الباذخة؟

كان حسين رجلاً شريفاً ذا مبادئ صارمة لم يستطع إلانتِها ليتمكن من الحفاظ على عرشه، غير عليم بمداخل السياسة الدولية ومخارجها في تيارات القرن العشرين، وكان ذلك سبب الفاجعة التي ختمت حياته. وكان الأمير علي تلميذ والده متبعاً خطواته في السياسة لا يحيد عنها خلافاً لأخويه عبدالله وفيصل اللذين عرفا الخضوع لأحكام السياسة البريطانية وقبلا العرشين المقدّمين لهما، فأراحا واستراحا.

أما حسين فلم يعر أذناً مصغية لمستشار، وظل صلباً في عقيدته متمسكاً بأهدافه، وكان ذلك سبب قنوطه وسقوطه.

كان الملك حسين شخصية مشجية في آخر أيام حكمه يعيش خارج الواقع السياسي السائد بعد مرور سنوات على نهاية الحرب العالمية الأولى.

في مذكرة للحكومة البريطانية إن الملك اجتمع في عمان في ٢١ كانون الثاني ١٩٢٤ مع السير هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين بحضور السير جلبرت كلايتن والسير رونالد ستورس والأمير عبدالله أمير شرقي الأردن والشيخ فؤاد الخطيب وزير الخارجية الحجازية.

بيّن الملك للمندوب السامي أن أساس كل الاضطرابات في الجزيرة العربية هو

عبدالعزيز آل سعود سلطان نجد، وطالب الحكومة البريطانية أن تسعى لإعادة الوضع في الجزيرة كما كان قبل الحرب وإرغام ابن سعود على إعادة الأراضي التي استولى عليها من ابن رشيد إلخ. وكان ذلك قبل أشهر قليلة من حملة السلطان عبدالعزيز على الحجاز واستيلائه عليه وإنهائه لحكم الملك حسين والهاشميين.

قالت المذكرة إن الملك حسين، حين ارفض الاجتماع، وقف أمام الموقد المضطرم في وسط الغرفة وأشار إلى النار، وقال إنها تذكره بالهوة المتقدة التي رمى بنفسه فيها سنة ١٩١٦، هو وأولاده وأتباعه، حين قرّر، أخذاً بدعوة الحكومة البريطانية، أن يجازف بكل ما يملك في سبيل القضية المشتركة وتحرير العرب.

وفي كانون الثاني ١٩٢٤ ذهب الملك حسين لزيارة ولده عبدالله في عمان. وأعلن نفسه فجأة خليفة للمسلمين في الشونة على الحدود بين فلسطين والأردن، فلم يعترف به العالم الإسلامي عموماً.

ولم تمض ثمانية أشهر حتى هجم عبدالعزيز آل سعود على الطائف ونشبت الحرب، واستولى على مكة في تشرين الأول ١٩٢٤.

الملك عبدالعزيز آل سعود

أسس عبدالعزيز آل سعود المملكة العربية السعودية في ١٨ أيلول ١٩٣٢ بعد أن كان أميراً للرياض وسلطاناً لنجد وملكاً للحجاز ونجد وملحقاتهما. لكن تاريخ المملكة يعود إلى ما قبل أكثر من مائتي عام لأسباب دينية وبدوية. وكان جدّ آل سعود، وهو سعود بن محمد بن مقرن من ربيعة بن مانع من ذهل بن شيبان، أميراً للدرعية من أعمال نجد، وقد توفي بها سنة ١٧٢٤ فخلفه على سدّة الإمارة ابنه محمد الذي كان أول من لقّب بالإمامة. فقد وفد عليه سنة ١٧٤٤ الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي صاحب الدعوة التي عرفت باسمه، فتلقاه بالترحاب وشدّ أزره في دعوته الإصلاحية. واتسعت إمارة محمد بن سعود حتى شملت أكثر الأنحاء النجدية، لكن قاعدتها بقيت في الدرعية إذ أن الرياض لم تدن لحكمه.

ولد محمد بن عبدالوهاب في قرية العيينة سنة ١٧٠٣. ورحل إلى الحجاز والشام والعراق وأخذ عن علمائها. وأعجب بابن تيمية فنهج نهجه في نبذ البدع والأوهام والرجوع إلى معين الإسلام الصافي. وعاد إلى حريملاء وبعد ذلك إلى العيينة داعياً إلى مذهب التوحيد الخالص. ثم قصد ابن سعود في الدرعية فقبل دعوته ونصره على من خالفه باللسان والحسام. وعمّر طويلاً حتى أدركه الحمام في الدرعية سنة ١٧٩٢.

اتسعت رقعة الإمارة في عهد عبدالعزيز بن محمد وابنه سعود وانتشرت الدعوة في أنحاء الجزيرة. ووجدت الدعوة صدى في سائر الأقطار الإسلامية، فتأثر بها رجال الإصلاح الداعين إلى تهذيب الدين من شوائبه والعودة إلى ينبوعه السلفي. لكن نشر الدعوة بالقوة القاهرة قسم العالم العربي في أوائل القرن التاسع عشر وأثار حفيظة الدولة العثمانية على من عرفوا بالإخوان (إخوان من أطاع الله) أو المطوّعين أو أهل التوحيد، أولئك الذين انتشروا من ديارهم في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود (١٧٦٥-١٨٠٣) فافتتحوا القصيم والجوف وبلغوا حدود عسير وعمان. ولما اغتيل في الدرعية خلفه ابنه سعود الكبير الذي أخضع معظم جزيرة العرب. وانتبه الأتراك إلى خطره

فأوعزوا إلى والي مصر محمد علي باشا بمحاربته. وتمكنت الجيوش المصرية بقيادة طوسون باشا بن محمد علي من استرداد المدينة ومكة والطائف (١٨١٣). ومات سعود في السنة التالية فخلفه ابنه عبدالله الذي أسره المصريون وأرسلوه مخفوراً إلى الأستانة، فأعدم مع رجلين من أعوانه وقطعت رؤوسهم وتركت جثثهم معلقة أياماً (١٨١٨).

توالت غارات الوهابيين على الحدود العراقية وعشائرها منذ السنوات الأخيرة للقرن الثامن عشر، وكانت تلك الغارات ترمي إلى الغزو لأسباب دينية باسم التطويع. ففي سنة ١٧٩٨ سار سعود بن عبدالعزيز قاصداً أنحاء المنتفق والسماوة فقتل من قومها جمعاً كثيراً. وأمرت الحكومة العثمانية بتأديب الغزاة، فسار الكنحدا علي باشا من بغداد بجيش كبير ولحق به فريق من عشائر المنتفق وشمّر والظفير وتوجهوا إلى الإحساء عن طريق البحر ولقوا متاعب شديدة في سفرتهم الطويلة. وجاءهم سعود يطلب المصالحة فقبلها علي باشا بشروط وعاد إلى البصرة.

وأغار سعود أيضاً على كربلاء سنة ١٨٠١ فتمكن من دخولها. نقل مؤرخ العراق عباس العزاوي عن كتاب «عنوان المجد» أن سعوداً دخل بلد الحسين عنوة وقتل غالب أهلها في الأسواق والبيوت وهدم قبّة الضريح واستولى على الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة. ولم يلبث في المدينة إلا ضحوة، وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الغنائم. وقد قتلوا من أهلها نحو ألفي رجل، وعادوا إلى نجد. وخشي والي بغداد أن يغزو الوهابيون النجف، فنقل خزانتها إلى مقام الإمام موسى الكاظم وبنى لكربلاء سوراً منيعاً، لكن جيشه لم يتمكن من اللحاق واسترداد الأموال منهم.

وذهب رجل أفغاني الأصل يدعى الملا عثمان من بغداد الى الدرعية متخذاً هيئة درويش زاهد، فقصد الامير عبدالعزيز آل سعود الذي أكرم وفادته. لكنه وثب عليه وطعنه فقضى عليه وجرح أخاه عبدالله، فبويع سعود بن عبدالعزيز بالإمارة (١٨٠٣). وغزا الأمير سعود على أثر ذلك البصرة فنهبها جنوده وقتلوا من أهلها الكثيرين. وحاصروا الزبير وهدموا القبور والمشاهد.

توالت غزوات الأمير سعود على الحدود العراقية، فسار إلى النجف سنة ١٨٠٥، لكنه لقي مقاومة عنيفة من أهلها فلم يستطع الاستيلاء عليها. ورحل عنها فنهب في طريقه عشائر الخزاعل والسماوة ونازل أهل الزبير، ثم عاد إلى مواطنه. وضعف شأن آل سعود بعد حروب محمد علي باشا.

ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إمارة آل رشيد في حائل. وذلك أن عبدالله ابن رشيد قصد الرياض ففاز بالحظوة لدى الإمام فيصل بن تركي الذي قلّده إمارة حائل. وتوطدت الإمارة بعد ذلك لابنه محمد آل رشيد وامتدّ حكمه إلى أطراف العراق ومشارف الشام. وتغلب على نجد منتهزاً فرصة الخلاف بين أمراء آل سعود، فأدخل بلادهم في طاعته سنة ١٨٨٦. وقدم الإمام عبدالرحمن الفيصل آل سعود (١٨٥٢-١٩٢٨) والد الملك عبدالعزيز إلى بغداد سنة ١٨٧٢ وخصصت له الدولة التركية راتباً، لكنه عاد إلى نجد بعد سنتين.

واستفحل أمر آل رشيد للمنازعات التي حدثت بين أولاد فيصل بن تركي الذي توفي سنة ١٨٦٧، وهم عبدالله ومحمد وسعود وعبدالرحمن، فاستولى محمد بن عبدالله آل رشيد على الرياض سنة ١٨٨٦ وقوّض دولة آل سعود. والتجأ الإمام عبدالرحمن إلى الكويت سنة ١٨٩١ وأقام مع أهله فيها.

بزغ نجم عبدالعزيز آل سعود في مطلع القرن العشرين وهو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، ولد في الرياض في ٢٤ تشرين الثاني ١٨٨٠ ونشأ في كنف والده في الكويت. ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره، وكان شاباً قوي العزيمة يلتهب حماسة، وقد ملّ الراحة في المنفى في ظلّ مبارك الصباح شيخ الكويت، فاصطحب نفراً من أعوانه الأشدّاء ومضى إلى الرياض عاصمة آبائه سراً فقتل عاملها من قبل آل رشيد وفتح البلدة (١٥ كانون الثاني ١٩٠٢). وقبل ثلاثة أيام من ذلك التاريخ ولد له ابنه سعود الذي خلفه عاهلاً في المملكة السعودية.

لكن الدولة العثمانية بقيت تشدّ أزر آل رشيد. وفي تلك السنة ثار أهل القصيم عليهم لما رأوه من ظلمهم، فجرّدت الحكومة التركية جيشاً بقيادة المشير أحمد فيضي باشا لنصرة ابن رشيد. سار المشير من بغداد قاصداً الأحساء، لكن أصابه العناء وهلك معظم جنوده وعاد إلى العراق خاسراً.

أما عبدالعزيز آل سعود فسار من نصر إلى نصر، استولى على أنحاء الرياض وبعد ذلك على القصيم (١٩٠٦) ثم الأحساء والقطيف (١٩١٢) وأخيراً أبها وسائر بلاد عسير. والتفت عبدالعزيز إلى إنشاء دولة ثابتة لا تستند على العصبية القبائلية فأقام أول جماعة للإخوان سنة ١٩١٢ في الأرطاوية مستفيداً من حماستهم الدينية، وعقبت الأرطاوية عشرات، بل مئة، من أمثالها في الأنحاء النجدية خلال الخمس عشرة سنة التالية، فترك أبناء العشائر حياتهم الرحالة القائمة على تربية الأغنام والأباعر واتخذوا

الزراعة في القرى والواحات عماداً لمعاشهم. وحلّت الشريعة شيئاً فشيئاً محل العادات والتقاليد القضائية القبائلية.

وأمدّ الإخوان أميرهم بجيش ثابت تسنّى له بهم فتح الأحساء والهفوف العقير والقطيف طارداً حامياتها التركية، وذلك في ربيع سنة ١٩١٤.

اندلعت نار الحرب العظمى في أواخر السنة نفسها، فأوفد السير برسي كوكس المقيم السياسي البريطاني في الخليج الكابتن شكسبير لزيارة عبدالعزيز لحثّه على محاربة الأتراك وعميلهم سعود بن عبدالعزيز آل رشيد. ونهض عبدالعزيز في كانون الثاني ١٩١٥ لمنازلة ابن رشيد في جراب، فلم تكن المعركة حاسمة، لكن قتل فيها الكاتبن البريطاني.

وأرسلت الحكومة التركية بعثة قوامها العالم السلفي محمود شكري الألوسي وابن عمه علي علاء الدين ونعمان الأعظمي والضابط العثماني بكر بك لمفاوضة عبدالعزيز، فشدّوا الرحال إلى الديار النجدية في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٤ عن طريق سوريا والحجاز. وقابلوا الأمير في الرياض وحادثوه في نصرة الدولة، لكنه اعتذر بوضع بلاده الخاص الذي يحول دون اشتراكه في الحرب. وفي ٢٦ كانون الأول ١٩١٥ عقد عبدالعزيز معاهدة صداقة مع بريطانيا، فجعلت له راتباً استعان به على تصريف أموره. وزاره في سنة ١٩١٧ وفد برئاسة هاري سنت جون فيلبي، الذي أسلم فيما بعد وعرف باسم الحاج عبدالله فيلبي. وفي تلك السنة أعلن عبدالعزيز نفسه سلطاناً لنجد، ثم أعاد الكرّة في مناهضة ابن رشيد وبلغ أسوار حائل.

وضعت الحرب أوزارها فوجد نفسه أمام خصمين في الجزيرة العربية هما الحسين ملك الحجاز وابن رشيد المتحصّن في حائل. وفي آذار ١٩١٩ سمحت الحكومة البريطانية للملك حسين باحتلال الخرمة على الرغم من تحذيرات سلطان نجد، فدفع الأخير بجيشه مفاجئاً القوة الهاشمية ودمّرها في معركة تربة (أيار ١٩١٩). وفي السنة التالية احتلت قوة وهابية مرتفعات عسير فضمتها إلى نجد، ثم استولت أخيراً على حائل في شهر آب ١٩٢١ وقضت على ما تبقى من إمارة آل رشيد. وختم السلطان فتوحاته في نجد بالاستيلاء على التثليث في الجنوب وخيبر والتيم في الشمال، ثم الجوف سنة ١٩٢٢.

حاولت بريطانيا إصلاح ذات البين بين الحجاز ونجد فعقدت مؤتمر الكويت في تشرين الثاني ١٩٢٣. واستمرت المباحثات إلى نيسان من السنة التالية دون أن تسفر عن

نتيجة. وفي أيلول ١٩٢٤ غزا عبدالعزيز الحجاز وسرعان ما انتزع الطائف. وعلى أثر ذلك تنازل الملك حسين عن ملكه لابنه علي الذي أخلى مكّة فدخلها الوهابيون في تشرين الأول وانتشروا في أطرافها فلم يبق في حوزة الهاشميين سوى جدّة والمدينة. وفي تشرين الثاني ١٩٢٥ زاره السير جلبرت كلايتون في بحرة فعقد معه معاهدة تتعلق بتسوية بعض القضايا المعلقة بين نجد والعراق وشرقي الأردن. ثم استسلمت المدينة في الشهر التالي وعقبتها جدّة بعد أسبوعين فدخلها السلطان عبدالعزيز في ٢٣ كانون الأول ١٩٢٥. ومضى الملك علي قاصداً أخاه الملك فيصل في بغداد.

في ٨ كانون الثاني ١٩٢٦ بويع عبدالعزيز في مكة ملكاً للحجاز، وأصبح في السنة التالية يحمل لقب ملك الحجاز ونجد وملحقاتها. وقد بادر إلى إصلاح الأمور فأمّن الطرق وقضى على الرشوة والفساد. واستدعى الخبير الأمريكي ميلسباو الذي قام قبل ذلك بإصلاح المالية الإيرانية لينظر في مالية الدولة الجديدة، لكن مهمته أنهيت من فورها. وعقد الملك عبدالعزيز معاهدة مكة في ٢١ تشرين الأول ١٩٢٦ مع السيد حسن بن علي الإدريسي إمام عسير، فأصبح بموجبها حامياً لعسير وموجهاً لسياستها الخارجية والاقتصادية والدفاعية، على أن يبقى الإدريسي مسؤولاً عن شؤون بلده الداخلية تحت حماية الملك. وعقد مع بريطانيا معاهدة جديدة في جدّة في أيار ١٩٢٧، لكن العلاقات معها تأثرت بالأحداث التي وقعت على الحدود العراقية بعد ذلك. وجعل اسم الدولة الموحّدة «المملكة العربية السعودية» في ١٨ أيلول ١٩٣٢. وفي سنة ١٩٣٤ نشبت الحرب مع الإمام يحيى ملك اليمن وانتهت بتعديل الحدود بين المملكتين.

اكتشفت منابع النفط في الدمام قرب الظهران من بلاد الأحساء سنة ١٩٣٨، واستثمر هذا المورد بعد الحرب العالمية الثانية استثماراً واسعاً درّ على البلاد ثروة كبيرة.

شاهد الملك عبدالعزيز تقدم بلاده من حالتها البدوية في شبابه إلى دولة واسعة الأرجاء، غنيّة الموارد، ذات مقام مرموق بين الدول العربية وفي المحافل الدولية. وقد خرج عن طاعته بعض رجاله، منهم فيصل الدويش شيخ مطير الذي صحب عبدالعزيز في غزواته منذ صباه ثم خالفه وانقض عليه مع سلطان بن بجاد من عتيبة. اتهماه بالتهاون والقعود عن نصرة الدين والتحالف مع الإفرنج، وأغارا على الحدود العراقية وأخلاّ بالأمن في البوادي حتى قضى الملك عبدالعزيز على فتنتهما سنة ١٩٢٩-١٩٣٠. ثم ابتلي بفتنة حامد ابن رفادة الذي اتصل بعبدالله بن الحسين أمير شرقي الأردن

وحارب الملك عبدالعزيز في معركة انتهت بمقتل الثائر سنة ١٩٣٢.

توفي عبدالعزيز آل سعود في الطائف في ٩ تشرين الثاني ١٩٥٣ بعد حياة طويلة حفلت بعظائم الأمور تاركاً لوليّ عهده مملكة موحدة شاسعة الأرجاء، كبيرة الموارد، متطلّعة في نهضتها إلى الأمام. وخلفه على العرش ابنه سعود (١٩٠٢-١٩٦٩)، وقد خلع سنة ١٩٦٤ وخلفه أخوه الملك فيصل (١٩٠٦-١٩٧٥).

قال خير الدين الزركلي إن خوض المعارك وتجهيز الجيوش وقمع الفتن لم تشغله عن تنظيم شؤون بلاده وإنشاء العلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول العربية والأجنبية. وقال إنه كان موفقاً ملهماً محبوباً، شجاعاً بطلاً انتهى به عهد الفروسية في شبه الجزيرة، كريماً لا يجارى، خطيباً، لا يبرم أمراً إلا أعمل الرويّة واستشار فيه.

وقد طالت الحياة بأبيه الإمام عبدالرحمن حتى رأى دولة ابنه في اتساعها وازدهارها. قال الزركلي إن عبدالعزيز كان يرجع إليه في كل ما يهمّ من أموره، ويقف بين يديه إذا جلس موقف الخادم إلى أن توفي.

العلاقات مع العراق

أنشئت المملكة العراقية سنة ١٩٢١ وتولّى عرشها الملك فيصل الهاشمي. ولم تكن العلاقات بين العراق ونجد حسنة، فقد توالت غارات الوهابيين على حدود العراق وعشائره. وعقد مؤتمر كربلاء سنة ١٩٢٢ لدفع غائلة هجمات الإخوان.

وكان الكابتن غلوب المعروف بأبي حنيك، والذي اشتهر بعد ذلك باسم الفريق السير جون باغوت غلوب باشا (١٨٩٧-١٩٨٦) قائد الجيش العربي في إمارة شرقي الأردن والمملكة الأردنية، ملتحقاً بخدمة الحكومة العراقية، فعيّن مديراً لشؤون البادية الجنوبية وقضى في تلك الأنحاء أعواماً عدة. وقد روى في كتابه «الحرب في الصحراء» كيف شهد غارات الإخوان على العشائر العراقية الآمنة، ورآهم يقتلون رجالها ويسلبون مواشيها ثم يعودون أدراجهم بالغنائم لا يخشون ثأراً ولا عقاباً. والحقيقة أن ابن سعود لم يكن في بعض الأحيان يملك السيطرة على جماعته ولا يستطيع وقف غزواتهم. واضطر سنة ١٩٢٨-٢٩ أن يحارب العصاة والبطش بهم، وفي مقدمتهم فيصل الدويش وحامد بن رفادة.

توسطت الحكومة البريطانية في عقد مؤتمرات لتحديد الحدود بين البلدين في الكويت والعقير وبحرة وجدّة. ثم اجتمع الملكان فيصل وعبدالعزيز على ظهر البارجة

«الوبن» في الخليج بحضور المندوب السامي البريطاني السير فرنسيس هنري همفريز، فعقد الصلح بينهما واعترف كل منهما بحكومة الآخر (١٩٣٠). وفي سنة ١٩٣٢ ذهب وفد عراقي برئاسة رئيس الوزراء نوري السعيد إلى الرياض وعقد معاهدة صداقة وحسن جوار مع المملكة السعودية.

وفي تلك السنة زار بغداد الأمير فيصل بن عبدالعزيز، فحيّاه الشاعر محمد مهدي الجواهري بقصيدة مطلعها:

على سعة وفي طنف الأماني ... وفي حبّات أفئدة حواني
بقرب أخيهما كرماً ولطفاً ... وثائرة يُسَرّ الرافدان
فتى عبدالعزيز وفيك ما في ... أبيك الشهم من غرر المعاني

حتى يقول:

وذاك لأن كل بني سعود ... لهم فضل على قاص وداني
وأنهم الملاجئ في الرزايا ... وأنهم المطامح والأماني
وأنك والذي أوفدت عنه ... أباك ملاذة الحرّ المهان
تسوسون الرعية بالتساوي ... بفرط العدل أو فرط الحنان..
أبوك ابن السعود أبو القضايا ... مشرّفة على مرّ الزمان
ورمز العبقرية في زمان ... به للعبقرية كلّ شان..

قال الجواهري هذه القصيدة نكاية بفيصل الأول ملك العراق، وكان قبل ثماني سنوات قد رثى الحسين أبي فيصل «سجين قبرص» حين استولى ابن سعود على الحجاز وطرده من ملكه، فقال:

ما للجزيرة لم تأنس مرابعها ... بعد الحسين ولم تحفل بسمّار؟
مغبّرة خلّف الليل السواد بها ... أو جلّلتها سماء الهمّ بالقار

وقد نسي شاعرنا الحسين الذي قضى نحبه، فإذا الحجاز الذي كان مغبّرا مجلّلاً بالقار قد أصبح آنساً ناعماً بفضل آل سعود. قال الجواهري:

وفي الله الحجاز وما يليه ... بفضل أبيك من غصص الهوان
ومتّع ذلك الشعب الموقّى ... بسبع سنين شيّقة سمان

أمين الريحاني في نجد

زار المفكر العربي اللبناني أمين الريحاني «فيلسوف الفريكة» (١٨٧٦-١٩٤٠) السلطان عبدالعزيز آل سعود.في نجد سنة ١٩٢٣ وكتب عنه فصولاً رائعة في كتابه

«ملوك العرب». استقبله السلطان في النفود «على الرمل، تحت السماء والنجوم، وفي نور النيران المتقدة حولنا»، كما قال. ثم واصل كلامه: «ألفيته رجلاً لا يمتاز ظاهراً بغير طوله، وكان يلبس ثوباً أبيض وعباءة بنّيّة وعقالاً مقصّباً فوق كوفية من القطن حمراء. أين أبّهة الملك وفخفخة السلاطين؟ إنك لا تجدها في نجد وسلطانها. وإن أول ما يملك منه ابتسامة هي مغناطيس القلوب. لست أدري كيف حييته وأنا في دهش وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة. ولكن أذكر أنه حيّاني باسماً بالسلام عليكم وظلّ قابضاً على يدي حتى دخلنا الخيمة. فجلس والكور إلى يمينه يستند إليه، والنار قباله تنير وجهه . . .».

أعجب الريحاني بسلطان نجد وبساطته وعظمة نفسه وصفاء ذهنه ووجدانه. وقال إنه شاهد من عدل ابن سعود ما كان يعجب وما كان يرعب ويخيف. وقال «وما عدل ابن سعود غير الشرع - غير عدل النبي. أضف إليه قسوة في بعض الأحكام الاجتماعية اشتهر بها المذهب الوهابي. فمن يدخّن مثلاً يبسط (يضرب) وكذلك من لا يصلّي. أما أحكام الشرع فمعروفة إلا أنها تنفّذ في نجد بلا تردّد ولا محاباة، ولا مرافعات لولبيّات طويلات. حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيراً أو غنياً. كل الأيدي الأثيمة عند الحاكم سواء، وكل الرؤوس سواء عند السيّاف . . .».

الدكتور عبدالله الدملوجي

التحق الدكتور عبدالله الدملوجي الموصلي (١٨٩٠-١٩٧١) بعبد العزيز آل سعود سنة ١٩١٤ . وكان قد درس الطبّ في استانبول وانتمى إلى الجمعيات السرّية العربية، فلما رأى بطش الأتراك بأحرار العرب هرب مع نوري السعيد إلى البصرة والتجأ إلى السيد طالب النقيب زعيمها آنذاك. وقد بقي السعيد في الثغر حتى نشوب الحرب العامة واحتلال الانكليز لجنوب العراق، أما الدملوجي فمضى إلى نجد واتخذه أميرها عبدالعزيز طبيباً.

وأصبح بعد ذلك وزيراً لخارجيته حين اتسعت رقعة ملكه وكثر اتصاله بالأجانب. وعرف الدملوجي في نجد باسم الشيخ عبدالله بن سعيد، فأطلق لحيته، وهو المدني ربيب عاصمة السلطنة، ولبس العقال والكوفية والثوب الفضفاض والعباءة.

كانت اقتصاديات نجد آنذاك بدائية عشائرية، وقد استعان عبدالعزيز بالإعانة التي خصصتها له الحكومة البريطانية لتدبير شؤونه. ثم افتتح الحجاز وأخضع القبائل وأمّن طريق الحجّ، وأصبحت موارده تساعد على ملء الخزينة. واستقدم سنة ١٩٢٥ الخبير

الاقتصادي الأمريكي ميلزباو الذي أصلح قبل ذلك اقتصاديات إيران بعد أن تبوّأ عرشها رضا شاه بهلوي، لكن هذا الخبير لم يستطع القيام بمهمته لأن الشيخ عبدالله السليمان «وزير المالية» ظلّ مستأثراً بالصرف حسب أوامر السلطان.

أخبرني الدكتور عبدالله الدملوجي أن منابع النفط عرفت منذ سنوات العشرين وتقدمت الشركات الغربية بطلب استثمارها، لكن ابن سعود لم ير منح أي امتياز في تلك الآونة. وسئم الدملوجي الإقامة في حاشية ملك الحجاز ونجد فعاد إلى العراق سنة ١٩٢٩. وعيّنه صديقه نوري السعيد قنصلاً عاماً في مصر فوزيراً للخارجية العراقية.

واستخدم عبدالعزيز أيضاً رجالاً من الأقطار العربية الأخرى، منهم فؤاد حمزة اللبناني الذي انضمّ إلى الملك سنة ١٩٢٦ فتقدم عنده وكان وكيلاً للشؤون الخارجية ووزيراً مفوضاً في باريس وأنقرة، وألف كتابه «قلب جزيرة العرب» و«البلاد العربية السعودية» و«في بلاد عسير». ومنهم حافظ وهبه المصري الوزير المفوض في لندن، وموفق الألوسي العراقي خرّيج السوربون، إلخ.

وآل سعود من ربيعة، وقد روى الفريق غلوب باشا في كتابه «قصة الفيلق العربي» أن شيوخ آل هذّال سادوا قبائل عنزة وبادية الشام نحواً من مائتي سنة، وكانت السيادة قبلهم لآل جشعم. وزعم أن بدوياً خاطب الملك عبدالعزيز بلقب «شيخ العرب»، فقال الملك: أعوذ بالله، يا ولدي، إن شيخ العرب هو ابن هذّال. ونقلت القصة إلى ابن هذّال فقال: أعوذ بالله، إن شيخ العرب إنما هو ابن جشعم! وكان الشيخ فهد الهذّال رئيس عشائر العماران من عنزة في العراق، قد حضر مؤتمر العقير مع المندوب السامي البريطاني السير برسي كوكس وصبيح نشأت والسلطان عبدالعزيز آل سعود سنة ١٩٢٢ لتنظيم شؤون العشائر العراقية والنجدية. وقال أمين الريحاني إن عبدالعزيز لم يرقه اشتراك فهد الهذّال في المؤتمر ظنّاً منه أن في الأمر قصداً مبيّتاً للإساءة إليه شخصياً. وقال للريحاني: ومن هو ابن الهذّال ليجرؤ علينا؟ ابن الهذّال الغزال، ليغزل وعشائره ما شاؤوا! .. وبعد أعوام طويلة زار الشيخ محروت بن فهد الهذّال الملك عبدالعزيز، وقد أصبح عاهل المملكة العربية السعودية، فكان موضع تجلّته وإكرامه.

كان عبدالعزيز يكنّ للسّير برسي كوكس كل تقدير واحترام، إذ كان قد اتصل به مذ كان مقيماً سياسياً لحكومة الهند في الخليج قبل الحرب العظمى الأولى. وقد أقنعه بتحديد الحدود مع العراق والكويت بصورة ترضي المصلحة العراقية. وعقدت معاهدة المحمرة سنة ١٩٢٢ فتركت بين العراق ونجد مما يلي حدود الكويت منطقة محايدة تبلغ

مساحتها سبعة آلاف كيلومتر مربع، وهي بشكل مُعَيَّن (losange). واقترح المندوب العراقي صبيح نشأت أن يطلق عليها اسم «بقلاوة». وفي سنة ١٩٧٥ اتفقت الحكومتان العراقية والسعودية على اقتسام هذه المنطقة.

وجاء في كتاب «بورك» للأسر العالمية المالكة (الجزء الثاني، باللغة الإنكليزية) أن الملك عبدالعزيز اتخذ في حياته أكثر من ٢٢ زوجة بالتعاقب ولدن له ٤٥ ولداً و ١٩ بنتاً. وأكبر أبنائه تركي الذي توفي سنة ١٩١٩ وكان دون العشرين من عمره، ثم سعود وفيصل وخالد وفهد وعبدالله وسلطان إلخ. أما أصغر أبناء عبدالعزيز أحمد فولد سنة ١٩٥٢.

عبدالعزيز آل سعود والسير برسي كوكس

ذكر الأستاذ المؤرخ الإنكليزي ديفد هوارث في كتابه «ملك الصحراء ابن سعود وبلاده العربية» المطبوع في نيويورك سنة ١٩٦٤ أن عبدالعزيز كتب إلى السير برسي كوكس في شهر أيار ١٩٠٤ يستنجده على خصومه حين علم بالحملة التركية التي جرّدت لمساندة عدوه ابن رشيد.

كان السير برسي كوكس (١٨٦٤-١٩٣٧) الذي أصبح سنة ١٩٢٠ أول مندوب سام بريطاني في العراق، من كبار موظفي حكومة الهند. عين وكيلاً سياسياً في مسقط سنة ١٩٠٠ حيث سعى للقضاء على تجارة الرقيق. ونقل سنة ١٩٠٤ مقيماً سياسيا في الخليج، ومقرّه في أبو شهر على الساحل الإيراني. وقد نقل كوكس رسالة ابن سعود إلى الحكومة البريطانية، لكنها رفضت المساعدة حرصاً على صلاتها بالحكومة التركية وأمرت بعدم تلبية الطلب.

واستؤنفت الصلة بين أمير نجد والمقيم البريطاني بعد عشر سنوات عند نشوب الحرب العامة وانضمام تركيا إلى أعداء الإنكليز. فأوفد كوكس الكابتن شكسبير إلى الرياض لحث عبدالعزيز على محاربة الأتراك. ووقعت المعركة ضدّ آل رشيد في جرّاب في كانون الثاني ١٩١٥، ولم تكن حاسمة، لكن سقط فيها الكابتن البريطاني قتيلاً. وفي كانون الأول من تلك السنة عقد عبدالعزيز معاهدة صداقة مع بريطانيا التي عيّنت له راتبا شهرياً يستعين به على أمره، لكنه لم يحرّك ساكناً لارتيابه من مساعدة بريطانيا لخصمه الحسين ملك الحجاز. وفي سنة ١٩١٧ أوفدت الحكومة البريطانية هاري سنت جون فيلبي إلى الرياض بمهمة سياسية. وقام عبدالعزيز في خريف ١٩١٨ يعاود الكرة في الهجوم على الأمير سعود بن عبدالعزيز آل رشيد الذي تقلص حكمه في نجد واقتصر

على حائل وجوارها التي لم تستسلم لآل سعود إلا في آب ١٩٢١.

وعقد مؤتمر العقير سنة ١٩٢٢ فحضره السلطان عبدالعزيز ومعه طبيبه ووكيل خارجيته الدكتور عبدالله الدملوجي وعبداللطيف باشا المنديل، كما حضر السير برسي كوكس ومعه الوكيل السياسي في الكويت والوزير العراقي صبيح نشأت والشيخ فهد الهذّال. وكان أمين الريحاني الذي يزور نجداً حاضراً أيضاً، وقد التقى بالسلطان لأول مرة هناك، فوصف الاجتماع في الجزء الثاني من كتابه «ملوك العرب». وعقدت مؤتمرات أخرى حدّدت فيها الحدود بين العراق ونجد والكويت، وظلّ عبدالعزيز يكنّ كل تقدير واحترام للمندوب السامي البريطاني وينزل عند رأيه في مهمات الأمور حتى اعتزل الخدمة وغادر العراق سنة ١٩٢٣.

عبدالعزيز آل سعود والإنكليز

أعرب ابن سعود عن رغبته في عقد علاقات مع بريطانيا سنة ١٩١١ حين التقى بالكابتن شكسبير الوكيل السياسي البريطاني في الكويت. لكن الحكومة البريطانية لم تهتم بطلبه لأنها كانت تفاوض الحكومة التركية وعلى صلة طيبة بها. وفي أيار ١٩١٤ عقد عبدالعزيز اتفاقاً مع والي البصرة ورضي بلقب والي نجد له ولسلالته، وتعهد برفع العلم التركي وعدم الاتصال بالدول الأجنبية مباشرة ومساعدة تركيا في حالة نشوب الحرب.

ونشبت الحرب العامة في أواخر تلك السنة فرأت الحكومة البريطانية الفرصة مناسبة للاتصال بابن سعود ومفاتحته بتأييدها ليقوم بخلع نير الأتراك والتخلي عن مساعدتهم. وأوفدت إليه الكابتن وليم هنري شكسبير الآنف الذكر، بينما أوفد والي البصرة السيد طالب النقيب لحمله على شدّ أزر تركيا في الحرب. واجتمع شكسبير بالأمير عبدالعزيز في آخر سنة ١٩١٤ في القفصة قرب مجمع السدير. وقد طلب ابن سعود بعقد معاهدة مع بريطانيا دعماً لمركزه. ورافقه شكسبير إلى المعركة مع ابن رشيد فقتل فيها خطأً في ٢٤ كانون الثاني ١٩١٥.

■ الكابتن شكسبير Captain Shakespear: ولد وليم هنري إرفاين شكسبير في البنجاب بالهند سنة ١٨٧٨، وكان أبوه موظفاً في مصلحة الغابات الهندية. وأخذته أمه إلى إنكلترة وعمره ٩ سنوات فدرس فيها. وانتمى إلى الكلية العسكرية الملكية في سندهرست فتخرج فيها ملازماً ثانياً في كانون الثاني ١٨٩٨. ومضى للخدمة في الهند وتعلم لغة الأوردو والعربية والفارسية. وفي سنة ١٩٠٤ انتقل إلى سلك الخدمة السياسية

الهندية وعيّن قنصلاً في بندر عباس، ثم نقل إلى مسقط وحيدر آباد، وأصبح بعد ذلك مساعداً للسير برسي كوكس ووكيلاً سياسياً في الكويت (١٩٠٨). وخرج في رحلة إلى البادية في السنة التالية والتقى بفيصل الدويش شيخ المطير وقاما بالصيد بالصقور. وقام بسفرة ثانية في كانون الثاني ١٩١٠، وعاد إلى الكويت فالتقى بعبدالعزيز آل سعود الذي كان يزور الشيخ مبارك الصباح وتوثقت الصداقة بينهما فوراً، ودعاه أمير نجد إلى زيارته في الرياض. وقام شكسبير برحلات أخرى إلى الزبير والبصرة والبادية. وقابل ابن سعود مرة أخرى، فكلمه الأخير عن تاريخ آل سعود ورغبته في مجافاة الترك وعقد الصلات الوثيقة مع بريطانيا وطلب تعيين وكيل سياسي بريطاني في الرياض. وقال إن الوهابيين لا يعترفون بالخلافة العثمانية. وقابل شكسبير ابن سعود مرارا بعد ذلك في أثناء رحلاته المتواصلة إلى الرياض وزار الدهناء وواحات السدير والبطين وبادية دبدبة وقصر بلال والحفر وآبار عجيبة وواحة زلفى والطويق وغات والمجمع. وقد أحسن الأمير السعودي استقبال الكابتن وقدّمه إلى أبيه الإمام عبدالرحمن وعرّفه بأبنائه.

وزار شكسبير أيضاً واحة ملحم وقرية حريملة والنفود وبلدة عنيزة على حدود القصيم وبريدة وشرقي جبل شمّر والجوف وخيام الشيخ عودة أبي تايه شيخ الحويطات ووادي سرحان وآبار العرفاجية وتلول الطُبيق وطريق سكة حديد الحجاز ووادي موسى إلخ.

وسافر إلى لندن في حزيران ١٩١٤ عن طريق القاهرة وقدم تقاريره وخرائطه، لكن الحكومة البريطانية أصرّت على وجوب ترك شؤون داخل الجزيرة العربية للحكومة التركية وعدم التدخل في شؤون نجد، خصوصاً بعد عقد اتفاقية الصداقة مع تركيا سنة ١٩١٣(*).

وقد التقى ابن سعود بالسير برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج في القطيف في ٢٦ كانون الأول ١٩١٥ وعقد معاهدة مع بريطانيا وقعها عن بريطانيا كوكس وصدّقها لورد شلسفورد نائب الملك في الهند في ١٨ تموز ١٩١٦. وكان توقيع ابن سعود بصفته «حاكم نجد والحسا والقطيف وجبيل والبلدان والموانئ التابعة لها». واعترفت بريطانيا به

(*) وفي خريف ١٩١٤ ظهرت بوادر سحب الحرب وكلّف شكسبير بالقيام بمهمة لدى ابن سعود، فعاد من لندن عن طريق بومبي ووصل إلى الكويت في ٧ كانون الأول ١٩١٤. ومضى إلى البطين فقابل الأمير عبدالعزيز وذهب معه إلى محاربة ابن رشيد أمير شمّر في جراب. ولم يشترك في المعركة، لكن رصاصة أصابته وقتلته في ٢٤ كانون الثاني ١٩١٥.

حاكماً مستقلاً لنجد وتوابعها ووافقت على مساعدته في حالة الهجوم عليه وحماية مصالحه على أن يمتنع عن الاتصال بأية حكومة أجنبية.

ودعي ابن سعود إلى زيارة البصرة التي احتلها البريطانيون، فجاء إلى ثغر العراق بعد أن منح وسام قائد الإمبراطورية الهندية (كي سي آي ئي) في تشرين الثاني ١٩١٦. وقد قلده الوسام السير برسي كوكس في الكويت بحضور الشيخ جابر الصباح وشيخ المحمرة خزعل خان وشيوخ البدو.

وارتجل عبدالعزيز كلمة منددا بالأتراك الذين وضعوا أنفسهم خارج نطاق الإسلام بظلمهم لبني جلدتهم، وأثنى على سياسة بريطانية التي تشجِّع العرب على الاتحاد في سبيل مصلحتهم. ومدح الشريف حسين ونهضته وحثّ على وجوب التعاون معه دعماً للقضية العربية.

ثم زار المحمّرة ضيفاً على الشيخ خزعل ورحل إلى البصرة. وتسلّم برقية من حسين ملك الحجاز يهنئه وزميليه الشيخ جابر وخزعل خان ويأسف لعدم تمكنه من إرسال ممثل عنه لحضور اجتماع الكويت وأكد أن أهدافه تتفق مع أهدافهم.

كان في استقبال ابن سعود في البصرة الموظفون البريطانيون وعلى رأسهم السكرتيرة الشرقية للسير برسي كوكس «الخاتون» جرترود بلّ. وسأله كوكس هل يجد محذوراً من اضطلاع الحسين ملك الحجاز بمنصب الخلافة، فقال إنه لا يهمّه من يكون الخليفة، لكنه يهتم كثيراً باتخاذ الشريف لقب «ملك العرب» وموقفه الطنّان لهذا الرجل الذي «لم يكن سوى موظف عيّنه الأتراك دون أن يكون له سند عشائري».

وصفته الآنسة بل فقالت إنه ذو شخصية مدهشة، طويل القامة ظاهر الوقار والاعتداد بالنفس. وقد اصطحبته لمشاهدة السيارات والقطارات والطيارات والمدافع والمتفجرات والمستشفيات ومستودعات الميدان، فعجب لما رآه وسأل أسئلة كثيرة وأبدى ملاحظات ذكيّة.

لكنه ذهل حقاً ولم يصدّق عينيه حين رأى امرأة تستقبله وتحييه، فهو - كما قالت الخاتون - يعتقد أن النساء لا محلّ لهن سوى الحريم. وقد كتب فلبي بعد ذلك، وكان موجوداً هناك، أن عبدالعزيز لم يودّها ولم ير من كرامة الرجال أن تتقدم امرأة على الموظفين البريطانيين المدنيين والعسكريين. وكان بعد ذلك يقلّد صوتها الحادّ وكلامها الأنثوي وهي تقول: يا عبدالعزيز، انظر إلى هذا، وماذا تقول في هذا؟ فتنفجر حاشيته بالسخرية والضحك.

وقد أقنعه كوكس عند اجتماعه به أن يوقف حملته على عشيرة العجمان التي قرّر محقها بعدما خذلته في موقعة جرّاب سنة ١٩١٥ فنجا جيش عدوّه ابن رشيد. وقد عقّب العجمان إلى الكويت حيث التجأت إلى شيخها بعد معركة جرح فيها عبدالعزيز نفسه وقتل أخوه سعد.

كتبت المس بل تصف زيارة ابن سعود للبصرة في «النشرة العربية» التي تصدر في القاهرة، فقالت إن بريطانيا تحسن صنعاً لو اهتمّت به. وذكرت لجوء أسرته إلى الكويت واستيلائه على الرياض في اليوم الأول من سنة ١٩٠٢، وسعيه لاسترداد ملك آبائه. وأشارت إلى احتفال الكويت في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٦ حيث قلّد وسام الامبراطورية الهندية الرفيع. وقالت إن عبدالعزيز يجمع صفات القيادة إلى حسن السياسة والإدارة، وأمثاله قليلون.

ومنح الإنكليز ابن سعود خلال الحرب العظمى ٥٣٠٠ بندقية وكميات وافرة من العتاد و ٤ رشاشات ومدفعين وأسلحة أخرى وإعانة شهرية قدرها ٥٠٠٠ باوند زيدت بعد ذلك إلى ١٠٠٠٠ بالإضافة إلى كميات من السكّر والقهوة والحنطة والخيام و٤٢٥٠٠ باوند أخرى نقداً.

اعتدى رجل من الزيدية على الملك عبدالعزيز محاولاً اغتياله وهو يطوف بالكعبة سنة ١٩٣٥، فهنّأه معروف الرصافي على نجاته بقصيدة مطلعها:

كيف قد حاولوا اغتيالك غدراً؟ … خاب من دسّهم إليك وأغرى
يوم جاؤوك في المطاف ببيت الله … تسعى وتذكر الله جهرا

ومنها:

يا إمام الهدى وربّ المعالي … ومليكاً تطيعه العرب طراً،
لست ممن بالقتل يردى ويفنى، … لك خلد الحياة دنياً وأخرى..
عجزوا عن لقاك بالجيش حرباً … فاستجاشوا العدوان كيداً ومكرا
إنهم أقصر الورى عنك باعاً … وأقلّ الأنام عقلاً وفكراً..
دمت، عبدالعزيز، للعرب ذخراً … ولأهل الإسلام عزاً وفخراً
حارساً أربع العروبة بالسيف، … معيداً لها الزمان الأغرا
وإماماً تبلّج الحق فيه … بعد أن كان كالحاً مكفهراً

وزار الملك عبدالعزيز مصر واجتمع بالملك فاروق فقال خليل مطران من قصيدة له:

عيد تجدّد فيه مجد عدنان　　وقد تآخى المليكان الوفيّان
أهلاً وسهلاً بمن في القلب منزله　　بالعاهل العربي الباذخ الشّان
سل أهل نجد وسل أهل الحجاز به　　تسمع أحاديث سمّار وركبان

وللشيخ فؤاد الخطيب قصائد كثيرة في تحية الملك عبدالعزيز وآله وتهنئتهم. قال:

تحيّة تملأ الدنيا وتمجيد　　ونغمة هي في الأفواه تغريد
فاليوم يجلس فوق العرش صاحبه　　وللجزيرة تهليل وتحميد...
ليث الجزيرة إن يهتف بها انتفضت　　لديه فاندفعت منها الصناديد

ورثاه عند موته فقال:

هي الجزيرة فيها الصيحة العمم　　فهل هو الحشر أم أشراطه أَمَمُ؟
عبدالعزيز، ويا للهول من نبأ　　من كان يُحمد إلا عنده الصمم
تبكي الديار على حامي الذمار وما　　للعرب صبر ولا الأوجاع تنحسم

الإمام يحيى ملك اليمن

عِرف اليمن قديماً باسم «بلاد العرب السعيدة» (أرابيا فليكس) بخلاف الأقطار الشمالية التي دعيت «بلاد العرب الحجرية» (أرابيا بيترا). وقد أصبح القطر اليمني منذ أجيال طويلة موئلاً للفرقة الزيدية، وقد اشتق اسمها من الإمام زيد الشهيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٦٩٨-٧٤٠م). نهض في الكوفة في عهد هشام بن عبدالملك الأموي فقتل وحمل رأسه إلى الشام فنصب على باب دمشق، وضرب به المثل، فقال أبو الحسن الأنباري في مرثاته الشهيرة (علوّ في الحياة وفي الممات):

ركبت مطيّة من قبل زيد علاها في السنين الماضيات

ودخل الأتراك إلى اليمن سنة ١٥٤٠ فظلوا في حروب ومنازعات مستمرة مع أئمتها من الزيود، وكان حكمهم لها بين مدّ وانحسار. ثم عاودت أجنادهم الكرّة في عهد السلطان عبدالعزيز سنة ١٨٧١، وكان صابح صنعاء آنئذ السيد محسن بن أحمد الشهاري المعروف بالمتوكّل. دخل القائد التركي أحمد مختار باشا صنعاء في نيسان ١٨٧٢ ودانت له أكثر البلاد في أقل من شهر. وتعاقب الولاة العثمانيون واحداً بعد واحد في اليمن، عدّدهم المؤرخ القاضي حسين بن أحمد العرشي في كتابه «بلوغ المرام في شرح مسك الختام» الذي نشره الأب أنستاس ماري الكرملي في القاهرة سنة ١٩٣٩. قال المؤرخ: «فهذه نبذة في ذكرهم وتواريخهم ومواجب معرفة ما جاء في اليمن في أيامهم من هلاك نفوس وهدم قصور وقوة وفتور وأمر وإصدار ومصائب وأهوال وإدبار وإقبال ومُشاقّة وامتثال».

كان الإمام في ذلك العهد المتوكل على الله الذي توفي سنة ١٨٧٨، فخلفه الهادي لدين الله شرف الدين محمد بن عبدالله، وتوفي سنة ١٨٩٠. وخرج من صنعاء على أثر ذلك، الإمام المنصور بالله محمد حميد الدين بن يحيى بن محمد بن إسماعيل بن محمد بدر الإسلام الحسني، وكان من أعوان المتوكل، فدعا بصعدة ولبّت دعوته

القبائل. وناصب الأتراك العداء، فقال مؤرخنا: «وقد كان بينه وبين هؤلاء الولاة من المعارك ما ملأ الدفاتر وأنضب المحابر.. وليست بلاد من بلاد الزيدية في اليمن إلا وله فيها معركة. وحاصر صنعاء مرتين، وأسر من العجم (أي الترك) مئات وأخذ أرواحهم..» وتوفي الإمام المنصور سنة ١٩٠٤ فاتفق العلماء على إقامة ابنه يحيى حميد الدين في مكانه ولقب بالإمام المتوكل على الله، وكانت دعوته في ٥ حزيران ١٩٠٤، وضرب على سكّته «عصمتي بالله، المتوكل على الله».

ولد الإمام يحيى في صنعاء في حزيران ١٨٦٩، وكان الإمام السابع والستين من أئمة الزيود في اليمن. تفقه في أمور الدين وشارك أباه في حروبه. وكانت البيعة له في قفلة عذر شمالي صنعاء إذ أن صنعاء كانت في حوزة الأتراك. ووقعت في تلك السنة مجاعة عظيمة وخلت قرى كثيرة من أهلها.

حاصر الإمام صنعاء فأخذ الجنود يأكلون كل ما تقع عليه أيديهم من الكلاب والقطط. قال المؤرخ اليمني الشيخ عبدالواسع بن يحيى في كتابه «فرجة الهموم» يصف المجاعة: «وباع بعضهم صاعين من الخبز بسبعة وعشرين ريالاً، وذبح بعضهم خارج صنعاء ابنته وأكلها. ووقع في قلوب الناس من القسوة حتى أن الصديق يرى صديقه يموت جوعاً ويضنّ عليه بكسرة من الخبز، لا بل لا يلتفت إليه. ويرى الوالد ولده يحتضر جوعاً ولا يمنّ عليه بلقمة من الخبز، وكذا كان يقع للولد نحو والده. وبعضهم رغب عن طفله لأنه لم يجد ما يطعمه، فكان يطلقه في الشوارع. وفي الآخر جاءت بواخر مملوءة طعاماً إلى الحُدَيدة قادمة من الحبشة والسودان، فسلم من بقي فيه رمق الحياة أو ذماء».

شدد الإمام الحصار على صنعاء فسلمها الأتراك له سنة ١٩٠٥. ثم أعادوا الكرة على المدينة فغادرها خوفاً على أهلها من الدمار، لاسيّما وقد مات منهم أكثر من النصف. وأوفدت الحكومة التركية في السنة التالية وفداً إلى الإمام يحيى لإصلاح ذات البين، لكن الأتراك رفضوا شروطه وعادت المعارك في مدن وقرى عدة. وكان الوالي أحمد فيضي باشا ظالماً فتاكاً، فعزله السلطان عبدالحميد الثاني وعين في محله حسن تحسين باشا، وكان رجلاً عاقلاً صلحت في أيامه الأحوال، وعيّن الإمام حكاماً شرعيين في النواحي.

استؤنفت المعارك بعد إعلان الدستور العثماني وخلع عبدالحميد. وعيّن أحمد عزت باشا والياً وفي أثناء مسيره من الحديدة إلى صنعاء رأى الحرب الطاحنة بين

العرب والترك واستبسال اليمانيين في الدفاع عن بلادهم، فقال: «لو كان للدولة العثمانية ألف رجل من هؤلاء الرجال لأخذنا أوربّة بأسرها». وسعى عزت باشا لعقد الصلح مع الإمام، لكن الاضطرابات والفتن استمرت بين أبناء القبائل طمعاً في النهب والسلب.

وفي سنة ١٩١١ احتلت إيطالية طرابلس الغرب ونشبت الحرب بينها وبين تركيا، فحاصرت سواحل اليمن من جهة البحر الأحمر ورمت الحديدة بالقنابل لمشاغلة الأتراك. وحدثت بعد ذلك فتنة مع محمد بن علي الإدريسي صاحب عسير الذي تبسّط في التهائم ونازع الإمام في بعض الأنحاء. وحاول الوالي محمود نديم بك أن يفضّ النزاع فلم يفلح في مسعاه. ونشبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ فاتفق الإدريسي مع الإنكليز وحلفائهم الإيطاليين، واستولى بعد الحرب على ميناء الحديدة وتعاقد مع السلطان عبدالعزيز صاحب نجد ليأمن شرّ خصميه الإمام يحيى في اليمن والملك حسين في الحجاز. وتوفي سنة ١٩٢٣ فتمزق بلده بين الإمام الذي سيطر على جنوبيّها وابن سعود الذي ضمّ شماليها.

وفي السنة الأولى من الحرب العامة زحف متطوّعة اليمن مع الجيش التركي بقيادة سعيد باشا إلى الحج طلباً لاسترجاع عدن من الإنكليز فباؤوا بالفشل. وكان من جملة الضباط الترك العقيد العراقي طه الهاشمي الذي عيّن ضابط ركن الفيلق التركي السابع المرابط في اليمن منذ سنة ١٩١٤. وقد استمر يحارب الإنكليز في محميّة عدن وتهامة حتى عقد الهدنة، فأسر مع ضباط الفيلق ثم سمح له بالعودة إلى استانبول. وقد شغل أرفع المناصب بعد ذلك في العراق، فكان رئيس أركان الجيش ووزير الدفاع ورئيس الوزراء.

وأخيراً انتهت الحرب وجلت القوات التركية عن ربوع اليمن، فدخل الإمام يحيى صنعاء في تشرين الثاني ١٩١٨، قال المؤرخ الواسعي: «فكان يوماً مشهوداً مشهوراً، فأقام فيه القسط والعدل والحقّ، وأحكم أسس العلم والدين».

ابتدأ عهد الاستقلال في اليمن بفتن بين بعض القبائل والإنكليز، ثم حلّ الصفاء بعد مفاوضات بين الفريقين. وعيّن الإمام القاضي عبدالله العرشي معتمداً له في عدن سنة ١٩١٩. ونشر سنة ١٩٢٤ منشوراً يدعو به المسلمين إلى جمع الكلمة والاعتصام بالكتاب والسنّة ونبذ الشقاق والخلاف. وقد نشرته صحف مصر وسوريا والعراق ونقلته بعض الصحف الغربية.

زار أمين الريحاني الإمام يحيى في صنعاء في أيار ١٩٢٢ فوصفه قائلاً: «دخلنا فإذا

نحن أمام رجل ربع القامة، صغير الرجل واليد، أسمر اللون، عالي الجبين، مستدير الوجه قاتمه. وله فم كفم الطفل صغير بارز، إلا أن في مرونته وهو يتكلم إشارة تقرّبه طوراً منك وتارة تبعده. وفي عينيه السوداوين القريبتين من أنف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الأحايين رواعة. وله لحية سوداء قصيرة مستديرة يتخللها خيوط من الشيب. يلبس قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات أردان من نسج اليمن، ولعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل إلى أذنه. دخلنا فإذا هو جالس على فراش أسود وثير تحته فراش آخر وسجادة عجمية، وإلى جنبيه الوسائد يتكئ عليها، وأمامه زجاجة من الماء ورزمة من القات..».

دعا الريحاني إلى الوحدة العربية، لكن الإمام آثر الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وقال من قصيدة له يستنهض همم المسلمين:

أيا قوم، هبّوا شمّروا وتعاضدوا — وحوطوا ذمار الدين عن كلّ حائل
كما فعلت أصحاب طه ومن تلاهم(م) — قافياً آثارهم من حلاحل

وقال الريحاني إن الأمر قد استتبّ للإمام في اليمن فحكمها بيد من حديد. وانتفع بمن تخلّف من ضباط الترك، وفي مقدمتهم آخر ولاتهم محمود بك نديم وهو سوري من طرابلس الشام، فنظم قسماً من جيشه. وأكثر أهل البلاد كما يقول الريحاني من السنيين والشوافع، لكن تغلبت عليهم الأقلية الزيدية التي يقف الإمام في قمّتها. وقال الريحاني إنه وجد تلك «البلاد السعيدة» وكأنه قد عاد فجأة إلى القرن الثالث للهجرة، «فلا مدارس ولا جرائد ولا مطابع ولا أدوية ولا أطباء ولا مستشفيات». والإمام هو كل شيء، هو المعلم والطبيب والمحامي والكاهن، وهو الأب الأكبر، وبلده في معزل عن العالم الحضاري.

وزار اليمن سنة ١٩٢٧ شيخ العروبة المصري أحمد زكي باشا، وكان في رفقته نبيه بك العظم من رجال سوريا، فقابلا الإمام وكلماه في الاتفاق مع الملك عبدالعزيز آل سعود. قال أحمد زكي إنه كان يصعد في الجبل إلى صنعاء فيستقبله الأهالي مرحبين: أهلاً وسهلاً! فيقول: بل أهلاً وجبلاً!

وكانت صلة الإمام بإيطاليا حسنة إذ كانوا يقابلونه في مستعمرة أريتريا إلى الساحل الشرقي من أفريقيا. وأوفد القاضي أحمد بن محمد الأنسي إلى تركيا للاتصال برجالها. ثم عقد معاهدة تجارية مع إيطاليا اعترفت بها حكومتها باستقلال اليمن وملكها «جلالة الإمام يحيى».

وفي أيار ١٩٣١ أوفدت الحكومة العراقية بعثة قوامها طه الهاشمي رئيس أركان الجيش وموفق الألوسي مدير الخارجية العام إلى صنعاء فعقدت معاهدة صداقة بين البلدين.

نشبت الحرب بين اليمن والمملكة العربية السعودية سنة ١٩٣٤ لنزاع قام على الحدود، فتوسط الأمير شكيب أرسلان وسواه من رجالات العرب لإيقاف القتال. وعقدت معاهدة الطائف بين المملكتين في أيار ١٩٣٤ فسوّت الأمور بينهما وأنهت حالة الحرب وحددت الحدود وأقامت عهداً جديداً من الصداقة وحسن الجوار.

وكان ممثل الإمام الملك يحيى وزيره السيد عبدالله بن أحمد الوزير وممثل الملك السعودي ابنه الأمير خالد بن عبدالعزيز نائب رئيس الوكلاء (وقد أصبح فيما بعد الملك خالد).

وعقد الإمام يحيى معاهدات صداقة مع هولندا (١٩٣٣) وإنكلترا (١٩٣٤) وامبراطورية الحبشة (١٩٣٥) والاتحاد السوفييتي (١٩٣٩). وزار صنعاء في آذار ١٩٣٧ وفد عراقي برئاسة جميل المدفعي وعضوية محمد مهدي كبّة لإحكام الصلات الودية بين البلدين.

وقد سلم اليمن من ويلات الحرب العالمية الثانية، ثم ساهم في نهايتها في تأليف جامعة الدول العربية، وانضمّ بعد ذلك إلى هيئة الأمم المتحدة. لكن الإمام بقي يحكم بلاده حكماً استبدادياً شديداً ولا يرضى بالشورى. وضاقت صدور بعض أبنائه وخاصته والمتذمرين من سياسة القمع والعزوف عن الإصلاح ومجاراة روح العصر، ومنهم ابنه سيف الإسلام إبراهيم وعبدالله بن أحمد الوزير، فسمعوا بموته كذباً وجاهروا بالخروج عن طاعته وإعلان الحكم الدستوري. وخافوا بطشه بعد أن علموا أنه لايزال حياً، فأتمروا به ودسّوا له صنائعهم، فاجأوه في خزياز على طريق الحديدة على مقربة من صنعاء واغتالوه مع وزيره القاضي عبدالله العمري في ١٧ شباط ١٩٤٨. وأعلن ابن الوزير نفسه إماماً وملكاً دستورياً وتلقب الهادي إلى الله وألف مجلس شورى برئاسة سيف الإسلام إبراهيم.

لكن ولي العهد الشرعي سيف الإسلام أحمد بن يحيى، وكان في حجة، دعا إلى نفسه ونادى بالثأر لأبيه. وزحفت القبائل إلى صنعاء، واعتصم ابن الوزير في قصر غمدان حتى تغلب عليه أنصار أحمد واعتقلوه مع أعوانه (١٤ آذار ١٩٤٨). وحمل إلى حجّة فأعدم رمياً بالرصاص مع وزير خارجيته حسين الكبسي في ٨ نيسان.

بويع أحمد بن يحيى بالإمامة والملك وتلقب بالإمام الناصر لدين الله. وقد ولد في ٢ كانون الثاني ١٨٩٣. وتوفي في ١٩ أيلول ١٩٦٢، فخلفه ابنه سيف الإسلام محمد البدر (ولد ١٩٢٦) وتسمّى الإمام المنصور بالله. وكان أول ما فعله تعيين العقيد عبدالله السلال قائداً عاماً للجيش، فلم يمض أسبوع واحد حتى انتفض عليه (٢٦ أيلول ١٩٦٢) وأعلن الجمهورية في اليمن. وتمكن البدر من الفرار من صنعاء. والسلال تخرّج في الكلية العسكرية في بغداد سنة ١٩٣٦، واتهم بالاشتراك في اغتيال الإمام يحيى فسجن (١٩٤٨-٥٥). ثم أطلق سراحه وعيّن محافظاً للحديدة فمديراً للكلية الحربية (١٩٦١).

وكانت تلك نهاية الإمامة الزيدية بعد أن دامت نحواً من ١٠٦٦ سنة. وكان أول الأئمة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين الحسني الرَّسّي (٨٣٥-٩١١م)، ولد بالمدينة ونشأ فقيهاً عالماً تقياً. وراسله أبو العتاهية الهمداني أحد ملوك اليمن فمضى إلى صعدة سنة ٨٩٦م وبويع بالإمامة، ثم ملك صنعاء.

كان الإمام يحيى أديباً شاعراً كثير النظم، أهداه أحد العراقيين كتابا ألفه فنفحه الإمام بقصيدة يثني فيها على المؤلِف ويقرّظ المؤلف. وكان قسطنطين يني رفيق أمين الريحاني قد نظم قصيدة في صنعاء يهجو القات، وهو نبات ذو أثر مخدّر اعتاد أهل اليمن على مضغه، مطلعها:

القات فيه عجاب كما يقول الصحاب

وعرضت القصيدة على الإمام فباراها بقصيدة يدافع فيها عن القات ويقول إن فيه مزايا لا تحصى:

فللعيون جلاء	للضعف فيه ذهاب
وللثغور صباغ	زمرديّ يذاب
أحسن بثغر مليح	له المذاب رضاب
وللنفوس مريح	وللنشاط انجذاب
ويشحذ الفكر حتى	يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عمّن	له الجليس كتاب إلخ..

سوريا ولبنان

عبدالرحمن الكواكبي

المصلح الإسلامي عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي ينتمي إلى أسرة حلبية قيل إنها تنتسب إلى صفيّ الدين الأردبيلي جدّ الأسرة الصفوية، كان درويشاً متصوفاً له تكية في أردبيل، وقد تلقى طريقته بوسائط عن الإمام الغزالي - كما ذكر عباس العزاوي في الجزء الثالث من «تاريخ العراق بين احتلالين». وقد أسّس أحد أحفاده المتأخرين، وهو الشاه إسماعيل، الدولة الصفوية في إيران واستولى على بغداد سنة ١٥٠٨م. ونسب بعض النسّابين الشيخ صفي الدين إلى الإمام موسى الكاظم، وارتأى غيرهم أنه من أصل تركي.

ذكر الدكتور عبدالرحمن الكواكبي حفيد المصلح وحامل اسمه لمجلة الحوادث (كما جاء في العدد الصادر في ٢٧/ ١١/ ١٩٨١) أن أول من جاء إلى حلب من أبناء الأسرة إبراهيم الصفوي الأردبيلي الذي اقترن بفتاة حلبية، وكان ولده محمد أبو يحيى أول من تلقب بالكواكبي.

اشتهرت الأسرة في العهد العثماني المتأخر، فكان من أبنائها عطاء الله باشا الكواكبي والي بغداد (١٨٩٦-٩٩). وانتخب مسعود أخو عبدالرحمن نائباً عن حلب في مجلس المبعوثان سنة ١٩٠٨، وكان خصماً لدوداً لجماعة الاتحاد والترقي. وأصبح بعد الحرب العالمية الأولى قاضياً في محكمة التمييز وعضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق.

ولد مترجمنا في حلب في ٩ تموز ١٨٥٥ ونشأ في أنطاكيا وحلب، ودرس في مدارسهما وأتقن العلوم اللغوية والشرعية واللغة التركية. مال إلى الكتابة، فعمل في تحرير جريدة «فرات» الرسمية، وأنشأ بعد ذلك مع صديق له جريدة «الشهباء» (١٨٧٨)، وهي أول جريدة صدرت في حلب فأغلقتها السلطات لصراحتها في انتقاد

رجال الحكم. ثم أصدر جريدة الاعتدال سنة ١٨٧٩ فعطّلت أيضاً. وأسندت إليه وظائف عدة، لكن حنق عليه أعداء الإصلاح فسجن. وترك وظائف الحكومة ففتح مكتباً للمحاماة، ثم عيّن رئيساً لبلدية حلب.

ورحل إلى مصر سنة ١٨٩٩، ولم يلبث أن غادرها في سياحة إلى زنجبار والحبشة وجزيرة العرب والهند مطلعاً على أحوال العالم الإسلامي وما انحدر إليه من تأخر وفقر وجهل وسوء الإدارة في الحكم وتخلّف عن الحضارة.

وعاد إلى مصر واستقرّ فيها وحرّر في جريدة المؤيد. وكانت وفاته في القاهرة في ١٤ حزيران ١٩٠٢. وقيل في وفاته إنه قضى بالسم، ونسب قتله إلى رجال السلطان عبدالحميد الثاني نظراً إلى دعوته إلى الحرية ومقارعة الاستبداد. قال حفيده الدكتور عبدالرحمن: «وهكذا تمكن رجال السلطان عبدالحميد من قتل الكواكبي.. واعتقد أن سلطات الأمن المحلية كانت لها يد طولى في قتله لأنها جاءت في الصباح تفتش البيت وتأخذ جميع ما فيه من أوراق ووثائق». ثم قال: «لم تكن هذه المحاولة الناجحة لقتله هي الأولى، بل سبق أن ضربه أحد رجال والي حلب بالخنجر مما أدى إلى إصابته بالجراح فقط».

أبّنه الشاعر حافظ إبراهيم، فارتجل بيتين نقشا على قبره:

هنا رجل الدنيا، هنا مهبط التقى، هنا خير مظلوم، هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

اشتهر الكواكبي بكتابيه «أم القرى» و«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد». ففي «أم القرى» تخيّل مؤتمراً عقد في مكة بعد موسم الحج ضمّ مندوبين يمثلون الشعوب الإسلامية في مختلف أقطارها. واتخذوا شعار «لا نعبد إلا الله»، وتواصوا بالكتمان. وجرى البحث في الحالة النازلة بالمسلمين والفتور الساري في أعضاء الجسم الإسلامي، والأوهام العالقة بالدين والمتاجرة به، واستبداد الحكام، وفقدان الحرية والمساواة في الحقوق. ودعا المؤتمر إلى اصلاح أمور المسلمين وتضامنهم دون اختلاف في العنصر والمذهب.

أما كتابه «طبائع الاستبداد» فهو دعوة إلى الحرية في ذلك الزمن الذي ساد فيه الظلم والطغيان. وقيل إن الآراء التي أبداها الكواكبي إنما نقلها من المفكر الإيطالي فيتوريو ألفييري (١٧٤٩-١٨٠٣) الذي هلّل للثورة الفرنسية ومبادئها وندّد بالطغيان، وقد ترجمت كتاباته إلى العربية واطلع الكواكبي عليها. لكن عباس محمود العقّاد وغيره من

الباحثين والنقاد نفوا هذا النقل وأشادوا بأصالة فكر المفكر الإسلامي.

قال يوسف أسعد داغر إن الكواكبي من رواد النهضة الأدبية والاجتماعية والوطنية ومن الدعاة للجامعة الإسلامية. أحب الإصلاح وحرية الرأي والقول وناضل في سبيل مبادئه في العهد الحميدي. وقد عرف بروحه السمحة وبعده عن التعصب مع شدة تمسكه بإسلاميته. ورأى رابطة الوطن فوق كل رابطة.

شهداء العرب في دمشق وبيروت

ظهرت الجمعيات السرية العربية في استانبول والشام وبغداد والموصل وبعض الحواضر الأخرى حين انتبه الشباب العربي المثقف سنة ١٩١٢ إلى تفاقم حركة التتريك التي نادى بها حزب الاتحاد والترقي وكان في مقدمة دعاتها ضياء كوك آلب (١٨٧٥-١٩٢٥) الأديب القومي المتطرف. وعقد المؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣ فدعا إلى الحكم اللامركزي في إطار الدولةالعثمانية.

وتسلط الاتحاديون على الحكم في تركيا بقيادة الثالوث أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا فزجّوا بلادهم في أتون الحرب إلى جانب ألمانية بلا تفكير ولا روية. وعين جمال الذي عرف بعدئذ بالسفاح والياً في سوريا وأطلقت يده في الحكم، فندّد بأحرار العرب ودعاة اللامركزية. وأنشأ ديوان الحرب العرفي في عالية بجبل لبنان وساق اليه رجال الفكر والصحافة والأدب، فحكم عليهم بالموت شنقاً وصعدوا على الأعواد في دمشق وبيروت في آب ١٩١٥ وأيار ١٩١٦.

نفي رجال الصحافة والأدب العراقيون، وفي مقدمتهم الأب أنستاس ماري الكرملي ورزوق غنّام وغيرهما، إلى الأناضول. وسيق إبراهيم حلمي العمر إلى ديوان الحرب في عالية، لكنه نجا من الموت واضطر إلى الاشتراك في تحرير جريدة الشرق التي أصدرها جمال باشا للدفاع عن سياسته وجنّد لها أقلام نخبة من الكتاب العرب كشكيب أرسلان ومحمد كرد علي وعبدالقارد المغربي وتاج الدين الحسني.

وكان جمال بك والياً في بغداد سنة ١٩١١ وكان الشيخ يوسف السويدي عضو مجلس الولاية مناوئاً لسياسته، فاعتقله ثم اضطر على الإفراج عنه بأمر من العاصمة التركية. ولما نشبت الحرب العظمى سيق يوسف السويدي سنة ١٩١٥ إلى لبنان ونفي إلى بعض قرى الأناضول.

وقد خلّد الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي ذكرى الشهداء وعدّد أسماءهم في «النائحة» قصيدته التي مطلعها:

على كل عوذ صاحب وخليل وفي كل بيت رنّة وعويل

وقد نشرت في كتاب الأدب العصري في العراق العربي (الجزء الأول) لرفائيل بطي المطبوع بمصر سنة ١٩٢٣. وقال فيها:

بني يعرب، لا تأمنوا الترك بعدها بني يعرب، إن الذئاب تصول

ولا تمش في أمر أجنّك ليله على ضوء تركي فذاك ضئيل

لكن الأمة التركية التي قصدها الزهاوي قد تمزقت بعد الحرب العظمى الأولى ونهضت على رمّتها الجمهورية التركية التي أنشأها الغازي مصطفى كمال باشا (أتاتورك) واتّجه بها وجهة غربية حديثة.

ومن الشعراء الذين رثوا شهداء الأمة العربية رشيد الهاشمي (١٨٩٦-١٩٤٣)، قال من قصيدة:

أم القصور العالية أمست قصورك خالية

ما في رباك سوى الأنين وكل عين جارية

قتل الكرام فخلفوا في كل بيت ناعية..

نبكي على الفتيان أرداهم «جمال» الطاغية

من كل مفتول الذراع أغر تحت الناصية

أحرار العرب الذين شنقهم جمال باشا السفاح

(١) عبدالحميد الزهراوي.

(٢) جرجي موسى الحداد:

شاعر سوري ولد في زحلة ودرس ثم علّم في مدرسة الروم الأرثوذكس بدمشق وحرر جريدة «العصر الجديد» اليومية نحو أربع سنوات وجريدة «الراوي» الأسبوعية. حكم عليه ديوان عالية العرفي بالموت فشنق في بيروت سنة ١٩١٦.

(٣) حافظ السعيد من أعيان فلسطين.

(٤) توفيق أحمد البساط:

ولد بصيدا ودرس في بيروت ثم تخرج في مدرسة الحقوق والمكتب الملكي الشاهاني في استانبول وانتمى إلى الجمعيات العربية السرية فيها. عين معاوناً في ولاية دمشق. وقبض عليه وحكم في ديوان الحرب العرفي بعالية (١٩١٦) ولد نحو ١٨٨٦.

(٥) سليم بك الجزائري:

ابن محمد بن سعيد الحسني الجزائري (١٨٧٩-١٩١٦) ولد في دمشق ودرس في المدرسة المحورية ومدرسة الهندسة في استانبول ومدرسة أركان الحرب وكان مولعاً بالرياضيات وألف كتاباً في المنطق. درّس في المدرسة الحربية باستانبول وخاض غمار حروب كثيرة وأسر في اليمن. وحارب في البلقان وتولى قيادة اللواء السابع عشر عند نشوب الحرب العامة (١٩١٤) ثم اللواء الثامن عشر في أدرنة وقرن كلّيسا، وجاهر بآرائه الحرة وطالب بحقوق العرب فسيق الى ديوان الحرب العرفي في عالية وشنق في بيروت. نظم الأناشد الوطنية وكان يكتب ويخطب بالعربية والتركية.

(٦) سليم أحمد عبدالهادي من أعيان نابلس.

(٧) شفيق المؤيد العظم:

شفيق بك بن أحمد المؤيد العظم (١٨٥٧-١٩١٦) من طلائع النهضة السياسية في سورية ولد في دمشق ودرس في بيروت والآستانة وتقلب في المناصب. نائب دمشق وكان معارضاً للاتحاديين، سيق إلى ديوان الحرب العرفي في عالية وأعدم في دمشق. كان عالماً اقتصادياً ضليعاً في العربية والتركية والفرنسية وعارفاً بشيء من الإنكليزية.

(٨) رشدي الشمعة (١٨٦٥-١٩١٦):

رشدي بك بن أحمد باشا بن سليم الشمعة من الكتاب الأعيان حسيني النسب ولد ودرس في دمشق وكان نائباً عنها في مجلس المبعوثان، قاوم سياسة الاتحاديين ووضع روايات لإذكاء روح القومية العربية ونشر المقالات وألقى الخطب. حوكم في عالية وأعدم في ساحة الشهداء بدمشق (٦ أيار ١٩١٦).

(٩) سعيد عقل (١٨٨٨-١٩١٦):

سعيد بن فاضل بن بشارة عقل، صحافي وله شعر. ولد في الدامور بلبنان ودرس في بيروت ونظم مسرحيّتين. سافر إلى المكسيك (١٩٠٦) فأصدر جريدة صدى المكسيك، أسبوعية. وعاد إلى بيروت فأصدر جريدة البيرق وحرر جريدة الأحوال ولسان الحال والإصلاح والاتحاد العثماني. ولما نشبت الحرب انزوى في قريته الدامور فاعتقل وأعدم شنقاً في بيروت. -

(١٠) رفيق رزق سلّوم (١٨٩١-١٩١٦):

رفيق بن موسى رزق سلوم، أديب شاعر، ولد في حمص ودرس في مدرستها الروسية وترهّب أمداً ثم انتمى إلى كلية بيروت الأمريكية ودرس الحقوق في الآستانة

واتصل بعبد الحميد المزهراوي وغيره من أحرار العرب واشترك في إنشاء المنتدى الأدبي ونشر المقالات في جريدة الحضارة ومجلة المقتطف والمقتبس ولسان الحال. **ألف**: حياة البلاد في علم الاقتصاد، حقوق الدول. اعتقل وعذب في عاليه وشنق في بيروت.

(١١) شكري العسلي (١٨٦٨-١٩١٦):

شكري بك بن علي بن محمد بن عبدالكريم بن طالب العسلي ولد في دمشق ودرس في استانبول وعين قائم مقام قضاء قاش (بولاية قونية) وتنقل في الأقضية حتى انتخب نائباً عن دمشق. تعاطى المحاماة وأصدر جريدة القبس اليومية ثم عيّن مفتشاً ملكياً لولاية حلب ولواء دير الزور. نقم عليه غلاة الترك لطلبه اللامركزية فسيق إلى ديوان حرب عاليه وأعدم في دمشق. ألف: القضاة والنواب، الخراج في الإسلام، المأمون العباسي. أصل الأسرة من قرية يلدة من ضواحي دمشق.

(١٢) الشيخ أحمد طبّارة (١٨٧١-١٩١٦):

أحمد بن حسن بن محيي الدين طبارة صحفي ولد في بيروت ودرس في المدرسة السلطانية وعمل في تحرير جريدة ثمرات الفنون ١٧ سنة، ثم أنشأ جريدة الاتحاد العثماني اليومية على أثر إعلان الدستور (١٩٠٨) وأغلقتها الحكومة فأصدر جريدة الإصلاح ودعا إلى اللامركزية واشترك في المؤتمر العربي في باريس (١٩١٣). اعتقل وحوكم في عاليه وشنق في بيروت.

(١٣) عبدالوهاب الإنكليزي (١٨٨٢ - ١٩١٦):

عبدالوهاب بن أحمد المليحي المعروف بالإنكليزي من دمشق، وتنسب أسرته إلى المليحة من قرى غوطة دمشق. درس في مسقط رأسه وتخرج في المكتب الملكي الشاهاني في الآستانة ونصب قائم مقام في سروج من أعمال ولاية حلب ونقل إلى قضاء الباب فاستقال وعمل محامياً في دمشق. ثم عيّن مفتشاً ملكياً في بيروت فبروسة وسافر إلى استانبول عند نشوب الحرب فطلبه ديوان عاليه العرفي بجريرة معارضته للاتحاديين وحكم عليه بالإعدام فشنق في دمشق. وله مقالات ومحاضرات في السياسة والاجتماع والتاريخ بالعربية والتركية، له أيضاً كتاب التاريخ العام (طبع جزء منه).

(١٤) عبدالغني العريسي (١٨٩١ - ١٩١٦):

عبدالغني بن محمد العريسي، صحافي ولد ودرس في بيروت وأصدر جريدة المفيد اليومية مع فؤاد حنتس (١٨٨٦-١٩١٣) وكانت تبث الفكرة العربية. وسافر إلى

باريس (١٩١٤) فانتمى إلى مدرسة العلوم السياسية واشترك في المؤتمر العربي وعاد إلى بيروت حيث تابع إصدار الجريدة مع الأمير عارف الشهابي بعد وفاة حنتس ونقلاها إلى دمشق في بدء الحرب العامة. وطلبته الحكومة ففرّ مع عارف الشهابي وعمر حمد وتوفيق البساط ولجأوا إلى نوري الشعلان شيخ الرولة وخاف نوري نقمة الحكومة فنصحهم بمتابعة السفر إلى الحجاز فرحلوا بالقطار إلى تبوك لكن عرف أمرهم ووشي بهم فقبض عليهم وسيقوا إلى دمشق وحوكموا في عاليه وشنق عبدالغني في بيروت.

وكان كاتباً جريئاً حراً وترجم كتاب البنين عن الفرنسية.

(١٥) الأمير عارف الشهابي (١٨٨٩ - ١٩١٦):

عارف بن محمد سعيد بن جهجاه بن حسين، كاتب وخطيب وشاعر. ولد في حاصبيّا من أعمال دمشق وتعلم فيها وفي استانبول تخرج في المكتب الملكي الشاهاني ومدرسة الحقوق. عاد إلى سوريا فعيّن لبعض الأعمال الإدارية سنتين ثم استقال واحترف المحاماة ودرس التاريخ في مدرسة أهلية ونشر المقالات في جريدة المفيد البيروتية ثم شارك في تحريرها. وعاد إلى دمشق عند نشوب الحرب ونقل «المفيد» إليها وأحسّ بغيظ الحكومة منه ففر إلى البادية وقبض عليه وحوكم في عاليه ونفذ حكم الإعدام به شنقاً في بيروت. ترجم عن التركية رواية فتح الأندلس لعبدالحق حامد وله كتاب مخطوط في تاريخ الإسلام.

(١٦) علي الأرمنازي:

علي بن محمد الأرمنازي كاتب من أهل حماة أصدر بها جريدة نهر العاصي قبيل الحرب العامة وشارك في الحركة القومية. حكم عليه ديوان الحرب العرفي في عاليه بالموت وأعدم شنقاً في بيروت في ٢١ آب ١٩١٥.

(١٧) عبدالكريم الخليل (١٨٩٢ - ١٩١٥):

عبدالكريم بن قاسم الخليل محام تخرج في مدرسة الحقوق والمكتب الملكي في استانبول. ولد في ضواحي بيروت وكان رئيس المنتدى الأدبي في الآستانة. وعاد إلى سوريا في أوائل الحرب العامة يحمل الفكرة القومية العربية فاعتقل وحوكم في عاليه وأعدم شنقاً في بيروت في ٢١ آب ١٩١٥.

(١٨) عمر بن مصطفى حمد (١٨٩١ - ١٩١٦):

شاعر ولد ونشأ في بيروت ودرس في الكلية العباسية بها وانتمى إلى الجمعيات العربية وطالب باللامركزية ونظم قصائد وأناشيد حماسية طبعت بعد ذلك في «ديوان».

ولما نشبت الحرب العظمى جنّد ضابطاً احتياطياً. ولما رأى بوادر بطش الأتراك فرّ مع رفاقه عبدالغني العريسي وغيره من دمشق في بدء عام ١٩١٥ متنكرين بثياب البدو وتنقلوا في البادية ثمانية أشهر حتى قبض عليهم في مدائن صالح. وسجن عمر حمد في عاليه ثم قدم إلى ديوان الحرب وأعدم شنقاً في بيروت. وكان عمره ٢٥ سنة. وأصله من مصر هاجر جده حمد إلى بيروت في عهد الأمير بشير الشهابي.

(١٩) محمد المحمصاني (١٨٨٨ - ١٩١٦):

ابن مصباح المحمصاني من بيروت درس فيها ثم حصل على الدكتوراه في الحقوق من جامعة باريس (١٩١٢) وكان من مؤسسي جمعية العربية الفتاة ومن أعضاء المؤتمر العربي في باريس (١٩١٣). وعاد إلى بيروت فعمل في المحاماة وواصل عمله العربي وكان من الخطباء والكتاب. وله كتاب «دعاة الفكرة الصهيونية». اعتقله الأتراك وحوكم في عاليه وأعدم شنقاً مع أخيه محمود من أنصار الفكرة العربية (ولد ١٨٨٤).

(٢٠) صالح بك حيدر:

رئيس بلدية بعلبك وهو صالح بن أسعد حيدر. آزر الحركة القومية وحوكم في عاليه وشنق في بيروت سنة ١٩١٦.

(٢١) أمين بك لطفي الحافظ (١٨٧٩ - ١٩١٦):

ولد في دمشق ودرس في المدرسة العسكرية في استانبول ومدرسة الأركان (شعبة الهندسة)، وعيّن ضابطاً في مسقط رأسه. ونقل سنة ١٩٠٨ إلى أطنة لنشاطه السياسي العربي، ثم إلى حلب. وحارب خلال الحرب العامة في جبهة القفقاس ومنح رتبة أميرآلاي. وأحيل على ديوان الحرب العرفي في عاليه وأعدم في بيروت في ٦ أيار ١٩١٦.

(٢٢) عبدالقادر الخرسا (١٨٨٥-١٩١٥):

ولد في دمشق وتعاطى التجارة وانضم إلى الجمعيات العربية. اعتقله جمال باشا وحكم عليه بالإعدام في عاليه، وشنق في ٢١ آب ١٩١٥.

(٢٣) جلال البخاري (١٨٩٠ - ١٩١٦):

محمود جلال بن الشيخ سليم البخاري. درس في المدرسة الشاهانية الملكية ومدرسة الحقوق في استانبول وتخرج في سنة ١٩١٣. انتسب إلى المنتدى الأدبي. وشغل وظائف قضائية حتى إذا ما نشبت الحرب سيق إلى الخدمة العسكرية. وشعر بالخطر من جمال باشا ففر عند صديقه أحمد مريود في جباتا الخشب وقصدا البادية.

لكن قبض عليه بدو نوري الشعلان وسلموه إلى السلطات التركية. وقد حوكم في عاليه وشنق في بيروت في ٦ أيار ١٩١٦.

(٢٤) نايف تلّو (١٨٨٥ - ١٩١٥):

ولد في دمشق وتولّى وظائف إدارية في درعا وزحلة والكرك، ونشر مقالات في جريدة المقتبس. حوكم أمام الديوان العرفي في عاليه وأعدم في دمشق في ٢١ آب ١٩١٥.

(٢٥) الأمير عمر الجزائري (١٨٧١ - ١٩١٦):

عمر بن الأمير عبدالقادر الجزائري الكبير ولد بدمشق. عمل مع شباب العرب فاعتقل وحوكم في عاليه وشنق في ساحة الشهداء بدمشق (أيار ١٩١٦).

عبدالحميد الزهراوي

من دعاة الإصلاح الديني والاجتماعي في سوريا عبدالحميد الزهراوي، ولد في حمص سنة ١٨٥٥ وتلقى دراسته الابتدائية فيها ثم تنقل في البلاد طلباً للعلم. مال شاباً إلى مبادئ الحرية وسعى لإبراز الروح العربية في إطار الدولة العثمانية والتمرّد على سياسة الاستبداد الحميدية، فأصدر جريدة دعاها «المنبر» كان يطبعها على الجلاتين (الهُلام) ويوزعها سراً. ورحل إلى الآستانة فساعد في إنشاء جريدة «معلومات» التركية، ولم يكن من السلطات التركية التي ندّد بسياستها إلا أن أبعدته إلى دمشق.

أخذ يكتب في جريدة المقطم المصرية، فعلم به والي دمشق وأرسله مخفوراً إلى العاصمة التركية. وتوسط له الشيخ أبو الهدى الصيّادي الرفاعي فأعيد إلى حمص. واستطاع الخروج إلى مصر سنة ١٩٠٢، فحرر في جريدة المؤيد والجريدة. وأعلن الدستور سنة ١٩٠٨ فعاد إلى الشام وانتخب نائباً عن حماة في مجلس النواب.

واشترك في أثناء إقامته في الآستانة في تأسيس حزب الحرية والائتلاف المناوئ للاتحاديين. وأنشأ بعد ذلك في حمص جريدة الحضارة، وقد ساعده في تحريرها الشاب رفيق رزق سلّوم (١٨٩١ - ١٩١٦) الذي أدين معه بعد سنوات وأعدم شنقاً في بيروت.

طالب بالحكم اللامركزي في سوريا وتولى رئاسة المؤتمر العربي المعقود في باريس سنة ١٩١٣. وقد خطب ودّه على أثر ذلك الاتحاديون وعيّنوه عضواً بمجلس الأعيان. لكن الحرب العامة نشبت بعد شهور، فأحيل على الديوان العرفي في عالية بتهمة الخيانة السياسية، وحكم عليه بالموت. وشنق في دمشق في ٦ أيار ١٩١٦.

كان خطيباً بليغاً جريئاً قوي الحجة وصحفياً كاتباً حرّاً، طالب بحقوق قومه فكان جزاؤه الإعدام. وضع رسالة في الفقه والتصوّف (١٩٠١) وكتاباً في سيرة خديجة أم المؤمنين طبع للمرة الثانية في القاهرة سنة ١٩٢٧.

رثى جميل صدقي الزهاوي شهداء عالية في مطوّلته الشهيرة، ومطلعها:

على كل عود صاحب وخليل وفي كل بيت رنّة وعويل

وقال يذكر الزهراوي:

وعبدالحميد الحرّ أفضل ميّت فحزني على عبدالحميد يطول

ثم قال:

وسائلة ما بال دمعك فائض على النحر يغريه الغداة همول؟

تقول: أتبكي في المصاب؟ تلومن وتمسح منها العين حين تقول

أتبكي لرزء قد أصابك شطره، وأنت أخو صبر وأنت حَمول؟

فقلت: أجل، أبكي الألى طلبوا ال فماتوا كراماً، والبكاء قليل

أبعد بني قومي أُنَهْنِهُ عبرتي وأمنعها، إني إذن لبخيل

سأبكي على صحبي وما أنا واثق بأن بكائي للشقاء مزيل

وليست دموعي إن تبيّنت أمرها سوى قطرات في العيون تجول..

رفيق بك العظم

رفيق بن محمود بن خليل العظم ينتمي إلى أسرة سورية معروفة، ولد في دمشق سنة ١٨٦٧ وأكبّ على دراسة الأدب والتاريخ. لازم علماء بلده وأخذ عنهم، وربطته أواصر الود مع الشيخ طاهر الجزائري والشيخ سليم الجندي وغيرهما.

رحل إلى مصر سنة ١٨٩٢ وزار الآستانة ثم عاد إلى دمشق. وعرف منذ شبابه بنزعته الحرة والدعوة إلى الإصلاح، فضاق ذرعاً بجوّ الاستبداد السائد في الأقطار العثمانية وهجر وطنه قاصداً مصر سنة ١٨٩٥ وأقام فيها إلى آخر عمره. نشر مقالاته السياسية والاجتماعية في الأهرام والمقطم والمؤيد واللواء وفي مجلة المقتطف والهلال والمنار إلخ. واتصل برجال الفكر والأدب، وفي طليعتهم الشيخ محمد عبده وعلي يوسف صاحب «المؤيد» ومصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك زعيمي الحزب الوطني.

واشترك في الجمعيات السياسية والأدبية، وكان أحد مؤسسي جمعية الشورى العثمانية التي أنشأت جريدة الشورى (١٩١٢) ودعت إلى منح سوريا الحكم المحلي (اللامركزي)، كما دعت إلى الإصلاح الاجتماعي وانتقدت سياسة الاستبداد في الولايات العثمانية. وانتخب رفيق العظم عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق وأوصى له بمكتبته عند وفاته.

كان مؤرخاً وكاتباً وشاعراً، له ديوان شعر مخطوط محفوظ في دار الكتب الظاهرية بالشام. ومن مؤلفاته: أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة (في أربعة أجزاء، ١٩٠٨) البيان في التمدن وأسباب العمران - (١٨٨٧) تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام (١٩٠٠) الجامعة الإسلامية في أوروبا (١٩٠٧) الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية (١٨٩٩) رسالة في بيان كيفية انتشار الأديان. وجمع شقيقه عثمان بك بعد وفاته طائفة من مقالاته في كتاب «مجموعة آثار رفيق بك العظم».

توفي في القاهرة في ٣٠ حزيران ١٩٢٥.

قال محمد كرد علي إن أسرة العظم أشهر من أن تذكر، حكمت الشام ردحاً طويلاً

من الزمن. وكان محمود بك العظم والد رفيق بك شاعراً مجيداً. وتوفي الوالد ورفيق في الثامنة من عمره فكفله أخوه الأكبر وأدخله بعض المدارس التركية حيث تلقى مبادئ العلوم. ثم أولع بالمطالعة والكتابة، فنشر أول رسالة له وكان في الثامنة عشرة. ولما بلغ الثمانية والعشرين هاجر إلى مصر فاتخذها مقراً، وفيها ظهرت نجابته وتمثلت وطنيته. فقد كتب في الموضوعات التي ترقي العقول وتقضي على حكم الاستبداد، ومعظم كتبه ومحاضراته ومقالاته في مجلات مصر والشام وجرائدها تدور على هذا الغرض الشريف.

وأضاف محمد كرد علي قائلاً إن لرفيق بك شعرا جيداً جميلاً. «أما أخلاقه فما رأيت له نداً إلا ما ندر في رجالنا، يخدم للخدمة لا لغرض ولم يدخل قطّ في الشرور. وقد علم بتسامحه المحمود كيف تكون مكارم الأخلاق إذا جمعت إلى رقة العواطف والغيرة على القومية والوطنية، وقد عرضت عليه عدة أعمال في الحكومة العثمانية بعد الدستور فأبت نفسه قبولها».

وعرف من آل العظم أيضاً حقي بك بن عبدالقادر بك المؤيد الذي ولد في دمشق سنة ١٨٧٠. درس في الآستانة وبعد ذلك في الشام ومدرسة اليسوعيين في بيروت. وقد تولى وظائف مختلفة في سوريا والآستانة، ثم رحل إلى مصر حيث درّس اللغة التركية في مدرسة المعلّمين التوفيقية (١٨٩٤). ولما أعلن الدستور التركي سنة ١٩٠٨ استدعاه خليل حمادة باشا ناظر الأوقاف وعينه مفتشاً في نظارته. لكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر واشترك مع ابن عمه رفيق العظم في تأسيس جمعية الشورى العثمانية سنة ١٩١٢، فكان رئيس الجمعية رفيق بك وسكرتيرها العام حقي بك. واشترك الأخير في تحرير جريدة الشورى بالعربية والتركية، كما اشترك مع رفيق بك في نقل رواية الخادعين ورحلة الحبشة من التركية إلى اللغة العربية. وألف أيضاً كتباً باللغتين، منها: دفاع بلونة، وحرب اليونان سنة ١٨٩٧.

عاد حقي العظم إلى الشام بعد الحرب العامة الأولى، فعيّنته الحكومة الفرنسية المنتدبة رئيساً لمجلس الشورى السوري (أيلول ١٩٢٠). ثم أصبح رئيس دولة دمشق إلى سنة ١٩٢٢، فرئيس الوزراء من حزيران ١٩٣٢ إلى آذار ١٩٣٤.

وقد عاد إلى القاهرة سنة ١٩٣٨ وتوفي بها في كانون الثاني ١٩٥٥.

ومما يذكر أن أبا رفيق العظم محمود بك بن خليل بن أحمد بن عبدالله باشا العظم (١٨٣٦-١٨٧٥) نشأ في نعمة، لكن أضاع ثروته ومال إلى التصوف، وله مؤلفاته في الموضوع وديوان شعر مطبوع، وقد توفي وهو دون الأربعين.

يوسف بك العظمة

شهيد ميسلون يوسف بن إبراهيم بن عبدالرحمن العظمة ينتمي إلى أسرة شامية معروفة، وقد ولد في دمشق سنة ١٨٨٤. رحل إلى الآستانة وأتم دراسته في مدرستها الحربية وتخرج فيها سنة ١٩٠٦ برتبة يوزباشي أركان حرب. خدم في الجيش التركي في دمشق ولبنان والآستانة، وأوفد إلى ألمانيا لإتمام دراسته العسكرية فمكث فيها سنتين. وعاد إلى العاصمة التركية فعيّن كاتباً في مفوضيتها بمصر.

ونشبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ فعاد إلى الآستانة وعين ضابط ركن في الفرقة العشرين فالخامسة والعشرين، وشهد المواقع الحربية في بلغارية وغاليسية النمسوية ورومانيا. وعاد إلى الآستانة فرافق ناظر الحربية أنور باشا في رحلاته إلى الأناضول وسوريا والعراق. ثم ألحق بالجيش المرابط في القفقاس ونقل رئيساً لأركان حرب الجيش الأول بالآستانة. ولما وضعت الحرب أوزارها عاد إلى دمشق وعينه الأمير فيصل مرافقاً له فمعتمداً في بيروت فرئيس أركان الحرب برتبة قائمقام.

وأعلن الأمير فيصل ملكاً على سوريا وألف الوزارة هاشم الأتاسي في ٣ أيار ١٩٢٠، فاسندت وزارة الحربية إلى يوسف العظمة وقام بتنظيم الجيش. ثم أنذر الجنرال غورو فيصلاً بوجوب حلّ الجيش العربي وتسليم السكة الحديدية، فتردد الملك فيصل ووزراؤه بين الرضا والإباء، ثم اتفق أكثرهم على التسليم فأبرقوا إلى الجنرال الفرنسي بقبول شروطه. وانفضّ الجيش العربي متراجعاً، لكن الجيش الفرنسي تقدّم بحجة ورود برقية قبول الإنذار بعد مرور المدة المضروبة، وقدرها ٢٤ ساعة. وعاد فيصل يستنجد بالوطنيين السوريين لتأليف جيش أهلي للدفاع عن البلاد. وبادر يوسف العظمة على رأس المتطوعين إلى ساحة القتال والتقى بالجيش الفرنسي الزاحف في ميسلون فلم يكن في استطاعته صدّه. واستشهد في ذلك الموقع في ٢٤ تموز ١٩٢٠.

قال أحمد شوقي يرثي يوسف العظمة:

شهيد الحق في ثبج الصحاري   تخاف العاصفات له ذيالا

مقيم ما أقامت ميسلون ... يذكّر مصرع الأسد الشبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا ... تجرّ مطارف الظفر اختيالا
فكفّن بالصوارم والعوالي ... وغيّب حيث جال وحيث صالا

وذكره بعد ربع قرن الشاعر المصري علي محمود طه فقال:

هبّ الكميّ على النفير الصادح ... مهلاً، فديتك! ما الصباح بواضح
أي الملاحم بين أبطال الوغى ... فجأتك بالشوق الملحّ البارح
فقضيت ليلك لا هدوء ولا كرى ... ووثبت في غسق الظلام الجانح؟
هي صيحة الوطن الجريح وأمّة ... هانت على سيف المغير الطامح.
يا يوسف العظمات، غرسك لم يضع ... وجناه أخلد من نتاج قرائح
قم لحظة وانظر دمشق وقل لها: ... عاد الكميّ مع النفير الصادح

وقد قال علي محمود طه قصيدته تلك يحيّي دمشق المحررة في ديسمبر ١٩٤٦.

إبراهيم هنانو بك

الزعيم السوري المجاهد إبراهيم بن سيميان آغا هنانو ينتمي إلى أسرة حلبية قديمة كردية الأرومة، ولد في كفر حارم من أعمال حلب سنة ١٨٦٩. شدّ الرحال إلى استانبول العاصمة التركية ودرس في المدرسة الملكية الشاهانية وعيّن في وظائف الادارة مدير ناحية فقائم مقام. وعاد إلى بلدته سنة ١٩١٠ فانتخب عضواً في المجلس العمومي في حلب، لكنه لم يلبث أن عاد ليتولى شؤون زراعته.

دخل الجيش العربي إلى حلب في أعقاب الحرب العظمى (١٩١٨) فانتخب عضواً في المؤتمر السوري في دمشق. ثم احتل الفرنسيون مدينة أنطاكية فانتدبته الأحزاب الوطنية السرية لتأليف العصابات التي تشاغل قوات الدولة المنتدبة. وجعل مقره في حلب وسمّي رئيساً لديوان واليها، فصار يتردد بين دمشق وحلب. وانتصر الفرنسيون في موقعة ميسلون سنة ١٩٢٠ ودخلوا دمشق وسائر المدن السورية، فامتنع إبراهيم هنانو في بلاد بيلان شمالي حلب على رأس قوة من المتطوعين وأصاب نجاحاً في مقاومة الفرنسيين وألف حكومة وطنية ولقب بالمتوكل على الله. وكثرت جموعه واتسع نطاق نفوذه، كما قال خير الدين الزركلي في «أعلامه»، وخاض ٢٧ معركة لم يصب فيها بهزيمة، واستمر عاماً كاملاً ينفق مما يجبيه عماله في الجهات التي انبسط فيها سلطانه. وكاتب الأمير عبدالله بن الحسين في عمّان، ثم قصده للاتفاق معه على توحيد الخطط لتحرير سوريا، فلما كان على مقربة من حماة في جملة من فرسانه اعترضته قوة فرنسية كبيرة يعاونها بعض الإسماعيليين من السلمية فقاتلهم وأفلت منهم حتى بلغ شرقي الأردن.

لم يجد هنانو في عمّان ما كان يأمله فذهب إلى فلسطين. واعتقله البريطانيون وسلّموه إلى الفرنسيين الذين حاكموه في حلب وأفرجوا عنه على اعتبار أن ثورته كانت سياسية مشروعة. ومال بعد ذلك إلى العمل السياسي فاعترفت سوريا بزعامته، وكان منهاجه عدم الاعتراف بالانتداب الفرنسي والامتناع عن التعاون مع سلطات الانتداب.

وقد توفي في حلب في شهر تشرين الثاني ١٩٣٥. رثاه شفيق جبري بقصيدة طويلة بلغت ٦٧ بيتاً قال في مطلعها:

لمن النعش مائجاً بمصابه، زاحفاً بالحمى وزهو شبابه،
مشرفاً كالهدى يرفّ عليه وطن مشرف بعزّ رقابه؟

حتى يقول:

حلب والوفود في زحمة القبر هدى الحقّ في أجيج شهابه
معقل في حرابه اشتبك الروم، سل الروم عن حديد حرابه
علقت إبراهيم في نصرة الحقّ وحامت على هدى محرابه
لفّها الله موئلاً في يديه وتحامى الردى موالج بابه
سكب النور والهدى في جوانيها فماجب بنوره وانسكابه
همسة تلهب الربوع ويسجو لهب النار من هدير خطابه
كلّ أذن لصوته وصداه كلّ قلب لودّه وحُبابه...

وقال الشيخ فؤاد الخطيب في رثائه:

سل الفلك الدوّار ما للكواكب شواحب في الأبراج غير ثواقب؟

ورثاه بعض شعراء العراق ومنهم أنور شاؤول (١٩٠٤-١٩٨٤) الذي قال من قصيدة مطلعها:

نفحة قدسيّة قد هبطت من سماء المجد روحاً عبقريّا

حتى يقول:

صرخة كالرعد في قصفته يملأ الآفاق وقراً ودويّا
إنه العاصف في ثورته، إنه الهاتف: يا أبطال، هيّا..
سار فوق النار لا يخشى اللظى ومضى تحت الدواجي يتفيّا
غاية واحدة كانت له قِبلة تُرمَق صبحاً وعشيا
هي تحرير بلاد رزحت تحت نير يرهق الشهم الأبيّا..

وقد قال المؤرخ اللبناني يوسف إبراهيم يزبك أنه رأى بعينه أربع رسائل كتبها الزعيم السوفياتي لنين بخط يده ووجهها سنة ١٩١٩ إلى إبراهيم هنانو يدعوه فيها إلى التعاون مع حركات التحرر الوطنية في المنطقة والاعتماد على مساعدة الاتحاد السوفياتي في صراع العرب العادل ضد الاستعمار. وقد احتفظ هنانو بهذه الرسائل بعناية فائقة إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

الدكتور عبدالرحمن شهبندر

من رجال النهضة العربية الطبيب الخطيب عبدالرحمن بن صالح شهبندر، ولد في دمشق في ٦ تشرين الثاني ١٨٧٩. مات والده وعمره ٦ سنوات فكفلته أمه وأحسنت تربيته. وانتمى إلى الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٨٩٦ وواصل دراسة الطب فيها فتخرج طبيباً (١٩٠٦). واشتغل في التدريس حيناً، ثم عاد إلى دمشق سنة ١٩٠٧، ومال إلى السياسة، وانضمّ إلى حزب الاتحاد والترقي بعد صدور الدستور التركي. لكنه رأى أن الحزب يريد تتريك العناصر العربية فانفصل عنه وسافر إلى أوربة.

عاد إلى سوريا بعد إعلان الحرب العامة ولم يلبث أن غادرها بعد أمد قليل خوفاً من مضايقات الوالي جمال باشا، فرحل إلى العراق وزايله إلى مصر. أقام في القاهرة إلى سنة (١٩١٩) وعاد إلى الشام فعيّن وزيراً للخارجية في الحكومة الفيصلية (ايار ١٩٢٠). واحتلت فرنسا البلاد بعد واقعة ميسلون، ففرّ إلى مصر حيث قضى سنة واحدة وعاد إلى الشام (١٩٢١). وواصل مساعيه الوطنية فاعتقلته سلطات الانتداب وأقصته إلى جزيرة أرواد حيث قضى سنتين وبضعة أشهر. ولما أطلق سراحه رحل إلى أوروبة وأمريكة، ثم قفل راجعاً واشترك في تأليف حزب الشعب.

وقامت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ فاشترك فيها والتحق بمركزها في جبل الدروز، ثم ذهب إلى شرقي الأردن وبغداد وبعد ذلك إلى القاهرة (١٩٢٧). وانصرف إلى ممارسة الطب وكتب في جريدة «كوكب الشرق»، ولم يعد إلى دمشق إلا سنة ١٩٣٨. واغتيل فيها بينما كان في عيادته الطبية في ٦ تموز ١٩٤٠.

كتب مقالات في مجلتي الهلال والمقتطف. ووضع كتباً منها: السياسة الدولية (نقلة عن الإنجليزية، دمشق ١٩٢٥)، سلسلة السجون (ترجمه عن أحد الكتاب الفرنسيين- دمشق ١٩٢٥)، الرحلة العلمية (بيروت ١٩٣١)، الثورة السورية الوطنية (مذكرات له طبعت في دمشق، ١٩٣٣)، القضايا الاجتماعية الكبرى (القاهرة، ١٩٣٦).

زار الشهبندر بغداد سنة ١٩٢٦ فأقيمت له حفلة تكريم في الكاظمية، وأنشد

عبدالحسين الأزري أمامه قصيدة مطلعها:

حيّاك وادي الرافدين وما به ... من سهله وحزونه وشعابه..
فحباك في إكرامه ورآك من ... أحراره ودعاك من أقطابه
يا قادماً والعزم ملء فؤاده ... لمّا يهن والحزم حشو إهابه
ومجاهداً في الذب عن أوطانه ... ما حالت النكبات دون طلابه
طوراً تساوره الهموم فينثني ... للأفق يسأل ما وراء حجابه
وتصدّه الآمال عنها تارة ... في قومه فيحثّ سير ركابه

حتى يقول:

جسم العروبة لا ينام على قذى ... ما دام روح الثأر في جلبابه
والذود من عاداته والحلم من ... آدابه والعدل من أحسابه
فلذا نهضت وكنت أشجع ناهض ... يلقي على الأسماع فصل خطابه
لترد مفتتناً وتصلح فاسداً ... غراً وترشد مخطئاً لصوابه
وجمعت حولك كل حرّ ماجد ... والمرء في أخوانه وصحابه
حتى وثبت بهم وما لك حيلة ... كالليث راح مزمجراً في غابه

ورثى الشعراء الشهبندر فقال فؤاد الخطيب:

إيه دمشق، هنا الشهيد الأطهر ... وعليه بهم دمه القميص الأحمر
لك منه أعرق لحمة وبنوّة ... هو من عرفت فإنه الشهبندر
طوت المنيّة فيه ثورة أمّة ... ولواء مملكة ودنيا تزخر
وتعطّلت لغة وأقفر مجمع ... للعلم واحتجب الصباح المُسفِر..

سلطان الأطرش

سلطان باشا من آل الأطرش أمراء الدروز في أنحاء الجبل وحوران، وهو سلطان بن ذوقان بن مصطفى بن إسماعيل الأطرش ولد في القرية التابعة لمحافظة السويداء في ٦ تموز ١٨٩١ ونشأ في أحضان عشيرته. وقد حصلت اضطرابات في المنطقة الدرزية على أثر إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، فانتدبت الحكومة التركية القائد الموصلي المنبت الفريق سامي باشا العمري لتأديب المتمردين وإعادة الأمن إلى ربوع المنطقة. أعلن سامي باشا الأحكام العرفية ودعا رؤساء الدروز إلى دمشق وأمر بإعدام فريق منهم، وكان بينهم الشيخ ذوقان أبو سلطان (١٩١٠). لكن المقاومة الدرزية استمرت إلى السنة التالية.

تعلم سلطان في مدرسة القرية وتمرّس في الفروسية، واشترك مع والده في الانتقاض على الأتراك. ثم اشترك في ثورة الحجاز الكبرى التي أعلنها الشريف حسين في مكة سنة ١٩١٦ وقام ورجاله بقطع طرق المواصلات التركية. ودخل إلى دمشق في تشرين الأول ١٩١٨ إلى جانب جيش الأمير فيصل.

تتابعت الأحداث بعد ذلك، وشدّدت الدولة الفرنسية المنتدبة قبضتها على سوريا، فثار سلطان الأطرش سنة ١٩٢٢، وبعد ذلك في سنة ١٩٢٥، وحكم عليه الفرنسيون في كلتا المرتين بالإعدام غياباً.

رفع سلطان الأطرش علم الثورة في تموز ١٩٢٥. واستولى على صلخد وتغلّب على القوات الفرنسية التي أرسلت للقضاء على حركته. والتحق به جماعة من الوطنيين في مقدمتهم عبدالرحمن الشهبندر ونسيب البكري وعادل أرسلان ورشيد طليع، ولم يمض شهر واحد حتى بلغت الثورة مشارف دمشق. وقد أذاعوا النداء التالي:

«إلى السلاح، إلى السلاح، يا أحفاد العرب الأمجاد. هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم. هذا يوم انتباه الأمم والشعوب، فلننهض من رقادنا ولنبدّد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا.

«لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال. فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت القلم، ولا يضيع حقّ وراءه مطالب. . .».

وتضمن النداء مطالب هي: وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها والاعتراف بدولة سوريا عربية واحدة، وقيام حكومة شعبية، وسحب القوى المحتلة، وتأليف جيش ملّي، وتأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء.

نجح الفرنسيون في إقصاء الثوار عن دمشق، لكنهم عادوا إلى ضواحي العاصمة السورية في تشرين الأول ١٩٢٥. هاجت المدينة، فأقدم المعتمد السامي الجنرال سارّاي على قصف دمشق في ١٨ من الشهر المذكور بعد أن اعتصمت قواته بالقلعة وأرسل دباباته وطياراته تصلي الثوار ناراً حامية.

عاد الهدوء إلى دمشق بعد ثلاثة أيام هائلة، لكن الثورة استمرت ومدّت ألسنتها إلى جنوب لبنان وكادت تهدّد بيروت نفسها. ولم تر حكومة باريس بداً من استدعاء الجنرال ساراي وتعيين معتمد سام مدني هو هنري دي جوفنيل في تشرين الأول ١٩٢٥. غير أن الفرنسيين قصفوا دمشق مرة ثانية في نيسان ١٩٢٦. وقد صرف المعتمد السامي الجديد جهوده لتهدئة الحالة، فأعلن الجمهورية في لبنان برئاسة شارل دبّاس وأقام مجلساً نيابياً. وعيّن أحمد نامي بك رئيساً للحكومة السورية. وبقي جبل العلويين وجبل الدروز ثائرين في حالة حصار. ونفي الزعماء الوطنيون الذين عطفوا على الثورة، وفي طليعتهم هاشم الأتاسي، إلى جزيرة أرواد.

سقطت معاقل الثوار بيد الجيش الفرنسي واحداً بعد واحد. واضطر سلطان الأطرش وعادل أرسلان على اللجوء إلى منطقة اللجاة الوعرة في تموز ١٩٢٦، ومعهم جماعة من متطوّعي دروز الشوف. وثبت رجال الثورة هناك أكثر من سنة، لكن ضاقت بهم الحال وشحّت المعايش ونفدت الذخيرة، وذاقوا وأهل المنطقة الأمرّين من القصف الجوي المتواصل. وأخيراً قرر زعماء الثورة الخروج إلى نجد بعد أن توسط لهم شكري القوتلي لدى الملك عبدالعزيز آل سعود بالسماح لهم في دخول بلاده، ثم مضى سلطان الأطرش إلى شرقي الأردن لاجئاً إلى الأمير عبدالله، وعاد إلى سوريا سنة ١٩٣٧ عند صدور العفو العام.

كانت الثورة الدرزية في بداية أمرها حركة محلية فلم تلبث أن عظمت واتسعت لتصبح ثورة وطنية عارمة تتحدى الانتداب الفرنسي. وكان سلطان الأطرش قائد الثورة

العام دون منازع. ثم غدت العمليات العسكرية الثورية أشبه بحركات متقطعة وغير منتظمة يعوزها التخطيط والتنسيق. وقد استمرت إلى سنة ١٩٢٨، وسجلت فيها معارك عديدة في الكفر والمزرعة والمسيفرة والسويداء، وعري والمجيمر وساس الغوطة ودمشق والقلمون ووادي بردى وحماة ووادي التيم وإقليم لبلان.. وقذف الفرنسيون في المعارك أكثر من مائة ألف مقاتل، وبلغت خسارتهم نحو ٣٠ ألف مقاتل. أما خسائر الثوار في الأرواح فقدّرت بأكثر من أربعة آلاف شهيد.

وفي شباط ١٩٢٨ اختار الفرنسيون الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للوزارة السورية وعهدوا إليه انتخاب المجلس التأسيسي، فاجتمع في حزيران برئاسة هاشم الأتاسي ووضع لائحة دستورية للبلاد. وتداولت الأحداث بعد ذلك، ونشبت الحرب العالمية الثانية، وتم إقرار استقلال سوريا والجلاء النهائي عنها في ١٧ نيسان ١٩٤٦.

ومما يذكر أن سلطان الأطرش أيّد حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية في العراق في شهر ايار ١٩٤١. واعتزل الحياة العامة وأخلد في شيخوخته إلى السكينة حتى أدركته الوفاة في السويداء في ٢٥ آذار ١٩٨٢.

وضع سلطان الأطرش مذكرات نشرت متسلسلة في مجلة بيروت - المساء اعتباراً من كانون الأول ١٩٧٥.

خلّد أمير الشعراء أحمد شوقي الثورة السورية بقصيدته العصماء التي قال منها:

وللمستعمرين وإن ألانوا ... قلوب كالحجارة لا ترِقّ

رماك بطيشه ورمى فرنسا ... أخو حرب به صَلَفٌ وحمق

إذا ما جاءه طلّاب حقّ ... يقول: عصابة خرجوا وشقّوا

دم الثوّار تعرفه فرنسا ... وتعلم أنه نور وحقّ

ومنها:

وللأوطان في دم كلّ حرّ ... يدٌ سلفت ودين مستحقّ

ومن يسقى ويشرب بالمنايا ... إذا الأحرار لم يُسقوا ويَسقوا؟

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرّجة يُدَقّ...

ومجّد عبدالمحسن الكاظمي الثورة فقال:

سوريّة اضطجعت على ... أمل أقضّ المضجعا

هبّت فوارسها لتعترض ... العداة وتدفعا

«سلطان» لا يخشى الحتوف ... و«عادل» لن يفزعا..

وقال ظاهر القاسمي: «إذا كان الناس قد اختلفوا خلال الثورة وقبلها وبعدها حول زعامة الشهبندر.. فإنهم لم يختلفوا أبداً مدنيين وعسكريين في أن القائد العام للثورة السورية رجل واحد تمتع بهذا اللقب خلال الثورة وتمتع به بعدها خلال فترة الانتداب، ثم تفرّد به بعد الجلاء.. ولم يكن سلطان (الأطرش) واحدا من الضباط الذين تخرجوا من أية مدرسة عسكرية، وإنما كان رمزاً للحرب ضد الانتداب، تخرّج من مدرسة التمرّد على الظلم وإباء الضيم. ولكنه كان من أعمق الناس وطنيّة وأفهمهم لمطالب البلاد وأدركهم لحاجاتها، وأشدّهم تألماً لحرمانها من حقوقها... وقيام سلطان الأطرش بجميع الواجبات التي يفرضها لقب القيادة العامة، فلم يتخلّ عن قتال ولم يتخلّف عن معركة ولم يتردد في ورود المهالك. فلم يكن قائداً اسمياً، وإنما كان قائداً فعلياً يحذو حذوه المقودون ويتبعه المقاتلون».

هزّت الثورة السورية النفوس، وكان ممن تعاطفوا معها شاعر دير الزور محمّد الفراتي، ففصل من التدريس ولجأ إلى بغداد التي فتحت له صدرها وهيّأت له التعليم في مدارسها وجلت قريحته وأطلقت لسانه بالصرخات المدويات. قال من قصيدة يعاتب وزير المعارف السوري الذي فصله من عمله:

رضيت لنفسي بالخمول ولم تكن	لتبرأ من قيل الوشاة جروحي
سأهدي لك الشكر الذي أنت أهله	لأنك من هذا الشقاء مريحي
أمرت بعزلي لا لذنب جنيته،	فهل أنت عن دار الخلود مزيحي؟

حتى يقول:

أبى لي إبائي أن أعنّف أمتي	ولست أراها تستحق مديحي
محضت لها نصحي فلم ترتشد به	لكبح عدوّ في الخداع جموح
وصرّحت عن رأيي بكل ملمّة	وما خير رأي لم يكن بصريح؟
لئن ضاق بي صدر العواصم للذي	عراني فصدر الأرض جدّ فسيح...

وقال يحنّ إلى دمشق:

شاءت همومي أن تكون ثقالا	وأراد ليلي أن يطول فطالا
أدمشق والذكرى إليك تهزّني	هزاً يفكك مني الأوصالا
أدمشق والآلام تعقد مقولي	إن رمت نطقاً أو أردت جدالا
أأقيم في دار السلام وصحبتي	بالشام تلقى في الحروب نكالا؟
نفسي تنازعني ولست بمالك	بالكرخ إلا دمعي الهطّالا..

لا تسألني عن دمشق فإنما دكّت دمشق وزلزلت زلزالا
وبها القصور البيض اقفر ربعها بعد الأنيس فأصبحت أطلالا
وغدت كما شاء العدوّ، كتدمر تسفي عليها الساقيات رمالا
وخَلَتْ ملاعب دُمّر من غيدها ولتلك كانت روضة محلالا
فلربّما بكت المنازل أهلها بعد الفراق واعولت إعوالا
ولربّما نطقت بأفصح مقول ولربّما ضربت لك الأمثالا...

وقال محمد مهدي الجواهري يحيّي الثورة السورية:

ثوري، دمشق، فإنّما نيل الأماني في الطّلاب
وخذي الوفاق فإنما عقبى الخلاف إلى تباب..
سوريّة أم الضراغم أصبحت مرعى الذئاب...

وقال فيها أيضاً:

ثباتاً، يا دمشق على الرزايا، وتوطيناً وإن ضاق الخناق
وفوزاً بالسّباق وليس أمراً غريباً أن يكون لك السبّاق
أذنباً تحسبون على البرايا إذا ما ضويقوا يوماً فضاقوا؟
بعين الله ما لقيت شعوب لحدّ السيف مكرهة تُساق
أباب الله يفتح للبرايا وعن هذي البلاد به انغلاق؟

وأقيمت في بغداد سنة ١٩٢٦ حفلة لجمع الإعانات لمنكوبي سوريا، فأنشد معروف الرصافي قصيدته «دمشق تندب أهلها»:

بكت في ظلام الليل تندب أهلها بصوت له الصخر الأصمّ يلين
وباتت وقد جلّ المصاب حزينة لها في ضواحي الغوطتين أنين

حتى يقول:

أنا البلدة الثكلى دمشق ابنة العلى أما أنت في مغنى دمشق قطين؟
ألم تَرَ أبنائي يُساقون للردى فمنهم قتيل بالظّبا وسجين
فأين أباة الضيم من آل يَعرب ألم يأت منهم ناصر ومعين؟
فقلت لها: لبّيك، يا أمّ، إنهم سيأتيك منهم بارز وكمين..

حيّا خليل مردم بك شهداء ثورة ١٩٢٥ فقال من قصيدة:

بأبي وأمّي الباذلين نفوسهم من كل ثبت في الخطوب جنانه
أفديهم بدمي مقلّ لهم دمي لكنه لجميلهم عرفانه..

وقال خير الدين الزركلي:

الله للحدثان كيف تكيد بردى يغيض وقاسيون يميد
وفواجع الملوين ما لجماحها كبح ولا لجراحها تضميد
هل في الشآم وأهله من نابس والنائبات لها عليه وفود؟

وأشاد معروف الرصافي بثورة الدروز فقال من قصيدة له وجهها إلى الأمير عادل أرسلان:

لله درّ بني معروف اذ صبرو على التجالد ما كلّوا ولا سئموا
أخلوا منازلهم للكرّ ثانية كالأسد ترتدّ خلفاً ثم تقتحم
ولازموا الفقر عاشوا في مجاهله عيش القناعة لا حلو ولا دسم
باتت دمشق لهم ترنو نواظرها كما رنا للطبيب المدنف السَّقِمُ
أيام لم يبق من بيت بغوطتها إلا ذكت فيه نار أو أريق دم
فاستقتلوا في سبيل الذود عن وطن هِيئَت لهم من قديم عندهم ذمم..

الثورة السورية (١٩٢٥)

جاء في التقارير السرية لوزارة الخارجية البريطانية في كانون الأول ١٩٢٥ أن عبدالعزيز آل سعود الذي كان يحارب للاستيلاء على الحجاز أخبر المعتمد البريطاني في جدة أن لديه معلومات سرية من مصدر موثوق به مآلها أن الحكومة السوفياتية تجهز الثوار السوريين في جبل الدروز بمبالغ جسيمة يقبلها الثوار بسرور، ولو أنهم ليسوا شيوعيين. وقال إنه بلغه أن هناك منظمة سوفياتية تعمل في دمشق متصلة بالقنصلية الإيرانية العامة. وقال سلطان نجد إنه تلقى نداءات من الثوار السوريين طالبين المساعدة ضد فرنسا، لكنه يتبع السياسة البريطانية ويمتنع عن إمدادهم بالعون ولا يرغب في التدخل في الأمر.

ثورة الدروز

من المجاهدين السوريين الذين أبلوا بلاءً حسناً في الثورة السورية واستشهدوا فيها نذكر:

فؤاد سليم

وهو فؤاد بك بن يوسف بن حسن سليم ولد في قرية من قرى الشوف بلبنان سنة

١٨٩٣، ودرس في جامعة بيروت الأمريكية، وكان معلماً في المدرسة العباسية. ولما نشبت الثورة العربية في مكة سنة ١٩١٦ التحق بها وشهد معاركها ودخل دمشق ضابطاً في الجيش العربي. وقاتل الفرنسيين في معركة ميسلون سنة ١٩٢٠، فلما هزم الجيش السوري فرّ الى شرقي الأردن واشترك في تنظيم جيشها. ثم مضى إلى مصر، حتى إذا ما نشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ خرج من مصر واجتاز صحراء سيناء على ظهر جمل وعبر نهر الشريعة سباحة. ونظّم الثورة في حاصبيّا ومرجعيون والبلان وقتل في مجدل شمس بقنبلة رماها الفرنسيون وهم ينسحبون من المنطقة سنة ١٩٢٥.

احمد مُرَيْود

أحمد بن موسى بن حيدر مريود أصله من شيوخ بادية البلقاء في الأردن، نزح جده مريود عنها بعد نزاع مع بعض قبائلها وحل في جبّاتة الخشب من قرى القنيطرة من أعمال دمشق. ولد أحمد في تلك القرية سنة ١٨٨٧ ودرس في دمشق، وأنشأ في القنيطرة جريدة أسبوعية اسمها «الجولان» قبل الحرب العامة الأولى.

عرف من ذلك الحين بميوله العربية، وقام بمساعدة الفارين من الحكم العثماني خلال الحرب للالتحاق بثورة الشريف حسين في الحجاز. وتولى تهريب الحبوب إلى القرى اللبنانية القريبة لتخفيف وطأة الجوع فيها.

ولما سيطر الفرنسيون على سوريا سنة ١٩٢٠ قام بمناوأتهم، ثم فرّ من وجههم إلى شرقي الأردن واشترك في إنشاء حكومتها. واضطر الأمير عبدالله إلى إبعاده وأعوانه إلى الحجاز تلافياً لحركاته ضد الفرنسيين في سوريا. ورحل أحمد مريود بعد ذلك إلى العراق وأقام في خانقين، حتى إذا ما قامت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ذهب إلى وادي التيم والجولان ونشّط حركة الثورة في تلك المنطقة. ودفع الفرنسيون بعض الجراكسة من سكان الإقليم إلى مقاتلته فقتل في داره بجبّاتة الخشب سنة ١٩٢٦ وحملت جثته إلى دمشق حيث ووريت التراب.

حسن بن محمد الخراط

أبلى حسن الخراط بلاءً حسناً في ثورة الدروز. ولد في دمشق سنة ١٨٦١ ونشأ فقيراً أمياً وتولى حراسة بعض المزارع، ثم أصبح خفيراً ليلياً. ولما نشبت الثورة سنة ١٩٢٥ ساعد فوزي البكري على الالتحاق بالثوار في جبل الدروز، فطلبه الفرنسيون وأحرقوا داره بعد أن لاذ بالفرار. أظهر في معارك الثورة جرأة عجيبة، فدار اسمه على

كل لسان - كما قال أحمد قدامة في كتابه «معالم وأعلام» - وأوقع الرعب في قلوب الفرنسيين. وجرح في المعارك واستشهد في معركة حامية نشبت في بستان الذهبي بدمشق في ٢١ كانون الأول ١٩٢٥. وكتب عنه الزعيم الدكتور عبدالرحمن شهبندر في مذكراته منوّهاً ببطولته. وقال إن أميّته لم تفسد غريزته الطبيعية، وقد حفزته وطنيّته الصحيحة على الالتحاق بالثورة. واشتهر عنه أنه لم يقعد وراء متراس ولا احتمى بشجرة. وكان يمتاز بالتنظيم الحسن والقيادة فكانت عصابته مترابطة خاضعة لأمره.

صالح قنباز

من شهداء الثورة السورية سنة ١٩٢٥ صالح بن محمود قنباز ولد سنة ١٨٨٥ في حماة ودرس في سوريا والآستانة وأوربة وتخرج طبيباً وعمل لاستقلال العرب ووحدتهم. نفاه الترك في الحرب العامة إلى اسكيشهر وعاد إلى حماة ومارس الطب وأنشأ مدرسة «دار العلم والتربية» وتسلم إدارتها.

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق والجمعية الآسيوية في باريس. نظم الشعر وأناشيد وطنية. له كتاب في الفرائض وكتب مدرسية. وكان فقيهاً في الشرع الإسلامي وداعية إصلاح في الدين والتربية. رماه جندي فرنسي يوم ثارت حماة سنة ١٩٢٥ فخرّ صريعاً.

توفيق الحلبي

ولد سنة ١٨٨٧ في دمشق. التحق بالثورة العربية في الحجاز سنة ١٩١٦ وخدم مع الأمير فيصل إلى نهاية الحرب، ثم اشترك في الثورة السورية واستشهد فيها سنة ١٩٢٦.

خالد الخطيب

الطبيب خالد بن محمد الخطيب ولد في حماة سنة ١٩٠٠ ودرس الطب في دمشق. ناوأ الاستعمار الفرنسي فأبعد إلى جزيرة أرواد وأمضى في سجنها ١٨ شهراً. ثم لحق بالثورة السورية سنة ١٩٢٥، وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام، ففرّ إلى مصر والحجاز وفلسطين، وانتهى به المطاف إلى عمّان في شرقي الأردن حيث توفّي سنة ١٩٣٣.

قال خير الدين الزركلي في «أعلامه» إنه وضع أناشيد حماسية ومنظومات حسنة جمعت في ديوان مطبوع. وكان أبيّ النفس فيه أريحية وفتوّة.

رشيد طليع

رشيد بك بن علي بك بن حسن بن ناصيف آل طليع من رجال الإدارة والجهاد القومي، ولد في قرية شوفية لبنانية سنة ١٨٧٧ ودرس في بيروت والمدرسة الملكية في الآستانة، وتخرج سنة ١٩٠٠. عيّن في حاشية والي الشام فقائم مقام قضاء (١٩٠٤). وانتخب نائباً عن حوران في مجلس النواب العثماني سنة ١٩١٢ ونقل في السنة التالية متصرفاً للواء حوران فطرابلس الشام فاللاذقية. وكان في الحكومة الفيصلية حاكماً عسكرياً في حماة فوزير الداخلية بالنيابة فوالي حلب.

ولما استولى الفرنسيون على سوريا حكموا بإعدامه غياباً فتوارى في بعض جهات حوران. ثم مضى إلى عمان بدعوة من أمير شرقي الأردن عبدالله بن الحسين، وعهد إليه بتأليف حكومتها الأولى (١٩٢٢). واختلف مع الأمير فاستقال وانتقل إلى مصر. ونشبت الثورة في سوريا سنة ١٩٢٥ فقصدها وانضمّ إلى المجاهدين. وامتدت الثورة إلى دمشق وحماة وغيرهما، فعمل على تنظيمها وكان مريضاً، كما قال خير الدين الزركلي في «أعلامه» - فأهمل نفسه وأجهدها فعاجلته الوفاة سنة ١٩٢٦ ودفن في جبل الدروز. وكانت أسرته من أسر الدروز القديمة في جبل لبنان انحصرت فيها الزعامة الدينية للطائفة.

فوزي البكري

فوزي بن عطا الله باشا البكري ولد في دمشق سنة ١٨٨٦ ودرس فيها. ساهم في الحركات الوطنية وعمل مع الأمير فيصل. كان وزير الداخلية في حكومة الحجاز العربية ونائب دمشق في المؤتمر السوري (١٩١٩). وقد انضمّ إلى الثورة في جبل الدروز سنة ١٩٢٥، ثم ناب عن دمشق في الجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨. منحه الملك عبدالله ملك الأردن لقب الباشوية.

محمد نسيب البكري

ابن عطالله باشا وأخو فوزي البكري. ولد في دمشق سنة ١٨٨٨ وتخرج في المدرسة السلطانية في بيروت (١٩١٢). انتمى إلى جمعية الفتاة العربية ورحل مع الشريف فيصل إلى الحجاز قبيل إعلان الثورة سنة ١٩١٦ وعمل مستشاراً له حتى خروجه من سوريا سنة ١٩٢٠. وقد اشترك في ثورة الدروز سنة ١٩٢٥، وانتخب بعد ذلك نائباً عن دمشق في مجلس ١٩٣٢. واتهم بمناوأة الفرنسيين سنة ١٩٣٦ فسجنوه في

قلعة دمشق ونفوه إلى إعزاز.

وانتخب في تلك السنة نائباً عن دمشق وأعيد انتخابه سنة ١٩٤٣ و ١٩٤٧، وكان محافظاً للسويداء (١٩٣٧) فوزيراً للعدل (١٩٣٩) ووزير الاقتصاد والزراعة (١٩٤١). وقد شارك في تأليف حزب الشعب واختير نائباً لرئيسه سنة ١٩٤٩. وزير سوريا المفوّض في عمان (١٩٥٦). وتولى رئاسة رابطة المجاهدين إلى وفاته في دمشق في تشرين الأول ١٩٦٦.

هاشم بك الأتاسي

هو محمد هاشم بن محمد خالد بن محمد بن عبدالستار الأتاسي كان أبوه الشيخ خالد مفتي حمص ونائبها في مجلس المبعوثين سنة ١٨٧٦، وقد خلفه في الافتاء ولده طاهر (١٨٦٠ - ١٩٤٠) الذي درس بمدرسة القضاء الشرعي في الآستانة وولي القضاء في حوران (١٨٨٩) ثم في نابلس والكرك ودنزلي وأطنة والبصرة. وعاد إلى حمص سنة ١٩١٣ فكان مفتيها إلى حين وفاته.

ولد هاشم في حمص سنة ١٨٦٥، على أصحّ الأقوال. ودرس في بيروت ثم مضى إلى الآستانة وانتمى إلى المكتب الملكي الشاهاني، وهو كلية للعلوم السياسية والإدارية، فتخرّج فيه سنة ١٨٩٣.

عين في السنة التالية في دائرة معارف بيروت، ثم نقل إلى سلك الإدارة فكان قائم مقام قضاء مركب (١٨٩٧) فقضاء صهيون (١٨٩٨). وتنقل بعد ذلك في قضاء مركب ثانية (١٨٩٩) فصفد (١٩٠٢) فصور (١٩٠٣) فالسّلط (١٩٠٤) فعجلون (١٩٠٥) فجبيل (١٩٠٨) فبعلبك (١٩٠٩) فحاجم (١٩١٠) فيافا (١٩١١). ورفّع سنة ١٩١٢ متصرفاً للواء حماة.

وانتهت الحرب العظمى فعاد إلى دمشق، وانتخب عضواً في المؤتمر السوري (١٩١٩). وأصبح رئيساً للوزراء ووزير الداخلية في العهد الفيصلي (٣ أيار ١٩٢٠). وتخلّى بعد ذلك عن وزارة الداخلية لعلاء الدين الدّروبي، ثم استقال في ٢٥ تموز ١٩٢٠ في أثناء الأزمة مع الحكومة الفرنسية وارتحال الملك فيصل عن الشام.

واعتقلته السلطات الفرنسية سنة ١٩٢٦ في أعقاب الثورة السورية ونفته إلى جزيرة أرواد حيث قضى نحو شهرين. وافتتح المجلس التأسيسي في ٩ حزيران ١٩٢٨ فانتخب هاشم الأتاسي لرئاسته حتى تأجيله في ٧ شباط ١٩٢٩. وواصل الأتاسي نضاله الوطني فتولى رئاسة الكتلة الوطنية (١٩٣٢)، ثم رئس الوفد السوري المفاوض في باريس سنة ١٩٣٦.

وأسفرت المفاوضات عن عقد المعاهدة مع الدولة المنتدبة، فعاد إلى دمشق وانتخب رئيساً للجمهورية السورية في ٢١ كانون الأول ١٩٣٦ خلفاً للرئيس السابق محمد علي بك العابد. وتتابعت الوزارات برئاسة جميل مردم ولطفي الحفار ونصوحي البخاري، ثم تبدّلت السياسة الفرنسية في سوريا إشفاقاً من قيام الحرب، فاستقال الأتاسي من رئاسة الجمهورية في ٧ تموز ١٩٣٩ وأوقف الدستور وحلّ المجلس وعهد بالحكم في ظل الانتداب إلى مجلس مديرين.

مرّت الأعوام والأتاسي مخلد إلى الراحة، وزعزعت الدولة انقلابات حسني الزعيم وسامي الحناوي. ودعي الأتاسي إلى تأليف وزارة مدنية في ١٥ آب ١٩٤٩، ثم اجتمع المجلس التأسيسي الجديد في ١٢ كانون الأول ١٩٤٩ وانتخب الأتاسي رئيساً للدولة في ١٤ منه. ونحّي الحناوي عن رئاسة الأركان العامة بعد خمسة أيام، فتولى السيطرة العسكرية العقيد أديب الشيشكلي وألف الوزارة خالد العظم ثم خلفه الدكتور ناظم القدسي. وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية في ٥ أيلول ١٩٥٠، لكن الحياة السياسية بقيت يسودها الاضطراب خلال وزارات خالد العظم وحسن الحكيم والدكتور معروف الدواليبي. وحلّ المجلس في ٢ كانون الأول ١٩٥١ واستقال الأتاسي من رئاسة الجمهورية في اليوم نفسه، فتولى الزعيم فوزي سلو رئاسة الدولة تحت سيطرة الشيشكلي.

بلغ الأتاسي من العمر عتياً، لكنه ظلّ رجل الدولة الذي يحترمه الجميع. فلما انهار حكم العقيد الشيشكلي دعي إلى تولي رئاسة الجمهورية للمرة الثالثة في ٢٨ شباط ١٩٥٤ إلى ٥ أيلول ١٩٥٥. وعاد إلى حمص مسقط رأسه فتوفي بها في ٦ كانون الأول ١٩٦٠.

كان رجلاً معتدلاً وقوراً نقي السيرة ترجع إليه الأمة السورية في الملمّات فيهيّىء لها الزعامة الديمقراطية الحرة على الرغم من شيخوخته.

رثاه عند وفاته شاعر الشام شفيق جبري بقصيدته «رمز النضال» فقال:

خَلَتِ الديار فلست تبصر هاشماً	فوق الديار بخلقه الفيّاح
رمز النضال على شباب زمانها	وصدى النفاح وراء كل نفاح
يزجي المواكب تحت ظلّ لوائه	فتموج ريّا من دم وأضاح
حمل الكفاح على الحمى ومشى به	مشي الأمين أمام كلّ كفاح
ووراءه ماض يرفّ ضياؤه	ملء العيون ولا رفيف أقاح

وكأنه جبل تحوط ظلاله ... تاريخ قوم في الجهاد سِماح
لم يشتر الدنيا ببيع ضميره ... إن باعه في الناس كل شحاح
فيه انطوى تاريخنا وتدفّقت ... بين السطور بلاغة الإفصاح..

جميل مردم بك

ينتمي إلى أسرة دمشقية قديمة اشتهر منها في العهد العثماني راشد باشا آل مردم بك. وقد ولد جميل بن عبدالقادر في دمشق سنة ١٨٩٥ ودرس الحقوق في باريس (١٩١١) وحضر المؤتمر العربي المعقود فيها في حزيران ١٩١٣. وظلّ في فرنسا مدة الحرب، فلما جاء الأمير فيصل إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح اتصل به وعاد معه في الباخرة إلى دمشق وعيّن مستشاراً لوزارة الخارجية الفيصلية على عهد وزيرها الدكتور عبدالرحمن الشهبندر سنة ١٩٢٠. ثم أخذ يناضل في سبيل استقلال سوريا على عهد الانتداب الفرنسي. واشترك وزيراً في وزارة حقي بك العظم (حزيران ١٩٣٢)، لكنه استقال في نيسان ١٩٣٣. ثم كان أحد المفاوضين لعقد المعاهدة مع فرنسا برئاسة هاشم بك الأتاسي. وصدر الدستور الجديد فأصبح رئيساً للوزراء ووزير الاقتصاد في كانون الأول ١٩٣٦، واستمرت وزارته إلى شباط ١٩٣٩. ولجأ إلى العراق سنة ١٩٤٠/١٩٤١ مع سعدالله الجابري. وكان بعد ذلك وزير الخارجية في وزارة سعد الله الجابري (آب ١٩٤٣). فوزير الخارجية والدفاع والاقتصاد في وزارة فارس الخوري (تشرين الأول ١٩٤٤) فوزير الخارجية والدفاع في وزارة الخوري الثانية (نيسان ١٩٤٥) إلى آب ١٩٤٥. وتقلد رئاسة الوزراء للمرة الثانية في ٢٩ كانون الأول ١٩٤٦ إلى ٢ كانون الأول ١٩٤٨.

واستقرّ بعد ذلك في القاهرة فتوفّي بها في ٢٨ آذار ١٩٦٠.

شكري القوتلي

الزعيم السوري شكري بن محمود بن عبدالغني القوتلي ولد في دمشق سنة ١٨٩١ وأتم فيها دراسته الإعدادية. ثم شدّ الرحال إلى استانبول وانتمى إلى الكلية الملكية الشاهانية فتخرّج فيها سنة ١٩١٣.

ناضل في سبيل استقلال بلاده في العهد التركي فاعتقله الأتراك لنشاطه السياسي في أواخر الحرب العظمى. ثم طلبه الفرنسيون بعد احتلالهم سورية سنة ١٩٢٠، لكنه مضى الى مصر وأوربة وأقام في القاهرة وحيفا. ثم عاد إلى الشام سنة ١٩٢٥ للاشتراك في الثورة السورية. وسافر بعد ذلك إلى مصر (١٩٢٧) حيث بقي ٣ سنوات وآب إلى دمشق (١٩٣٠). وزار العراق وشارك في بعض المشاريع الاقتصادية، ثم اشترك مع هاشم الأتاسي وجميل مردم وإخوانهما في مفاوضة الدولة الفرنسية المنتدبة، تلك المفاوضات التي أسفرت عن عقد معاهدة ١٩٣٦، وانتخب نائباً في المجلس النيابي. وفي كانون الأول ١٩٣٦ انتخب الأتاسي رئيساً للجمهورية، وألف الوزارة جميل مردم فدخلها القوتلي وزيراً للمالية والدفاع. لكنه استقال من هاتين الوزارتين في ٢٢ آذار ١٩٣٨. وانتخب نائباً لرئيس مجلس النواب. ونشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ فعطل الفرنسيون الدستور السوري.

عاد القوتلي إلى النضال الوطني. ولما أعيدت الحياة الدستورية إلى البلاد أصبح القوتلي رئيساً للجمهورية (١٧ آب ١٩٤٣). وتم جلاء القوات الفرنسية عن سوريا في نيسان ١٩٤٦. وأعيد انتخاب القوتلي للرئاسة في ١٨ نيسان ١٩٤٨، لكنه اضطر إلى ترك منصبه ومغادرة الشام إلى الاسكندرية على أثر الانقلاب الذي قام به حسني الزعيم رئيس أركان الجيش في ٣٠ آذار ١٩٤٩.

وقد عاد إلى دمشق في آب ١٩٥٤، فأعيد انتخابه لرئاسة الجمهورية في ١٨ آب ١٩٥٥ وتسلم منصبه من هاشم الأتاسي في ٦ أيلول. ومهّد بعد ذلك لانضمام سوريا إلى مصر، فأعلن الرئيس المصري جمال عبدالناصر قيام الجمهورية العربية المتحدة في

أول شباط ١٩٥٨. فاعتزل القوتلي الرئاسة ودعاه عبدالناصر «المواطن الأول».

وتوفي في بيروت في ٣٠ حزيران ١٩٦٧. له مجموعة خطب ومذكرات لم تنشر.

قال شاعر الشام شفيق جبري في حفلة تكريم القوتلي في ٢١ شباط ١٩٥٨ عند إقرار الوحدة بين سوريا ومصر:

سيّد الشام، قد ثنيت عن الشام ... بلاءً ما كان قبلك يُثْنَى

أثقل الغلّ عنقها ففككت الـ ... غلّ عنها وقد أمضّ وأغنى

فمشت حرّة الخطا تخطف الريح ... فطارت إلى النجوم وطرنا

فكأن الملوك من آل مروان ... تخطّت أكفانها والدّجنّا

وجرت في هياكل العظم تطوي ... ما تناءى من الفلا وتدنّى...

يا ابن صبر الكرام، لو كان للصبر ... لسان يثني عليك لأثنى

خضت هول الفلا وجنح الليالي ... واقتحمت الأهوال حضناً فحضنا

وانثنى الهول والليالي وما ضعت ... فؤاداً بها ولا ضقت ذهنا

قد رددنا الأمور بطناً وظهراً ... وقلبنا الأمور ظهراً وبطنا

فوجدناك للزعامة أهلاً ... ووجدناك للشدائد حصنا

بايعتك القلوب بيعة صدق ... لا ترى في القلوب غشاً ودهناً...

فارس الخوري

فارس بن يعقوب بن جبّور بن يعقوب بن إبراهيم الخوري ولد في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٧٣ في كفير حاصبيّا، وكان تابعاً آنذاك لولاية سوريا. درس في مدرسة صيدا (١٨٨٧ - ١٨٩٠) وعيّن في السنة الأخيرة معلماً في زحلة. ثم انتمى إلى الجامعة الأمريكية في بيروت وحصل على شهادة بكالوريوس علوم سنة ١٨٩٧. وانتدب للتدريس في قسمها الاستعدادي، ثم مضى إلى دمشق سنة ١٨٩٩ وأقام فيها، فكان مدرساً وترجماناً في القنصلية الإنجليزية. وانتهز الفرصة السانحة فدرس الحقوق على نفسه.

انتخب نائباً في مجلس المبعوثين العثماني عن سنجق دمشق سنة ١٩١٤، فمضى إلى استانبول وعاد إلى دمشق في عطلة المجلس سنة ١٩١٦. واتهمه الوالي جمال باشا بالتآمر على الدولة، فاعتقل وبرئت ساحته (١٩١٧). ثم عاد إلى استانبول لحضور جلسات المجلس النيابي، وقفل راجعاً إلى الشام في أيلول ١٩١٨. وقد تابع دراسة الحقوق في العاصمة التركية، لكنه عاد واعتقل قبل أن يظفر بالشهادة.

في أول تشرين الأول ١٩١٨ دخل الجيش العربي دمشق، وعلى رأسه الأمير فيصل، مع جيوش الحلفاء. وألفت حكومة عسكرية برئاسة الفريق علي رضا باشا الركابي استمرت إلى ٤ آب ١٩١٩، حين ألف الأمير فيصل برئاسته (ثم برئاسة نائبه الأمير زيد) حكومة مجلس المديرين، ودامت إلى إعلان ملكية فيصل في ٨ آذار ١٩٢٠. وسعى فارس الخوري في تأسيس معهد الحقوق العربي بدمشق سنة ١٩١٩ وكان أحد أساتذته، وعيّن في الوقت نفسه عضواً بمجلس الشورى. وأسس المجمع العلمي العربي في ٣٠ تموز ١٩١٩، وكان في مقدمة الأعضاء المؤسسين محمد كرد علي وفارس الخوري وعبدالقادر المغربي.

ألف علي رضا الركابي الوزارة الجديدة في ٨ آذار ١٩٢٠ وكان الخوري فيها وزير المالية. واحتفظ بهذه الوزارة في وزارة هاشم الأتاسي التي تلتها (٣ أيار ١٩٢٠) ووزارة

علاء الدين الدروبي (٢٥ تموز ١٩٢٠). وتتابعت الأحداث بعد معركة ميسلون، فغادر الملك فيصل سوريا، لكن الوزارة بقيت في ظل الدولة الفرنسية المنتدبة. واغتيل الدروبي في ٣١ آب ١٩٢٠ فألف الوزارة جميل الألشي، ولم يشترك فيها الخوري. وقد بقي فارس الخوري استاذاً في معهد الحقوق ٢١ سنة إلى سنة ١٩٤٠ مع فترة انقطاع قصيرة سنة ١٩٣٦، وجمع محاضراته في كتبه «علم المالية» و«أصول المحاكمات الحقوقية» و«صك الجزاء».

وأنشئ في ٢٩ حزيران ١٩٢٢ الاتحاد السوري برئاسة صبحي بركات الخالدي، وكان الخوري أحد نواب دمشق في مجلس الاتحاد. وألغي الاتحاد في نهاية ١٩٢٤. وكان فارس الخوري نقيب المحامين من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٦. واعتقل في أعقاب الثورة السورية (آب ١٩٢٥) وأبعد إلى جزيرة أرواد حيث قضى نحو شهرين ونصف سمح له بعدها بالشخوص إلى بيروت. وأصبح وزيراً للمعارف في ٤ أيار ١٩٢٦، لكنه استقال في ١٢ حزيران التالي. وظل مبعداً في الحسكة ٨٠ يوماً ونقل في أيلول ١٩٢٦ إلى محل آخر، ثم سمح له بالمضيّ إلى لبنان، فلم يعد إلى الشام إلا في شباط ١٩٢٨.

انتخب نائباً عن دمشق في المجلس الذي اجتمع في ٢١ كانون الأول ١٩٣٦ وانتخبه رئيساً له. وأوقف الدستور وحلّ المجلس في ٨ تموز ١٩٣٩. ولما عادت الحياة الدستورية انتخب مجلس جديد كان فارس الخوري فيه نائباً عن دمشق واختير رئيساً له في ١٧ آب ١٩٤٣. وألف الوزارة في ١٤ تشرين الأول ١٩٤٤ وتولى وزارتي الداخلية والمعارف مع الرئاسة. وأعاد تأليف وزارته في ٦ نيسان ١٩٤٥ ثم في ٢٦ آب ١٩٤٥. واستقال في ٣٠ أيلول من تلك السنة، وأعيد انتخابه رئيساً لمجلس النواب في ٢٤ تشرين الثاني إلى أول نيسان ١٩٤٩.

تولى رئاسة الوفد السوري إلى هيئة الأمم المتحدة منذ ١٩٤٥ إلى آخر سنة ١٩٤٨، ورئس مجلس الأمن مرتين. وكان في هيئة الأمم اللسان الناطق لبلاده والبلاد العربية جميعاً دافع عن قضاياها، ولا سيما قضية فلسطين، بما عرف عنه من فصاحة وقوة عارضة ومتانة حجة ونشاط لا يعرف الكلل ولا الملل. وفي ٣٠ آذار ١٩٤٩ حدث انقلاب حسني الزعيم. وتوالت الانتفاضات، فانتقلت السلطة إلى سامي الحنّاوي وأديب الشيشكلي. وتنحى الشيشكلي في شباط ١٩٥٤ وعاد مجلس النواب السابق إلى الاجتماع. وجاء فارس الخوري مرة أخرى إلى رئاسة الوزراء في حزيران ١٩٥٤ إلى شباط ١٩٥٥.

وللخوري شعر جيّد، وقد منح جائزة العلوم الاجتماعية في مهرجان العلم للجمهورية العربية المتحدة في كانون الأول ١٩٦٠، وتوفي في دمشق في ٢ كانون الثاني ١٩٦٢.

من شعر فارس الخوري قال في سقوط عبدالحميد سلطان تركية:

الله أكبر فالظلام قد علموا لأي منقلب يفضي الألى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت أركانه وتولّت أهله النقم

رياض الصلح

ولد في صيدا سنة ١٨٩٣، وهو رياض بن رضا بك بن أحمد باشا بن محمد الصلح. وكان أبوه رضا الصلح وزير الداخلية السورية أمداً قصيراً في عهد الملك فيصل (آذار ١٩٢٠). درس رياض في كلية القديس يوسف في بيروت، ثم مضى إلى الآستانة وانتمى إلى مدرسة الحقوق وكان من أعضاء المنتدى الأدبي فيها.

جنّد في أثناء الحرب العظمى في الجيش التركي، لكن ديوان الحرب العرفي في عاليه حكم عليه وعلى والده بالنفي إلى الأناضول لمناوأتهما حزب الاتحاد والترقي الحاكم في تركيا، فمضيا إلى الأناضول (١٩١٦) ولبثا في المنفى سنتين. أقام بعد الحرب في دمشق وعيّن سكرتيراً بوزارة الداخلية في حكومة علي رضا الركابي سنة ١٩٢٠، حتى إذا ما فرضت فرنسا سيطرتها على سوريا رحل إلى مصر. وحكم عليه الفرنسيون غيابياً بالإعدام مع نفر من الشباب الوطني في آب ١٩٢٠. ثم أقام في جنيف يواصل جهوده الوطنية. وعاد إلى لبنان وساهم في الثورة السورية، فلاحقته السلطات الفرنسية، لكنه تمكن من الفرار إلى عكّا مع خيرالله الأحدب (١٩٢٦).

زار أوروبا مراراً ونشط في الدعاية لاستقلال سوريا ولبنان وفلسطين. وعاد إلى بيروت سنة ١٩٣٥ فأبعده الفرنسيون إلى القامشلي. وفي السنة التالية رافق الوفد السوري برئاسة هاشم الأتاسي للمفاوضة في باريس. وعمل أمداً في المحاماة، فلما أعلن استقلال لبنان انتخب نائباً عن منطقة لبنان الجنوبي (١٩٤٣)، وألف الوزارة في ٢٥ أيلول ١٩٤٣. واعتقله الفرنسيون مع رئيس الجمهورية بشارة الخوري في قلعة راشيا، ثم عاد إلى رئاسة الوزراء بعد ١١ يوماً (٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣). وجلا الفرنسيون عن لبنان سنة ١٩٤٦.

أعاد رياض الصلح تأليف الوزارة في ٣ تموز ١٩٤٤ متقلداً وزارتي الداخلية والتموين مع الرئاسة إلى ٩ كانون الثاني ١٩٤٥. وتولى رئاسة الوزراء للمرة الثالثة في ١٤ كانون الأول ١٩٤٦ إلى ٧ نيسان ١٩٤٧. حين أعاد تأليف وزارته الرابعة فوزارته

الخامسة في ٢٦ تموز ١٩٤٨ (تقلد فيها وزارة العدلية أيضاً). وأعاد تأليف وزارته السادسة في أول تشرين الأول ١٩٤٩ متقلداً الرئاسة والمعارف. ثم تخلى عن المعارف وتولى وزارة الداخلية واستقال أخيراً في ١٤ شباط ١٩٥١.

زار المملكة الأردنية فلما عاد منها اغتيل في مطار عمّان في ١٦ تموز ١٩٥١.

رثاه الشاعر أمين نخلة فقال:

ما على الحبّ إن مضى الأحباب   تسلم الذكريات والأسباب

لا تصدّق رأي العيون فللقلب   سبيل إلى المزار وباب

سكت اليوم في «رياض» حسود   وعدوّ وقالت الأحساب

لا تردّوا عنه النوائح ولهى   كربلائية شجاها المصاب

بشارة خليل الخوري

الزعيم اللبناني الشيخ بشارة بن خليل بك بن بشارة الخوري، ولد في بيروت في ١٠ آب ١٨٩٠، وكان أبوه مدير المكتب العربي في متصرّفية جبل لبنان.

درس الفتى في كلية القديس يوسف اليسوعية، ولما أتمّ دروسه سافر سنة ١٩٠٩ إلى باريس حيث درس الحقوق ونال الإجازة فيها (١٩١٢). مارس المحاماة في بيروت، لكنه على أثر تشديد الحكومة التركية قبضتها على سوريا ولبنان خلال الحرب العظمى تمكن من الفرار إلى مصر سنة ١٩١٥. وقد مارس المحاماة فيها أمام المحاكم المختلطة.

عاد إلى بيروت بعد الهدنة وعمل محامياً في مكتب أميل إدّه. وانتمى إلى سلك القضاء سنة ١٩٢٢ فعيّن رئيساً لمحكمة الاستئناف. ثم عيّن عضواً بمجلس الشيوخ (١٩٢٦) وأصبح نائباً في مجلس حزيران ١٩٢٩. واختاره أوغست أديب باشا وزيراً للداخلية في آخر أيار ١٩٢٦، حتى إذا ما استقالت الوزارة تقلد رئاسة الوزراء مع وزارة المعارف (١٩٢٧). وأعاد تأليف وزارته في كانون الثاني ١٩٢٨ متقلداً وزارتي العدلية والمعارف مع الرئاسة إلى آب ١٩٢٨. وألف وزارته الثالثة في أيار ١٩٢٩ متقلداً الرئاسة والداخلية والصحة حتى استقالته في تشرين الأول ١٩٢٩.

رشّح نفسه لرئاسة الجمهورية في كانون الثاني ١٩٣٦، لكن أميل أدّه الذي ساندته دار الاعتماد الفرنسية فاز عليه بصوت واحد. وكان قد أسس الحزب الدستوري على مبدأ استقلال لبنان سنة ١٩٣٣.

وانتخب أخيراً رئيساً للجمهورية اللبنانية في عهد الاستقلال في ٢١ أيلول ١٩٤٣. لكن الفرنسيين لم يلبثوا أن اعتقلوه مع رئيس وزرائه رياض الصلح وبعض الوزراء في ١١ تشرين الثاني ١٩٤٣ وسجنوهم في قلعة راشيّا. وهاجت البلاد وماجت، وساند الإنكليز المطالب الوطنية، فاضطر الفرنسيون إلى إطلاق سراح الرئيس الخوري وزملائه بعد ١١ يوماً (٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣) وعاد الخوري إلى سدّة الرئاسة بعد أن شغلها

غريمه إميل أدّه في تلك الفترة. وأخيراً جلت القوات الفرنسية والإنجليزية عن ربوع لبنان سنة ١٩٤٦ في آخر كانون الأول.

أعيد انتخابه لرئاسة الجمهورية لمدة ستّ سنوات ابتداءً من ٢١ أيلول ١٩٤٩، لكنه اضطرّ بعد أن زادت النقمة عليه إلى التخلّي عن منصبه في ١٩ أيلول ١٩٥٢، وقد شغله تسع سنوات. واعتزل السياسة متفرّغاً لتدوين مذكراته، فصدر الجزء الأول منها سنة ١٩٦٠ بعنوان «حقائق لبنانية».

وأدركه الحمام في الكسليك بجوار بيروت في ١١ كانون الثاني ١٩٦٤.

زار بشارة الخوري مصر فحيّاه شاعر القطرين خليل مطران بقصيدة، قال فيها:

أمعيد الاستقلال مكتملاً إلى	بلد أبى الضيم المذلّ فثارا،
ما اختصّ لبنان بما لك من يد	شملت، وقد أوليتها، أقطارا
لله درّك من دؤوب صابر	أبلى فجدّد أمّة وديارا
من يعدل الشيخ الرئيس مروءة	إن زاد ضُراً أو أقال عثاراً...

ينتمي بشارة الخوري إلى أسرة مشايخ بني صالح الخوري من رشميّا في الشوف، وكان جدّه الأعلى الشيخ عبدالله مستشاراً للأمير حيدر الشهابي الذي حكم لبنان إلى وفاته سنة ١٧٣١.

كان الرئيس الخوري خطيباً وأديباً باللغتين الفرنسية والعربية، واسع الثقافة، داعياً إلى الوحدة اللبنانية الشاملة لجميع الطوائف، ليعيش لبنان - كما قال في بعض خطبه - مستقلاً حراً ديمقراطياً عربياً أبياً. وقال فيه مارون عبّود: «لبناني قلباً ودماً، عربي يداً وجناناً ولساناً وبياناً». وقد ألف قانون الموجبات والعقود: المبادئ العامة (١٩٣٩).

قال الأستاذ الأمريكي جوزيف ج. مالون في كتابه «الأراضي العربية في آسية الغربية» (١٩٧٣) إن اسم بشارة الخوري سوف يقرن إلى الأبد بـ «استقلال» لبنان. لكن في السنوات التي عقبت ١٩٤٥ أصبح عهده «سَلَّةً فارغة» لبلاده. لقد استغل عهده دائماً القيمة الرمزية لخروج ١٧ ألف جندي فرنسي وبريطاني من لبنان سنة ١٩٤٦، غير أن ذهابهم سرّع أيضاً حصول ضيق اقتصادي. يضاف إلى ذلك أن زوال الانتداب لم يعن نهاية «العلاقة الخاصة»: فالمساعدة الفرنسية في ميادين التعليم والاقتصاد والعسكرية وحتى الناحية السياسية زادت ولم تنقص بعد سنة ١٩٤٣. وكان يمكن للبنان أن يكون أكثر استقلالاً قبل ١٩٥٢ لو أن الزمرة الحاكمة اهتمت بإخلاص بالتقدم الاقتصادي أكثر من اتخاذ هذا التقدم قناعاً للتعاظم الشخصي.

ويمكن القول إن استقلال لبنان في عهد الرئيس بشارة الخوري وضعف البلد الاقتصادي وقلّة موارده الطبيعية بذرت البذور لجعله ميدان صراع للأقطار العربية المتنافسة فيما بينها ومهّدت للحرب الأهلية سنة ١٩٥٨ وبعد ذلك للكارثة العظمى التي نشأت سنة ١٩٧٤/ ١٩٧٥.

دعاة القومية

الأمير شكيب أرسلان

شكيب أرسلان الكاتب المجاهد، نعت بـ «أمير البيان»، كان في مبتدأ حياته شاعراً وموظفاً إدارياً ونائباً في مجلس النواب التركي، ثم أقام في جنيف نحواً من ربع قرن، يدافع عن حقوق العرب وحرياتهم وينطق بلسانهم في فترة ما بين الحربين. ولم يبخل على أمته بالنصح والإرشاد والدعوة إلى الأخذ بمحاسن الحضارة مع الحفاظ على الأخلاق القومية والتقاليد العربية والإسلامية. وكتابه «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» المطبوع في القاهرة يشخّص الداء ويصف الدواء في عهد تاه فيه الناس بين المدنية الحديثة التي تبهر العيون وتجتذب الشباب والتقاليد الشرقية القديمة التي أصبحت تعدّ عنوان التخلّف والانحطاط.

وشكيب بن حمود بن حسن ين يونس ولد في الشويفات من أعمال لبنان في ٢٥ دسمبر ١٨٦٩ لأسرة تنتسب إلى التنوخيين ملوك الحيرة. وكان رأس الأسرة الأمير أرسلان (٧٢٧ - ٧٨٧م) من سلالة الملك المنذر بن ماء السماء أقطعه الخليفة المنصور العباسي أراضي في جبال بيروت فانتقل إليها بأهله وعمّرها.

واشتهر اخوان لشكيب أولهما نسيب (١٨٦٧ - ١٩٢٧) وكان شاعراً أديباً نشر الأمير شكيب ديوانه بعد وفاته بعنوان «روض الشقيق في الجزل الرقيق». أما أخوه الآخر عادل (١٨٨٢ - ١٩٥٤) فكان شاعراً ثائراً أيضاً، تقلّب في المناصب فكان نائباً في مجلس المبعوثين، وحاكماً لجبل لبنان فمساعداً إدارياً لحاكم سوريا العسكري العام في الحكومة الفيصلية فمستشاراً سياسياً للملك فيصل. ومضى بعد ذلك إلى عمان فكان رئيساً لديوان إمارة شرقي الأردن. حكم عليه الفرنسيون بالإعدام غياباً عند دخولهم إلى دمشق في تموز ١٩٢٠، ثم وفي أثناء الثورة السورية (١٩٢٥)، وبعد سنوات طويلة قضاها مشرّداً في أوربّة عاد إلى سوريا. وفي سنة ١٩٤٦ عيّن وزيراً للمعارف، ثم كان

نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية في حكومة حسني الزعيم فوزيراً مفوضاً في أنقرة سنة ١٩٤٩. وصدرت مذكرات الأمير عادل في بيروت سنة ١٩٨٤ في ثلاثة مجلدات.

انتمى شكيب سنة ١٨٧٩ إلى مدرسة الحكمة التي أسسها في بيروت المطران يوسف الدبس، وتلقى العربية على الشيخ عبدالله البستاني، وتعرّف إلى الشيخ محمد عبده في أيام مقامه في بيروت فلازمه وأخذ عنه، وتعلم في الوقت نفسه الفرنسية والتركية. وانتقل سنة ١٨٨٧ إلى المدرسة السلطانية. وسافر إلى دمشق سنة ١٨٨٩ وزار مصر في السنة التالية فعقد الصلة بأدبائها وفضلائها، وفي طليعتهم أحمد زكي باشا والشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» والشيخ علي الليثي وعبدالله فكري باشا وحفني ناصف بك وإسماعيل صبري باشا وأحمد شوقي بك. ثم شدّ الرحال إلى باريس، وعاد إلى بيروت عن طريق الآستانة حيث اجتمع بالسيد جمال الدين الأفغاني (١٨٩٢) وأفاد منه فوائد جزيلة.

نظم في شبابه قصائد في مدح السلطان عبدالحميد الثاني نشرها سنة ١٨٩٥ في كتيّب عنوانه «المدائح السنيّة في شمائل الذات الحميدية». ثم نشر «الدرّة اليتيمة» لابن المقفّع (١٨٩٧) و«المختار من رسائل أبي إسحق إبراهيم الصابي» (١٨٩٩)، وقد طبع كليهما في بيروت.

عيّن سنة ١٩٠٨ قائم مقاماً لقضاء الشوف، وهو المنصب الذي شغله أبوه الأمير حمود من قبله. ثم انتخب نائباً عن حوران في مجلس المبعوثين التركي. وقد ناصر الحكومة التركية في حرب البلقان، ورافق أنور باشا إلى طرابلس الغرب سنة ١٩١٢ لمجابهة الغزو الإيطالي. ولما نشبت الحرب العامة في سنة ١٩١٤ وقررت تركيا أن تخوض غمارها إلى جانب ألمانيا والنمسا صرف جهوده في نصرة الحكومة التركية وكتب المقالات مؤيداً لها في جريدة الشرق التي أصدرها الوالي أحمد جمال باشا المعروف بالسفّاح في دمشق (١٩١٦) وجنّد لها أقلام كبار الكتّاب كمحمد كرد علي وعبدالقادر المغربي وتاج الدين الحسني.

وقد أمل شكيب أن تمنح تركيا الولايات العربية حكماً ذاتياً عند عودة السلام، وارتأى أن ثورة الشريف حسين في الحجاز خيانة للدولة في أشد أوقات محنتها.

وعلى الرغم من كل ذلك خشي بطش جمال باشا بعد أن نكّل بأحرار العرب وعلّقهم على أعواد المشانق، فغادر الشام قاصداً استانبول في أوائل سنة ١٩١٧. ولبّى دعوة الحكومة الألمانية لزيارة برلين والتجوّل في أنحاء بلادها، وعاد إلى العاصمة

التركية بعد ذلك. ولما انتهت الحرب مضى إلى برلين والتقى فيها بالقائد الطريد أنور باشا الذي أقنعه بالمضيّ معه إلى الاتحاد السوفياتي واعداً إياه بنضال جديد ونجاح أكيد (حزيران ١٩٢٠). قام أنور بمغامرات انتهت بمصرعه بعد سنتين في بخارى، أما شكيب فلم يكد يصل إلى موسكو حتى شعر أن طريق الكفاح لا يمرّ بالقطرالشيوعي الذي عادى الدول المنتصرة باشتراكيته المتطرفة وحربه الأهلية المدمّرة، فبادر بالعودة إلى ألمانيا.

وقف في مفترق الطرق يفكّر في العالم الجديد الذي خلقته معاهدة فرساي وعصبة الأمم وفي بلاده العربية التي أصبحت من نصيب انجلترا وفرنسا، فحاول إسدال الستار على الماضي واستكناه حقيقة المستقبل. استقلت الأمم الأوروبية التي رضخت زمناً طويلاً للحكم الأجنبي وتطلعت الأقطار العربية إلى الحرية والاستقلال بعد استكانتها لحكم السلطان خليفة المسلمين على ضفاف البوسفور.

انتقل الأرسلاني إلى جنيف واتخذها مقراً له. واختاره المؤتمر السوري ـ الفلسطيني الملتئم في القاهرة سكرتيراً أول لوفده إلى عصبة الأمم لأجل الدفاع عن استقلال سوريا وفلسطين، فكان ذلك بداية نضاله الذي استمرّ عقدين من السنين. وقد قابل الزعيم الإيطالي الفاشيّ بنيتو موسوليني ورجال السياسة في لندن دفاعاً عن القضية العربية،وخطب وكتب حاملاً على الاستعمار.

زار الولايات المتحدة سنة ١٩٢٧ بدعوة من عرب المهجر لترؤس مؤتمرهم، ثم مضى إلى الحج بعد سنتين وجاب أنحاء الحجاز ووضع كتابه «الارتسامات اللطاف». وقام برحلة سنة ١٩٣٠ إلى إسبانيا وتجول في آثار الأندلس العربية التي أوحت إليه «الحلل السندسية». وأنشأ في تلك السنة صحيفة «الأمة العربية» (لا ناسيون آراب) في جنيف بالفرنسية مع رفيق جهاده إحسان الجابري، فواصل إصدارها وتحريرها وتصريف شؤونها إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية.

وفي سنة ١٩٣٤ نشبت الحرب بين الملك عبدالعزيز آل سعود ويحيى إمام اليمن، فاختير عضواً في الوفد الذي وفد إلى الجزيرة العربية لإصلاح ذات البين بين العاهلين. وسمح له سنة ١٩٣٧ بزيارة سوريا فقضى فيها أمداً ولقي فيها الحفاوة والترحيب وانتخب رئيساً للمجمع العلمي العربي. لكنه زايلها عائداً إلى جنيف. وزار القطر المصري سنة ١٩٣٩ .

ثم نشبت الحرب التي جمّدت جهوده وجهود زملائه من الرجال العاملين. وأخيراً عاد إلى بيروت من غربته الطويلة ليجد فيها الاستقرار الذي يصبو إليه في شيخوخته،

فوصلها في آخر أكتوبر ١٩٤٦. ولم تمض أسابيع قلائل حتى قضى نحبه فيها في ٩ ديسمبر ١٩٤٦، ودفن في الشويفات مسقط رأسه.

وقد رثاه خليل مطران فقال:

طفِئ الصباح بعيني الإلهام ... وتغمّد اللألاءَ جفن ظلام
وكأن شمس العبقرية كفّنت ... بعد ازدهار شعاعها بقتام
أشكيب، حسب المجد ما بُلّغته ... شرقاً وغرباً من جليل مقام
في كل قطر للعروبة خُلّدت ... ذكراك بالإكبار والإعظام

ورثاه محمد البزم:

تبكي عليك خرائد الأشعار ... أمّ اللغات بصيّب مدرار
تبكي، ولو ملكت سوابق عبرة ... أنفت فلم تبلل مشقّ صدار
خمسين للإسلام ترفع مجده ... وتحوطه بشوامخ الأسوار
فنظمت ما نثر الزمان قلائداً ... لمفاخر ومفاخراً لمباري
ورددت كيد المارقين بجحفل ... يرغو ويزبد بالرّدى زخّار...

ورثاه علي محمود طه:

رزء العروبة فيك والإسلام ... رزء النهى وفجيعة الأقلام
هو مأتم الأحرار في متوثب ... بصفوفهم مستقتل مقدام

شعره ونثره وآراؤه

نظم شكيب أرسلان الشعر وهو طريّ العود وجمع قصائده في «الباكورة» التي نشرها سنة ١٨٨٧. مدح أستاذه الشيخ محمد عبده ومال إلى الحرية منذ الصبا، فقال:

الحق لم يصبح على الكلّ سائداً ... فليس لحدّ في البريّة مأرب

وواصل قول القريض، فامتدح السيد جمال الدين الأفغاني، وأجرى مساجلات شعرية مع عبدالله فكري باشا وإسماعيل صبري باشا وخليل مردم بك، ورثى أحمد فارس الشدياق وإبراهيم اليازجي ومحمود سامي البارودي وعبدالعزيز جاويش وأحمد تيمور باشا وأحمد شوقي بك... ونظم القصائد في المواضيع الوطنية والتاريخية والخلافة. وجمع شعره في الديوان الذي نشره في القاهرة سنة ١٩٣٥.

أعجب بالبارودي فطالع بنهم شديد كل ما عثر عليه من شعره. وكان البارودي قد نفي إلى جزيرة سيلان بعد الثورة العرابية التي ساهم فيها سنة ١٨٨٢، فلما علم بتقدير

الشاعر الشاب، كتب إليه من منفاه:

أشـدت بـذكـري بـادئـاً ومـعـقّـبـاً وأمسكت لم أهمس ولم أتكلّم...

فأجابه شكيب بقصيدة قال فيها:

لـك الـلـه مـن عـان بـشـكـر منـمـنـم لـتـقـديـر حـق مـن عـلاك مـحـتّـم
وشهـم أبيّ الـنـفـس أضـحـى يـرى يـداً تـذكّـر فـضـل أو جـمـيـل لـمـنـعـم

اتصل التراسل بين الشاعر الشيخ المبعد عن وطنه والشاب اللبناني المعجب به ففاضت قصائدهما بعواطف الولاء والوفاء والمودة وعرفان الجميل. تناجيا كما تتناجى الحمائم بالهديل عند الفجر والأصيل، وكانت مناجاتهما مرآة صادقة للنبل والكرامة والحنين.

وعلى ذكر جزيرة سيلان التي نفي إليها الشاعر المصري الكبير أقول إن العرب عرفوها قديماً باسم سرنديب، ثم أصبحت بعد استقلالها عن التاج البريطاني وإعلان الجمهورية فيها سنة ١٩٧٢ تدعى «شري لانكا». وقد قال الإمام محمد الشافعي المتوفّى سنة ٨٢٠ م:

أمـطـري لـؤلـؤاً، جـبـال سـرنـديـب، وفـيـضـي آبـار تـكـرور تـبـرا
أنـا إن عـشـت لـسـت أعـدم قـوتـاً وإذا مـتّ لـسـت أعـدم قـبـرا
هـمّـتـي هـمّـة الـمـلـوك ونـفـسـي نـفـس حـرّ تـرى الـمـذلـة كـفـرا

وقد نسب عبدالرحمن الرافعي هذه الأبيات إلى البارودي خطأً في كتابه «شعراء الوطنيّة».

ترك الأمير شكيب الشعر ومال إلى الترسّل، فقال خليل مطران: «وانصرف إلى الترسّل فحبس فيه ما أوتيه من العبقرية، فهو الآن في مذهبي إمام المترسّلين».

وقال مصطفى صادق الرافعي فيه: «حجّة الأدب وسيّد كتّاب العصر». وقال الدكتور سامي الدهّان: «اشتهر الأمير شكيب بمتانة وفخامة وجزالة في كتبه ومقالاته، حتى لقد تشبّه باللغة العربية القديمة في قوة أسرها وجمال أسلوبها على حدّة المعاني وسعة الآفاق».

كان كاتباً وخطيباً بالعربية والفرنسية، وله صفحات مترجمة عن اللغة الأخيرة وعن التركية والألمانية. واختير عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام عند تأليفه، واختاره المجمع رئيساً له سنة ١٩٣٧، لكنه لم يمارس الرئاسة.

واعتبره يوسف أسعد داغر علماً من أعلام اليقظة السياسية والثقافية في العالمين

العربي والإسلامي، ساهم في إبراز عبقرية الأمة العربية في الآداب والعلوم والفنون وعمل على إيقاظ الشعوب الشرقية وتحريرها.

من مؤلفاته:

١ - خلاصة تاريخ الأندلس، طبع في مصر سنة ١٩٢٠ وفي آخره رواية «آخر بني سراج» التي عرّبها عن الكاتب الفرنسي الشهير شاتوبريان.

٢ - لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم (طبع في القاهرة سنة ١٩٣٠).

٣ - محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي (طبع في القاهرة).

٤ - الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف (طبع في القاهرة، ١٩٣١).

٥ - حاضر العالم الإسلامي (في أربعة أجزاء) وأصله كتيّب وضعه لوثروب ستودارد الأمريكي ونقله إلى العربية عجاج نويهض، وعلق عليه شكيب أرسلان هوامش وفصولاً جعلته أضاف حجمه.

٦ - أناتول فرانس في مباذله (طبع في القاهرة، ١٩٢٦)، ترجمه الأمير شكيب عن الفرنسية، والأصل لجان جاك برسّون سكرتير الروائي الفرنسي الكبير مع إضافات.

٧ - تاريخ غزو العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (القاهرة، ١٩٣٣).

٨ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (في ٣ أجزاء، طبع القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٣٩).

٩ - شوقي أوصداقة أربعين سنة (القاهرة ١٩٣٦).

١٠ - السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة (دمشق ١٩٣٧).

١١ - النهضة العربية في العصر الحديث (القاهرة ١٩٣٧).

وخلّف آثاراً مخطوطة منها: تاريخ لبنان، رحلة إلى ألمانيا، مذكرات، اللهجات العربية، القول الفصل في ردّ العامي إلى الأصل، إلخ.

وضع كتابه «لماذا تأخر المسلمون» باقتراح من السيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) صاحب مجلة المنار ورفيق حياته، وقد عزا التأخر إلى الجهل والجمود والعلم الناقص وفساد الأخلاق، ولا سيما فساد بعض الأمراء والزعماء بوجه خاص. وأنحى باللائمة على العلماء المتزلفين للسلطة، وندّد بالجبن والهلع والقنوط من الرحمة الربّانية

والفقر الذي يسود البلد ويتحكم في الناس. وقال إن الإسلام قد ضاع بين الجامدين والجاحدين: فالجاحدون يريدون فرنجة المسلمين وإخراجهم من جميع مقوّماتهم ومشخصاتهم، أما الجامدون المتصفون بالتعصب والجهل فسبّبوا الفقر المادي والمعنوي وشهروا الحرب على العلوم الحديثة، وجعلوا الإسلام دين الآخرة، وهو في الحقيقة دين الدنيا والآخرة على السواء. ونجمت الفرق الصوفية والدراويش الذين آثروا الكسب والخمول وبثّوا الشعوذة والخرافات. وقال إن الإسلام دين العمل والكفاح وإن تعصب الجامدين لا يأتلف مع المدنية الحديثة، وبذلك حال هؤلاء دون الأخذ بمحاسن الحضارة العصرية والتشبث بالعلوم عنوان الرقي والثراء والرخاء. وحذّر المسلمين من المرض الخبيث الذي ابتلوا به، ألا وهو فقدان الثقة بالنفس. ودعا إلى التضحية والجهاد بالنفس والمال لإنهاض البلاد الشرقية من كبوتها. ولا ريب أن هذه المبادئ مستوحاة من أفكار المصلحين السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الإمام محمد عبده، أعلناها وناديا بها في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر واتّسعت وانتشرت في العقود الأولى من القرن العشرين، وكان للأرسلاني وأنداده الفضل في بثها وتفصيلها وتأكيدها.

ولم تقتصر رسالة شكيب أرسلان على ذلك، بل جاهد في فترة ما بين الحربين العالميتين في سبيل التعريف بالقضية العربية وطلب الحرية والاستقلال لأقطار العروبة. وقد نقل الدكتور رئيف أبو اللمع أنه قال له، عند انتهاء الحرب العالمية الأولى، إن العرب أمة كاملة لها عرق واحد ولسان واحد وأكثرية دين واحد وتاريخ واحد، مصالحها واحدة ولها منافع واحدة وآمال واحدة. لكن تفكك حلقاتها فتّ في عضدها وأضعفها وأفقرها وأقصاها عن السير في موكب المدنية والرقيّ. وقال إنه جنديّ من جنود الأمة العربية يعمل لأجل الاتحاد والتحرر والسير في موكب النهضة والعلم.

شكيب أرسلان أيضاً

حضر إلى لوزان ومعه إحسان الجابري في أثناء انعقاد مؤتمر الصلح مع تركيا في كانون الثاني وشباط ١٩٢٣. واجتمع بعصمت باشا (إينونو) وجاويد بك وجلال بك عارف مندوبي تركيا والمندوبين العرب: ناجي الأصيل ممثل الملك حسين وجعفر العسكري ممثل العراق وأحمد لطفي بك ممثل الحزب الوطني المصري وبعض الهنود المناوئين لبريطانيا، وحاول إجراء تقارب بين الأتراك والعرب وتأليف جبهة ضد بريطانيا وفرنسا. وقد صرّح الأصيل أن الملك حسين ملك الحجاز خوّله التفاهم مع الترك إذا اعترفوا به ملكاً مستقلاً. وقال جعفر العسكري إن العراق أرغم على توقيع المعاهدة مع

بريطانيا بحكم الظروف، لكنه يحبذ نبذ المعاهدة والثورة على الدولة المنتدبة والانضمام إلى الجبهة التركية إذا اعترف الأتراك باستقلال العراق وسائر البلاد العربية.

لكن مساعي شكيب أرسلان باءت بالفشل لأن تركية «الكمالية» اعترفت بحسين ملك الحجاز المستقل وطالبت بولاية الموصل ولم تعر المطالب العربية الأخرى اهتماماً مفضلة تسوية شؤونها مع دول الحلفاء.

الأمير عادل أرسلان

أحمد عادل بن حمود بن حسن أرسلان شقيق الأمير شكيب ونسيبه، ولد سنة ١٨٨٧ في الشويفات ودرس في بيروت والآستانة وانتمى إلى جمعية «العربية الفتاة» السرية، وناب عن لبنان في مجلس المبعوثين التركي (١٩١٦). عيّن في العهد الفيصلي مساعداً لرئيس الحكومة السورية في دمشق، ونزح عنها يوم احتلها الفرنسيون سنة ١٩٢٠ فحكموا عليه بالإعدام غياباً. أقام أمداً قصيراً في سويسرا، ثم استقر في شرقي الأردن وكان مستشاراً للأمير عبدالله. وأبعد إلى مكة، ثم انتقل إلى مصر. ولما ثارت سوريا على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الأطرش التحق به الأمير عادل واستبسل في المعارك،وظل بعد الثورة بعيداً عن بلاده نحو عشر سنوات وعاد إلى دمشق سنة ١٩٣٦. ورحل إلى تركيا في أثناء الحرب العالمية، وعاد إلى سوريا بعد جلاء الفرنسيين عنها.

عيّن وزيراً للمعارف سنة ١٩٤٦ في وزارة سعد الله الجابري ووزارة جميل مردم التي تلتها، وانتخب نائباً عن الجولان سنة ١٩٤٨. وكان ممثلاً لسوريا في مؤتمر فلسطين في لندن، ثم رئس الوفد السوري إلى هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩. تولى وزارة الخارجية في عهد حسني الزعيم، ثم استقال وعيّن وزيراً مفوضاً في أنقرة، فلما وقع الانقلاب على الزعيم عاد إلى لبنان. وتوفي في بيروت في ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٤.

كان كاتباً وشاعراً وخطيباً معروفاً، وصدرت مذكراته في ثلاثة مجلدات (١٩٨٤).

عزيز علي المصري

بطل القومية العربية الفريق عزيز علي المصري باشا ينتمي إلى أسرة تجارية بصريّة تعرف بآل عرفات. وقد انتقل أحد أجداده من العراق للإقامة والمتاجرة في القفقاس في أواخر القرن الثامن عشر، وهناك ولد ونشأ والد عزيز واسمه علي بك زكريّا الذي أبلى بلاءً حسناً في الحرب التركية ـ الروسية سنة ١٨٧٧. وقد اضطرت الدولة العثمانية على أثر ذلك إلى التخلي عن قرص وباطوم إلى روسيا، فانتقل علي بك إلى استانبول. وحظي بإكرام السلطان عبدالحميد الثاني فأقطعه أراضي في القليوبية بالقطر المصري حيث اتخذ سكناه.

ولد عزيز بن علي بك في القاهرة في آب ١٨٧٨ ودرس في مدارسها. فلما أتم دراسته بها أوفده أبوه إلى استانبول وتخرّج سنة ١٩٠٤ ضابطاً برتبة يوزباشي. وعيّن في جيش مقدونية فاشترك في تأديب العصابات البلغارية واليونانية والألبانية المتمردة على الدولة. وتعرف هناك إلى صغار الضباط المنتمين إلى جمعية الاتحاد والترقي السرية العاملة لإسقاط الحكم الاستبدادي الحميدي، حتى إذا ما قامت الحركة الرجعية بعد إعلان الدستور زحف على رأس فصيله إلى العاصمة التركية مع جيش محمود شوكت باشا في ١٣ نيسان ١٩٠٩ وساهم في إعادة الدستور وخلع السلطان عبدالحميد.

وعهد إليه في السنة التالية بمحاربة الأروام الثائرين جنوبي خليج درميد على سواحل الأناضول فطاردهم وأخمد حركتهم. ثم أوفد إلى اليمن سنة ١٩١١ حيث اندحرت القوات التركية في معركة جيزان أمام الإمام يحيى محمد حميد الدين فاشترك في مصالحة الإمام. ونشبت في تلك السنة حرب طرابلس الغرب التي أنزلت إيطاليا قواتها لاحتلالها، فمضى لمناهضة الإيطاليين وكان قائداً لمنطقة برقة. واستمر يحارب إلى جانب السنوسيين بعد جلاء القوات التركية حتى عاد إلى استانبول سنة ١٩١٣.

أخذ يدعو إلى القومية العربية بعد أن تبيّنت له نوايا الاتحاديين لتتريك عناصر الدولة العثمانية، فأسس جمعية «العهد» السرية في ٢٨ تشرين الأول ١٩١٣ وانضم إليه

عدد كبير من الضباط العراقيين والعرب وفي مقدمتهم نوري السعيد وياسين الهاشمي وطه الهاشمي وجعفر العسكري ويوسف العزاوي وسعيد التكريتي وسليم الجزائري وغيرهم. وأسست في الوقت نفسه جمعيات عربية أخرى منها «المنتدى الأدبي» بقيادة عبدالكريم الخليل وأحمد عزت الأعظمي. وكانت أهداف تلك الجمعيات استخلاص حقوق العرب ومنح الولايات العربية إدارة لامركزية ضمن الدولة التركية وجعلها حكومة متآلفة شبيهة باتحاد المجر مع النمسا على أن يبقى السلطان عاهلاً وخليفة للمسلمين.

استقال عزيز علي المصري من الجيش في ٢٠ كانون الثاني ١٩١٤ ليتفرغ للعمل السياسي، لكن حكومة الاتحاد والترقي لم تلبث أن قبضت عليه في ٩ شباط بتهمة اختلاس أموال الدولة في حرب طرابلس الغرب وبث الفكرة القومية العربية والسعي لفصل العرب عن الدولة التركية. وحكم المجلس العرفي، المؤلف من صنائع خصمه اللدود أنور باشا، عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد. وعفي عنه بعد أمد قصير على أثر الاحتجاجات العربية المتوالية ومساعي السفارة البريطانية في استانبول باعتباره مصرياً، فأبعد إلى مصر.

ونهض الشريف حسين في مكة في ١٠ حزيران ١٩١٦ فأعلن الثورة على الدولة التركية وحارب الجيش التركي بمساعدة الحلفاء، فمضى عزيز علي المصري إلى الحجاز في شهر أيلول من تلك السنة وعين وكيلاً لوزارة الحربية وعهد إليه بتنظيم جيش الثورة. لكنه لم يلبث أن اختلف مع الملك حسين فعاد إلى القاهرة في أوائل سنة ١٩١٧. قال اللواء إبراهيم الراوي (جريدة الجمهورية، بغداد، ٢٤ حزيران ١٩٦٥): «واختلف عزيز علي مع الحسين بن علي لأسباب بقيت مجهولة حتى الآن إلا لدى المقربين إليه ممن يعتمد عليهم مثل علي جودت الأيوبي ومولود مخلص وحامد الوادي وغيرهم. وقد كنت أنا مرافقه الخاص وكان علي جودت رئيس ركنه ومولود مخلص ملحقاً به، فعزيز علي كان يخشى غدر الإنكليز، لذلك أشار ببقاء غالب باشا (والي الحجاز) في مكة وعدم إرساله إلى مصر ليبقى همزة وصل مع الأتراك والألمان وليتولى مخابرة الأتراك للحصول على شروط ترضي العرب، لأن عزيز علي كان على اتصال مع الألمان، وكان رأيه أن يفاتح الألمان إذا تلكأ الإنكليز بمساعدة الثوار. ولكن الحسين لم يتقبّل الفكرة، فترك مكة وجاء إلى رابغ لقيادة القوات النظامية وغير النظامية، ثم اختلف مع علي بن الحسين وغادر الحجاز..»

ولما عاد عزيز علي بك إلى القاهرة وقضى فيها بضعة أشهر أوجس الإنكليز منه

ريبة، فخيّروه بالسفر إلى قطر محايد، فاختار إسبانية وأقام في مدريد العاصمة.

وعاد إلى مصر بعد نهاية الحرب منصرفاً إلى تعهد أملاكه.

وزار العراق في حزيران ١٩٢٥، وبعد ذلك في نيسان ١٩٣٩، فاجتمع برفقائه الذين عرفهم في تركيا والحجاز. وعيّنه محمد محمود باشا رئيس الوزراء المصري في كانون الأول ١٩٢٨ مديرا لمدرسة الإدارة والبوليس. ثم رقّي إلى رتبة أمير لواء وعيّن مفتشاً عاماً للجيش المصري في كانون الثاني ١٩٣٨ فرئيساً لأركان الجيش برتبة فريق (آب ١٩٣٩) حتى أحيل على التقاعد في تموز ١٩٤٠. وقد حاول الفرار بطيارة للالتحاق بالقوات الإيطالية والألمانية في طرابلس الغرب (أيار ١٩٤١) لكن أخفق في مسعاه إذ سقطت الطيارة به في مركز قليوب. وعاد إلى القاهرة، فقبض عليه وجرت محاكمته واعتقل خلال سنوات الحرب. وظهر من المحاكمة أنه استقل طائرة عسكرية في القاهرة مع الضابطين حسين ذو الفقار صبري وعبدالمنعم رؤوف وتوجّه إلى ناحية قليوب (بمديرية القليوبية)، لكن الطائرة سقطت هناك لخلل فيها، ووجد بها عشر حقائب وخرائط وعلم أحمر مثلث متساوي الساقين من الصوف وآلات وبعض القواميس وجزء من ترجمة فرنسية لكتاب كفاحي من تأليف هتلر إلخ.

أطلق سراح عزيز علي المصري في شهر آذار ١٩٤٢ على أثر عودة مصطفى النحاس باشا إلى رئاسة الوزراء، ولما قامت الثورة المصرية اختير رئيساً لحزب العمال خلفاً للنبيل عبّاس حليم (أيلول ١٩٥٢). ثم عيّن وزيراً مفوضاً لمصر في موسكو (آذار ١٩٥٣) وتسلم مهام منصبه في آب ١٩٥٣ ورفع إلى رتبة سفير في نيسان ١٩٥٤ حتى استقال في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها.

وقد توفي بالقاهرة في ١٥ حزيران ١٩٦٥.

وصفه عارفوه بقوة الإرادة والثبات على مبدئه السياسي والقومي. وقد دعا إلى الثقافة والدرس وقال: «اضربوا في الأرض واعرفوا الناس وجرّبوا بأنفسكم كلّ شيء: فهذه هي الحياة والقوة والحرية». وأعجب في أخريات حياته بالزعيم جمال عبدالناصر فقال: «لقد عرفت القائد البطل جمال عبدالناصر، عرفته رجلاً يعرف معنى المسؤولية . . لقد كنت أعلم منذ اليوم الأول الذي زارني فيه أنه سيكون له دور كبير في حياة هذا البلد، بل وحياة الأمة العربية كلها. فقد كنت أطالب باغتيال فاروق، لكن عبدالناصر أقنعني بأن تكون ثورة بيضاء. وفعلاً نجحت الثورة وكانت بيضاء».

وكان أمير الشعراء أحمد شوقي بك أحد الذين انتصروا لعزيز علي المصري سنة

١٩١٤ حين حكم عليه الاتحاديون بالإعدام، فقال من قصيدة له يخاطب السلطان محمد رشاد الخامس:

هلاّ حللت من السجين وثاقه: إن الوثاق على الأسود ثقيل
أيقول واش أو يردد شامت: صنديد برقة موثق مكبول؟
فاذكر، أمير المؤمنين، بلاءه واستبقه، إن السيوف قليل.

وقد اقترن عزيز علي بفتاة أمريكية التقى بها في الهند سنة ١٩٢٣ وعاد بها إلى القاهرة حيث أصبحت مدرسة حيناً ما، ثم طلقها وعادت إلى الولايات المتحدة مع عمر ولدها منه. وكان عزيز علي على الرغم من دراسته التركية ملماً بالأدب العربي.

قال إبراهيم صالح شكر عن «بطل برقة» في الحرب العثمانية - الإيطالية الأميرآلاي أركان حرب عزيز علي المصري: «وإذا ذكر عزيز علي المصري ذكرت «الفكرة العربية». يشعّ (؟) جبار وعقل نيّر وذكاء وضاء ونفس وثابة. وإذا ذكرت الفكرة العربية ذكر عزيز علي المصري القائد الرائد الطماح والبطل الجريء المقدام والرجولة الصادقة الجبارة.

«عقيدة في مثل الإيمان الإلهي المطمئن، وعزيمة أمضى من الماضي الرهيف، وجرأة لا تحفل بالأخطار الراهبة ولا تتهيّب من المهالك الطارئة. ويحلي هذا وذاك لسان عذب مبين، ورأي ناضج حصيف، وثقافة مكتملة الأسباب موفورة الحظوظ، صقلتها الأيام ومحصتها التجارب واطمأن إليها الاختبار.

«فإذا جمعت إلى هذا كله المحتد الكريم والجاه الرفيع والثروة الطائلة تجلّت لك الصورة الفاتنة والشخصية الساحرة والجلال الرائع، فإذا هو عزيز علي المصري...».

هذا وجدير بالذكر أن الوثائق البريطانية أشارت إلى أن عزيز المصري أيّد الإنكليز عند اندلاع نار الحرب مع تركيا سنة ١٩١٤ وكان صديق رونالد ستورس في القاهرة. وزار البصرة سنة ١٩١٥ واجتمع بالسير برسي كوكس، لكنه سرعان ما عاد إلى مصر.

فؤاد الخطيب

الشاعر الأديب السياسي الشيخ فؤاد بن حسن بن يوسف الخطيب، ينتمي إلى أسرة لبنانية مصرية الأصل، ولد في قرية شحيم في قضاء الشوف سنة ١٨٨٣، وكان والده الشيخ حسن قاضياً في محكمتها. أنهى دراسته في جامعة بيروت الأمريكية سنة ١٩٠٤، وعيّن مدرساً في يافا، ثم مضى إلى مصر ومنها إلى الخرطوم فقام بالتدريس في كلية غوردن (١٩٠٩).

عاد إلى لبنان واشترك في حركة التحرير العربي، وأسّس مع حقي بك العظم حزب الاتحاد اللامركزي، وكان عضواً في المنتدى العربي. ثم سافر إلى القاهرة وحكم عليه بالإعدام غياباً. ولما أعلن الشريف حسين الثورة في الحجاز التحق به وحرّر جريدة «القبلة». وأصبح في كانون الأول ١٩١٦ وكيلاً للخارجية، وتولى منصب المعتمد العربي في مصر ردحاً من الزمن.

وعهد إليه الأمير فيصل بأمانة الخارجية السورية سنة ١٩١٩ وحضر معه مؤتمر الصلح في فرساي. وعاد إلى الحجاز بعد انهيار الحكم الفيصلي في دمشق فتولى الشؤون الخارجية مرة ثانية. ومضى إلى مصر سنة ١٩٢٤، ثم قصد عمّان وكان مستشاراً للأمير عبدالله أمير شرقي الأردن (١٩٢٦). وأسند إليه في آذار ١٩٣٣ منصب رئاسة الديوان الأميري إلى ٢٥ تموز ١٩٣٤ حين عاد مستشاراً للأمير. وظلّ في عمان إلى أواخر ١٩٣٩ حين عاد إلى بيروت.

اتصل بعبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية فاستقدمه إلى الرياض سنة ١٩٤٥ وعيّنه في جملة مستشاريه، ثم عينه في أيار ١٩٤٨ وزيراً مفوضاً في كابل، ورفع بعد ذلك سفيراً. وتوفي في العاصمة الأفغانية في ١٥ نيسان ١٩٥٧ ونقل جثمانه فدفن في لبنان.

منحه أمير شرقي الأردن رتبة الباشوية سنة ١٩٣١، كان عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام. وقد عرف شاعراً ملهماً طبع الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩١٠، ثم

طبع شعره الكامل في جزئين بعد وفاته سنة ١٩٥٩. ووضع أيضاً رواية فتح الأندلس (١٩١٢) ونظرات في تاريخ الجاهلية وأدبها (مخطوط). وله أيضاً :جغرافية بلاد العرب، تاريخ الأدب العربي (طبعا في الخرطوم).

وللخطيب شعر كثير في المواضيع الوطنية والعربية وقصائد مدح ورثاء للملك حسين والملك عبدالعزيز آل سعود ورجال السياسة في مصر وسوريا والعراق.

أمين الريحاني

إذا كان ساطع الحصري وعبدالرحمن البزاز وسواهما من المفكرين العرب قد درسوا القومية العربية وفلسفوها نظرياً فإن الكاتب الرحالة اللبناني أمين الريحاني المعروف بـ «فيلسوف الفريكة» قد دعا إليها وطبّقها عملياً منذ العقود الأولى من القرن العشرين.

هاجر الريحاني إلى الولايات المتحدة الأمريكية في الثانية عشرة من عمره ولم يكن يعرف - كما قال في مقدمة كتابه «ملوك العرب» - غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والفرنسية. وما كان في ذهنه من العرب وأخبارهم سوى ما كانت تقصه الأمهات في لبنان على أطفالهن وتخوفنهم به من «البعبع» البدوي والأعرابي.

هجر وطنه، كما قال، وفي صدره الخوف ممن يتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقه شيء من دمهم. والغريب أنه تعرّف على حقيقة العرب وحضارتهم وفضلهم ومجدهم عن طريق الكاتب الإنكليزي الكبير توماس كرلايل (كرليل) صاحب «الأبطال وعبادة البطولة»، ذلك الذي جسّد بطولة النبوة في سيّد العرب الأكبر النبي محمد. ثم قرأ كتاب «الحمراء» (الهمبرا) للكاتب الأمريكي واشنطن ارفنغ فعرف الأندلس العربية وما قدّمته لعالم القرون الوسطى من علم وفلسفة وأدب. وأعجب بعد ذلك بلزوميات المعرّي فنقل أبا العلاء إلى قراء الإنكليزية.

راودته أحلام العروبة أعواماً طوالاً. فلما وضعت الحرب العظمى الأولى أوزارها انتهز أول فرصة سنحت له فزار سنة ١٩٢٢ - ٢٣ العراق والحجاز واليمن ونجد وعسير وعدن ولحج والكويت والبحرين، وعقد الصلة بملوك البلاد وأمرائها وحكامها، وفي مقدمتهم فيصل الأول ملك العراق والحسين ملك الحجاز وعبدالعزيز آل سعود سلطان نجد والإمام يحيى عاهل اليمن. . حادث أولئك الرؤساء ودوّن أقوالهم وآراءهم وبحث في الشؤون التي تتعلق باتحادهم وتضامنهم وتعاونهم والتي تتعلق بالنهضة السياسية والاجتماعية والأدبية، ثم كتب كتابه الشامل فقال: «وليس في الكتاب أدباً كان أو سياسة

وصفاً أو نقداً، إلا الحقيقة غير المجرّدة، لأن في التجرّد، في العري، شيئاً من سوء الأدب، لا سيما إذا كان المجرِّد والمجرَّد في الغربة...».

دعا الريحاني منذ عهد الدستور العثماني الصادر سنة ١٩٠٨ إلى التفاهم والتعاضد والتساهل، دعا إلى الحرية والمساواة، دعا إلى «الثورة الأدبية» فقال: «إني أدعوكم إذاً إلى ثورة أدبية. أناشدكم بالحرية التي بعثت من غور ماضينا حياة جديدة أن تطردوا الخوف والتقية والذلّة والجبن من قلوبكم، وبالأخص عندما تشعرون بيد الظلم عليكم وترون الحرية الأدبية مقيّدة أمامكم...

ارفعوا أعلام الآداب في البلاد، شيدوا صروح التهذيب، أسسوا معاهد للفنون، فإن الآداب والتهذيب والفنون هي القوى الأدبية الروحية التي يتآلف فيها العلم والدين ... وتمتزج فيها روح الحقيقة وروح الجمال، وتنبثق منها أشعة السلم والحبّ والإخاء. أجل، هي القوى التي يتوقّف عليها تحرير الإنسان وتحرير الشعوب والأمم...».

كان خطيباً ومؤلفاً ومفكراً وصاحب شعر منثور. قال في «الثورة» سنة ١٩٠٧، وهو في نيويورك:

«ويومها القطوب العصيب،
وليلها المنير العجيب،
ونجمها الآفل تحدج بعينه الرقيب،
وصوت فوضاها الرهيب
من هتاف ولجب ونحيب،
وزئير وعندلة ونعيب.
وطغاة الزمان يسامون ناراً
وأخياره يحملون الصليب.

ويل يومئذ للظالمين، للمستكبرين، والمفسدين. هو يوم من السنيين، بل ساعة من يوم الدين.

ويل يومئذ للظالمين...».

وقال في القاهرة سنة ١٩٢٢:

«أنا الشرق.
أنا حجر الزاوية لأول هيكل من هياكل الله

ولأول عرش من عروش الإنسان،
لذلك تراني محني الظهر، ولكني قويم الرأي ثابت الجنان. .
أنا الشرق، عندي فلسفات وعندي ديانات،
فمن يبيعني بها طيّارات؟»
وقال في بغداد سنة ١٩٢٢ أيضاً:
«دجلة.
أصافحه والقلب في يدي،
أحييه والروح على لساني،
أكبره وكلي كلمة الإكبار،
أقف أمامه فتنكشف أمامي أعاجيب الزمان.
أنظر إليه فتنظر منه إليّ ربّات الأقاليم،
ألمس ردنه فيرتعش جسمي، فينتعش فيهتزّ ابتهاجاً. .
تقول له الجبال: اقرأ السهول سلامنا،
ويقول هو للسهول: اقرئي سلامي قحطان ومضر.
هو ربّ العراق، هو حياته الخالدة. .».

ثم يحيي بغداد، بغداد الرشيد التي لايزال ذكرها يعطّر أرجاء الآداب الغربية. بغداد المأمون التي لا يزال نورها يشع بين أنواع العلوم البشرية. وحيّا العراق، سمع صوتاً يقول: «وربّ العراق، إن قلب العراق حيّ إلى الأبدا».

وحيّا الحرية «رفيقته في السفر والمبتدأ في حياته والخبر». جاءت تزور البلاد العربية وتزرع فيها بذور الطيبة الصفيّة. . هي الحرية «ابتسمت في الحجاز ابتسامة المريض، وبكت في تهامة بكاء اليائس، وضحكت ثم تأوّهت في اليمن، وجلست تستريح في العراق. . .».

خاطب الأئمة والأمراء والملوك والسلاطين فقال إن في يدهم كنزاً هم عليه أوصياء، في يدهم إرثاً استحفظهم به الله. ناشدهم أن يحموه من النفوذ السياسي الخبيث، ومن التعصب الذميم ومن روح الرجعة الوخيم. وقال إن في يدهم أمة لا تعرف خيرها الحقيقي، وهي لجهلها طعمة لكل صائل وكل نهاب. سألهم أن لا يكونوا هم من المستعبدين الطغاة، قال:

«أيها الملوك والسلاطين والأئمة والأمراء،

إن في كلمة واحدة اليوم حياة هذه الأمة.

والكلمة لكم، فهل أنتم بها ناطقون؟

هل أنتم في أمر واحد متحدون؟

هل أنتم بالصلح راغبون؟

هل أنتم في سبيل الوحدة مجاهدون؟...»

حذّر الأمة من الطفيليات فقال: «انهضوا ينهض الله معكم.. إن الأمة التي تكثر فيها الطفيليات لا تعيش طويلاً. فكروا بالإنتاج قبل أن يهلككم الاستهلاك..».

والريحاني إلى ذلك أديب رائع الأسلوب، إنساني النزعة. يكتب عن الجوع، إذا نضبت في البلاد الأنهر وانقطعت الأمطار واستحالت السماء نحاساً حامياً ترسل أشعة شمسها نقمة وانتقاماً فتحرق الأشجار وتأكل الأثمار وتحيل الحقول إلى صحاري قاحلة، أو إذا غزا الجراد الزرع والمروج فيلتهم الأخضر واليابس، أو إذا ألقى الوباء في الأمة عصاه وشرع يفتك فيها ذريعاً، أو إذا كانت الأمة في حرب فحاصرها العدو وحبس عنها الطعام، فتلك كلها حالات منها من فعل الطبيعة أو القضاء والقدر ومنها ما هو جناية الإنسان على أخيه الإنسان. إن خيرات الأرض تكفي أبناء الأرض، فالتكافل والتعاون من ضرورات الحياة الإنسانية ومن واجب الغنيّ المتخم أن يواسي أخاه الجائع العريان.

وهو يصف رجال العرب الذين قابلهم وحادثهم فإذا به يصورهم أبلغ تصوير، في أفكارهم وآرائهم وفي سماتهم وهيئتهم وأرديتهم. ويصف الصحراء التي اجتازها ليصل إلى سلطان نجد، فإذا «الليل صافي الجبين، رقيق الجلباب، شأنه في البادية. تدنو النجوم في سمائه من الأرض بريقاً وتسمع فيه الأصوت كأنها على طول المسافات الأبواق في الغابات، لها دوي لطيف ينجد ويغور، وصدى يتماوج كالنور...».

لم يكتف الريحاني بدعوة أمته العربية إلى النهضة والإصلاح والتعاضد ونبذ الخلاف، بل كان رسولها إلى الإنكليز والأمريكيين وأمم الغرب بما كتبه بلغتهم.

عرّفهم سنة ١٩٠٣ بشعر أعمى المعرّة، ثم نقل إليهم نشيد الصوفية وجال بهم في بوادي نجد وسواحل الجزيرة العربية وهضابها، وعرض عليهم صورة ابن سعود صانع بلاد العرب الحديثة.

تعرّف الريحاني قبل الحرب العظمى الأولى بالشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء فدارت بينهما مراسلات في المواضيع الدينية والاجتماعية نشرها المجتهد النجفي في كتابه «المراجعات الريحانية» المطبوع في بيروت سنة ١٩١٣. قال جعفر الخليلي إن

الريحاني زار كاشف الغطاء بعد سنوات عديدة في النجف فرأى أمامه أوراقاً يدوّنها في موضوع الفرائض من صلاة وصوم وحج. قال له الريحاني: إن الذي أعرفه عنك أنك لم تخلق لهذا، فأنت أرفع شأناً من أن تقضي وقتك بمثل هذه الأمور وتعاف إصلاح المجتمع. وحين همّ بالقيام من عند الشيخ قال: لقد كان الإمام كاشف الغطاء من أعزّ أصدقائنا فأفسده الدين علينا.

ذلكم أمين الريحاني الذي خاطبه أحمد شوقي قائلاً:

إيهٍ، أمين، لمست كل محجب ... في الحسن من أثر العقول وباد
رفعوا لك الريحان كاسمك طيّباً ... إن العمار تحيّة الأمجاد

وحيّاه معروف الرصافي حين زار بغداد فقال:

إن العراق بعرضه وبطوله ... وبرافديه وباسقات نخيله
يهتزّ مبتهجاً بمقدم ضيفه ... ويبش مبتسماً بوجه نزيله
ومرحباً والشكر في ترحيبه ... ومؤهلاً والحمد في تأهيله

ثم يشكو إليه حالة العراق وعفاء مجده القديم وتشتّت قلوب رجاله، حتى يقول:

أأمين لا تغضب عليّ فإنني ... لا أدّعي شيئاً بغير دليله
من أين يرجى للعراق تقدّم ... وسبيل ممتلكيه غير سبيله؟
لا خير في وطن يكون السيف ... عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده، والعلم ... عند غريبه، والحكم عند دخيله
وقد استبدّ قليله بكثيره ... ظلماً، وذلّ كثيره لقليله...

ويخاطبه عند عودته من سياحته في بلاد العرب بقصيدة مطلعها:

هي النفس أغشى في رضاها المعاطبا ... وأحمل منها بين جنبيّ قاضبا

يسأله عن حالة الحجاز وتهامة وصنعاء ونجد والبلاد التي زارها:

ليجمع من أبناء يعرب شملهم ... ويقضي حقاً للمواطن واجبا

ثم يشتد في حملته على العراق التي انطوت نفوس أهلها، كما يقول، على اليأس من معايب شائنة وحكومة تفرض الضرائب ظلماً ووزارة ألفوها كذباً فيها للكاذبين مآرب. وإن قصيدتي الرصافي هاتين وسائر القصائد والخطب والمقالات التي كانت تنظم وتلقى وتكتب في العراق العائش آنذاك في ظل الانتداب لتقوم دليلاً على حرية الفكر والصحافة وصراحة القول والكلام.

***

ولد أمين بن فارس بن أنطون بن يوسف بن عبدالأحد البجّاني المعروف بالريحاني في الفريكة من قرى قضاء المتن في لبنان في ٢٤ تشرين الثاني ١٨٧٦ وتلقى فيها مبادئ القراءة والكتابة.

وسافر إلى الولايات المتحدة مع عمه وهو في الثانية عشرة من عمره، فدرس في مدرسة ليلية وانتمى إلى كلية الحقوق ثم غادرها بعد حين قصير. ونزع إلى فنّ التمثيل فانضم إلى فرقة مسرحية أمريكية وما لبث أن تركها. لكنه أقبل على المطالعة بنهم شديد، وقرأ أمهات كتب الأدب والتاريخ باللغتين الانكليزية والعربية، ففاز بثقافة واسعة متعددة الجوانب. وتنقل بعد ذلك بين أمريكة ولبنان، فعاد إلى الجبل سنة ١٨٩٨ وقفل بعد حين راجعاً إلى الولايات المتحدة. وعمل في أثناء زيارته للبنان معلماً للإنكليزية، كما انتهز الفرصة ليتقن العربية. ولما عاد إلى نيويورك بدأ بنشر أولى مؤلفاته فيها: موجز تاريخ الثورة الفرنسية (١٩٠٢) المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية (١٩٠٣)، قصة المكاري والكاهن (١٩٠٤)، كما نشر بالانكليزية: رباعيّات أبي العلاء (١٩٠٣)، آمس ومُرّ (بوسطن، ١٩٠٥).

عاد إلى لبنان للمرة الثانية سنة ١٩٠٤ فأقام في الفريكة ست سنوات يكتب ويخطب، وأصدر الريحانيات وغيرها من الآثار. ثم عاد إلى نيويورك، وجاء إلى لبنان للمرة الثالثة سنة ١٩١٢. ولم يلبث أن آب إلى الولايات المتحدة وزار المكسيك مرتين هرباً من شتاء نيويورك القاسي.

قدم إلى مصر بعد الحرب وقام بسياحته في العراق والجزيرة العربية. وزار أنحاء العالم المختلفة من لندن وباريس إلى الأندلس والشمال الأفريقي وفلسطين والهند. ثم اعتكف في صومعته بالفريكة مسقط رأسه حتى وافته المنية في ١٣ أيلول ١٩٤٠. كان إنتاجه باللغتين العربية والإنكليزية واسعاً شمل التاريخ والسياحة والرواية والخطابة والشعر المنثور والمقالات الاجتماعية والأدبية. وانتخب عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق (١٩٢١) وعضواً في جمعية الشعراء الأمريكيين ومنتدى الصحافة النيويوركية ونادي المؤلفين الأمريكان والجمعية الشرقية الأمريكية، واختاره معهد الدراسات العربية في المغرب الإسباني رئيساً فخرياً له.

مؤلفاته

ثلاث خطب: في نار المراقبة ونور الدستور (بيروت، ١٩٠٨) الريحانيات (الجزء الأول والثاني ١٩١٠-١١، الثالث والرابع ١٩٢٣-٢٤) زنبقة الغور (نيويورك ١٩١٥)

خارج الحريم أو جهان (نيويورك ١٩١٧) ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية (جزآن، بيروت ١٩٢٤) تاريخ نجد الحديث وملحقاته (١٩٢٧) التطرف والإصلاح (١٩٢٨) ذكرى جبران (١٩٣٢) فيصل الأول (١٩٣٣) أنتم الشعراء (١٩٣٤) وفاءالزمن (١٩٣٥) النكبات - خلاصة تاريخ سوريا (١٩٣٨) قلب العراق (١٩٣٥) قلب لبنان (١٩٤٧) سجل التوبة (قصص، مصر ١٩٥١) المغرب الأقصى (مصر ١٩٥٢) هتاف الأودية (١٩٥٥).

مؤلفاته باللغة الإنكليزية: كتاب خالد (نيويورك ١٩١١) لزوميات أبي العلاء (بوسطن ١٩١٨) تحدّر البلشفية (١٩٢٠) طريق الرؤيا (نيويورك ١٩٢١) نشيد المتصوّفة (١٩٢١) ابن سعود من بلاد العرب (لندن ١٩٢٨) مؤسس بلاد العرب الحديثة (بوسطن ١٩٢٨) حوالي سواحل بلاد العرب (١٩٣٠) القمة والصحراء العربية (لندن ١٩٣٠، بوسطن ١٩٣١).

كان الريحاني مع هاري سنت جون بريدجر فيلبي (الحاج عبدالله فلبي) (١٨٨٥ - ١٩٦٠) أول من ألف كتباً في إنكلترة وأمريكة عن عبدالعزيز آل سعود صابح نجد الناهض وبلاده. فقد ألف فيلبي كتابه «قلب بلاد العرب» في جزءين سنة ١٩٢٢ وأتبعه بكتبه: الانتدابات العربية، الحقيقة عن بلاد العرب، بلاد العرب الوهابية، بلاد العرب، الربع الخالي، أربعون عاماً في الفلاة، العربية السعودية، وأخيراً «أرض مدين» الصادر سنة ١٩٥٧.

ولا بدّ أن نختتم كلمتنا عن أمين الريحاني بذكر قصيدته المنشورة «ريح سموم» التي نظمها في نيويورك سنة ١٩٠٧ وقال منها:

«بربّك القيوم، ما الذي تظنّه يدوم؟»

قال: لن تدوم الصروح الزاهية الفخمة ولا الرياض والبروج والمعامل والبوارج والقباب والأنفاق والجزائر والجبال..

«صوت صارخ من وراء الغيوم،
صوت ريح سموم: أي شيء يدوم؟..
لا يدوم إلا السجايا الروحية الفريدة،
سجايا النفس البشرية المجيدة.
يومئذ يبطل الجدال وتنكسر شوكة المال،
وتحشر الرجال وتكبر الآمال.

يومئذ تنقلب المجتمعات

وترتعد فرائص الطغاة العتاة،

وتهبّ على الأرض الذاريات السّافيات.

إن هي إلا مدّة من الدهر الوسنان،

ساعة أو عصر من الزمان،

يومئذ وربّ الأكوان

لا بقاء لسوى الجد والعرفان

والمعروف والإحسان».

تلك رؤيا الريحاني في شبابه رافقته إلى آخر أيامه، وكانت صورة إيمانه بالإنسانية ورسالته إلى الأجيال الطالعة.

وقد رثاه خليل مطران شاعر القطرين فقال:

الشرق طال سباته الروحاني   هل أيقظته صيحة الريحاني؟

أي الهداة الراشدين عناه   ما رمزت إليه من كبير معان؟

السيد أبو القاسم الكاشاني

من رجال الدين والسياسة عرف بمناوأته للإنكليز في العراق وإيران، كان أبوه السيد مصطفى بن حسين الكاشاني الحسيني نزيل الكاظمية من المجتهدين الذين ساهموا في الحركة الدستورية الإيرانية في مطلع القرن العشرين بزعامة الملاّ كاظم الخراساني. وقد ولد في كاشان سنة ١٨٤٥ ودرس في النجف وتوفي سنة ١٩١٨ في الكاظمية.

ولد السيد أبو القاسم في طهران سنة ١٨٨١، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى مضى إلى النجف ودرس على محمد كاظم الخراساني والميرزا حسين الخليلي الطهراني وغيرهما، وأصبح من علماء الإمامية البارزين. ولما نشبت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ جاهد مع أبيه على رأس المتطوّعة من العشائر في ساحة الشعيبة إسناداً للجيش التركي. ثم كانت له يد في الحركة الوطنية في بغداد سنة ١٩٢٠، حتى اذا ما نشبت الثورة لحق بكربلاء وأبلى فيها بلاءً حسناً.

واعتقل عند خمود نارها في الحلة، وأطلق سراحه بعد صدور العفو العام في آخر أيار ١٩٢١. واشترك في معارضة المجلس التأسيسي، وبارح العراق إلى إيران مع العلماء في سنة ١٩٢٣ فاتخذها مقرّاً دائماً له.

نشط في مناوأة الإنكليز في إيران بعد خلع رضا شاه بهلوي سنة ١٩٤١ فاعتقل في حزيران من السنة التالية من جانب السلطات العسكرية البريطانية بتهمة الاتصال بالوكلاء الألمان. وألف بعد انتهاء الحرب العالمية منظمة «فدائيان إسلام». واعتقل سنة ١٩٤٩ بتهمة التحريض على اغتيال الشاه محمد رضا. ومضى إلى بيروت فأقام فيها أمداً، وانتخب في غيابه نائباً عن طهران في مجلس النواب، فعاد إلى العاصمة الإيرانية سنة ١٩٥٠.

ولما جاء محمد مصدق (١٨٨١ - ١٩٦٧) إلى الحكم وتولى رئاسة الوزراء وأمم النفط، شدّ الكاشاني أزره وانتخب رئيساً للمجلس (آب ١٩٥٢). لكنه سرعان ما

اختلف مع مصدّق وعارض منحه السلطات التنفيذية الكاملة، فنحّي عن رئاسة المجلس في تموز ١٩٥٣ واعتزل الحياة السياسية. وقد أيّد حركة القضاء على حكم مصدّق وعودة الشاه محمد رضا في ١٩ آب ١٩٥٣ .

وتوفي في طهران في ١٤ آذار ١٩٦٢.

كان الكاشاني سياسياً بارعاً وخطيباً لامعاً مهيجاً للجماهير ومتلاعباً بعواطفها، لكنه لم يشتهر فقيهاً.

كتب قدري قلعجي عن دعوة محمد مصدق سنة ١٩٤٩ لتأميم النفط وقال إن أبا القاسم الكاشاني أيّد دعوته وحرّك الشارع انتصاراً لموقفه. وقال: «والكاشاني هو الزعيم الروحي المسيطر على عشرات الألوف من المؤمنين وطلبة العلوم الدينية الذين يتخذون مساجد إيران مساكن لهم. وكان يرتدي كفنه ويسير في طليعة المتظاهرين، فتسير طهران كلها وراءه مردّدة هتافه».

وقد أصدر الكاشاني بياناً في طهران بمناسبة انتفاضة تشرين الثاني ١٩٥٢ في بغداد والمظاهرات التي قامت للمطالبة بالانتخاب المباشر والاصلاح طالب فيه إعلان الإضراب في المدن الإيرانية تأييداً للشعب العراقي.

سعدون باشا السعدون

من رؤساء آل سعدون، وهو سعدون بن شيخ المنتفق منصور باشا ابن راشد بن ثامر بن الشيخ سعدون. كان أبوه منصور باشا (أخو ناصر باشا السعدون الشهير) قد سمّى نفسه سلطان البرّ وأعلن استقلاله في ديرة المنتفق، فجرّدت الحكومة العثمانية حملة عسكرية قضت على إمارة آل سعدون في سنة ١٨٨١. وذهب منصور إلى استانبول وعيّن عضواً في مجلس شورى الدولة، وتوفي سنة ١٨٨٦ في بغداد.

ولد سعدون السعدون في المنتفق سنة ١٨٥٧، واصطحبه أبوه إلى بغداد وهو صغير، فدرس فيها العربية وقليلاً من التركية. واشترك في تمرّد سنة ١٨٨٠/ ٨١ على السلطات العثمانية، فلما أخمدت الحركة، توسّط بين الحكومة وعشائر الميّاح فمنحته الدولة رتبة أمير الأمراء (باشا) سنة ١٨٨١.

ثم اختلف مع والي بغداد فانطلق إلى البادية ودانت له أكثر العشائر الضاربة بين النجف والكويت. وأغار على قبائل شمّر، وحارب عبدالعزيز آل رشيد سنة ١٨٩٩، ولم تفلح القوات التركية في منازلته. واتخذ مقامه في برّ الشامية ثم جنوبي الكويت وشنّ الغارات على أطراف البصرة والناصرية.

وعفا عنه السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٩٠٤، فعاد إلى مقرّه في الشامية، وكانت له بعد ذلك حروب وأخبار مع الشيخ مبارك الصباح صاحب الكويت. ثم داهمته العشائر في آخر أمره فلجأ إلى البصرة - وقبض عليه فأرسل إلى بغداد ومنها إلى حلب (حزيران ١٩١١)، فلم يلبث أن توفي بها في أوائل كانون الأول ١٩١١.

وصفه يعقوب سركيس فقال إنه كان يقرأ العربية ويكتبها بسهولة عظيمة ويحسن شيئاً من التركية. وكان ديّناً تقياً حج إلى بيت الله الحرام وحفظ بعض الأحاديث وشيئاً من التاريخ العربي ووعى وقائع أسرته. وكان يقظاً ذا ذكاء ونباهة، أنيس المجالسة على رزانته ووقاره وهيبته.

وقد عرف من أبنائه الشيخ ثامر وعجمي باشا وسعود وحمود. حارب عجمي

الإنكليز مع القوات التركية في الشعيبة والناصرية سنة ١٩١٥/١٦ ومنح رتبة الباشوية جزاء خدماته. وأقام بعد ذلك في تركيا، فأقطعته الحكومة بعض الأراضي. وقد توفي بها سنة ١٩٠٦.

أما الشيخ ثامر السعدون فولد سنة ١٨٨٩. وعيّن مسؤولاً عن الاستخبارات في البادية الجنوبية وكلّف بتجهيز قوة عشائرية لصدّ غارات القبائل النجدية على الحدود (ايلول ١٩٢٣). وانتخب نائباً عن المنتفق في مجلس النواب في حزيران ١٩٣٩. وجدد انتخابه في تشرين الأول ١٩٤٣ وآذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨ وكانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ وأيلول ١٩٥٤ ونيسان ١٩٥٨ إلى ثورة ١٤ تموز. ومضى بعد ذلك إلى المملكة العربية السعودية، فتوفي في الرياض في أيار ١٩٦٥.

وكان الشيخ سعود السعدون نائباً عن المنتفق في شباط ١٩٣٧، وتوفي في حزيران ١٩٧٣.

عرف أيضاً من أبناء سعدون باشا الشيخ حمود، وقد زار الملك حسين ملك الحجاز في مكة سنة ١٩١٨ فأهداه الملك سيفاً ذهبياً وخنجراً.

وقد قال الشيخ علي الشرقي يصف سعدون باشا: كبير النفس، عالي الهمة، نهض في بادية العراق وفي بلاد المنتفق وحاول تجديد عهد آل سعدون وتأسيس إمارة بدوية وحمل آله على الرجوع إلى البداوة وترك التحضّر. وقال إنه اضطر إلى الجلاء إلى الحويزة في جنوب إيران، وهناك ولد ابنه الذي سمّاه عجمي.

وآل سعدون سادة حسينيّو النسب.

التقى الجاسوس البريطاني جيرارد ليجمن بسعدون باشا سنة ١٩١٠، وكان سعدون قد دحر قوة مشتركة من الكويت ونجد بقيادة جابر بن الشيخ مبارك وعبدالعزيز آل سعدون في الصحراء قرب منطقة البطين على الحدود الكويتية النجدية وفتك برجالها فتكاً ذريعاً. قابله ليجمن بعد المعركة التي وقعت في آذار ١٩١٠ فكتب عنه أنه رجل لطيف للغاية «وقد شعرت بالراحة معه أكثر من أي شخص آخر». ووصفه بأنه مطّلع على آخر الأحداث ومجامل وثري وجندي ممتاز، يكره الأتراك كرهاً شديداً، وقد هزمهم في أكثر من معركة.

طالب باشا النقيب

شخصية متناقضة غريبة لمعت في العقدين الأولين من القرن العشرين وفرضت زعامتها حيناً على البصرة خصوصاً والعراق عموماً، ثم لم تلبث أن أفلت وغابت. كان السيد طالب النقيب بعيد المطامح، كثير المطامع. برز في مسقط رأسه البصرة وعارض الاتحاديين وهم في أوج مجدهم بعد إعلان الدستور التركي سنة ١٩٠٨، فطالب بالإصلاح واللامركزية. ولما أوجس ريبة منهم انتدب بعض أعوانه فاغتالوا اثنين من كبار رجالهم على جسر العشّار. ثم تصالح مع الدولة، لكن الحرب العامة لم تلبث أن نشبت في سنة ١٩١٤، فمضى إلى الكويت. واعتقله الإنكليز ونفوه إلى جزيرة سيلان، ثم سمحوا له بالشخوص إلى مصر. عاد إلى بغداد بعد الهدنة وطمح إلى حكم العراق ملكاً أو أميراً في ظل الانتداب البريطاني، فلم يأمن الإنكليز جانبه، بل أبعدوه ثانية إلى سيلان. وعاد إلى البصرة بعد ذلك، وقد أفل نجمه، فاعتزل الحياة السياسية أو بالأحرى هي التي اعتزلته.

دعاه الدكتور علي الوردي «النهاب الوهّاب» وشبهه فيليب آيرلند بروبن هود المغامر الإنكليزي الذي ظهر في زمن الملك هنري الثاني، لكن روبن هود، على ما قيل، كان يحصل على المال من الأغنياء ليوزعه على الفقراء. أما السيد طالب فكان يبتزّ الأموال ويفرض الأتاوات على الأثرياء فينفق عن سعة لتحقيق مطامعه وإحاطة نفسه بالأعوان وإجازة الشعراء الذين يمدحونه ويمجّدونه.

وهو السيد طالب بن رجب بن محمد سعيد بن طالب بن درويش الرفاعي ينتمي إلى أسرة شريفة تتولى نقابة أشراف البصرة وتنتسب إلى أخي السيد أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الكبير (١١١٨ - ١١٨٢م) صاحب الطريقة الرفاعية المتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب. وللأسرة قرابة بالسيد محمد حسن وادي المعروف باسم أبي الهدى الصيّادي الرفاعي (١٨٤٩ - ١٩٠٩) الذي كان موضع ثقة السلطان عبدالحميد الثاني العثماني، خدمه نحواً من ثلاثين سنة وقلده السلطان مشيخة المشايخ.

وكان أبو الهدى يرعى الرفاعيين في سوريا وبغداد والبصرة ويتوسط في منحهم الرتب والمراكز الخطيرة.

ولد السيد طالب في البصرة في ٢٨ شباط ١٨٧١ ودرس القرآن واللغة العربية على معلمين خصوصيين شأن أبناء الأشراف في زمانه، ثم تعلم اللغات التركية والفارسية والإنكليزية وشيئاً من اللغة الهندية. نبه شأنه وهو لا يزال شاباً لجرأته الفائقة وولعه بالمجازفة والمغامرة، فأنعمت عليه الحكومة العثمانية بالرتبة الثانية، ثم منحته رتبة المتمايز سنة ١٨٩٥ لبلائه الحسن في جمع الإعانات للجيش. ورفع بعد ذلك إلى رتبة «ميرميران». ورحل إلى الآستانة سنة ١٨٩٩ فنال الحظوة فيها بمساعي السيد أبي الهدى المتنفّذ في بلاط السلطان عبدالحميد.

عيّن سنة ١٩٠١ متصرفاً للواء الأحساء في نجد وأنعم عليه بالوسام العثماني من الدرجة الأولى وثم برتبة «بيالا» الرفيعة الشأن. ونقل خير الدين الزركلي في «أعلامه» أن السيد طالب باشا قاتل بني مرّة، وكانوا يعيثون في الأرض فساداً، وظفر بهم في مكان يسمى «آلزرنوقة». واتصل بعبد العزيز آل سعود، وهو في بدء حركته يحارب خصوم أسرته آل رشيد، فدعاه إلى الولاء للدولة العثمانية، لكن عبدالعزيز اشترط خروج الأتراك من الأحساء.

استقال من المتصرفية بعد سنتين، ثم زار الآستانة سنة ١٩٠٤ فعين عضواً بالقسم المدني من ديوان شورى الدولة واستمرّ في منصبه إلى إعلان الدستور سنة ١٩٠٨.

وأسست الحياة النيابية في الدولة التركية فانتخب نائباً عن البصرة في مجلس المبعوثين سنة ١٩٠٨ وأعيد انتخابه في المجلسين التاليين سنة ١٩١٢ و١٩١٤. وقد علت شهرته في البصرة وكثرت مغامراته وعرفت له زعامة شعبية فرضها فرضاً على السلطات الحكومية وطبقات الناس على حدّ سواء.

والتفّ حوله الشباب الوطني المثقف ورجال الصحافة أمثال سليمان فيضي وعبدالرزاق النعمة وعيسى روحي فرشحهم للنيابة وضمن فوزهم على الرغم من معارضة الاتحاديين المسيطرين على الحكم في العاصمة التركية. كان يحصل على المال بطرق شتى وينفق عن سعة وينادي بالإصلاح واللامركزية ويناوئ السلطة بلا خوف ولا وجل. وقد أصبحت داره ملجأ لفريق من أحرار العرب المنتمين إلى الجمعيات السرّية والفارّين من بطش الحكومة، وفي مقدمتهم الضابط الشاب نوري السعيد والدكتور عبدالله الدملوجي.

أسس السيد طالب جمعية البصرة الإصلاحية في شباط ١٩١٣ وشجّع تأسيس النادي الوطني في بغداد وأعان الجرائد الناطقة بلسانه والمنادية بالإصلاح. وقصده الشعراء فمدحه كاظم الدجيلي وخيري الهنداوي وعبدالمطّلب الحلي وعبدالرحمن البناء وسواهم ورأوا فيه الزعيم المصلح المطالب بحقوق الأمة. خاطبه خيري الهنداوي قائلاً:

إلى المجد قدها فهي للمجد تنزع ... فقد طال ما ترجو وما تتوقع
لقد سمعت صوت النهوض إلى العلى ... فقامت على أقدامها تتطلع...
أطالب، إن لم تطلب الحقّ بالقنا ... سيبقى برغم المجد وهو مضيّع
مناي وقوف بين مشتجر القنا ... أحرّض قومي للعلى وأشجّع
ولست أبالي إن قضيت لُبانتي ... دنا أم نأى عنّي الحمام المروّع

وممن أثنى عليه ومدحه أيضاً عبد المحسن الكاظمي في مصر.

وقال فيه عبدالرحمن البناء:

والشمس قد بزغت كغرّة طالب ... في ملتقى العافي وبذل الجود
الماجد القرم الذي سبق الملا ... بمكارم جلّت عن التحديد
والماحق الخطب الجسيم عن الورى ... بصقيل رأي من يقين سديد
قمر النقابة، شمس دائرة العلى، ... كهف المروع وملجأ المطرود..

وقال:

لأقسم من في العصر والعصر طالب ... سواك لإصلاح العراقين طالب
فإن قلت: ما في الكون مثلك مصلح ... تصدّقني فيما أقول المناقب
فلا جاد فيما جدت بالفضل ماجد ... ولا ناب عن أفعالك الغرّ نائب
بزغت بزوغ الشمس في أطلس العلى ... بفخرك، يا من حنّكته التجارب
طلبت العلى والمجد كهلاً ويافعاً ... ففزت وفازت في علاك المطالب
وخلّدت للأوطان ذكراً مبجّلاً ... على جبهة التاريخ، والنور كاتب

وقال أيضاً:

بينهم طالب العلاء كبدر ... يتلالأ بشاشة وحبورا
أريحي له الكواكب طبع ... بسناها تزحزح الديجورا
حنكته في خبرة ونشاط ... فرأته بالمعضلات خبيرا
له في الصدر نهضة لا تضاهى ... شرحت بالإصلاح منا الصدورا

وقال:

أطالب إصلاح العراق، أأنت ذا فها أنا عن رؤياك عيل تجلّدي

فلولاك في قطر العراقين لم يكن إلى العرب ذكر سار في كلّ فدفد...

استمر السيد طالب يتحدى الحكومة التركية ويخاصم السلطات المحلية في ولاية البصرة بضع سنوات، فتقرر إيفاد الزعيم فريد بك آمر موقع البصرة ومن أقطاب الاتحاديين ومعه متصرف لواء الناصرية بديع نوري بك (وهو أخو ساطع الحصري) لوضع حدّ لحركاته. لكنه علم بما خبئ له فبادر إلى إرسال أعوانه لمقابلتهما في جسر العشار المؤدي إلى البلدة، وأطلقوا النار عليهما في ٢٠ حزيران ١٩١٣ فأردوهما قتيلين. وفرّ الجناة فلم يعثر لهم على أثر. وجاملته الحكومة بعد ذلك وتقرّبت إليه سلطاتها فأعلن السيد طالب في شباط ١٩١٤ بياناً صرّح فيه بتفاهمه معها وتوحيده المساعي لإعلاء شأن الدولة.

وقد أوفدته الحكومة التركية في ربيع تلك السنة لمفاوضة عبدالعزيز آل سعود أمير نجد الذي احتل الأحساء وأخرج الأتراك منها في السنة السالفة. وعاد إلى البصرة، لكن صدرت الأوامر السريّة باعتقاله وذهب والي بغداد إلى تلك المدينة في تشرين الأول ١٩١٤ على رأس قوة كبيرة. وفي ٢٨ من الشهر المذكور أعلنت تركيا انضمامها إلى ألمانيا في محاربة الحلفاء. وعلى أثر ذلك دعا القنصل البريطاني في البصرة السيد طالب لموافاته في المحمرة (خرّمشهر الحالية) لدى أميرها الشيخ خزعل خان الموالي لبريطانيا.

وقد سئل أن يتعاون مع الإنكليز مقابل التعهد بتنصيبه حاكماً على البصرة والناصرية ومنح المنطقة حكماً ذاتياً وجعل العربية لغة الدراسة والقضاء. واقترح السيّد طالب أن يساعده الإنكليز بالمال والسلاح لإنقاذ البلاد العربية من الاستعمار التركي، لكن اقتراحه رفض كما ذكر ذلك سليمان فيضي في مذكراته «في غمرة النضال».

عاد طالب إلى البصرة، لكنه علم بنوايا الأتراك وأوجس خيفة منهم فغادر الثغر مع سليمان فيضي قاصداً الكويت (٥ تشرين الثاني ١٩١٤) ومضى منها إلى بُريدة في نجد حيث قابل الأمير عبدالعزيز آل سعود. واحتل الإنكليز البصرة في ١٩ تشرين الثاني، فمضى طالب في كانون الثاني ١٩١٥ إلى بومبي. ونقله الإنكليز إلى بنكالور ومنها إلى جزيرة سيلان، ثم سمحوا له بالشخوص إلى مصر سنة ١٩١٧.

عاد إلى البصرة في شباط ١٩٢٠، ثم جاء إلى بغداد وعهد إليه برئاسة اللجنة المكلفة بوضع قانون الانتخاب (آب ١٩٢٠)، وكان من أعضائها النواب العراقيون في مجلس المبعوثين التركي السابق وفريق من الوجهاء وأصحاب الرأي. وفرغت اللجنة من

مهمتها في ٤ تشرين الثاني ١٩٢٠. وفي ٢٧ تشرين الأول من السنة نفسها ألفت الحكومة الوطنية برئاسة السيد عبدالرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد وتولى السيد طالب وزارة الداخلية. وبرز طموحه السياسي سافراً، ومضى في جولة إلى الألوية الجنوبية كثرت فيها الاجتماعات والخطب والمداولات خلافاً لرأي الدولة المنتدبة، فنحّي عن الوزارة في ١٦ نيسان ١٩٢١ وأقصي إلى جزيرة سيلان. وبعد سنتين قضاهما في تلك الجزيرة وربوع الهند سمح له بمغادرتها إلى أوربة. وعاد إلى العراق في أيار ١٩٢٥، فأقام في البصرة معتزلاً الحياة السياسية ومنصرفاً إلى أشغاله الخاصة.

اشتدت عليه وطأة المرض في أيار ١٩٢٩ فسافر إلى ألمانيا مستشفياً. ووافته المنيّة في مونيخ عاصمة بافارية في ١٦ حزيران ١٩٢٩. ونقل جثمانه إلى البصرة فووري التراب فيها في ١٦ آب ١٩٢٩.

***

كان هاري سنت جون فيلبي الشهير الذي أسلم فيما بعد وأصبح يعرف باسم الحاج عبدالله فيلبي مستشاراً لوزارة الداخلية العراقية سنة ١٩٢٠ - ٢١. وقد تعرّف إلى السيد طالب في اسكندرية مصر، فلما التقى به في بغداد سنة ١٩٢٠ صرّح الزعيم العراقي له بطموحه إلى اعتلاء عرش العراق تحت الوصاية البريطانية. والحق أن فيلبي أعجب به وأخذ بقوة شخصيته على الرغم مما كان يتصف به من غرور واندفاع.

وقد قال الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» إن المستر فيلبي التزم السيّد طالب في حين بدأت المس جرترود بيل تتخوّف منه، فكان صراع بين الاثنين انتهى بالقبض على السيد طالب ونفيه. ولم تمض بضعة أشهر حتى استقال فيلبي من وظيفته وغادر العراق إلى شرقي الأردن حيث عيّن معتمداً بريطانياً لدى الأمير عبدالله في عمان.

وكان السيد طالب يواصل مغامراته في بغداد. فمن ذلك أن مثرياً يهودياً عراقياً عاد إلى بغداد بعد الحرب العظمى الأولى من منشستر حيث أصاب ثروة كبيرة فابتنى قصراً منيفاً على شاطئ دجلة في جانب الكرخ. فاستدعاه السيد طالب، وقد أصبح وزيراً للداخلية، وسأله إخلاء القصر وتسليمه له، لكن الرجل رفض طلبه. وعلى أثر ذلك أوعز السيد طالب إلى أعوانه باغتيال زوج غانية كانت لها صلة بصاحب القصر واتهمه بالجريمة، فأوقف وأحيل إلى المحاكمة. ثم برّئت ساحته بعد نفي الزعيم البصري وأفرج عنه.

وقد قالت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢١ أن السيد طالب ينفق مبالغ جسيمة، لكن كرمه على حساب غيره. فهو ينفق أكثر مما يستطيع، فإذا أعوزته النقود أرسل إلى أحد أثرياء البغداديين وقال له : أريد عشرين ألف روبية أو مبلغاً مماثلاً. والغريب أنهم يدفعون خوفاً من سطوته.

وعادت إلى ذكره في رسائل متعددة. وقالت في رسالتها المؤرخة في ١٢ كانون الأول ١٩٢٥ إنها ذهبت لتوديع الأمير زيد الذي كان مسافراً إلى إنكلترة، وكان في توديعه حفل حافل. ولاحظت السيد طالب بين الحضور، وكان قد قدم بغداد في زيارة. وخشيت أن يأتي لمصافحتها، فمضت إلى رئيس الوزراء عبدالمحسن السعدون وسألته أن يحذره من الاقتراب منها لأنها ستقاطعه. وفعل رئيس الوزراء ذلك فانكفأ طالب إلى الوراء. وقالت إنه قابل الملك فيصل فنصحه بأن يعيش في الخارج.

وقال أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» إن السيد طالب النقيب كان مغواراً في وطنيّته، جبّاراً في أعماله، طيّاراً في آرائه وآماله. ذكر الريحاني اجتماعه به في جدّة في خريف سنة ١٩٢٤، فإذا بالنقيب يرفع يده إلى رأسه ويقول : إن ها هنا شيئاً لا يُغلب، لا يغلب! وكان يفكّر بالرجوع إلى العراق ويمنّي النفس بالعودة إلى السياسة ويحلم الأحلام الذهبية. وقال للريحاني : «الأمور مرهونة بأوقاتها، وستسمعون عندما أعود ما يدهش ويسرّ إن شاء الله». ووعد الريحاني بتعيينه وزيراً للمعارف آنذاك!

لكن الأيام هدمت صرح الأحلام. وعاد السيد طالب إلى البصرة فلم يحقق القدر شيئاً من أمانيه.

قيّم توفيق السويدي، في كتابه «وجوه عراقية عبر التاريخ» (طبع لندن، ١٩٨٧) طالب النقيب فقال : «ولد وترعرع في البصرة في بيئة أرستقراطية متزمتة وغنية. ورغم دماثة أخلاق العائلة التقيّة وظهورها بمظهر المتدين.. فإن طالب برز من بين أفراد عائلته كشخص مستهتر بالتقاليد ومستصغر جميع القيم التي سارت عليها عائلته..»

وقال السويدي إن أسرته لم ترض عن سلوكه وحتى والده السيد رجب كان متململاً كثيراً من شقاوته ولم يتح للسيد طالب فرصة للتثقف فاعتمد في حياته على سطوة عائلته وغناها، وعلى ذكائه الذي كان يسوقه إلى أخطر الأعمال وأسوأها. وقد استغلّ مركز أبي الهدى الصيّادي صاحب المقام المرموق في الآستانة فاستفاد كثيراً منه بسبب وشائج النسب التي تربط بينهما.

وقال السويدي إنه تولى متصرفية لواء الأحساء فتصرف في مقدّرات البلد تصرّف

المالك دون سائل أو رقيب، حتى ضجّ الأهلون بالشكوى منه فعزل. وعاد إلى البصرة حيث صار يبتزّ الأموال ويرسل أعوانه لإهانة من يخالف أوامره وضربهم وتهديدهم بالقتل. وقد نجح والٍ واحد، هو فخري باشا، في ردعه عن غيّه باعتقال زمرته المجرمة وإلقاء أفرادها في النهر، فغرقوا غير مأسوف عليهم.

وختم السويدي كلامه قائلاً إن المعلّق المنصف يصعب عليه أن يستوفي حق طالب النقيب من النقد والتجريح، وربما من التقدير في مواضع قليلة من حياته الطويلة المليئة بشتى الأعمال المستهدفة المصلحة الشخصية والانتقام والابتزاز، كما يصعب القول إن حياة السيد طالب كانت سياسية قومية ترعى مصلحة الامبراطورية العثمانية أو القضيتين العربية والعراقية.

وقال فيلبي الذي كان يؤيده مرشحاً لعرش العراق إن السيد طالب «هو بلا شك الرجل البارز في العراق بفطنته وقوته، لكنه مجرّد من المبادئ الخلقية، يخشاه الجميع ويكرهه أكثر الناس».

وقد مضى طالب، وهو وزير الداخلية، في زيارة للألوية رافعاً شعار «العراق للعراقيين»، لكن الإنكليز رأوا في وجوده خطراً بعد ترشيح فيصل للعرش، فاعتقلوه في ١٦ نيسان ١٩٢١ وأبعدوه إلى جزيرة سيلان.

***

في صيف ١٩١٦ أرسل السيد طالب النقيب كتاباً إلى نائب الملك في الهند لورد شلمسفورد يقول إنه من حزب السلطان عبدالحميد الذي خلعه رجال تركية الفتاة. قبل أمد قصير من نشوب الحرب العامة أرادوا أن يتصالحوا معه فتعهد هو كما تعهدوا هم بعدم العمل ضد بعضهم البعض.

ولما احتل البريطانيون البصرة رأى من المستحسن أن يغادرها فجاء الى بومبي حيث لقي معاملة طيبة. والآن قد وجد اسمه في جريدة المقطم المصرية بين الأشراف العرب المطلوبين للمحاكمة أمام المحكمة العرفية في سوريا، ولذلك يعتبر نفسه في حلّ من كلمة الشرف التي أعطاها للأتراك.

وهو لذلك يضع نفسه عن طيبة خاطر تحت تصرف الحكومة البريطانية لمساعدتها في أي مكان تشاء، سواء في الحجاز تحت لواء صديقه الشريف حسين، أو في العراق حيث له مكانة غير منكورة.

والكتاب صادر من معتقل أسرى الحرب في بلاري بمقاطعة مدراس جنوبي الهند،

ويظهر أنه قرر في أواخر يوليو أو أوائل أغسطس ١٩١٦.

***

السيد طالب النقيب في نظر الشيخ مهدي البصير

قال الشيخ محمد مهدي البصير في كتابه «تاريخ القضية العراقية» : «حمل «السيد طالب بك» لواء النهضة «العربي» في العراق فطار صيته وذاعت شهرته». وقال إنه انتحل لنفسه لقب «عميد العراق». ثم واصل كلامه: «وحقاً إنه ممتاز بسخائه وجرأته إلى درجة تستحق التجلة والإكبار. وله مهارة فائقة بإظهار شخصيته وإعلاء منزلته بأي مكان كان. لكن القارئ يستطيع أن يدرك بسهولة من تتبع الحوادث التي سنرويها كيفية ظهور صفات الرجل الحميدة ومزاياه. خذ مثلاً أن محامياً جريئاً في البصرة يدعى عبدالله أفندي الراوندوزي كان يقبل النظر في الدعاوي المختلفة المرفوعة ضد آل النقيب في البصرة ويجرأ على مرافعتهم أمام المحاكم المدنية. وقد أثار بعمله هذا غضب السيد طالب عليه فجرحه أحد رجاله بإيعاز منه جرحاً بليغاً. ولما لم يقلع المحامي عن خطته بعد اندمال جرحه عاقبه السيد طالب بقتله علناً في رابعة النهار بمحلة في البصرة تسمى «سوق الدجاج». فقام الناس وقعدوا لهذه الحادثة حتى تضعضع مركز السيد طالب في البصرة. وآنئذ تلافى الأمر مولاه السيد أبو الهدى معتمد السلطان عبدالحميد الذي كان ينظر بعين الرعاية واللطف إلى أسرة آل النقيب في البصرة، فدعاه إلى الآستانة، ولم يلبث أن عينه متصرفاً للواء الحسا. . . وقد دبّر أثناء تقلده زمام هذا المنصب دسيسة تمكن بمقتضاها من الهجوم على بيت الحاج منصور باشا أحد أغنياء القطيف ووجهائه المشاهير، وحجة السيد طالب في تهجمه على بيت الحاج منصور باشا أنه يخبأ في بيته أسلحة بريطانية وعلماً بريطانياً يريد نشره لغاية في نفسه. ولكن السيد طالب لم يجد شيئاً من هذا القبيل. وعاد الحاج منصور باشا فاتهمه باختلاس مائة ألف جنيه من بيته وطلب مرافعته أمام محكمة جزائية، وملأ الجوّ صراخاً. فتصامت الحكومة عن سماع صوته، ولكن يقال إنها عقدت النية على عزل السيد طالب بدليل أنه عجّل بتقديم استقالته إلى الحكومة فقبلتها منه. . (وقد) غادر الحسا فذهب تواً إلى الآستانة، ولم يصلها حتى عيّن عضواً في القسم الملكي من ديوان شورى الدولة. وظلّ يشغل هذا المنصب إلى أن أعلن الدستور. وقضي على نفوذ وليّ نعمته ومولاه السيد أبي الهدى، فلجأ إلى الفرار من الآستانة إلى البصرة. .».

وذكر البصير بعد ذلك أن السيد طالب انتخب نائباً، لكنه لم يكن ذا مركز خطير

بمجلس النواب. وانضم بعد ذلك إلى حزب اللامركزية الإدارية ورفع عقيرته بطلب الإصلاح. وألف جمعية البصرة الإصلاحية فكان لها أعظم شأن والتفت الشبيبة حول رايتها ونظروا إلى مؤسسها نظرهم إلى زعيم كبير سيخطو بالنهضة الوطنية العربية في العراق خطوات واسعة. وقد لجأ إليه مزاحم الأمين الباجه جي بعد تعطيل جريدة «النهضة» البغدادية، كما لاذ بكنفه في البصرة فريق من الشباب الداعين إلى العروبة في الآستانة بعد أن جرت محاكمة عزيز بك علي المصري، ومنهم نوري السعيد وصبيح نجيب والدكتور عبدالله الدملوجي. وبات هؤلاء اللاجئون على حافة الخطر حين ألقى السيد طالب نفسه بين ذراعي صبحي بك والي البصرة وقائد قواتها وأذاع منشوره الذي أعلن فيه اتفاقه على تشريك المساعي لأجل إعلاء شوكة الحكومة السنية، ولم يبق أي خلاف معها بعد زوال سوء التفاهم..

وقال البصير إن السيد طالب لم يتحرص على توطيد نفوذه ببغداد، بل بثّ دعاته في أنحاء القطر. ولقيت دعوته نجاحها الأكبر في شواطئ الفرات الأوسط، ولاسيما لدى الشيخ مبدر الفرعون والسيد علوان الياسري. وأخذ هؤلاء يثيرون الأفكار ضد الحكومة التركية ويندِّدون بالموظفين المحليين ويتضجّرون من عبء الرسوم والضرائب. وكان الشاعرالسيد عبدالمطّلب يقول القصائد الرنانة في السيد طالب وأصبح داعيته بين القبائل. وقد أوجست الآستانة ريبة من الزعيم البصري فقررت التخلّص منه بالقتل وانتدبت لهذه المهمة فريد بك فعينته قائداً لقوات البصرة. واستعان هذا ببعض رؤساء القبائل الحانقين على السيد طالب لتنفيذ مشروعه، فدعا الشيخ سالم الخيون وحمد السعدون شقيق عجمي باشا الذي تحرّك نحو البصرة. لكن السيد طالب قرر أن يتغدى بخصمه قبل أن يتعشى به، فأوعز إلى أعوانه برميه بالرصاص، فقتلوه وهو عائد من سياحة أجراها في شط العرب قاصداً بيته بالعشار، وقتل معه بديع نوري بك متصرف لواء المنتفق.

ثم يتكلم البصير عن علاقة السيد طالب بالإنكليز وقنصليتهم في البصرة، فقال إنه كان وثيق الصلة بهم، ومسهّل لموظفيهم التجوّل سراً في الأراضي الواقعة بين الفاو وقرية السبيليات التي تبعد عن البصرة نحو ثلاثة أميال جنوباً، وكانت هذه السياحة في أوائل شتاء ١٩١٣. وكان موقفه حيال الكويت والمحمرة موقف ولاء وصفاء، يجتمع بالشيخ مبارك الصباح والشيخ خزعل في كثير من الأحيان.

فخري كمّونة

الشيخ فخرالدين بن الحاج حسن مهدي كمونة ينتمي إلى أسرة كربلائية قديمة أسدية النسب، ولد سنة ١٨٨٦ في كربلاء وآلت إليه رئاسة عائلته بعد وفاة والده ومقتل الشيخ حسين بن محمد كمونة سنة ١٩٠٩.

اتصل أخوه الشيخ محمد علي في تشرين الأول ١٩١٥ بالسير برسي كوكس كبير الضباط السياسيين المرافقين للجيش البريطاني، وكانت كربلاء لا تزال خاضعة لحكم الأتراك وقد هددها عاكف بك هي والنجف بعد أن بطش بأهل الحلّة. وفي نيسان ١٩١٦ بذل الأتراك جهداً لإخضاع كربلاء واعتقلوا فخرالدين، فثارت البلدة وطردت الموظفين الأتراك وأنشأت إدارة محلية برئاسة الأخوين فخري ومحمد علي.

وعلى أثر احتلال الإنكليز لمدينة بغداد وسيطرتهم على كربلاء، اتهم فخري كمونة بتموين الأعداء بالأقمشة والأطعمة، فاستدعي الى بغداد في أيلول ١٩١٧ ونفي إلى بلاري في الهند. وأبعد محمد علي أيضاً عن كربلاء وعيّن لإدارتها معاون حاكم سياسي بريطاني. وهكذا انتهى حكم آل كمونة لكربلاء بعد أن دام سنة وأشهراً.

وقد عاد فخري كمونة إلى كربلاء بعد انتهاء الحرب العامة، فلما خبا أوار الثورة واحتل الإنكليز بلدة طويريج في ١٢ تشرين الأول ١٩٢٠، ظهرت في كربلاء حركة قوية تريد الاستسلام وتجنيب البلدة ويلات الحرب بزعامة الشيخ فخري، فتمكن هو وأعوانه من السيطرة على كربلاء واضطر رجال الثورة إلى الخروج منها على وجه السرعة.

ثم قام بالمفاوضة مع السلطة البريطانية وتنفيذ شروط الاستسلام. وتوفي في كربلاء في ١٤ تشرين الاول ١٩٣٦.

عطيّة أبو كَلَل

من زعماء النجف وذوي النفوذ في منطقتها في عهد اختلال الإدارة، وهو الحاج عطية بن عبد بن حميّد بن مراد آل ظاهر من عشيرة عنزة الطائية. هاجر أجداده إلى النجف، فولد بها سنة ١٨٧٣ ونشأ قوياً شديد المراس.

ولم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى اشترك في المنازعات القبليّة وقاوم السلطات التركية، وأصبحت له صلة بعبدالعزيز آل رشيد صاحب حائل. وطاردته الحكومة فمضى إلى كرمنشاه في إيران سنة ١٩٠٧. وعاد إلى العراق بعد نحو من سنتين، فلبث متخفّياً حتى شمله عفو الوالي ناظم باشا سنة ١٩١٠.

قبض عليه سنة ١٩١٤ وأودع السجن، فلما نشبت الحرب العظمى في أواخر تلك السنة أطلق سراحه وذهب إلى الجهاد في ميدان الشعيبة. وعاد إلى النجف بعد اندحار الجيش التركي، فكان من زعماء الثورة على الأتراك فيها سنة ١٩١٦.

ولما احتلّ الإنكليز النجف سايرهم أبو كلل في بادئ الأمر، وعمل في التجارة، ثم ارتابوا في أمره فخرج إلى البادية. وسلّم نفسه إلى السلطة في الشنافية في أيار ١٩١٨، فأبعد إلى الهند واعتقل في بومبي حتى أفرج عنه في أواخر سنة ١٩٢٣.

وعاد إلى النجف فأخلد إلى السكينة حتى أدركته المنيّة في ٢٠ كانون الأول ١٩٤٢.

ذكر الحاج عطيّة أبا كلل ستيفن لونغريغ في كتابه «العراق ١٩٠٠ - ١٩٥٠»، فقال إنه كان خارجاً على القانون في العهد التركي، وقد استولى على السلطة في النجف سنة ١٩١٥ - ١٦، وهو رئيس جماعة الزكرت، واتصل بعجمي السعدون الممالئ للأتراك. غير أن السيد مجيد الموسوي «كاتب الحاج عطيّة» ردّ على تلك التهم في كتابه «الحاج عطية أبو كلل» (١٩٥٧) ونفى اتصاله بعجمي باشا والترك. وقال إن تمرّده على الأتراك وحكومة الاحتلال إنما كان بدافع ما شاهده من اضطهاد البلاد العربية والتنكيل بأبناء لغة الضاد وخاصة أبناء العراق.

وقد عرف من أبنائه اللواء عجمي أبو كلل الذي ولد في النجف سنة ١٩٠٦ وولج المدرسة العسكرية في بغداد فتخرّج فيها ضابطاً (١٩٢٨). ونقلت خدماته بعد ذلك إلى الشرطة فكان مديراً في القوة السيارة (١٩٥٠) ومفتشاً أقدم (١٩٥٥). ورفّع إلى رتبة اللواء، وتوفي في حدود سنة ١٩٧٠.

نجم البقال

الحاج نجم البقال من رؤساء النجف الشعبيين، تزعم جماعة قتلت الكابتن و. م. مارشال مساعد الحاكم السياسي البريطاني في النجف في ١٩ آذار ١٩١٨.

وقد تمرّدت النجف على أثر ذلك فحاصرها الإنكليز بلواء يقوده الجنرال ساندرز Gen. Sanders، وتم احتلالها بعد ٢٠ يوماً (٧ نيسان ١٩١٨). وجرى تسليم الحاج نجم ورفاقه، ثم ألقي القبض على نحو مائة شخص. وحكم على ١٢ رجلاً بالإعدام، ونفّذ الحكم في الحاج نجم ورفاقه، ومنهم كاظم صبّي وعلي الرمّاحي وجودي ناجي ومحسن أبو غنيم، في الكوفة في ٣٠ أيار ١٩١٨.

وكان عبّاس الخليلي الوحيد بين المحكوم عليهم بالإعدام الذي تمكّن من النجاة والفرار إلى إيران.

والحاج نجم الدليمي المعروف بالبقال هو نجم بن عبود بن فرج، أصل أسرته من عشيرة المحامدة في لواء الدليم، سكن أبوه في النجف حيث ولد نجم في نحو سنة ١٨٥٨ وعمل بقالاً أو تماراً.

ذكر جعفر الخياط في بحث له عن النجف في المراجع الغربية (موسوعة العتبات المقدّسة، الجزء الأول من قسم النجف، ١٩٦٥) أن المس بلّ عدّت الحاج نجم «شقياً» مأجوراً، لكن الخياط يقول إنه كان رجلاً من الأخيار حفزه على الإقدام على عمله تديّنه وشعوره الوطني.

ووصفه يوسف رجيب فقال إنه قد نيّف على الستّين، وقد أسرع إليه الهرم إسراعاً، ضعيف الجسم هزيله، متوسّط القامة، أسمر الوجه.. لباسه ساذج وعيشه جشب، ومظهره ومخبره كله ورع وتقوى. ثم قال: «إن أنس شيئاً فلست بناس ما رأيته عياناً عن مظاهر هذا البطل، الحاج نجم، وهو ساكن الظل ثابت الجأش، وهو مقدم على مصارعة الموت في غزوة لا تعرف مغبّتها بقلب أصلب من الصخر وإرادة تفلّ الحديد وتدكّ الحواجز لتعبر على جسر الموت...».

وقال محمد رضا الشبيبي إن الحاج نجم في عمر الستين، أصلع الرأس، أزجّ الحاجبين، واسع العينين، حادّ النظر، وقور ساكن الطير قليل الدعوى يخضب بالسواد. وكان تمّاراً أو بقالاً، فإن النجفيين يدعونه حاج نجم البقال.

كان الحاج نجم موالياً للأتراك محباً لهم، وكان ابنه عباس رئيس عرفاء في الجيش التركي خلال الحرب العظمى الأولى ثم كان بين الذين هاجموا سراي أبي صخير في تشرين الثاني ١٩١٧، ولما طلبه الإنكليز هرب إلى البادية والتحق بالأتراك. وقد توفي في اليوم نفسه الذي شنق فيه أبوه وذلك في الموصل في ٣٠ أيار ١٩١٨.

عبدالمجيد كنّه

من «فتيان» المحلات البغدادية، كانت له مجازفات في العهدين التركي الأخير والبريطاني الأول حتى اعتقله الإنكليز متهماً بتأليف جمعية للإرهاب والاغتيال السياسي وأعدموه في ٢٥ أيلول ١٩٢٠.

حدّثني محمود صبحي الدفتري أن حسن كنّه البياتي كان ملتزماً (مقاولاً) لبلدية بغداد منذ عهد جدّ أبيه إبراهيم الدفتري رئيس البلدية، ثم قويت صلته وصلة أبنائه إسماعيل ورشيد وعبدالمجيد وعبدالحميد بجدّه إسماعيل وأبيه فؤاد. وكان عبدالمجيد فتى مقداماً جريئاً أطلق النار على العقيد أحمد بك قائد الدرك في بغداد ومن أقطاب الاتحاديين فجرحه ونقل إلى استانبول للتداوي. وعاد أحمد بك إلى بغداد بعد شهور وقد التأمت جروحه، وعيّن معاوناً للوالي سليمان نظيف بك سنة ١٩١٥.

كان عبدالمجيد كنّه لا يزال موقوفاً، فشفع له محمود صبحي عند أحمد بك نفسه - وكانت تربطه به صداقة شخصية وثيقة - فأمر بإطلاق سراحه وأوعز إليه بالتطوّع في القوات المجاهدة في الحرب ضد الإنكليز.

عمل عبدالمجيد بعد احتلال بغداد في الأحزاب السريّة الوطنية، وقام بتهريب علي البازركان ومحمد جعفر أبي التمن من بغداد حينما طلب الانكليز اعتقالهما في أثناء الثورة في آب ١٩٢٠. وقبض على عبدالمجيد بعد ذلك وحوكم أمام محكمة عسكرية بتهمة إثارة الخواطر وتأليف جمعية للاغتيال والإرهاب السياسي، فحكم عليه بالإعدام وشنق في ٢٥ أيلول ١٩٢٠.

قال محمد مهدي البصير في الجزء الأول من «تاريخ القضية العراقية» إن إعدام عبدالمجيد كنّه أقام الشعب وأقعده، فشيعته الجماهير الغفيرة ورثاه الشعراء، من ذلك قصيدة مطلعها:

يا أخا المجد، عشت حراً مجيداً ولذا شئت أن تموت شهيداً

وقبضت السلطات على شقيقه عبدالحميد كنّه فنفته إلى جزيرة هنجام. ثم نقل

جثمان عبدالمجيد كنّه بعد سنوات إلى مدفن جديد في مقبرة الشيخ جنيد، فأبّنه محمد الهاشمي بقصيدة مطلعها:

لـولا الـتّـقـى لـجـعـلـت قـبـرك كـعـبـة ... لـلـطـائـفـيـن وقـبـلـة لـلـرّكـع
قـبـر الـشـهـيـد أجـلّ قـدراً أن يُـرى ... قـفـر الـجـوانـب خـالـيـاً فـي بـلـقـع

ومنها:

أنـا مـا عـرفـتـك فـي الـحـيـاة، وإنـنـي ... لـك بـعـد مـوتـك كـالـصـديـق الـمـوجـع
أمـنـيّـتـان سـبـقـتَ فـي أولاهـمـا، ... ولـي الأخـيـرة فـارضَ ذلـك أو دعِ.
أمـدد يـمـيـنـك مـن ضـريـحـك، إنـنـي ... هـا قـد مـددت يـدي إلـيـك فـقـم مـعـي..

وعرف بعد ذلك ابن أخيه خليل بن إسماعيل بن حسن كنّه الذي ولد في بغداد سنة ١٩٠٩ ودرس الحقوق وعرف بنشاطه الوطني منذ عهد الدراسة. وقد اعتقل في أثناء الحرب العالمية سنة ١٩٤١، ثم اشترك بعد الحرب في تأسيس حزب الاستقلال. وتركه فكان من مؤسسي حزب الاتحاد الدستوري. وانتخب نائباً عن الفلوجة في آذار ١٩٤٧ وأصدر جريدة «العهد» اليومية في أول كانون الثاني ١٩٤٩. وأصبح وزيراً بلا وزارة (١٩٥٠) فوزيراً للمعارف (١٩٥٠-١٩٥٢) و(١٩٥٣) و(١٩٥٤) فوزير المالية (١٩٥٥-١٩٥٧). وانتخب رئيساً لمجلس النواب من كانون الأول ١٩٥٧ إلى آذار ١٩٥٨.

وقد اعتقل في ثورة تموز ١٩٥٨ وحكمت عليه محكمة الشعب بالأشغال الشاقة المؤبدة، ثم عفي عنه وأطلق سراحه في ١٤ تموز ١٩٦١. وأقام في بيروت فألف كتابا بعنوان «العراق : أمسه وغده» (١٩٦٦). وعاد إلى بغداد وهو مريض سنة ١٩٨٢ فتوفّي بها في تموز ١٩٩٥. وكان خليل كنّه من أركان وزارات نوري السعيد في عهده الأخير.

يوسف السويدي
و
محمد الصدر

إذا ذكر رجال الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ فلا بدّ من ذكر بطلين من أبطالها هما يوسف السويدي ومحمد الصدر، وقد فصّلنا سيرتهما في كتابنا «أعلام السياسة في العراق الحديث» الصادر في لندن سنة ١٩٨٧.

ولد يوسف السويدي في بغداد سنة ١٨٥٤ وتوفي بها في ٢٨ آب ١٩٢٩، وكان في العهد التركي قاضياً وعضواً بمحكمة الاستئناف. نفي أثناء الحرب العامة إلى بعض قرى الأناضول، فلما عاد إلى بغداد سنة ١٩١٩ لم تصرفه شيخوخته عن الجهاد في سبيل استقلال وطنه. ولما طلبته السلطة تمكن من مبارحة بغداد سراً والالتحاق بمراكز الثورة، حيث واصل نضاله حتى خرج مع من خرج من الزعماء إلى البادية في تشرين الثاني ١٩٢٠. وحلّ في ربوع الشام وغادرها إلى القاهرة وجدة. وقفل راجعاً في ركاب الأمير فيصل في حزيران ١٩٢١. عند قيام الحياة النيابية في العراق اختير يوسف السويدي أول رئيس لمجلس الأعيان (١٩٢٥-٢٩).

أما السيد محمد الصدر فولد في الكاظمية سنة ١٨٨٣ وتوفي ببغداد في ٣ نيسان ١٩٥٦. نشأ في كنف والده السيد حسن الصدر أحد مراجع الدين في عصره ودرس في معاهد النجف. ونهض بعد الاحتلال البريطاني للمطالبة بحقوق وطنه، وكان في طليعة القائمين بالاجتماعات والمظاهرات من أجل الاستقلال.

اشترك في تأسيس حزب الحرس الوطني السري، وعندما صبّت السلطة نقمتها على رجاله، خرج من الكاظمية إلى مراكز الكفاح في نواحي ديالى واضطلع بالقيادة وحمل البندقية. وأخمدت نار الثورة أخيراً في دلتاوة فمضى إلى جهات الفرات، ثم توجه مع رهط من رفاق جهاده إلى نجد وقصد الشام في تشرين الثاني ١٩٢٠، وذهب إلى القاهرة وجدّة، وعاد إلى بغداد بصحبة الأمير فيصل بعد إعلان العفو العام في حزيران ١٩٢١.

اشتدت الظروف السياسية في آب ١٩٢٢ فكلّف بمغادرة العراق فذهب إلى إيران وأمضى فيها سنة وعشرة شهور. ثم افتتحت الحياة الدستورية في العراق فعيّن عضواً بمجلس الأعيان (١٩٢٥) وخلف يوسف السويدي في رئاسة المجلس سنة ١٩٢٩. وأصبح رئيساً للوزراء سنة ١٩٤٨.

وقد أتيح للسيد الصدر أن يتبوّأ أسمى مناصب الدولة وأن يصبح موضع ثقل في السياسة وعنصر اعتدال وتهدئة، يُرْجَعُ إليه إبان الأزمات والانقلابات التي عصفت بالدولة الناشئة في العقود الأولى من تأسيسها. وكانت له على الأخص مواقف مشهودة في أيار ١٩٤١ حين دعا الى الأناة والتعقل وتعهد بالمحافظة على حياة الملك الطفل فيصل الثاني، وبعد ذلك في كانون الثاني ١٩٤٨ عندما دعي إلى تقلد رئاسة الوزراء وتهدئة الأفكار الثائرة بعد عقد معاهدة بورتسموث.

قال توفيق السويدي في كتابه «وجوه عراقية» إن جلّ أبناء عائلة الصدر اشتغلوا في علوم الدين، لكن السيد محمد لم ينكب على تحصيل العلم باشتياق وزهد في التضلّع. وقال إنه بذل الجهود خلال سنة ١٩٢٠ لتنسيق القوى بين الطائفتين السنّية والجعفرية وإزالة عوامل الجفاء بينهما.

وسعى إلى تكتيل القوى وتنظيم الاجتماعات تحت ستار الشعائر الدينية في حفلات المولد النبوي والتعازي الحسينية. وقال إنه كان يتراءى للناظر إلى قيافة الصدر وشكله أنه عريق في الرجعية والتزمت الديني، لكنه كان في الحقيقة بعيداً كل البعد عن ذلك في تفكيره وروحه ومشربه. وأضاف قائلاً: «لقد كان له في الواقع وجه عريض ولحية كثة عريضة طويلة وعمامة سوداء وعباءة فضفاضة، فوق جبة وهندام بجملته وقور ومسرف في التحفظ والاتزان، حتى إذا نظرت إليه لأول وهلة استغربت شكله وقلت له، كما قال عنه المستر وندل ويلكي، إنه ممثل آلهة بابل وآشور. ولكن خلقه كان دمثاً يحب المرونة والنكتة والنوادر والقصص والأخبار.. فالسيد محمد الصدر في جملته ومحتواه كان رجلاً عظيماً استخدم مواهبه فيما ينفع البلاد..».

يوسف السويدي

تحدث توفيق السويدي في كتابه «وجوه عراقية عبر التاريخ» عن أبيه يوسف فقال إنه نشأ نشأة دينية متابعاً سنة أجداده. ولما شبّ عن الطوق أخذ يدير أراضي الأسرة الزراعية في الدجيلة وسميكة. ثم عيّن قاضياً شرعياً في الكوت والناصرية والعمارة. وسافر بعد ذلك إلى استانبول، فنال رعاية السلطان عبدالحميد الذي منحه رتبة علمية وراتباً مستمراً.

وقد رشح نفسه للنيابة في البرلمان العثماني سنة ١٩٠٨، لكنه لم يفز لمعارضته لحزب الاتحاد والترقي. وظلّ مقاوماً لسياسة التتريك مما جرّ عليه غضب الاتحاديين، فلما اغتيل محمود شوكت باشا الصدر الأعظم انتهز خصومه الفرصة للإيقاع به، لكن مناوراتهم باءت بالفشل. وسيق إلى ديوان عاليه الحربي خلال الحرب العالمية الأولى بأمر جمال باشا المعروف بالسفاح، فلما لم تجد المحكمة شيئاً يدينونه به اكتفت بإبعاده إلى الأناضول. وقد قضى مدة في قونية، ثم نقل إلى استانبول. وعاد إلى بغداد في حزيران ١٩١٩ عن طريق الشام. ولم يلبث أن بدأ نشاطه لمقاومة الاحتلال البريطاني، وأصبح ديوانه مركزاً للمساعي الوطنية.

داهمته مفرزة من الشرطة البريطانية في ٢٠ حزيران ١٩٢٠ طلباً لاعتقاله، لكنه استطاع الفرار من سطح الدار، ومضى إلى الكاظمية ثم انتقل منها إلى كربلاء والنجف والشامية مشتركاً في الثورة «موجهاً لجهود الحرب ومنظماً للصفوف وكابحاً لنزوات مختلفة كان يأتيها البعض من المجاهدين أو الزعماء أوالحلفاء..».

وقال إن الملك فيصل كان يحاول عبثاً مقاومة انتخاب يوسف السويدي رئيساً لمجلس الأعيان أربع سنوات متتابعة نظراً لما كانت له من مكانة عظيمة يحسب لها الملك وحكومته حساباً كبيراً. وقال إن السويدي عرف بين أقرانه ومعاصريه تقدمياً في السياسة والاجتماع على الرغم من مسلكه الديني وتقاليده الموروثة.

محمد جعفر أبو التمّن

الزعيم الوطني العراقي والمعارض المزمن محمد جعفر بن محمد حسن بن داود بن سلمان آل أبي التمّن، وكان أجداده يتاجرون بالرزّ، وهوالتمّن بلغة العراقيين، فغلب عليهم هذا اللقب. ولد في بغداد سنة ١٨٨١ من أسرة معروفة في عالم التجارة، ونشأ في كنف جدّه الحاج داود وأبيه الحاج محمد حسن. درس علوم العربية والدين، ومارس التجارة منذ نعومة أظفاره. وسافر في صدر شبابه إلى إيران في بعض الأشغال التجارية، ثم عاد إلى بغداد وكان في طليعة الساعين إلى تأسيس المدرسة الجعفرية الأهلية سنة ١٩٠٨.

وقد حدّثني يوماً عن تأسيس تلك المدرسة، قال: «على أثر إعلان الدستور العثماني هبّ فريق من الوجهاء والتجار لتأسيس مدرسة عصرية باسم «المدرسة الجعفرية»، وكان منهم جدّي الحاج داود وعمّي الحاج سلمان، فرفعوا طلباً بذلك إلى مقام الولاية. واستدعى الوالي ممثلاً عن المستدعين لمواجهته والمباحثة في الأمر، فأنابوني لهذه المهمة. وقد رحب الوالي بالمشروع وأثنى على القائمين به، لكنه اعترض على التسمية وقال: إن الحكومة التركية الدستورية لا تفرّق بين المواطنين، واقترح تبديل اسم المدرسة. فأجبته : إن الغاية من التسمية لم تكن إثارة النعرة الطائفية، ولكن تأسيس المدارس الأهلية فكرة حديثة لا تجتذب الناس، فكان القصد من الاسم أن يشعر أبناء المذهب الجعفري أن المدرسة منهم وإليهم فيقبلوا على إرسال أولادهم إليها. واقتنع الوالي بهذا الجواب فأوعز بإجازة المدرسة فوراً بالاسم المختار لها».

احتل الإنكليز بغداد في خلال الحرب العظمى، فعيّن جعفر أبو التمّن عضواً بالمجلس البلدي سنة ١٩١٩، وكان قد عاد من رحلة جديدة له إلى إيران. وثار العراقيون يطالبون بالاستقلال فكان له في الحركة الوطنية سهم وافر. ولما أرادت السلطة اعتقاله، لجأ إلى مناطق الثوار (آب ١٩٢٠)، حتى إذا ما خمد أوار الثورة في تشرين الثاني من تلك السنة لجأ مع فريق من زعمائها إلى الحجاز، ومنهم السيد نور السيد

عزيز الياسري وعلوان الياسري وهادي المكوطر ومرزوق العوّاد ومحسن أبو طبيخ وشعلان الجبر ورايح العطيّة وصلاّل الفاضل ومهدي الفاضل وعلوان الحاج سعدون. وقد سافروا إلى حائل ووصلوا إلى المدينة المنوّرة في ٥ نيسان ١٩٢١، ومضوا بعد ذلك إلى مكة المكرمة فوصلوها في أول أيار وحلّوا في ضيافة الحسين ملك الحجاز.

عاد أكثر المنفيين إلى العراق في ركاب الأمير فيصل، لكن تخلّف منهم في الحجاز جعفر أبو التمن ورايح العطية ومحسن أبوطبيخ ومرزوق العواد لأداء فريضة الحج، وعادوا إلى بغداد في أيلول ١٩٢١. واستقبل أبو التمن استقبالاً حافلاً، وهنّأه الشيخ محمد مهدي البصير بقصيدة مطلعها:

طرقت بغداد، والإقبال مقتبل، فعش لشعبك واسلم، أيها البطل

وعيّن وزيراً للتجارة في ١٥ نيسان ١٩٢٢، لكنه استقال في ٢٦ حزيران ١٩٢٢. واقتحم ميدان السياسة، فكان أحد مؤسسي الحزب الوطني واختير رئيساً له (آب ١٩٢٢). بيد أنه نفي إلى جزيرة منجام في الخليج العربي في أواخر الشهر نفسه إثر الاضطرابات التي حصلت في ذكرى عيد التتويج الاول، فمكث في المنفى إلى أيار ١٩٢٣.

وقد أعاد تأليف الحزب الوطني سنة ١٩٢٦ واضطلع برئاسته، وانتخب نائباً عن بغداد في ٦ حزيران ١٩٢٨ إلى أول تموز ١٩٣٠. وكانت الأعوام التالية سنوات كفاح ونضال حمل فيها لواء المعارضة للحكومة والمعاهدة العراقية ـ البريطانية بالاشتراك مع ياسين الهاشمي وحزب الإخاء الوطني، ثم انفرد أبو التمن والحزب الوطني بالمعارضة. وقاد حملة تنظيم حركة الإضراب في صيف ١٩٣١ احتجاجاً على قانون رسوم البلديات الذي فرض عبئاً فادحاً من الضرائب على أصحاب الحرف والمهن، ثم أشرف على تنظيم حركة مقاطعة الكهرباء في سبيل تخفيض الأجور الباهظة. وأصدر جريدة «المبدأ» في كانون الثاني ١٩٣٥ فأغلقت من فورها.

وعيّن وزيراً للمالية في وزارة حكمت سليمان التي أُلّفت في أثر انقلاب بكر صدقي (٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦) واستقال في ٢٤ حزيران ١٩٣٧. وانتخب نائباً عن بغداد، لكنه عيّن عضواً بمجلس الأعيان في ٢٠ شباط ١٩٣٧ قبل اجتماع مجلس النواب، وانتهى أمد عينيته في تشرين الأول من السنة نفسها.

وزاول التجارة إلى آخر حياته، وكان رئيساً لمجلس إدارة شركة تجارة وحلج الأقطان العراقية ومجلس إدارة شركة استخراج الزيوت النباتية، وهما من الشركات التي

ساهم في تأسيسها. وانتخب عضواً في لجنة إدارة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٢٨، فتقلد نيابة رئاستها من ٢٣ تموز ١٩٢٩ إلى ٢٦ شباط ١٩٣٥، فرئاستها من ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٥ إلى ١٧ تشرين الأول ١٩٣٩.

وقد مرض فلم يمهله الداء سوى أيام، وتوفي في بغداد في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥.

رسالته الوطنية والاجتماعية

هُيِّئت لجعفر أبي التمن صفات الزعامة، وأولاها شخصية قوية تفرض نفسها على الناس فرضاً ويتجسّم فيها مضاء العزيمة وشدّة المراس وأصالة الرأي، قرنت بمنطق دفّاق وأدب جم وحماسة في أناة.

وعززت هذه الشخصية ومكّنتها صلابة في العقيدة وصراحة في القول والعمل وترفّع عن الصغائر وزهد في المناصب والمغانم. فلا عجب أن برز في مطلع الحركة الوطنية وفاز منذ البداءة باحترام الأعوان والخصوم، حتى إذا ما صفّيت في بوتقة التشريد والاعتقال كالتبر يصفّى في النار، عقد لها لواء الزعامة وأحاطت بها هالة من التقديس والتمجيد.

كان أبو التمّن مثالياً، لكنه، وهو ينزع إلى المثل الأعلى، بقي دائماً واقعياً لا يجنح إلى الخيال ولا يفكّر بغير الواقع المحسوس. وكانت له في حياته رسالتان: فرسالة وطنية تريد للعراق حرية واستقلالاً، ورسالة اجتماعية تريد لأبناء الشعب سعادة ورخاء. لقد علم أن الأمة التي لا تكون سيدة في بلادها تضلّ سبيل النهضة وترسف في قيود الاستعباد، فرفع صوته منادياً بالحرية، داعياً إلى الاستقلال، مطالباً بالسيادة الوطنية، ووقف حياته على الجهاد، فكافح نحواً من ربع قرن لا يكلّ ولا يملّ ولا يهن. ولي الوزارة مدة لا يتجاوز مجموعها عشرة شهور في عهدين متباعدين من عهود الحكم الوطني، وكان في معظم الوقت من زعماء المعارضة، حتى لقد ظن الناس أنه سلبيّ لا إيجابي في ميدان السياسة ونظري غير عملي.

نذر حياته للكفاح السياسي، لكنه لم يغفل عن أهمية النهضة الاقتصادية وأثرها الواضح في تحقيق السيادة الوطنية ودعم استقلال البلاد. نشأ جعفر أبو التمن تاجراً وظل كذلك إلى آخر حياته، فلم تصرفه عن ممارسة هذه المهنة مشاغله الكثيرة اعتقاداً منه بأن العمل الفردي المثمر مفيد للبلاد. وساهم في النهضة الصناعية الناشئة، فاشترك في تأسيس محلج القطن العراقي وشركة استخراج الزيوت النباتية. ولم يكن اختيار

هذين المشروعين وليد الاتفاق، وإنما يعزى إلى اعتقاده بوجوب تشجيع الصناعة الزراعية بوجه خاص لتيسّر المواد الأولية اللازمة لها وتمكنها من مزاحمة الصناعات الأجنبية المماثلة.

لكن جهوده في رعاية النهضة الاقتصادية قد بذلت في الأغلب عن طريق غرفة تجارة بغداد التي حظيت بعنايته منذ تأسيسها. لقد منح هذه المؤسسة من جهده ووقته الشيء الكثير واتخذها أداة لتوجيه التجارة في سبيل خدمة النهضة الوطنية الشاملة. وكان يؤمن بحرية التجارة ويدعو إليها، فكتب في مجلة غرفة تجارة بغداد (كانون الثاني ١٩٣٩) يقول : «إن حرية التجارة، كانت ولم تزل، خير نظام ينتهجه العراق لاستكمال نهضته الاقتصادية وإدراك ما يصبو إليه من الثراء والرخاء، لأن نظام حرية التجارة، على ما أعتقد، هوالذي يضمن لمثل هذه البلاد استمرار التقدم الاقتصادي والتجاري المنشود على أساس ثابت وطيد، كما هو الحال في بلاد الحكومات الديمقراطية العتيدة.. على أن نظام حرية التجارة المفروض صلاحه للعراق لا ينفيه فرض بعض التدابير الاستثنائية التي تقتضيها مصلحة البلاد الاقتصادية (وما من عام إلا وقد خصّ)...».

ولئن علم أبو التمّن أن النهضة الاقتصادية وزيادة ثروة البلاد دعامة النهضة الوطنية، لقد علم أيضاً أن زيادة ثروة البلاد لا تتم بنشوء فئة قليلة واسعة الثراء وبقاء جماهير الشعب قابعة في فقرها وشقائها. وعلم أيضاً أن النهضة الاقتصادية لا تستكمل أسبابها إلا إذا شملت آلاؤها طبقات الشعب عاليها وسافلها وامتدّت آثارها إلى أقصى القرى والأرياف وإلى أحقر الخصاص والأكواخ. لقد علم - وهو الزعيم الشعبي - أن علّة تأخر هذه الأمة إنما هي علة أكثريتها البائسة الجاهلة المريضة، تلك الأكثرية الساحقة التي تفلح الأرض ولا تكاد تصيب الخبز القفار أو تكدح في المدن والقصبات وهيهات أن تنال الضروريات من الملبس والمأكل والمأوى. ويا لشدّ ما كان يتألم لحال هذه الطبقات الزارعة والعاملة ويحزّ في نفسه الأسى كلما ذكر ما تعانيه من شظف العيش! لقد شخّص الداء وعرف الدواء، ولم يكن هذا الدواء سوى إنهاض طبقات الشعب ورفع مستواها المعاشي والصحي والثقافي، فرخاء الأمة برخائها وسعادة الوطن بسعادتها ونهوض الدولة بنهوضها.

تلك رسالة جعفر أبي التمن الاجتماعية قام لأدائها إلى جانب رسالته السياسية وعمل في سبيلها - ما وسعه العمل - ولقّنها للشباب المتحمّس الناهض الملتفّ حواليه، المكبر لجهاده، المؤمن بمبادئه.

ذلكم جعفر أبو التمن الذي رثاه محمد مهدي الجواهري قائلاً:

طالت، ولو قصرت يد الأقدار لرمت سواك، عظمت من مختارا

ورثاه عبدالحسين الأزري فقال:

تحوّلت بعدك الأرياف والمدن مآتماً والمعزّى فيهما الوطن
يا أصلب الناس عوداً، كأعاجمه منه كما قد نبا عن بريه السنن
لئن أبى الموت إلا أن تلين له فاليأس في جنبه سيّان والجبُنُ
أباعزيز، وللأقدار حكمتها، يفنى الأمين ويبقى الكاذب الأفن
لو كان للموت عقل لافتداك بمن أعمالهم دفنتهم قبلما دُفنوا

***

في سنة ١٩٣٥ كانت إدارة غرفة تجارة بغداد شبه منحلة فاضطر أبو التمن إلى الاستقالة من نيابة رئاستها لعدم تمكنه من إصلاح أوضاعها المزرية. وجاء ياسين الهاشمي إلى الحكم فراجعه بشأن إصدارتعديل لقانون الغرفة وإجراء انتخابات جديدة للجنتها الإدارية. وتم ذلك وجرى الانتخاب الجديد ففاز أبو التمن بالرئاسة وافتتح صفحة جديدة في تاريخ المنظمة، زاد نشاطها واتّسع أثرها في ميدان السياسة التجارية.

ثم اختلف أبو التمن مع الهاشمي، فتوالت الاجتماعات بينه وبين حكمت سليمان، وكانت هذه الاجتماعات المعارضة للوزارة القائمة كثيراً ما تعقد في مقرّ الغرفة نفسها.

وجاء انقلاب بكر صدقي في ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ فتولى جعفر أبو التمن وزارة المالية مع احتفاظه برئاسة الغرفة. وتحدث في الإذاعة العراقية الناشئة فانتقد سياسة الدولة المالية وقال إن «الخزينة خاوية»، وكانت تلك هفوة اللبيب. ثم جاء في صباح اليوم الثاني وقال لي: الحمد لله، إن الخونة قد سفّروا إلى خارج العراق فأنقذت البلاد من شرّهم! (يقصد ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ونوري السعيد).

ومضت الأشهر وزاد تدخل صاحب الانقلاب الفريق بكر صدقي رئيس أركان الجيش في الأعمال وسيطر على شؤون الدولة وحال دون إقرار الإصلاحات التي رام إجراءها الوزراء المصلحون أمثال أبي التمن وكامل الجادرجي فاضطروا إلى الاستقالة في حزيران ١٩٣٧ . وتعرضوا لحملات ظالمة شنتها عليهم الصحافة الحكومية والمحافل الموالية للدكتاتور العسكري.

سئل جعفر أبو التمن حين أصبح وزيراً للمالية سنة ١٩٣٦ عن رأيه في تعاون الأقطار العربية الشقيقة ودعم العراق لتلك الأقطار المتطلعة إلى الاستقلال، فقال: من

كانت داره خربة يقوم بتعميرها قبل التفكير في تعمير دور الجيران.

لكن غرفة تجارة بغداد كانت السباقة، في عهد رئاسته، إلى الدعوة إلى التعاون الاقتصادي بين البلاد العربية. فقد اقترحت الغرفة في أيلول ١٩٣٨ عقد مؤتمرات دورية تشترك فيها الأقطارالعربية وتجتمع بالمناوبة في إحدى العواصم كلّ سنة أوسنتين للنظر في الشؤون المتعلقة بتوسيع المبادلات التجارية وتشجيع التعاون الاقتصادي.

عرض الاقتراح على وزارة المالية فحبّذته. وعلى أثر ذلك كتبت وزارة الخارجية في آذار ١٩٣٩ إلى المفوضيات والقنصليات العراقية لمفاتحة حكومات مصر والمملكة العربية السعودية واليمن وشرقي الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان في الموضوع، وقوبل المشروع بالاستحسان والتأييد من لدن الحكومات والمحافل التجارية في أقطار العروبة كافة. لكن نشوب الحرب في خريف تلك السنة أدّى إلى إرجاء المشروع ليعاد إثارته وتنفيذه بعد حلول السلام.

ونشبت الحرب العالمية وكان محمد جعفر أبو التمن يصطاف في لبنان. فعاد إلى بغداد مسرعاً وقدّم استقالته من رئاسة الغرفة التجارية، مؤثرا أن يبقى عضواً اعتيادياً في مجلس إدارتها. وألحّ عليه زملاؤه بالاحتفاظ بالرئاسة، فقال: «إن ظروف الحرب تتطلب التعاون الوثيق بين الحكومة والغرفة في سبيل مصلحة التجارة والتموين ومكافحة تضخم الأسعار. ولما كنت معارضاً مزمناً فإن الحكومة لا تطمئن إليّ ولا تقبل مشورتي. والأفضل أن يرأس الغرفة شخص بعيد عن السياسة يستطيع أن يشدّ أزر الحكومة في خططها الاقتصادية وأن يسدي إليها النصح فيما يؤول إلى مصلحة الشعب والبلاد».

وقبلت استقالته وانتخب محمد كامل الخضيري رئيساً للغرفة في محله.

كان محمد جعفر أبو التمن يعرف الفارسية وشيئاً من التركية، ويحبّ أن يتكلم باللغة العربية الفصحى. وكان كثيراً ما يستشهد بقول المتنبي:

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهم

وقد قال لي : إن طريقة التعليم السقيمة أفسدت علينا لغتنا العربية، فهنيئاً لكم، أبناء الجيل الجديد، أساليب تدريسكم الحديثة. وكان أكثر ما يخطىء رسم الهمزة في مواقعها المختلفة والتفريق بين ألفاظ الظاء والضاد.

وكان يكتب اسمه: محمد جعفر آل أبي التمن، ولا يحبّ أن يدعى بـ «الحاج». قال: إنني ذهبت إلى الحجاز لاجئاً سياسياً فحضرت الحجّ في موسمه، والحاج من

يذهب إلى بيت الله عازماً على الحجّ! وكان يتتبّع أخبار التجارة والاقتصاد في أنحاء العالم، وكثيراً ما يسألني إعطاءه الإحصادات والمعلومات للمناقشة فيها وتحليلها. ولما تولى وزارة المالية سنة ١٩٣٦ كلّفني بمهام مالية مختلفة، وأوفدني إلى باريس للإشراف على الجناح العراقي في معرضها الدولي برفقة الدكتور عبدالإله حافظ مدير التجارة، وطلب مني موافاته بتقارير عن شؤون المعرض والقضايا الاقتصادية .

ولما استقال من وزارة المالية بعد اختلافه مع بكر صدقي، استعجل رجوعي من باريس وحثّني على إصدار تقارير غرفة التجارة السنوية ومجلتها الشهرية. ولم أره ينطق بالألم والمرارة كما رأيته في تلك الشهور، فكان يقول: إن الإنسان لا يستطيع خدمة وطنه كما يشاء. والوزير مقيّد لا يملك شيئاً من السلطة ويجد العراقيل تقف في سبيله أنى توجّه.

فالسياسي معذور إذا آثر اتخاذ المواقف السلبية واكتفى بالنقد والمعارضة أو اعتزل ميدان العمل.

وحينما تولّى جعفر أبو التمن وزارة المالية أمر بفتح ديوانه للمراجعين، فكانوا يجيئونه زرافات ووحداناً حتى ضاق بهم ذرعاً، واضطّر أن يأتي إلى الوزارة مساءً لتصريف الأعمال ولم يطق الصبر على ذلك غير أيام معدودة، ثم عيّن مواعيد للمقابلة فاستراح.

وكان يشتدّ غيظه كلما قدّم له كتاب للتوقيع وفيه أخطاء لغوية أو إملائية، فيصحّحه ويعيده للطبع، حتى وقف دولاب العمل أو كاد. ولم ير مناصاً بعد ذلك من التساهل في هذا الأمر، وهو من الأمور التي لم يكن ليتساهل فيها!

وكان جاداً في حياته يحب العمل ولا يميل إلى الهزل حتى في مواقفه، ويكاد يعرض عن جليسه إذا أبدى دعابة أو فكاهة. وكنّا ذات يوم نشرب الشاي في داره مع أصحابه كامل الجادرجي ويوسف عزالدين إبراهيم ومحمد حديد والدكتور ناجي الأصيل وغيرهم، وفأخذوا يقصّون النوادر واللطائف، ولم يكن منه إلا أن جلس صامتاً يسمع ولا يشترك في الحديث. وأذكر أن وفداً تجارياً يابانياً زار بغداد، اقامت له غرفة التجارة حفلة عشاء. وجلست أترجم بين رئيس الوفد وجعفر أبي التمن، فسأله عن شؤون اقتصادية وسياسية مختلفة، ثم قال أبو التمّن: هل هو متزوج، وكم له من الأولاد؟ فسألت رئيس الوفد وأجاب: إنني متزوج ولي ولدان وبنت. ثم ضحك وقال: إنني تركت اليابان منذ شهور وتركت زوجتي في طوكيو، ولا أدري هل أنجبت ولداً آخر!

ولما ترجمت جوابه، لم يخف أبو التمن سخطه وقال متجهماً: كيف يقول ذلك. قلت: إنما هو يهزل. فقال: وهل هذه الأمور موضوع للهزل؟

محمد جعفر أبو التمّن أيضاً

في تقرير سري للسفير البريطاني في بغداد مقدم إلى وزير الخارجية في لندن أن الدكتور هيالمر شاخت وزير الاقتصاد الألماني ورئيس بنك الريخ مرّ ببغداد ذهاباً وإياباً في أثناء زيارة قصيرة له إلى طهران في تشرين الثاني ١٩٣٦. وقد أعدت المفوضية الألمانية حفلة عشاء له حضرها وزير المالية محمد جعفر أبو التمن ووزير الخارجية الدكتور ناجي الأصيل وغيرهما. وجرى الحديث بين أبو التمن وشاخت حول المبادلات التجارية مع ألمانيا، فشكا وزير المالية العراقي من العجز الواضح في الميزان التجاري الذي يجري لغير صالح العراق وصعوبة حصول التجار العراقيين على أثمان بضائعهم التي يصدرونها، فأجاب الوزير الألماني أن بلاده تستطيع مساعدة العراق عن طريق منحه ائتماناً إلى حدّ خمسة ملايين أو حتى عشرة ملايين جنيه لأجل المشاريع الكبرى. لكن أبا التمن لم ير في ذلك حلاً للمشكلة ولا فائدة للعراق. وقال: إن للعراق مواد ابتدائية كثيرة صالحة للتصدير، فلماذا تمتنع ألمانيا عن شرائها والتعجيل بدفع أثمانها؟

واقترح شاخت تجهيز العراق بالمواد اللازمة لتوسيع شبكة السكة الحديدية من فولاذ وغيره بأسعار مناسبة وبائتمان طويل الأمد. لكن الوزيرين العراقيين رفضا تلك المقترحات.

هذا وجدير بالقول إن أفكار أبو التمن الاقتصادية والاجتماعية تغيّرت كثيراً عما كانت عليه في العشرينات حين كانت محدودة بالمصالح التجارية وحرية الأسواق. فلما اتصل في سنوات الثلاثين بكامل الجادرجي والشباب المثقف الميّال إلى الإصلاح ورعاية الطبقات الشعبية اتسع أفق تفكيره واطلع على الآراء الحديثة في الحقل الاقتصادي وأثره في الحياة الاجتماعية والتجارية. وكان كثيراً ما يناقشني في غرفة التجارة ويسألني أن أعطيه المعلومات والإحصاءات المحلية والعالمية، ثم يعمد إلى مناقشتها مع الجادرجي وجماعة «الأهالي» الذين كان يجتمع بهم مراراً كل أسبوع.

وقد أبدى رأيه في حرية التجارة فدعا إليها، لكنه حصرها ببعض الاستثناءات التي تستلزمها الأوضاع. ولما أبربته أن ميزانية البريد والبرق تترك وفراً يضاف إلى ميزانية الدولة

قال إن المصلحة تقتضي فصل إيرادات هذا الباب والمنشآت المماثلة عن الميزانية

العامة. ووافق، وهو وزير المالية سنة ١٩٣٦ على وضع لائحة قانونية ترمي إلى دمج إيرادات الأملاك والمسقفات بالإيراد الخاضع لضريبة الدخل المتصاعدة بدلاً من الضريبة الخاصة المحدودة بـ ١٠ في المائة. لكن هذه اللائحة لقيت معارضة شديدة من غرفة التجارة وأصاب الأملاك، فصرف النظر عن تشريعها.

مولود مخلص

مولود مخلص باشا ابن أحمد الرجب آل شعبان التكريتي ولد في الموصل سنة ١٨٨٥، وهو ينتمي إلى السيد خليل المدفون في عنة من سلالة الإمام موسى الكاظم. وقد أتم دروسه الابتدائية في مسقط رأسه، ثم جاء إلى بغداد سنة ١٨٩٩ وتخرج في المدرسة الإعدادية العسكرية.

كانت حياته الدراسية بعد ذلك شديدة الاضطراب وقد كتب في ترجمة لنفسه بصيغة الغائب أرسلها إلى إدارة الدليل العراقي الرسمي سنة ١٩٣٦ يقول: «... وفي أثناء ذهابه إلى الآستانة لإكمال تحصيله العالي في المدرسة الحربية أخرج من المدرسة جندياً لأسباب نزاع وقع بينه وبين بعض التلاميذ. وكان هذا الإخراج ظلماً وقسوة، فأبى أن يقبل بهذا الحكم الجائر. وبعد التحاقه بالجندية بضعة أيام ترك رهطه وشدّ الرحال إلى الآستانة فوصلها بعد صعوبات جمة. واستجار ببعض كرام أهل الحل والعقد حينذاك وأثبت مغدوريته. وقبل في المدرسة الحربية بصورة خصوصية،حيث كان الرجوع حينذاك من أصعب الأمور أن يعود تلميذ إلى المدرسة العسكرية بعد إخراجه منها. ولكن سوء الحظ لم ينفك عنه، فاجتمع مع أحد العراقيين المنسوب إلى «المابين» المسمى سيد أكاه باشا فسأله عن أحوال العراق. وطبعاً المظلوم لا يتكلم إلا عن ظلمه، فأجابه بالحديث الشريف «الملك مع الشرك يدوم ومع الظلم لا يدوم».العدل اذا دام عمّر والظلم اذا دام دمر.

وبعد برهة قليلة أتاه أحد الخفية السرية وأخذه من القراء تخانة أمام سيد أكاه وأودعه إلى توقيف حاج حسن باشا في بشكطاش، ومن هناك إلى المدرسة الحربية وإلى زندان طاش قشلة وإلى توقيف نظارة الضابطة، ومن هناك إلى سجن بكر آغا. وبعد تسعة أشهر من أخذه من القراء تخانة تمكن أن يهرب من سجن بكر آغا بواسطة المرحوم المغفور له سامي باشا الفاروقي، وتوصل إلى اسكندرونة، ومن اسكندرونة إلى حايل مركز إمارة آل الرشيد في دور المرحوم عبدالعزيز آل رشيد. وبقي عنده سنة

وتسعة أشهر، ووجد معه في محارباته مع جلالة الملك عبدالعزيز ابن السعود وغزواته على الأعراب، واستحصل عطفه وثقته. ومراراً المشار إليه استرحم من السلطان عبدالحميد إعادته إلى المدرسة فلم ينجح. وكلّف أن يجعل ضابطاً في الجندرمة فلم يقبل. وعليه عاد إلى العراق متنكراً ومنها إلى دمشق للدخول في حربيّتها. وبعد إعطاء الامتحان أخرج في المعاينة الطبية بقصد إيذاء مضيفه يومئذ. وفي تلك الأثناء أتى من الآستانة المرحوم سامي باشا وأراد أن يأخذه برفقته إلى بلاد القصيم على أن يصدر له عفواً من الجندية ويجعله قائم مقام في عنيزة لاختباراته الأخيرة التي اكتسبها من إقامته مع عائلة الرشيد في نجد، فأبى وطلب منه أن يتوسّل بالأسباب التي تعيده إلى المدرسة الحربية. وأرسله المرحوم إلى مناستر التي كان قائد منطقتها الفريق المرحوم هادي باشا الفاروقي (ابن خالة العقيد سامي باشا)، وبعد مشكلات دخل مدرسة الحربية في مناستر. وقبل تخرجه ضابطاً بسنة واحدة أعطي عليه إخبارية من بغداد، وعلى الرغم من مكافحة هيئة المدرسة واسترحامهم لإنقاذه من الإخراج وإبقائه في المدرسة، صدر الأمر من باب السر عسكر العثماني بإخراجه من المدرسة جندياً مع حبسه ستة أشهر مكبلاً بالحديد. وعند ختام مدة السجن التحق بقطعة عسكرية في أوخري واشتغل مع عزيز علي بك المصري (الذي كان رئيساً لرهطه). وصار بعده كاتباً لمنطقة أوخري ورسنة العسكرية، واشترك بالعمل مع أنور باشا وأيوب صبري بك ونيازي بك وصادق بك وغيرهم من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي السرية يومئذ. وكان معهم حين أخذ تاتار عثمان باشا وعند إعلان المشروطية وحركت أوردوسي، وطالب بحقوقه واستحصل حكماً بتبرئته ومغدوريته وإعادته إلى المدرسة الحربية. فعاد إليها، وبعد إكمال السنة أخذ الشهادة مع إعادة حقوقه في القدم كأبناء صفه. وأتى إلى بغداد في زمان المرحوم ناظم باشا، ومن هناك تعيّن إلى الموصل إلى لواء الخيالة ٣٣ السريّة الثانية.

وعند إعلان الحرب العامة ذهب مع لوائه إلى حلب، وبعده عاد إلى العراق ووجد في مصادمات علوي والنخيلة وحرب الشعيبة وسوق الشيوخ. ولما رأى، على الرغم من تفادي جنود العرب وضباطهم، إهانة الاتحاديين لهم واتهامهم بالخيانة، ترك الجيش العثماني وأبرق إلى القائد العام نور الدين بك يخبره بترك الجيش العثماني والتحاقه بالشريف الحسين بن علي. وجاء البصرة، ومن هناك ذهب إلى الحجاز والتحق بجيش المرحوم المغفور له فيصل بن الحسين. وهو أول ضابط التحق به، وكان مرافقاً ومعاوناً له برتبة رئيس. وباشر بتأسيس الجيش النظامي، وقاد القطعات التي تحت أمره وأبلى

بلاءً حسناً. وأصيب بجروح عدة منها جروح عطلت يده اليسرى ورجله اليسرى. وتدرج في الرتب حتى أصبح أميراً للواء وقائداً للفرقة النظامية للجيش العربي».

هذا ما كتبه مولود مخلص عن حياته العاصفة في شبابه. وقد أسره الإنكليز إثر احتلالهم للناصرية في تموز ١٩١٥، وكان برتبة ملازم أول.

كتب تحسين علي عن هذه الفترة من حياة صديقه مولود مخلصي فقال:

«لقد عرفت الفقيد في الحرب العالمية الأولى، وكان إذ ذاك في ريعان الشباب يتّقد حميّة وإخلاصاً. وكان ضابطاً بسيطاً على رأس قوة صغيرة من الخيالة التابعة للجيش العثماني المرابط في الغبيشية أمام استحكامات الشعيبة. وقد أبدى هذا الضابط الصغير ضروب البسالة والإقدام في المعارك التي خاضها على رأس قواته القليلة ضد قوات العدو التي تفوقه عدّة وعدداً. . ولما وقعت المعركة الفاصلة - معركة الشعيبة - أصيب بجروح بليغة. .».

انضم مولود إلى ثورة الحجاز عند نشوبها سنة ١٩١٦ فعين مرافقاً للأمير فيصل برتبة رئيس (نقيب).

وقد قال لورنس الشهير في كتابه «ثورة في الصحراء»: «أعلن للأمير فيصل قدوم مولود مخلص العربي الغيور من تكريت الذي خفضت رتبته مرتين في الجيش التركي لوطنيته الصارخة وقضى مبعداً في نجد سنتين عمل خلالهما سكرتيراً لابن الرشيد، ثم قاد قوة الفرسان التركية أمام الشعيبة وسقط في أسرنا هناك. ولم يكد يسمع بثورة الشريف حتى تطوّع للالتحاق به. وكان أول ضابط نظامي ينضوي إلى لواء فيصل، فكان الآن مرافقه اسماً. .».

اشترك مولود في تأسيس الجيش الحجازي النظامي، وعرف بشجاعته الخارقة إلى حد التهوّر، وأصيب بجروح بليغة عطّلت يده اليسرى ورجله اليسرى، وأبلى بلاءً حسناً في معارك العقبة والكويرة والطفيلة ووادي موسى وسمنة ومعان. قال تحسين علي: «ولولا الجروح المميتة التي مزّقت جسمه وهشّمت عظامه أمام استحكامات معان في هجومه العنيف عليها، وهو على رأس قوة خيالة صغيرة، بقصد اقتحامها لما وقفت تلك الاستحكامات المنيعة حائلاً دون بلوغه غايته.

«لقد وقع البطل المغوار جريحاً يتخبّط بدمائه على قيد بضعة أمتار من استحكامات معان، ونيران العدو تنصب عليه من كل مكان. وها هو على وشك أن يصبح أسيراً بيد الأعداء لولا تفاني إخوانه ورجاله الشجعان البواسل الّذين قدّموا حياتهم

رخيصة في سبيل إنقاذ بطلهم المغوار من الوقوع في الأسر. وبعد أن قدّموا ضحايا كثيرة تمكنوا بأعجوبة، وقنابل المدافع ونيران البنادق تنصبّ عليهم من كل الجهات، من إنقاذه ونقله إلى مقرّ قيادته وهو يعالج سكرات الموت وحالته تنذر بالخطر المحقّق..».

نقل إلى القاهرة حيث أجريت له عملية جراحية أنقذته من براثن الموت. عاد إلى صفوف الجيش العربي الذي كان قد احتلّ سوريا مع القوات البريطانية، فرفّع إلى رتبة أمير لواء وعين قائداً لفرقة حلب. ونقل بعد أمد وجيز مستشاراً عسكرياً في مقرّ الإمارة الفيصلية بدمشق.

وحين احتلت العشائر السورية مدينة دير الزور واستخلصتها من يد الجيش البريطاني عيّنت الحكومة السورية مولود مخلص متصرفاً لها في كانون الثاني ١٩٢٠. وقد شمّر عن ساعد الجدّ وأخذ يعدّ العدة لإيقاد نار الثورة في العراق. بل ذهب إلى أبعد مما تسمح به الحكومة الفيصلية القائمة على مساندة الإنكليز في الشام، فأعلن «الجهاد» على «الكفار» الإنكليز.

ونظم شاعر دير الزور محمد الفراتي قصيدة يخاطب الأمير فيصل مادحاً إياه وذاماً الإنكليز، قال منها:

إنهض وروّ المعالي من عداك دما ... واستخدم السيف والقرطاس والقلما

يا ابن الحسين، وأنت اليوم ناصره ... لم تلق إلاك سيفاً صارماً خذما

يا فيصل الحقّ، لا تصغي لهم أذناً ... فصوتهم يورث المصغي له صمما

وشنّ مولود بقواته النظامية والعشائر المنضمة إليها الغارات على المعسكرات البريطانية في الصالحية والبوكمال وحاول قطع خطوط مواصلاتها. وعيّن أمين العمري مرافقه قائداً لجبهة الميادين. ثم اشتدّ الخلاف بين مولود ورمضان الشلاش الضابط العشائري الأصل من أبناء تلك المنطقة وتنازعا على السلطة فسبّبا المشاكل للأمير فيصل الذي أعلن ملكاً في دمشق والذي لم يجد بدأ إزاء احتجاج السلطات البريطانية من استدعائهما كليهما إلى الشام (تموز ١٩٢٠).

عاد مولود إلى العراق سنة ١٩٢٢ وعمل في الزراعة. وعيّن متصرفاً للواء كربلاء في حزيران ١٩٢٣، فعضواً في مجلس الأعيان في بدء الحياة البرلمانية (تموز ١٩٢٥). وانتخب نائباً لرئيس مجلس الأعيان في أول تشرين الثاني ١٩٣٠. وأعيد اختياره لهذا المنصب في السنوات التالية. وانتخب نائباً عن بغداد في كانون الأول ١٩٣٧، وجدّد انتخابه في سنة ١٩٣٩ و١٩٤٣.

وانتخب رئيساً لمجلس النواب في كانون الأول ١٩٣٧ وظلّ في الرئاسة إلى آخر تشرين الأول ١٩٤١.

أعيد تعيينه عضواً بمجلس الأعيان في حزيران ١٩٤٤. وأدركته الوفاة في زحلة بلبنان، حيث ذهب مصطافاً، في ٤ آب ١٩٥١.

كان مولود مخلص شهماً أريحياً حدرُ الكلمة صريح القول، وكان ملجأ لأبناء الموصل وتكريت يرعاهم ويقضي مصالحهم. وكانت له دالّة على الملك فيصل الأول والأسرة الهاشمية لسابق خدمته، فكانوا يحتملون صراحته ويلبّون مطالبه. وناله الأذى في عهد حكم الفريق بكر صدقي (١٩٣٦-٣٧) فخرج من بغداد أمداً قصيراً ثم لم يلبث أن عاد مرفوع الرأس، محترم المكانة. وفي سنة ١٩٣٨ ذهب إلى مصر على رأس وفد نيابي كان من أعضائه الشاعران النائبان معروف الرصافي ومحمود الملاح، وأدلى بتصريحات عن اعتدال السياسة العراقية.

عبدالمحسن آل شلاش

من رجال المال والاقتصاد والسياسة في العراق، ولد عبدالمحسن بن عبّود شلاش في النجف في ٢٢ كانون الأول ١٨٨٢، وتنتمي أسرته إلى قبيلة خفاجة استوطنت النجف وتعاطت التجارة والأعمال. وكان أبوه الحاج عبّود شلاش من تجار عصره المعروفين، بنى خاناً سنة ١٨٩٠ فأرّخ ذلك الشاعر جعفر كمال الدين الحلي قائلاً:

لـلـه مـا أكـرمـه مـنـزلاً فـيـه تـراح الأنـفـس الـمـتـعـبـة

شـاد مـبـانـيـه أبـو مـحـسـن في همّة فوق السّهى مرتبة..

درس عبدالمحسن العربية والأدب ثم أخذ يمارس التجارة. وعيّن في صدر شبابه وكيلاً تجارياً في مسقط رأسه لآل رشيد أمراء حائل، وزاول الصيرفة وكيلاً للمصرف العثماني. ومال إلى قرض الشعر فنظم أراجيز اقتصادية وتولّى نشر ديوان محمد سعيد الحبّوبي. وشرع سنة ١٩١٤ بتأسيس شركة إسالة الماء للنجف، لكن نشوب الحرب العامة أحبط المشروع.

ونشبت الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ فكان من زعمائها في بلده واعتقل وسجن ولم يطلق سراحه إلا عند إعلان العفو العام في آخر أيار ١٩٢١. ومما يذكر أنه على أثر فشل حركة النجف قبل ذلك وإعدام زعمائها الحاج نجم البقال ورفاقه، أقام أعيان النجف، وعلى رأسهم الحاج عبدالمحسن شلاش، حفلة تكريم للحاكم الإنكليزي الكابتن بلفور في دار الكليدار في مساء ٣٠ أيار ١٩١٨، وهو يوم إعدام الثوار. نقل تفاصيل الحفلة محمد علي كمال الدين في كتابه «معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠» (المطبوع سنة ١٩٧١) عن مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي، فقال إنه حضرها العلماء والأشراف والتجار وخطب فيها الحاج عبدالمحسن مثنياً على رجال الحكومة الإنكليزية ومعرباً عن امتنان النجفيين من الأعمال الفذّة في النجف وتطهيرها من أركان الفساد وأهل العناد. وقلّد الكابتن بلفور سيفاً مرصّعاً بالذهب أهداه إليه النجفيّون تقديراً لما أودعه في نفوسهم من حبّ وارتباط متينين.

ثم ألقى الكابتن كلمة شكر باللغة العربية. وألقى بعده أرنولد ولسن وكيل الحاكم الملكي العام، وكان حاضراً، كلمة باللغة الفارسية.

ثم ألفت الحكومة العراقية فأسندت إلى عبدالمحسن شلاش وزارة المعارف في الوزارة النقيبية الثالثة (١٧ تشرين الأول ١٩٢٢)، لكنه اعتذر عن قبولها. وعيّن وزيراً للمالية في وزارة جعفر العسكري الأولى (٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣ - ٣ آب ١٩٢٤)، وانتخب نائباً عن الديوانية في المجلس التأسيسي (١٩٢٤). ثم ناب عن كربلاء في مجلس النواب (١٩٢٥-٢٨) وعن الديوانية في الدورة الثانية (١٩٢٨-٣٠). وانتخب نائباً أول لرئيس مجلس النواب (١٦ تموز ١٩٢٥). وأصبح وزيراً للمواصلات والأشغال في الوزارة السعدونية الثالثة (١٤ ك٢ ١٩٢٨) واستمر ناهضاً بأعبائها في وزارة توفيق السويدي التالية (٢٨ نيسان ١٩٢٩) إلى ١٩ أيلول ١٩٢٩.

وعيّن عضواً بمجلس الأعيان (١٧ تشرين أول ١٩٣٧) فبقي عضواً فيه إلى تشرين أول ١٩٤٥. وعهد إليه بوزارة الاقتصاد (٨ تشرين الأول ١٩٤٢)، لكنه لم يلبث أن استقال في ١٤ تشرين ثاني ١٩٤٢. وانتخب نائباً ثانياً لرئيس مجلس الأعيان (٢ كانون أول ١٩٤٤) حتى استقال في ١٤ حزيران ١٩٤٥.

وقد توفي في النجف في ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٨.

ساهم الحاج عبدالمحسن شلاش في مشاريع تجارية واقتصادية عديدة، وكان معنياً بشؤون العراق الاقتصادية قولاً وعملاً، فوضع تقارير عن التمور ومضامين خزائن الحرم الحيدري إلخ. وطبع رسالة في آبار النجف ومجاريها (١٩٤٧). ونظم أرجوزة طويلة في العملة يوم كان التعامل بالروبية الهندية قبل وضع قانون العملة العراقية في سنة ١٩٣١ قال منها:

تسعيرة التحويل والمبادلة	قد أشكلت في قطرنا المعاملة
والسبب الوحيد في «الروبية»	فذاك فيه جوهر القضية
لو رفعت وناب عنها الذهب	لانكشفت عن البلاد الكرب...

كان معروفاً بالاقتصاد وحسن التدبير على الرغم من ثروته الكبيرة ورعايته لأعمال البرّ ومشاريع العلم والثقافة. روى جعفرالخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» أن الحاج محسن سمع مرة، وهو يهمّ بدخول بعض مجالس النجف- مناقشة تجري عما يضمّ صندوقه الحديدي من نقود، وقد أكد ربّ الدار أن محتوى الصندوق لا يقل عن مائتي ألف ليرة ذهب. فلما دخل الحاج واستقر في مجلسه، سأل ربّ الدار

عن عدد سلالم بيته، فقال الرجل: لقد ولدت في هذه الدار وعشت فيها طول عمري، بيد أنني لا أعلم عدد درجات سلالمه. قال الحاج محسن ضاحكاً: وأنا أيضاً لا علم لي بمحتوى صندوق نقودي.

وكان عبدالمحسن شلاش يتكلم في مجلس الأعيان عن تجارة العراق وشؤونه الاقتصادية، وقد نشرت خطبة له في مجلته غرفة تجارة بغداد، فجاء على أثرها يزورني ويباحثني.

محمد علي بحر العلوم

محمد علي بن علي تقي بن محمد تقي بن رضا بن محمد مهدي رأس الأسرة الطباطبائية الحسنيّة النسب المعروفة في النجف، ولد سنة ١٨٧٠، ودرس علوم الدين فأصبح من رجاله المعدودين، وكان من دعاة النهضة والإصلاح.

شارك في شبابه في الحركة الدستورية الإيرانية التي رفع لواءها المجتهدون، ولما نشبت الحرب العظمى لبّى نداء الجهاد ورابط في جبهة الكوت. ثم كان من زعماء الحركة الوطنية في النجف لمقارعة الاحتلال البريطاني. وقتل الكابتن مارشال معاون الحاكم السياسي في آذار ١٩١٨، فاعتقل محمد علي آل بحرالعلوم وسيق إلى المحكمة العرفية في الكوفة فحكم عليه بالإعدام في أيار ١٩١٨. وسمح له بعد ذلك بالذهاب إلى المحمّرة عاصمة الشيخ خزعل خان، فلبث فيها سنة وثلاثة أشهر. ثم عاد إلى النجف وساهم في ثورة سنة ١٩٢٠، فاعتقل في شهر حزيران ونفي إلى جزيرة هنجام وظل فيها إلى صدور العفو العام في ٣٠ أيار ١٩٢١.

وعيّن عضواً بمجلس الأعيان في ١٢ تشرين الأول ١٩٢٩، فجلس فيه إلى وفاته. وانتخب نائباً لرئيس المجلس في ٢ تشرين الثاني ١٩٢٩. وقد توفي ببغداد في ٢٨ آذار ١٩٣٦.

كان محمد علي بحرالعلوم من أصدقاء علي الشرقي. وقد هنّأه الشاعر عند عودته من الحج سنة ١٩١٣ بقصيدة مطلعها:

تطلّع لا الغزال ولا الحبائل ... بمختلف الذوائب والحمائل

ومنها:

تميّزك الملامح والمخايل ... رأيتك في الحجيج، وقد تساووا،

كما حفّت بسيّدها القبائل ... تحفّ بك القبيلة من قريش

ورأس الأسرة محمد مهدي بن مرتضى الطباطبائي البروجردي الأصل توفي سنة ١٧٩٧. له كتب كثيرة أكثرها مخطوط. وقد طبع منها: الدرة المنظومة (أرجوزة في الفقه) تحفة العابدين، الفوائد الرجالية.

عبدالحميد الدبوني

عبدالحميد الدبوني ولد في الموصل سنة ١٨٩٦ ودرس في دار المعلمين وجنّد في أثناء الحرب العامة فكان ضابطاً في الجيش التركي ولما وضعت الحرب أوزارها عيّنه الإنكليز معاوناً للحاكم السياسي في تلعفر، ثم استقال من الوظيفة والتجأ إلى دير الزور. وكان منذ فجر شبابه شعلة متّقدة من الغيرة الوطنية، فاشترك في حركة تلّعفر في حزيران ١٩٢٠، وفرّ على أثرها إلى تركيا. وقد حكمت عليه السلطات العسكرية البريطانية بالإعدام، واستثني من العفو العام، فقضى أعواماً في المنفى وعاد إلى العراق متخفياً. وشمله العفو سنة ١٩٢٦، فعيّن مدرساً في شباط ١٩٢٧ واسندت إليه إدارة الثانوية المركزية في بغداد ودار المعلمين بعد ذلك. وأصدر وهو مدير دار المعلمين مجلة مدرسية باسم «دار المعلمين» (أول كانون الأول ١٩٢٧) دامت زهاء السنة.

ثم عيّن عضواً بلجنة حسم النزاع في أراضي المنتفق. ونقل إلى سلك الإدارة فعيّن قائم مقاماً للزيبار (تموز ١٩٣١). فقائم مقاماً لقضاء زاخو (أيلول ١٩٣١) فالنجف (كانون الأول ١٩٣٣) فخانقين (أيار ١٩٣٤) فسامراء (حزيران ١٩٣٦) وجمجمال (حزيران ١٩٣٨) إلخ. ولما نشبت الحركة الوطنية في أيار ١٩٤١ كان وكيل متصرف لواء الحلة فقاوم الانكليز على رأس عشائر اللواء. وفصل من الخدمة في تشرين الأول ١٩٤١، واعتقل في العمارة ثلاث سنوات خلال الحرب العالمية.

وعيّن بعد ذلك مديراً للإحصاء في مديرية الصحة العامة (آب ١٩٤٧) فمديراً في مديرية العمل والضمان الاجتماعي العامة (تموز ١٩٥٢)، وأحيل إلى التقاعد سنة ١٩٥٦. وتوفي ببغداد في ٣٠ أيلول ١٩٦٩.

علي البزركان

ولد علي عبدالحميد البزركان في بغداد سنة ١٨٨٥ لأسرة معروفة ودرس في المدارس الأهلية والرسمية. وقد شارك في تأسيس المدرسة الجعفرية سنة ١٩٠٩ وأصبح معاوناً لمديرها الشيخ شكر، كما كان مدرساً بالمدرسة الألمانية التي أنشئت في بغداد (١٩١٢-١٧)، ثم كان من مؤسسي مدرسة التفيّض الأهلية في أيلول سنة ١٩١٩.

اشترك في الحركة الوطنية بعد الحرب العظمى، فكان من أنشط الشباب العاملين في ميدانها. وحاولت السلطات البريطانية القبض عليه في ١٣ آب ١٩٢٠، لكنه تمكّن من الهروب واللحاق بالمناطق الثائرة في الفرات. ولما انطفأ أوار الثورة، مضى إلى الحجاز عن طريق نجد، وزار شرقيّ الأردن وفلسطين ومصر، ثم عاد إلى العراق في ركاب الأمير فيصل (حزيران ١٩٢١).

وحينما كان في زيارة للأمير عبدالله في عمان في تلك السنة، حيّاه وحيّا العراق شاعر بيروت الشيخ مصطفى الغلاييني (١٨٨٦-١٩٤٥) بقصيدة مطلعها:

أهل العراق، أباة الضيم، من صمدوا ... للموت واستقتلوا في كلّ ميدان

دعاهم الموت أن يحموا الحمى فمشى ... للحرب كل أشمّ الأنف حسّان

يسترخص الدم تحت النقع مدّرعاً ... بلأمة الصبر يحيى مجد بغدان

وعيّن علي البرزكان مديراً للبلدية الأولى في بغداد في كانون الثاني ١٩٢٢، فمعاون أمين العاصمة (١٩٢٢) فوكيل أمين العاصمة (١٩٢٣)، واستقال في السنة التالية.

وعيّن في السلك الإداري قائم مقاماً لقضاء سامراء (تشرين الثاني ١٩٢٥)، ثم تنقّل في أقضية مختلفة، منها قضاء أبي صخير فالهندية (آب ١٩٢٩) فالشطرة (تموز ١٩٣١). وأصبح وكيل متصرّف لواء المنتفك (نيسان ١٩٣٢) فمتصرف الدليم (تشرين الثاني ١٩٣٢) فالمنتفك (تشرين الثاني ١٩٣٣) فمفتشاً إدارياً (أيلول ١٩٣٤) إلى شباط ١٩٣٦. وأعيد تعيينه مفتشاً إدارياً في أيلول ١٩٣٧ حتى اعتزل الخدمة في تشرين الثاني ١٩٣٩.

وقد وضع كتاباً عن ثورة ١٩٢٠ بعنوان الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية (١٩٥٤).

وتوفي ببغداد في ٢٠ تشرين الأول ١٩٥٨.

حدّثني قبيل وفاته عن هروبه من قبضة سلطات الاحتلال حين عزمت القبض عليه في ١٣ آب ١٩٢٠. فقد شعر عند الفجر بتطويق داره، وكان نائماً على السطح اتّقاءَ لحرّ الصيف، فانقلب خلسة إلى دار فؤاد الدفتري المجاورة لداره واختفى فيها. وفتّش الجنود الانكليز داره دون جدوى. وقد ظلّ هو متخفياً في دار آل الدفتري التي فتشها الجنود أيضاً فلم يعثروا عليه.

وشعر به محمود صبحي الدفتري قبيل العصر، فأتى له بالماء والطعام، وأخبر الجهات الوطنية عن وجوده. فرتّبت تهريبه متنكراً تحت جنح الظلام بأيدي عبدالمجيد كنّة وصحبه، كما رتّبت تهريب يوسف السويدي ومحمد جعفر أبي التمن، ونقلوا إلى منطقة الفرات. وأيّد لي هذه الواقعة بعد ذلك محمود صبحي الدفتري.

سعيد ثابت

النائب المعروف بمواقفه الوطنية محمد سعيد الحاج ثابت النعمان، ولد في الموصل سنة ١٨٨٣ ودرس في المدارس القديمة. ثم انهمك في معاونة والده في أعماله التجارية والزراعية، فلما احتلّ الإنكليز الموصل بعد الهدنة سنة ١٩١٨، مال إلى العمل في الحقل الوطني. وأوجس خيفة من السلطات المحتلة، فلجأ إلى دير الزور في سنة ١٩١٩. ولم يلبث الفرنسيون أن دخلوها، فمضى إلى الأناضول واتصل فيها بعجمي باشا السعدون وغيره من الوطنيين العراقيين الذين بذلوا جهودهم للحصول على معونة من الأتراك لدعم الثورة العراقية. وعاد إلى الموصل في أيلول ١٩٢١ بعد قيام المملكة العراقية، فشهدت الأعوام التالية جهوده السياسية والأدبية، إذ مثّل مسقط رأسه في سوق عكاظ المقام ببغداد والمؤتمر الشعبي المعقود في كربلاء سنة ١٩٢٢ إثر غارة الوهابيين على الحدود العراقية. واشترك بعد ذلك في مقاطعة انتخاب المجلس التأسيسي في الموصل فاعتقل أياماً وأطلق سراحه وأقصي إلى بغداد فالبصرة.

وسمح له بالعودة إلى الموصل بعد خمسة أشهر، فكان من مؤسسي حزب الاستقلال فيها (١٩٢٤) ومن الساعين لتثبيت عروبة الموصل وربطها بالعراق. وانتخب نائباً عن لوائه في المجلس النيابي الأول في تموز ١٩٢٥، فانتمى إلى حزب الشعب برئاسة ياسين الهاشمي وكان من معارضي المعاهدة البريطانية.

ثم عمل في صفوف الحزب الوطني بزعامة محمد جعفر أبي التمّن. وكان أحد مؤسسي شركة تجارة وحلج الأقطان العراقية التي اختير سكرتيراً لها (آب ١٩٢٩). وحضر في سنة ١٩٣١ المؤتمر الإسلامي العام المنعقد في القدس. وأعيد انتخابه نائباً عن الموصل في شباط ١٩٣٣ وكانون الأول ١٩٣٤ وآب ١٩٣٥ وحزيران ١٩٣٩. وقد انتدب عضواً في الوفد العراقي إلى اليمن برئاسة جميل المدفعي (آذار - نيسان ١٩٣٧)، وانتخب رئيساً لجمعية الدفاع عن فلسطين سنة ١٩٣٦. وقد أدركه الحمام بالموصل في ٨ تشرين الأول ١٩٤١.

كان لسعيد ثابت مواقف وطنية مشهودة، منها موقفه في جلسة مجلس النواب المعقودة في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٦ في أثناء تصديق المعاهدة العراقية ـ البريطانية. فقد اشتدّ لغط المعارضين، وكانوا قلة، فمشى النائب سعيد ثابت إلى المنبر ورفع كلتا يديه وصاح بصوته الجهير: «ألا فلتعلم الأمة أنّي أرفض المعاهدة رفضاً باتاً!» وصرخ محمد باقر الشبيبي: «لتسقط الأكثرية الغاشمة!».

هل يمكن تشبيه هذا الموقف، بصورة مصغّرة، والقياس مع الفارق كما يقال، بموقف ميرابو خطيب الثورة الفرنسية حينما جاء مندوب الملك سنة ١٧٨٩ لفضّ اجتماع المجلس الوطني، فصاح ميرابو : «نحن هنا بإرادة الشعب، ولن نخرج إلا بقوة الحراب!».

رؤوف الأمين

من وجهاء الحلة، اشترك رؤوف الأمين في المظاهرات والاجتماعات التي جرت في بلده لمناهضة الاحتلال البريطاني في حزيران ١٩٢٠، قبيل نشوب الثورة العراقية، فقبض عليه مع خيري الهنداوي وغيره ونفي إلى جزيرة هنجام في الخليج العربي، وأطلق سراحه في شباط ١٩٢١. وتولى بعد ذلك رئاسة بلدية الحلة (كانون ثاني ١٩٢٢) ثم انتخب نائباً عنها في مجلس النواب (تشرين الثاني ١٩٣٠). لكنه أغتيل في السنة التالية في الحلة في ١٩ آب ١٩٣١. وكان عمّه سعيد أفندي المتوفّى سنة ١٨٩٢ رئيساً لبلدية الحلّة قبله.

محمّد مهدي كُبّة

من أسرة كبّة المعروفة، وهو ابن الحاج محمد حسن كبّة (١٨٥٣ - ١٩١٨) التاجر الشاعر الفقيه الذي اعتزل التجارة لينصرف لعلوم الدين والأدب، ابن الحاج محمد صالح بن مصطفى بن درويش علي كبّة.

ولد محمد مهدي في مدينة سامرّاء سنة ١٩٠٠، وكان والده قد انتقل إليها طلباً للعلم بعد انقطاعه عن التجارة وسكناه في النجف أعواماً، فدرس العلوم العربية والدينية على علماء عصره، ثم انتقل مع آله إلى الكاظمية سنة ١٩١٨ على أثر سقوط سامراء بيد الجيش الإنكليزي. وعند نشوب الثورة العراقية عام ١٩٢٠ شارك فتانا شباب بغداد والكاظمية في الدعوة إليها مع الشيخ محمد مهدي الخالصي.

انتقل إلى الإقامة في بغداد سنة ١٩٢٤، وانتخب عضواً في اللجنة العليا للحزب الوطني (١٩٢٨)، ونشر مقالات في جريدة «البلاد» في نقد المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية لسنة ١٩٣٠.

وأوفد عضواً في الوفد العراقي إلى اليمن برئاسة جميل المدفعي (آذار ١٩٣٧)، سعياً لإدخال الإمام يحيى في الحلف العراقي ـ السعودي.

انتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب (كانون أول ١٩٣٧ - ٣٩). وقد أسّس حزب الاستقلال وتولى رئاسته سنة ١٩٤٦. وأصبح وزيراً للتموين في وزارة السيد محمد الصدر (٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨)،واستقال في ١٠ حزيران ١٩٤٨ . وانتخب نائباً عن بغداد في حزيران ١٩٤٨ (الى استقالته في آذار ١٩٥٠)، وثم في حزيران ١٩٥٠، واستقال من النيابة في ١٥ آذار ١٩٥٢ . وأعيد انتخابه نائباً عن بغداد في حزيران ١٩٥٤ وثم في أيلول من السنة نفسها، لكنه استقال في كانون الأول ١٩٥٤ .

على أثر نشوب الثورة عيّن عضواً بمجلس السيادة للجمهورية العراقية برئاسة الفريق محمّد نجيب الربيعي في ١٤ تموز ١٩٥٨، وقد استقال في شباط ١٩٥٩ والتزم العزلة.

فرض الشعر في مقتبل شبابه ونظم «رباعيّات الخيّام». وأصدر الجزء الأول من

مذكراته بعنوان «مذكراتي في صميم الأحداث ١٩١٨-٥٨» (طبع في بيروت سنة ١٩٦٥).

وألف أيضاً: حديث الجمعة (١٩٤٧) الحركة القومية وأهدافها (١٩٤٧)، حركتنا القومية تقدّمية (١٩٦٠). . إلخ.

تخرّج مهدي كبّة في مدرسة جعفر أبي التمن السياسية الوطنية وسار على هديه في حياته وبعد مماته. قال فيه خالد الدرّة (مجلة الوادي في ١٥ آذار ١٩٤٧): «. . . ولولا حمده وصدقه ولولا نبله وعلياؤه ولولا استقامته وإيمانه لكان غير محمّد وغير مهدي. ولكن صدق من سمّاه فنشأه فربّاه، فكان للفتى العربي مثله ومناه. هذا الطول السامق المديد وهذا الأسر الشديد والأنف الكبير والجبهة الناصعة المرفوعة والبسمة الهادئة الوديعة، والعينان الصافيتان الحالمتان والكفان الكبيرتان الضخمتان، وهذا القلب الكبير النقي المؤمن. . فإن كان في بنيان جسمه كبر، وفي يديه كبر، وفي أنفه كبر، وفي قلبه كبر، فهو في الإيمان أكبر وبالملمّات أصبر وفي الخطوب أجسر وبين النادرين أندر. وهو في هذا وذاك ما تعالى ولا تجبّر. ويوم كان هؤلاء السادة المتباكون بدموع التماسيح على الوطن الأكبر والوطن الأصغر عبيداً لجيوش الاحتلال . . . كان المحمّد المهدي يصارع أعزلاً إلا من سلاح الإيمان ويقارع إلا بشجاعة الشجعان. .».

توفي الشيخ محمد مهدي كبّة في بغداد في ٢٧ آذار ١٩٨٤.

خاطب الشاعر الدكتور عبدالحسن زلزلة محمد مهدي كبّة في وثبة كانون الثاني ١٩٤٨ فقال:

يـا زعـيـم الـشـعـب،	قـم بـارك بـعـيـن الـلـه شـعـبـك
يـتـخـطـى لـك قـتـلاه	لـيـسـتـمـطـر سـحـبـك
ويـدوس الـنـار والـشـوك	لـيـقـفـو الـيـوم ركـبـك
شـربـت أبـطـالـه كـأس	الـردى والـنـصـر نـخـبـك. .
يـا زعـيـم الـشـعـب، وسّدت	أمـانـي الـشـعـب قـلـبـك
لا تـغـرنّـك أحـابـيـل	بـحـلـك الـلـيـل تـحـبـك
ومـنـاشـيـر بـهـا الـتـفـريـق	والـتـضـلـيـل يُـسـبـك
ألـقـموهـا فـتـنـة عـمـيـاء	تـسـتـهـدف حـربـك
فـسـهـام الأفـك والـتـغـريـر	لـن تـطـعـن جـنـبـك. . .

فائق السامرائي

ولد فائق عبدالكريم السامرائي في العمارة سنة ١٩٠٦ لأسرة تنتمي إلى فرقة البوبشير من عشيرة البوباز السامرائية، وكان أبوه مديراً للأملاك السنّية، ولم يلبث أن نقل مديراً لأوقاف البصرة، فرافقه فائق ودرس في المدرسة الأمريكية والمدارس الرسمية. ثم انتقل إلى بغداد وانتمى إلى المدرسة الثانوية، فطرد منها سنة ١٩٢٧ لقيادته مظاهرات الطلاب في قضية المدرس اللبناني أنيس النصولي. وفي السنة التالية أعيد طرده، بعد عودته إلى الدرس، لاشتراكه في المظاهرات ضدّ السير ألفرد موند.

وانتمى بعد ذلك إلى مدرسة الحقوق وسيق سنة ١٩٣٠ إلى محكمة الجزاء بتهمة التظاهر ضد المعاهدة العراقية ـ البريطانية وحكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر.

كان مديراً مسؤولاً لجريدة الحارس التي صدرت في أول كانون الأول ١٩٢٩ وعطّلت فوراً، وبعد ذلك لمجلة الرصافة (كانون الثاني ١٩٣٠). وقد تخرّج في كلية الحقوق سنة ١٩٣٢، وكان محرراً لجريدة الاستقلال في السنة الأخيرة من دراسته.

عيّن سكرتيراً لوزارة العدلية في كانون الثاني ١٩٣٣، ونقل مدقّقاً بدائرة الطابو (التسجيل العقاري) في أيار ١٩٣٤، فمميّزاً لديوان التدويس القانوني، فوكيل مدير الدعاية والنشر (١٩٣٦). وقد وضع وهو في وزارة الداخلية أول قانون للعمال (١٩٣٦) ومثّل العراق في مؤتمر العمل الدولي المعقود في جنيف.

نقل مفتشاً للطابو في كانون الثاني ١٩٣٨ فمديراً للدعاية والنشر في وزارة الداخلية (شباط ١٩٣٩). وكان قد أبعد إلى زاخو أمداً قصيراً في حوادث كانون الأول ١٩٣٨ على وزارة جميل المدفعي. وعيّن بعد ذلك مديراً للبلديات والتنظيم (١٩٣٩)، ثم اعتقل في تشرين الثاني ١٩٤١، وظل رهين الاعتقال خلال سنوات الحرب العالمية في الفاو والعمارة. وأوقف أيضاً في حوادث كانون الثاني ١٩٤٨ وتشرين الثاني ١٩٥٢.

ولما وضعت الحرب أوزارها اشترك في تأليف حزب الاستقلال (نيسان ١٩٤٦) واختير نائباً لرئيسه، وتولى الإشراف على جريدة لواء الاستقلال التي صدرت في آب

١٩٤٦. وانتخب نائباً عن بغداد في حزيران ١٩٤٨ واستقال في آذار ١٩٥٠، ثم أعيد انتخابه نائباً عن سامراء (حزيران ١٩٥٠)، واستقال من النيابة في ١٥ آذار ١٩٥٢. وأصدر في أيلول ١٩٥٣ جريدة «الجريدة» لتنطق باسم حزب الاستقلال. وأبعد إلى حلبجة بعد العدوان الثلاثي على مصر في أواخر سنة ١٩٥٦.

انتخب نقيباً للمحامين في آب ١٩٥٧. ولما أعلنت ثورة ١٤ تموز عيّن سفيراً للجمهورية العراقية في القاهرة (آب ١٩٥٨)، لكنه استقال من منصبه في ٢٦ آذار ١٩٥٩ وأقام لاجئاً في مصر. وحكم عليه بالإعدام غيابياً في أيار ١٩٦٠.

عاد إلى بغداد بعد زوال حكم عبدالكريم قاسم، ورئس تحرير جريدة الميثاق (١٩٦٣). وكان نقيباً للمحامين للمرة الثانية من شباط ١٩٦٦ إلى شباط ١٩٦٨.

وفائق السامرائي كاتب سياسي جريء وخطيب مفوّه ومعارض مناضل. نشر مقالات سياسية واجتماعية كثيرة. وألّف: البناء الاقتصادي (١٩٤٧) وساهم في ضع كتاب «محكمة المهداوي: مأساة وملهاة» المطبوع في القاهرة سنة ١٩٦٠. وقد أقام في سنواته الأخيرة في سويسرا ومصر. واشتدّ عليه مرض السرطان فذهب إلى الولايات المتحدة مستشفياً، ثم عاد إلى بغداد ولم يلبث أن أدركته الوفاة بها بعد أسابيع قليلة في ١٥ أيار ١٩٧٩.

قال محمود الدرّة إن فائق السامرائي كان من زعماء الطلبة في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد. وقاد مظاهرة طلابية سنة ١٩٢٧ «انتصاراً لحرية الفكر واحتجاجاً على فصل معلم التاريخ أنيس النصولي اللبناني الذي أغضب كتابه الشيعة...»».

وقال إنه كان يكتب مقالات وطنية تلهب مشاعر الناس في جريدة الاستقلال بتوقيع (ف). واختار الطريق المؤدي إلى المعتقلات والحرمان، فأبعد خلال الحرب العالمية إلى الفاو. ولعب ما بين الأربعينات ونهاية الخمسينات دوراً بارزاً في الحياة السياسية العراقية سواء كان محامياً أو صحفياً أوحزبياً أو عضواً برلمانياً.

وقال محمود الدرّة: كان فائق السامرائي مناضلاً وطنياً عملاقاً، وسيّان عنده العيش في السجن أو المعتقل أو المنفى في أواسط جبال كردستان، أم في بيته أو في مكتبه كنقيب للمحامين، أو في مقرّ حزبه كسكرتير أو نائب رئيس الحزب... والسياسة عنده لعبة رياضية لا تنتهي قطّ بالقطيعة مع خصمه.. أبعدته ثورة ١٤ تموز عن المراكز الحساسة في الدولة فعيّنته سفيراً لها في مصر. ولم يتوان في التضحية بمنصبه المرموق احتجاجاً على مذابح الموصل بعد فشل ثورتها على عبدالكريم قاسم في ربيع

١٩٥٩. وعاش لاجئاً سياسياً في مصر طيلة أربع سنوات قبل أن يقتل قاسم ينتهي حكمه في العراق.

ثم قال الدرّة: واختلفتُ معه، ونحن لاجئان في مصر محكوم علينا بالإعدام في وطننا. كان يعمل من هناك كزعيم يطمح بحكم العراق لكي يضمّه إلى الجمهورية العربية المتحدة على اعتبار كونه إقليمها الشرقي.

كنت أصرّ على أننا «صوت سيّده» وأن الذي سيحكم العراق هو ذاك الذي يطوّح برأس الزعيم الأوحد، الذي قد يتنازل فيدعونا إلى العودة إلى الوطن!

وأضاف الدرّة: والحقّ أقول إن خيالي لم يذهب إلى أبعد من تصوّري، لأرى فائق السامرائي معتقلاً بتهمة التآمر مع رجال العهد الملكي البائد، وهو الذي أفنى شبابه في مقاومته ومقارعته! وعاد فائق السامرائي إلى منفاه (الاختياري) من جديد ليموت شهيداً في غربته الطويلة كما عاش شهيداً طيلة حياته السياسية، وهو يتنقل بين السجون والمعتقلات والمنافي، تلاحقه الديون المالية من أجل لقمة عيشه ملاحقة السرطان الذي قضى عليه في نهاية المطاف. (عن جريدة أخبار اليوم القاهرية، ٢٦ أيار ١٩٧٩).

وكتب الصحفي المصري مصطفى أمين في جريدة أخبار اليوم (القاهرة، ١٧ أيار ١٩٨٠) كلمة عن فائق السامرائي بمناسبة مرور عام على وفاته، فقال: «كان فائق السامرائي أحد زعماء العراق، بل أحد زعماء الأمة العربية. كان شجاعاً لا يخاف، وجريئاً لا يتردّد، وقوياً لا يضعف، وصريحاً لا يلفّ ولا يدور».

وقال إنه كان نائباً بليغ الكلام، وكاتباً صحفياً ممتازاً كلماته كالسياط ومقالاته كالزلازل تهزّ الحكومات. وكان نقيب المحامين فجعل مهمة المحامي الأولى الدفاع عن الشعب المظلوم.

وقال: «كان هذا الرجل العجيب وحدة عربية بمعنى الكلمة».

وكتب ناصر الدين النشاشيبي الصحفي الفلسطيني في مجلة الحوادث (٢٤ أيلول ١٩٨٢) يقول إنه سأل رجال المعارضة في العراق في العهد الملكي أمثال (كامل) الجادرجي وفائق السامرائي وصديق شنشل لماذا لا ينزلون إلى الشارع ويقودون الشعب ضد حلف بغداد وقيادة نوري السعيد، فكان جوابهم إن القوانين العرفية المفروضة باسم الدفاع عن فلسطين لا تسمح بحرية العمل السياسي والتظاهر.

محمد صديق شنشل

ينتمي محمد صديق شنشل إلى أسرة تجارية معروفة، وهو ابن إسماعيل بن أحمد بن محمد آل شنشل، ولد في الموصل سنة ١٩١٠، وأتمّ دراسته الثانوية في بغداد ثم التحق بكلية الحقوق، لكنه مضى في السنة الدراسية الأخيرة إلى دمشق وأتم دراسته بمعهد الحقوق وتخرّج سنة ١٩٣٣.

زاول المحاماة في بغداد، وقصد باريس سنة ١٩٣٥ في بعثة حكومية وواصل دراسة الحقوق العامة والإدارة في جامعة السوربون، غير أن نشوب الحرب في خريف سنة ١٩٣٩ اضطرّه إلى العودة إلى وطنه. وعيّن على أثر عودته مشاوراً حقوقياً بوزارة الخارجية.

كان صدّيق شنشل من الشباب القومي المتحمس، وقد انتمى إلى «نادي المثنى» وأصبح من أنشط أعضائه. ولما قامت حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ عيّن مديراً عاماً للدعاية فقاد حملة الدعاية لتأييد الحركة وجعل الإذاعة تذيع برامج باللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والتركية إضافة الى العربية. ولما أخفقت الحركة فرّ إلى إيران مع زعمائها، لكن السلطات البريطانية اعتقلته في الأهواز ونقلته مع عدد من رجال السياسة إلى سالسبوري في جنوب أفريقيا. ثم أعيد إلى بغداد وأحيل إلى المحاكمة، وصدر الحكم عليه بالإفراج. غير أنه اعتقل فوراً وأرسل إلى معتقل العمارة وبعد ذلك إلى نقرة السلمان حيث قضى سنوات الحرب .

في نيسان ١٩٤٦ اشترك في تأسيس حزب الاستقلال، فانتخب محمد مهدي كبّة رئيساً للحزب وفائق السامرائي نائباً للرئيس ومحمد صديق شنشل سكرتيراً عاماً. وقد ساهم في تحرير جريدة لواء الاستقلال وجريدة الجريدة التي أصدرها فائق السامرائي في أيلول ١٩٥٣ وكتب فيهما مقالات شديدة اللهجة في معارضة الحكومة والدعوة إلى وحدة الصف الوطني وانتهاج النهج القومي ومكافحة النفوذ الأجنبي.

وانتخب نائباً عن الموصل في حزيران ١٩٥٠ واستقال في ١٥ آذار ١٩٥٢. وأعيد

انتخابه نائباً في مجلس تموز ١٩٥٤ الذي حلّ فوراً. وقد ناله الاضطهاد بسبب نشاطه الوطني، فاعتقل في تشرين الثاني ١٩٥٢ على أثر الاضطرابات التي حصلت آنذاك، وقبض عليه في تشرين الثاني ١٩٥٦ عقب العدوان الثلاثي على مصر فحكم عليه بالمراقبة لمدة سنة واحدة وأبعد إلى قلعة دزة في الشمال.

ولما نشبت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ عيّن وزيراً للإرشاد فشغل منصبه حتى استقال في أثناء المدّ الشيوعي في ٧ شباط ١٩٥٩. وعمل بعد ذلك في المحاماة والشؤون الاقتصادية. وكتب مقالات كثيرة سياسية واجتماعية نشرها في الصحف خلال السنين المتعاقبة. واشترك في تأليف كتاب «القومية والوطنية: حقائق وإيضاحات ومناهج للمستقبل» (الموصل ١٩٣٨).

حجزت أمواله بقرار مجلس قيادة الثورة في أيار ١٩٦٩. وتوفي في بغداد في ٢٤ كانون الأول ١٩٩٠.

قال نجدة فتحي صفوة في مقال له في جريدة الشرق الأوسط بمناسبة الذكرى الخامسة لرحيل محمد صديق شنشل (٢٤ كانون الأول ١٩٩٥) إن صديق شنشل أصبح، بثقافته السياسية الواسعة ومقدرته الخطابية والكتابية، من أبرز أعضاء حزب الاستقلال وأنشطهم وأكثرهم أثراً في الحياة العامة.. وكان من أكثر أعضاء الحزب تصلّباً في مواقفه.».

ثم قال: «ويمكن أن يقال عن صديق شنشل أنه كان سياسياً قضى معظم حياته معارضاً، ولكن معارضته كانت شريفة على الدوام ولم تؤثر في صلاته الشخصية مع رجال الحكم ولم يفقده احترامهم. وذلك أحد الملامح الحضارية والثقافية لهذه الشخصية الوطنية في تاريخ العراق السياسي. وقد بقي متحمساً لعروبته متمسكاً بمبادئه حتى وفاته».

صديق شنشل في نظر رغيد الصلح

على أثر وفاة صديق شنشل في بغداد في ٢٤ كانون الأول ١٩٩٠ كتب رغيد الصلح الباحث اللبناني بجامعة أكسفورد في جريدة الحياة اللندنية في عدد ٢٢ كانون الثاني ١٩٩١ يقول إن شنشل دخل في تجربة العمل الحزبي لأول مرة عندما انضم إلى ما سمّي بحزب القوميين العرب أو «جماعة الكتاب الأحمر» الذي نشأ في بيروت في منتصف الثلاثينات واشترك في تأسيسه عدد من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين فانتشر

في أقطارهم، وما لبث أن دخل العراق فكان له تأثير بين الشباب العسكريين. لعب هذا الحزب دوراً مهماً في نشر الفكرة القومية العربية وانضمّ إليه صديق شنشل ويونس السبعاوي ودرويش المقدادي.

ثم اشترك شنشل في تأسيس حزب الاستقلال بعد الحرب مع محمد مهدي كبّة وفائق السامرائي وإبراهيم الراوي وداود السعدي وخليل كنّة وعبدالرزاق الظاهر ورزوق شمّاس وعبدالمحسن الدوري وفاضل معلّة وإسماعيل عبدالهادي الغانم. وقد ابتعد شنشل نهائياً عن النشاط السياسي في الثمانينات، لكنه لبث يستقبل طلاب العلوم الاجتماعية والباحثين الذين ينقبون عن خفايا الأحداث المهمة التي ألمت بالمشرق العربي ويقدّم لهم ثمرة تجاربه الواسعة.

وحدّث صديق شنشل كاتب المقال (رغيد الصلح) عن انتمائه إلى حزب القوميين العرب سنة ١٩٣٨ وهو طالب في باريس، بترشيح فريد زين الدين. وكان من قادة الحزب كاظم الصلح. وكان الحزب يهدف إلى تحرير البلاد العربية وتوحيدها، وقد تلاشى بصورة عفوية خصوصاً بسبب أحداث ١٩٤١ وتطوّرات الحرب العالمية الثانية.

ثم قال شنشل إن الأمير الوصي عبدالإله أطلق بعد الحرب العالمية الثانية حرية العمل السياسي والحزبي، فقرر القوميون إنشاء تجربة حزبية جديدة وتحوّلوا من العمل في إطار التنظيم القومي إلى العمل الإقليمي. لم تبارح أفكارهم الوحدة العربية، لكنهم اضطروا على التأكيد على عراقية الحركة مسايرة للسلطة الحاكمة. وقد أسسوا حزب الاستقلال تاركين النشاط السرّي ومشدّدين على شرطين هما الحصول على التأييد الشعبي والابتعاد عن العمل العسكري.

عمل حزب الاستقلال على تكوين «الجامعة الشعبية العربية» إلى جانب جامعة الدول العربية لخدمة الأهداف القومية. وحاول الحزب عقد مؤتمر شعبي تحضيري في القاهرة، ففشل المشروع لمعارضة الحكومة العراقية وبعض الحكومات العربية الأخرى. فانصرف الحزب عند ذلك إلى التنسيق والتعاون مع الأحزاب القريبة منه في مبادئها في الأقطار القريبة كحزب الشعب والحزب الوطني في سوريا وحزب النداء القومي في لبنان الذي جمع شخصيات محترمة تؤمن بالعروبة.

حزب الاستقلال

أجيز حزب الاستقلال في ٢ نيسان ١٩٤٦ وتولى رئاسته محمد مهدي كبّة وجمع فئة من القوميين المتطرفين والشباب اليميني المثقف، منهم اللواء المتقاعد إبراهيم

الراوي وعبدالرزاق الظاهر وفائق السامرائي وإسماعيل الغانم وعبدالرحمن الخضير ورزوق شماس وإبراهيم الحمداني ومحمد صديق شنشل وسلمان الصفواني وسليم النعيمي وعبدالمحسن الدوري وعبدالرزاق شبيب وعبدالقادر السياب وشاكر ماهر وغيرهم. ثم انفصل بعض الأعضاء عن الحزب لأسباب شخصية أو مبدئية، منهم خليل كنّة ورزوق شماس وإبراهيم الراوي وداود السعدي وإسماعيل الغانم وشاكر ماهر وإبراهيم الحمداني وعبدالمحسن الدوري إلخ.

أصدر الحزب جريدة لواء الاستقلال في ٤ آب ١٩٤٦ لتكون لسان حاله وألغيت في ٢٩ أيلول ١٩٥٤ على أثر صدور مرسوم إلغاء الأحزاب والجمعيات.

وكانت قد ألغيت الجريدة في تشرين الثاني ١٩٥٢ وفي أيلول ١٩٥٣، فعوّض الحزب عنها بجريدة صدى لواء الاستقلال، ثم عادت جريدة لواء الاستقلال إلى الظهور في تشرين الأول ١٩٥٣.

ومبادئ الحزب التي تضمنها برنامجه تتناول تعزيز كيان العراق الدولي واستكمال سيادته وتقوية جامعة الدول العربية والسعي لتبديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٣٠ ودعم الدول العربية غيرالمستقلة وتحرير فلسطين وتوثيق الروابط مع الشعوب الإسلامية. وفي الأمور الداخلية دعا الحزب إلى توطيد الحياة الدستورية الصحيحة وضمان حقوق الشعب وإصلاح قوانين الانتخاب والإدارة الحكومية. وارتأى الحزب توزيع الأراضي الزراعية توزيعاً عادلاً واستثمار المواد الزراعية وتصنيع البلد ونشر التعليم المهني والصناعي ووضع سياسة مالية موحدة للتعاون مع الأقطارالعربية وتوحيد النقد وإصلاح نظام الضرائب وتشغيل العمال العاطلين إلخ.

قدم الحزب مذكرات تتعلق باستقلال فلسطين العربية ودعا إلى اتحاد سوريا والعراق وساند استقلال المغرب وأيّد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر، بعد أن تحفظ في شأنها، كما أيّد تأميم قناة السويس. وكانت له مواقف في معارضة وزارة أرشد العمري سنة ١٩٤٦ واستنكار معاهدة بورتسموث سنة ١٩٤٨، وساهم في الوثبة الوطنية. واشترك محمد مهدي كبّة في وزارة السيد محمد الصدر وزيراً للتموين، لكنه استقال بعد أشهر. وقدم الحزب المذكرات إلى السلطات بشأن معالجة أمور البلاد ومشاكلها، حتى إذا ما نشبت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ رحّب بها الحزب وأصبح محمد مهدي كبّة عضواً في مجلس السيادة ومحمد صديق شنشل وزيراً للإرشاد وفائق السامرائي سفيراً في القاهرة. ولم يدم ذلك سوى أشهر معدودة فاستقال هؤلاء من مناصبهم.

عبدالمحسن أبو طبيخ

السيد محسن بن حسن بن علي بن إدريس من آل أبي طبيخ، وهم سادة حسينيون اشتهروا بآل السيد هادي، ومسكنهم الغمّاس في لواء الديوانية.

ولد عبدالمحسن في الغمّاس في ١٢ حزيران ١٨٩٣ ودرس في النجف (١٩٠٥-١٤). وخلف أباه في زعامة آله عند وفاته سنة ١٩١٨.

كان من زعماء الثورة في أنحاء الفرات، عينته حكومة الثورة متصرفاً لكربلاء (أيلول ١٩٢٠)، ثم لجأ إلى الحجاز في تشرين الثاني من تلك السنة، وعاد إلى العراق في أيلول ١٩٢١ بعد إعلان العفو العام في ٣٠ أيار ١٩٢١. وكان من المعارضين لانتخابات المجلس التأسيسي، المنادين بمقاطعتها، فكلّف بمغادرة العراق ومضى إلى سوريا في حزيران ١٩٢٣، وعاد بعد مدة وجيزة.

انتخب نائباً عن الديوانية (١٩٢٥-٨٢) واختير نائباً أول لرئيس مجلس النواب في أول تشرين الثاني ١٩٢٧ إلى ١٩ كانون الثاني ١٩٢٨. وعيّن عضواً بمجلس الأعيان في أيلول ١٩٣٣ وأنهيت عضويته في أيار ١٩٣٧ واعتقل وأبعد إلى الشمال. وكان قد قام بحركة قبليّة بالاشتراك مع عبدالواحد الحاج سكر في أواخر ١٩٣٤. وأصدر كتابه «المبادئ والرجال» (دمشق ١٩٣٧).

انتخب نائباً عن الديوانية في حزيران ١٩٣٩. واعتقل أمدا قصيراً في أيار ١٩٤١، ثم أعيد تعيينه عيناً (٢٥ تشرين الأول ١٩٤١)، وقد استقال في ٣ تموز ١٩٤٧. وأصبح عيناً للمرة الثالثة في تموز ١٩٥١ إلى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وانتخب نائباً أول لرئيس مجلس الأعيان في أول كانون الأول ١٩٤٣ .

توفي في بغداد في ٤ أيار ١٩٦١.

كان السيد محسن أبو طبيخ مهيب الطلعة ذلق اللسان، فصيح الكلام، يرتدي الملابس العربية البهيّة ويعتمر العقال المقصّب حتى لتراه أميراً من أمراء البادية في أجلى مظاهره. وقد حدّثني، بعيد ثورة تموز ١٩٥٨، أنه كان راكباً سيارته الفارهة يذهب

لبعض شؤونه، فتوقّفت السيارة لحظات حسب اقتضاء حركة المرور. وفي هذه الأثناء مدّ رجل من العوام السائرين في الطريق رأسه في داخل السيارة وقال للسيد محسن: ألا تزالون أحياء؟ كنّا نظن أن الثورة قضت عليكم وطوت صفحتكم! وفرّ الرجل وغاب في بعض الأزقّة المجاورة، بينما سارت السيارة في خضمّ حركة السير.

وقد تأثر السيد محسن كثيراً بهذه الحادثة، وهو الذي جاهد في سبيل استقلال البلاد وأبلى البلاء الحسن في الثورة على المستعمرين وإرساء قوعد الدولة الفتية.

شعلان أبو الجون

الشيخ شعلان أبو الجون رئيس عشيرة الظوالم من بني حجيم تسكن في أراضي العوجة بين الأبيض والسماوة بناحية الرميثة، كان من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠. سجنه الحاكم الإنكليزي في الرميثة في ٣٠ حزيران من تلك السنة، فاقتحم رجاله السجن وأخرجوه عنوة، وكان ذلك بداية الثورة التي أبلى فيها الشيخ شعلان بلاءً حسناً، حتى هادن الإنكليز في تشرين الأول ١٩٢٠. وقد انتخب نائباً عن الديوانية في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤. وتوفّي في ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٠.

كان شعلان أبو الجون شجاعاً يحسن نظم الشعر الشعبي. انتخب ابنه جياد الشعلان نائباً عن الديوانية في حزيران ١٩٣٩ وجدّد انتخابه في تشرين الأول ١٩٤٣ وحزيران ١٩٤٨ وكانون الثاني ١٩٥٣ وأيلول ١٩٥٤ إلى آذار ١٩٥٨.

وكان جيّاد الشعلان قد تمرّد على الحكومة ولم يلبث أن سلّم نفسه في حزيران ١٩٣٦.

توفي الشيخ جياد شعلان أبو الجون في بغداد في نيسان ١٩٨٠.

شعلان أبو الجون أيضاً

ذكر السير جون غلوب، المعروف باسم كلوب باشا، شعلان ابو الجون في كتابه «مغامرات عربية» وأشار إلى سجنه وقيام أتباعه بإنقاذه. عفي عنه بعد إعلان العفو العام في سنة ١٩٢١، فحاول - كما قال كلوب - أن يبسط نفوذه على العشائر المجاورة مما أدى إلى معارك ودسائس كثيرة.

ولما كان الظوالم يعيشون في أعلى النهر فإنهم صاروا يستولون على الماء ويتركون العشائر المقيمة في الأسفل، ومنها البركات والصفراء والتوبة والجوابر، مفتقرين إلى الماء لريّ زراعتهم. وأملقت هذه العشائر ومالت إلى النهب على الطريق العام. واختلّ الأمن في منطقة السماوة، وامتنعت العشائر عن دفع الضرائب واعتدت على بعض الجباة في البوجيّاش. وفي آذار ١٩٢٣ قطعت البوجياش سكة حديد البصرة في منطقتها، وكان

رئيسهم عجّة الدّلي ورئيس الصفران عزارة المعجون.

واستعانت الحكومة بالقوة الجوية البريطانية لقصف قرى الصفران وعشيرة البركات التي يرأسها خوشان الحمّادي، وذلك في تشرين الثاني ١٩٢٣. ثم أرسلت قوات الشرطة من السماوة فدكت القلاع المسمّاة «المفاتيل» وأخضعت عشائر بني حجيم الساكنة في تلك المنطقة.

هزّت حادثة الرميثة قريحة الشعراء، فقال جميل صدقي الزهاوي:

مـــاذا بـــكـــثـــبـــان الـــرمـــيـــثـــة	مـــن غـــطـــارفـــة جـــحـــاجـــح؟

وتطرّق شاعر الشام شفيق جبري في رثائه للزهاوي سنة ١٩٣٧ إلى الرميثة فقال:

سـل الـرمـيـثـة عـن شـعـر تـردّده	كـأنـه فـي حـمـاهـا الـنـار والـجـمـد
عـلـى الـرمـيـثـة أشـلاء مـبـعـثـرة	لـلـه مـن درجـوا فـيـهـا ومـن رقـدوا
تكاد تسمع أذني همس هامسهم	وتأخذ العين موتاهم وإن همدوا
لم ينشأ الملك في بغداد عن عبث	الصولجان حماه الثائر النّجد

عبدالواحد الحاج سكر

الشيخ عبدالواحد الحاج سكر الفرعون رئيس عشائر آل فتلة في الجعّارة (الحيرة)، ولد في ١٥ آذار ١٨٩٢ ونشأ في مضارب قبيلته.

توفي والده الحاج سكر ببغداد سنة ١٩١٠. واشترك عبدالواحد مع رؤساء آل فتلة في التمرّد على السلطات التركية قبيل الحرب العظمى، فسجن في بغداد. ثم أطلق سراحه ومضى مع مجاهدي العشائر إلى حرب الشعيبة (١٩١٥).

كان بعد الاحتلال البريطاني من قادة الثورة العراقية في منطقة الهندية وكربلاء، فلما خبا أوارها استسلم للحكومة في الكوفة (٢ تشرين الثاني ١٩٢٠)، وحكم عليه بالسجن المؤبد. ثم أطلق سراحه وأقصي إلى البصرة حتى إعلان العفو السياسي العام في أيار ١٩٢١.

وانتخب نائباً عن الديوانية في المجلس التأسيسي (١٩٢٤). ثم انتخب نائباً عن اللواء المذكور سنة ١٩٣٣-٣٤ و١٩٣٥-٣٦ وشباط ١٩٣٧. وتمرّد على الحكومة في آذار١٩٣٥. ثم تزعّم عصياناً في أنحاء الفرات بالاشتراك مع عبدالمحسن أبي طبيخ وعلوان عباس الياسري (أيار ١٩٣٧) فاعتقل وألغيت نيابته.

وانتخب نائباً عن الديوانية للمرة الرابعة في حزيران ١٩٣٩ إلى تشرين الأول من السنة نفسها.

اعتقل في أثناء الحرب العالمية وأبعد إلى الفاو (تموز ١٩٤١). ثم عيّن عضواً بمجلس الأعيان في آذار ١٩٥٤، وتوفي ببغداد في ٦ تشرين الأول ١٩٥٦.

ذكره محمد مهدي الجواهري في قصيدته «ثورة العراق»، وهي من شعره القديم، فقال:

كـمّـي مـشـى بـيـن الـكـمـاة وحـولـه ... نـجـوم بـلـيـل مـن عـجـاج طـوالـع
يـعـلّـمـهـم فـوز الأمـانـي، ولـم تـكـن ... لـتـجـهـلـه لـكـن لـيـزداد طـامـع
ومـا كـان حـبّ الـثـورة اقـتـاد جـمـعـهـم ... إلـى الـمـوت لـولا أن تـخـيـب الـذرائـع

هم استسلموا للموت، والموت جارف، وهم عرضوا للسيف، والسيف قاطع

نقل عبدالله الفيّاض في كتابه «الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠» عن مجموعة تقارير الحكام السياسيين في العراق سنة ١٩١٨ أن الانكليز كانوا يعدّون الشيخ عبدالواحد من الزعماء القديرين ذوي النظر البعيد وأقوى رجال آل فتلة.

وقد أطلقت السلطات التركية شيوخ آل فتلة من السجن، وهم الشيخ مبدر والشيخ مزهر آل فرعون وعبد الواحد الحاج سكر وغيرهم، فقال عبدالرحمن البناء يهنّئهم:

هنّيت، يا مبدر الفرعون، هُنّيتا فرح معافى، لقد أدركت ما شيتا

حتى يقول:

لم يقدر السجن أن يؤذي لهم فئة هيهات أن تحرق النيران (ياقوتاً)

فـ (مبدر) (مزهر) (جبّارهم) (حسن) و(كاظم) (واحد) داموا مصاليتا

لا زال يرقص شعري فيهم طرباً وقلب حسّادهم لا زال مفتوتا

قال الشاعر محمد الباقر الحلي يخاطبه حين جيء به مخفوراً إلى سجن بغداد بعد ثورة ١٩٢٠:

تَهَنَّ وطب نفساً بما أنت واجد فقد كنت عن حقّ صريح تجاهد

لعمري لقد أكسبت قومك سؤدداً يهوّن ما أمسيت ظلماً تكابد

فإن يك ذاك الخصم في الظلم مفرداً فإنك، يا عبد الحقيقة، واحد

فيا بطل الشعب العظيم، بشارة سيدرك فيك الشعب ما أنت ناشد

عقد اجتماع في النجف في كانون الأول ١٩١٨ شارك فيه رجال الحركة الوطنية في النجف وأبي صخير والشامية للبحث في موضوع استفتاء الشعب العراقي حول نظام الحكم الذي يختاره. وقد اقترح بعض المجتمعين إقامة نظام جمهوري، لكن الاقتراح لقي معارضة، قال عبدالواحد الحاج سكر: «لسنا، أيها السادة، أكفاء للجمهورية حتى نختار حكومة جمهورية. ولسنا فرساً أو تركاً أو إنكليز فنختار أميراً فارسياً أو تركياً أو إنكليزياً. وإنما نحن عرب فيجب أن نختار أميراً عربياً».

ووصف الدكتورعلي الوردي، في الجزء الخامس من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» عند كلامه على ثورة العشرين (القسم الأول)، عبدالواحد سكر، فقال إنه كان أرفع مقاماً من أعمامه على الرغم من كونهم أكبر منه سناً. وقال إنه كان قوي الشخصية ذا شجاعة ودهاء، متديناً كثير التهجّد في صلاته. لكنه بالرغم من ورعه

لم يكن يتردد أن يأمر بسفك الدماء إذا اقتضت ذلك التقاليد العشائرية.

وكان يحمل في نفسه بغضاً شديداً للإنكليز لوقوفهم ضده في النزاع الذي حصل بينه وبين عشائره حول بعض الأراضي فجرّدوه من حقه فيها.

عبدالواحد الحاج سكر أيضاً

كتب السير جون غلوب المعروف باسم غلوب باشا في كتابه «مغامرات عربية» الصادر في لندن سنة ١٩٧٨ عن خدمته في العراق سنة ١٩٢٠-٣٠، فقال إن نهر الفرات يتشعب بعد سدّ الهندية إلى روافد مختلفة يمرّ أحدها بالشامية. وتسكن عشيرة آل فتلة على شواطئ النهر جنوبي هذه البلدة، وقد تولّى رئاستها الشيخ فرعون في نحو سنة ١٨٧٠. قام هذا الشيخ بتوزيع الأراضي التي يرويها النهر على أبناء عشيرته، ولم يكن آنذاك أية سلطة حكومية في المنطقة ولا تسجيل لملكية الأراضي.

توفي فرعون سنة ١٩٠٣ فخلفه أبناؤه في الرئاسة. وكانت الأراضي تزرع أرزاً ولا أشجار فيها، لكن أبناء العشائر أخذوا يزرعون النخيل في أرضهم. وفي سنة ١٩١٢ تمرّد أبناء الشيخ فرعون على الحكومة التركية، فأرسلت قوة عسكرية لتأديبهم واعتقلوا وحجزت أراضيهم. وعلى أثر ذلك اتصل رجال العشيرة بالحكومة بصفة فردية واقتسموا أراضي الشيوخ فيما بينهم.

ولما نشبت الحرب العامة واحتلّ البريطانيون البصرة، أعلنت الحكومة التركية الجهاد، وأطلقت سراح شيوخ آل فرعون للاشتراك في الحرب إلى جانبها. وعندما عاد هؤلاء إلى أراضيهم وجدوا عشائرهم قد استولت عليها فنشب الخلاف بينهم وبين العشائر وقد دعمت السلطات التركية، ومن بعدها السلطات الإنكليزية المختلفة، سلطة الشيوخ حفظاً للأمن في المنطقة.

وعيّن الكابتن غلوب، كما كان آنذاك، مفتشاً إدارياً في لواء الديوانية في أواخر سنة ١٩٢٦. وكلّف في السنة التالية بتحرّي أسباب النزاع بين العشائر. والشيوخ الذين كانوا يطالبون بحصة في تمور النخيل التي زرعها أتباعهم حينما كانوا هم سجناء في السجون التركية.

ولم يكن لدى طرفي النزاع أية سندات أو وثائق، فلم يكن ممكناً إحالة القضية على المحاكم للفصل فيها. وقد قضى غلوب أياماً طويلة في حرّ الصيف اللافح بين المرزّات ومضارب الشيوخ والعشائر ومكاتب موظفي المنطقة حتى اطلع على أساس

المشكلة وقدّم تقريره إلى وزارة الداخلية لحسم النزاع. ووافقت الوزارة على الأخذ بمقترحاته.

ثم ذكر أن الوزراء ورجال السياسة كانوا يؤثرون على المتصرف لمحاباة الشيوخ وخفض ضرائبهم ونصرهم على خصومهم بغير حقّ .

نور السيد عزيز الياسري

آل ياسر سادة حسينيّون يسكنون المشخاب بناحية الفيصلية ولهم نفوذ على العشائر المجاورة. وقد ولد السيد نور بن عزيز بن محمد بن عزيز الياسري في نحو سنة ١٨٥٠ وحارب في الشعيبة في صفوف الأتراك مع مجاهدي العشائر (١٩١٥)، واشترك في الثورة العراقية فعيّن قائم مقاماً للنجف في أيلول ١٩٢٠. لكن نار الثورة خمدت في تشرين الثاني فنزح الياسري مع رفاق له إلى الحجاز، ومكث ضيفاً على الملك حسين.

عيّن عضواً بمجلس الأعيان في تشرين الأول ١٩٢٩، واستقال في حزيران ١٩٣٣ لكبر سنّه. وتوفي بالفيصلية في ٤ أيار ١٩٣٦ عن نحو ٩٠ عاماً قمرياً. وقد أرخ وفاته الشاعر السيد رضا الهندي فقال:

هذا ضريح فيه نور الهدى وهو بلطف الله مغمور
وكيف يخشى ظلمات الثرى أرِّخْ: (ضريح ملؤه نور)

قال الدكتورعلي الوردي في الجزء الخامس من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» (القسم الأول) إن المعروف عن السيد نور الياسري إنه كان ذا قدسية لدى العشائر قلما نالها أحد غيره. وقيل إن سفنه كانت إذا مرّت بالجبايش هرع الناس للتبرّك بها، وقد ينذرون لها النذور أو يطلونها بالحنّاء كما يفعلون بالمراقد المقدّسة. أما الإنكليز فكانوا ينظرون إليه نظرة ازدراء وانتقاص. كتب عنه الكابتن لايل «إنه صبيّ قصير سمين، يناهز السبعين من عمره، برميل فارغ، تستقر النظارات على أنفه بشكل مائل. ينطق بسيماء الحكمة الغامضة ويأتي بالتفاهات التي يعتبرها أتباعه دليلاً على التفكير العميق».

وعرف من أبنائه عبدالمهدي السيد نور الياسري، انتخب نائباً عن الديوانية (قضاء أبي صخير) في آذار ١٩٤٧، وجدّد انتخابه في جميع الدورات النيابية المتعاقبة إلى ثورة تموز ١٩٥٨.

علوان عبّاس الياسري

من زعماء العشائر في لواء الديوانية، ينتمي إلى أسرة حسينية النسب، وهو السيد علوان بن عباس بن نعمة بن إدريس الياسري، ولد في المشخاب سنة ١٨٧٥ ونشأ بين أهله وعشيرته في قضاء أبي صخير. وقد ثار على الحكومة التركية فاعتقل أشهراً سنة ١٩١٠، ثم قبض عليه الوالي جاويد باشا واعتقله مرة أخرى في أوائل سنة ١٩١٤.

ولما نشبت الحرب العظمى ودعا علماء الدين في النجف إلى الجهاد، أطلق سراحه وخفّ إلى الدفاع عن الدولة العثمانية، وحارب في الشعيبة وغيرها. ثم كان بعد الحرب من قادة الثورة العراقية على الإنكليز سنة ١٩٢٠، فلما انطفأ أوارها لجأ إلى الحجاز في تشرين الثاني من تلك السنة، وعاد إلى العراق برفقة الأمير فيصل بعد اعلان العفو السياسي العام (حزيران ١٩٢١).

انتخب نائباً عن الديوانية في المجلس التأسيسي (١٩٢٤)، ثم ناب عن الديوانية أيضاً في مجلس النواب (١٩٢٥-٢٨)، والدورة النيابية الثانية (١٩٢٨) حتى استقال (١١ حزيران ١٩٢٩). وأعيد انتخابه نائباً سنة ١٩٣٠، ولم يلبث أن عيّن عضواً بمجلس الأعيان (٣٠ تشرين الأول ١٩٣٠).

عيّن وزيراً للمواصلات والأشغال في الوزارة العسكرية الثانية (٦ آب ١٩٢٧) إلى ١٤ كانون الثاني ١٩٢٨.

وقد أنهيت عضويته في مجلس الأعيان على عهد حكومة حكمت سليمان (٢٢ أيار ١٩٣٧) وأبعد إلى الشمال. وانتخب نائباً عن الديوانية في حزيران ١٩٣٩، ثم أعيد تعيينه عضواً بمجلس الأعيان (١١ تشرين الأول ١٩٣٩) إلى تشرين أول ١٩٤٥. ولقد ترأس اجتماع مجلسي النواب والأعيان في ١٠ نيسان ١٩٤١ على عهد حكومة الدفاع الوطني، فاعتقل في أواخر تموز ١٩٤١ وأبعد إلى الفاو والعمارة حيث أمضى سنوات الحرب.

وتوفي ببغداد في ١٢ نيسان ١٩٥١.

كان زعيماً مهيباً ذا رأي وعزيمة، ذكر عبدالحميد الكنين أنه كان عارفاً بالشعر الشعبي ينظم الأبوذية.

نقل عبدالله الفيّاض عن تقارير الحكّام السياسيين الإنكليز في العراق سنة ١٩١٨ أنهم كانوا يرون السيد الياسري رجلاً ماهراً ذا نفوذ واسع، وكان أقوى رجال منطقة المشخاب والشامية.

وذكر الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من «لمحاته الاجتماعية» أن الملك فيصل وسّط السيد علوان الياسري وقاطع العوّادي لدى الشيخ مهدي الخالصي في محاولة لإقناعه بسحب فتوى تحريم الاشتراك في انتخابات المجلس التأسيسي (أيار ١٩٢٣)، فاتهمهما الخالصي بالكفر. ورأى السيد علوان يخرج من مرقد الإمام الكاظم فقال له: «كيف يجوز لك أن تأتي لزيارة الإمام وأنت كافر؟».

وذكر الوردي أن علوان الياسري خاطب الحاكم السياسي الإنكليزي قائلاً: «نحن عشنا قبل هذا مئات السنين في وضع بعيد جداً عن الاستقلال، ولكنكم جئتم إلينا أخيراً فأعطيتمونا وعوداً بالاستقلال. إنكم عرضتم علينا فكرة الاستقلال في وقت نحن لم نطلبه منكم، ولم نكن نحلم به حتى جئتم فوضعتم الفكرة في رؤوسنا. والآن في كل مرة نطالبكم بالاستقلال تسجنوننا».

ولده: عبدالحميد علوان الياسري ولد في نحو سنة ١٩٠٤، واشترك مع والده في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، واعتقل معه مرّات عدّة.

عمل في الزراعة وكان راوية ثورة العشرين نقل عنه الدكتور علي الوردي والدكتور حسين أمين وجعفر الخليلي (فراتي).

غادر منزله في ٢٢ نيسان ١٩٨٤ للسفر إلى فيينا، لكنه اعتقل في مطار بغداد وأبلغ ذووه بلزوم تسلّم جثته في ١٨ تموز ١٩٨٤.

سماوي الجلوب

الشيخ سماوي الجلوب من رؤساء عشائر آل فتلة في أنحاء الهندية (طويريج)، اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، فلما انتهت سجن في الحلة وأطلق سراحه عند إعلان العفو العام في آخر أيار ١٩٢١.

عيّن عضواً بمجلس الأعيان في أيلول ١٩٣٣ وتوفي في ٢٨ تموز ١٩٣٥. ناوأ الحكومة مع بعض زعماء العشائر في آذار ١٩٣٥.

خوّام العبد العبّاس

الشيخ خوّام العبد العبّاس الفرهود العسّاف الجادر رئيس آل أزيرج (بني زريق) القاطنين في أنحاء السّماوة، ولد في الرميثة سنة ١٨٩٢ ونشأ في أحضان قبيلته. كان من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، انطلقت رصاصتها الأولى من الرميثة، فقال جميل صدقي الزهاوي:

ماذا بضاحية الرميثة من غطارفة جحاجح
ولمن أقيمت في البيوت على كرامتها المناوح
ولأيّة ندبت من الليل الحمامات الصّوادح؟
طلبوا مساواة الحقوق فطوّحت بهم الطوائح

وقد تمرّدت عشائره في أيار ١٩٣٥، فقضت الحكومة على الحركة وقبضت على الشيخ خوّام جريحاً. ثم انتخب نائباً عن الديوانية سنة ١٩٣٧-٣٩ و١٩٤٧-٤٨ و١٩٤٨-٥٢ و١٩٥٣-٥٤. وتوفي ببغداد في ٥ أيلول ١٩٦٧.

كان الشيخ خوّام فارع الطول، مهيب الطلعة، صريح الكلام، بدويّ اللهجة، وقد سمّاها خالد الدرّة «اللهجة الخوّامية».

وكان يمثل خير ما يمتاز به شيوخ القبائل الأقدمون من حرية فطرية ونبل أصيل. وصفه عباس العزاوي بأنه «من أفاضل الرجال ويحمل خير ما يكون من الآراء الحميدة». وقال خالد الدرّة: «وهو البارز بين الذين ذاقوا حلاوة العزّ والثروة ومرارة الذلّ والحرمان».

وقد انتخب أبوه الشيخ عبدالعبّاس الفرهود نائباً عن الديوانية في أيار ١٩٢٨. وتوفي ببغداد في ٢٤ أيلول ١٩٣٠.

وعرف ابن عمّه شنشول حسن آغا الفرهود، وقد كان نائباً عن الديوانية (قضاء السماوة) في تموز ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨.

هادي آل مكوطر

من آل مكوطر وهم سادة حسينيون نهضوا بالزعامة في منطقة الشنافية. شدّ السيد هادي أزر الأتراك في الحرب العظمى مع عجمي باشا السعدون. وقد ذكر عبدالعزيز القصاب في «ذكرياته» أن العشائر المجاهدة في السماوة كانت «تهوّس» (تهزج): «ثلث الجنّة دينا لها، وثلث لكاكا أحمد وأصحابه، والثلث الآخر للسادة، وشويّة شويّة (قليل القليل) البربوتي».

وهكذا وزعوا الجنة ثلثها للسيد هادي المكوطر، والثلث للكاكا أحمد وأكراده، والقليل لبربوتي، وهو بربوتي السلمان من رؤساء السماوة.

تمّرد السيد هادي على الإنكليز فنفوه إلى الهند مع ابن أخيه السيد حسين في تموز ١٩١٨. ولما نشبت الثورة في السماوة سنة ١٩٢٠، وكان قد عاد من المنفى، كان أحد قادتها وأبلى فيها بلاءً حسناً، وعندما خبا أوارها فرّ إلى الحجاز.

عاد إلى العراق بعد إعلان العفو العام. وانتابه المرض فأقعده حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٢٤. أما ابن أخيه السيد حسين المكوطر فقد ولد في نحو سنة ١٨٨٤. انتخب نائباً عن الديوانية سنة ١٩٢٨، وبعد ذلك في كانون الأول ١٩٣٧ وتشرين الأول ١٩٣٩ إلى وفاته في ١٣ أيار ١٩٤١.

وكان السيد جعفر السيد موسى المكوطر نائباً عن الشامية (لواء الديوانية) في آذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨ وحزيران ١٩٥٤. وتوفي وهو يستشفي في لندن في كانون الثاني ١٩٦٨.

هادي زوين

من زعماء الثورة العراقية السيد هادي بن علي بن حسين آل زوين، سليل أسرة علوية تنتسب إلى جدّها الأعلى السيد زين الدين وتسكن في ناحية الحيرة (الجعارة).

اشترك في الحركة الوطنية العراقية بعد الحرب العظمى، وكان همزة الوصل بين زعماء الشامية وأبي صخير وعلماء النجف وكربلاء، وزار بغداد واتصل بمحافلها الوطنية. ولما نشبت الثورة في صيف سنة ١٩٢٠، جاهد في ميدانها، حتى إذا ما انطفأ أوارها، اعتقل في الكوفة والحلة. وأطلق سراحه بعد إعلان العفو العام في أيار ١٩٢١.

وقد توفي في أبي صخير في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٠.

ذكرالسيد إسماعيل الواعظ في كتاب «الروض الأزهر» الذي نشره أخوه إبراهيم أن السيد هادي زوين تغلب على أراضي أقربائه من آل زوين في قضاء الشامية سنة ١٩١١، فقرر مجلس إدارة لواء الديوانية انتزاعها منه وإعادتها إلى مالكيها.

زار والي بغداد مصطفى عاصم باشا بلدة النجف سنة ١٨٨٨ فاستغاث به الأهلون من مشاكل الماء، فأمر العشائر المجاورة بحفر نهر من الجعّارة (الحيرة) من فرع الفرات في الهندية. وأوكل العمل إلى مدير الأملاك السنيّة عبدالغني أفندي الذي أنجزه بمساعدة السيد هادي زوين. وجرى الماء إلى بركة في بحيرة النجف، لكن النهر انطمر بعد مضيّ ثلاث سنوات.

ضاري المحمود

الشيخ ضاري الظاهر المحمود الظاهر الحمام السليمان رئيس قبيلة زوبع النازلة بين بغداد والفلّوجة. ولد في نحوسنة ١٨٤٨ (وقيل ١٨٦٨)، وخلف أباه في المشيخة عند وفاته سنة ١٩٠٥.

وقد تمرّد أبوه الشيخ ظاهر المحمود على الدولة العثمانية مع عشائر الخزاعل وبني حسن وغيرهما، فسيّرت حملة لتأديبهم بقيادة والي بغداد المشير نامق باشا (١٨٥١). وأبعد شيخ زوبع وكريدي شيخ الخزاعل وغيرهما إلى استانبول. لكن الشيخ ظاهر تمكّن من الفرار من يد حرّاسه بعد مغادرة الموصل، فصار يقطع الطرق وينهب القوافل، على ما نقل عبّاس العزاوي في الجزء السابع من «تاريخ العراق بين احتلالين».

وذكر عبدالحميد العلوجي وعزيز جاسم الحجيّة في كتابهما «الشيخ ضاري» (١٩٦٨) أن الشيخ ظاهر المحمود عرف بصراحته مع لصوص زوبع، فكان يقيّد أرجلهم ويتركهم في مرابط الحيوانات هدفاً لحرارة الشمس.

حارب الشيخ ضاري الإنكليز إبّان الحرب العظمى في صفوف الأتراك. ولما اندلع أوار الثورة العراقية، قتل الكولونيل لجمن[1] حاكم الدليم السياسي في خان النقطة (بين بغداد والفلوجة) في ١٢ آب ١٩٢٠. ونسب القتل إلى الشيخ ضاري وولديه خميس وسليمان، فاستثنوا من العفو العام الذي صدر في ٣٠ أيار ١٩٢١.

وقد انضم الشيخ ضاري إلى ثوار الفرات الأوسط، ثم لجأ إلى الجزيرة على الحدود العراقية ـ السورية. وفي خريف ١٩٢٧ أراد السفر إلى حلب فركب سيارة، لكنّ السائق عرفه وسلّمه إلى السلطات العراقية في سنجار في تشرين الثاني ١٩٢٧.

نقل إلى بغداد، وحكمت عليه محكمة الجزاء الكبرى بالإعدام في كانون الثاني ١٩٢٨، وخفض الحكم إلى السجن المؤبد لكبر سنّه. وقد توفي في هذه الأثناء في أول

(١) المقدّم جيرالد إيفلين لجمن (١٨٨٠-١٩٢٠) Lieut-Col. Gerald Evelyn Leachman.

شباط ١٩٢٨، فكان تشييع جثمانه مدعاة لمظاهرات صاخبة قامت في بغداد ضدّ الإنكليز.

قال زهير أحمد القيسي بعد ثورة تموز ١٩٥٨:

يا ضاري، يا باسل، يا ضاري،
فلنغسل أرض الأوطان من العار
ولنشعل نيران الثورة،
ونعيش على أرض حرّة.
والقائد يرفع سيف الموت على الباغي
وصياح الثوّار الصاخب في الوادي:
فلينهدم الاستعمار الطاغي
وليسقط أعداء الشعب!

وقال عباس العزاوي في تاريخه إن عمّ الجدّ الأعلى للشيخ ضاري، وهو الشيخ بكر الحمام كان رئيساً لزوبع سنة ١٧٤٦ في عهد والي بغداد أحمد باشا، ثم اعتدى على القوافل (١٧٥٥) في عهد الوالي سليمان باشا فسار عليه بنفسه على رأس حملة تأديبية واضطره إلى الهرب والتماس العفو.

***

عرف ولده الشيخ خميس الضاري الذي شاركه في حركاته الوطنية واستثني معه من العفو العام في أيار ١٩٢٠ وذاق بعد ذلك مرارة التشريد.

انتخب الشيخ خميس نائباً عن الدليم في شباط ١٩٣٣ وجدّد انتخابه في المجالس المتعاقبة إلى شباط ١٩٣٩. ثم انتخب نائباً عن بغداد (قضاء المحمودية) في حزيران ١٩٤٨، وأعيد انتخابه عن هذا اللواء في أيلول ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨. وانصرف بعد ذلك إلى الزراعة.

صلاّل الفاضل

من رؤساء آل غانم في عفك الحاج صلاّل الفاضل، وقد عرف باسم «صلال الموح» أي السيل، ولد في نحو سنة ١٨٧٤. وكان مع أخيه الحاج مهدي الفاضل من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠،اشتبك بالقوات البريطانية وطاردها إلى المنطقة المجاورة للصويرة في لواء الكوت. ولما خمد أوار الثورة لجأ إلى الحجاز، وعاد إلى العراق بعد إعلان العفو العام سنة ١٩٢١.

وقد انتخب نائباً عن الديوانية في كانون الأول ١٩٣٧ إلى شباط ١٩٣٩، وأعيد إنتخابه في شباط ١٩٤٢. وأدركته الوفاة في ٢ حزيران ١٩٦٩،وقد أناف على الخامسة والتسعين.

وصلاّل ابن أخت الحاج مخيف الكتّاب.

مرزوق العوّاد

الحاج مرزوق آل عوّاد آل حربي رئيس العوابد من عشائر بني حسن، ومنزل قبيلته في قضاء الشامية. كان من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وأبلى بلاءً حسناً في معركة الرارنجية (٢٤ تموز ١٩٢٠). لجأ عند خمود أوارها إلى الحجاز، وعاد إلى العراق بعد أداء فريضة الحج في أيلول ١٩٢١.

وقد انتخب نائباً عن لواء الديوانية في كانون الأول ١٩٣٤، وجدّد انتخابه في آب ١٩٣٥ وشباط ١٩٣٧ وكانون الأول ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣.

وتوفي في ٣١ كانون الأول ١٩٤٦ في النجف.

ولده عبدالكاظم المرزوق العواد ولد سنة ١٩٠٩، وانتخب نائباً عن الديوانية في آذار ١٩٤٧. وجدّد انتخابه للنيابة في حزيران ١٩٤٨ وكانون الثاني ١٩٥٣ وأيلول ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨ إلى ثورة تموز ١٩٥٨. وقد توفي الشيخ عبدالكاظم في بلدة الكاظمية في ١٠ شباط ١٩٧٢.

روى عبدالحميد العلوجي وعزيز جاسم الحجّيّة في كتابهما «الشيخ ضاري» (١٩٦٨) أن الشيخ مرزوق العواد، حين سمع بمقتل الكولونيل لجمن، حلف بالطلاق أن يقبّل اليد التي قتلته. ومرّت الأيام، والتحق الشيخ ضاري المحمود بشوّار الفرات. وكان جالساً ذات يوم في خيمة السيد محسن أبو طبيخ، فجاء الشيخ مرزوق وحيّا الشيخ ضاري وصافحه وقال له : لقد أقسمت أن أقبّل اليد التي صرعت لجمن، فأمددها.

وامتنع ضاري فقال مرزوق: إذن فامرأتي طالق، وهي أم أطفال. ولم يملك ضاري عند ذلك إلا أن يمدّ يده فيقبّلها رئيس العوابد براً في يمينه.

قاطع العوّادي

السيد قاطع العوادي من سادة العشائر في لواء العمارة. وهو ابن السيد موسى بن عزيز، وجدّه السيد عوّاد سليل الإمام موسى بن جعفر.

كان السيد قاطع من زعماء ثورة العشرين، فلما خبت نارها لجأ إلى إيران وعاد بعد إعلان العفو العام سنة ١٩٢١.

انتخب نائباً عن لواء الديوانية (١٩٢٥-٢٨) فنائباً عن لواء العمارة في المحل الشاغر بوفاة ياسين العامر (شباط ١٩٢٩). ثم ناب عن العمارة في دورة آب ١٩٣٥ وحزيران ١٩٣٩. واختير نائباً لرئيس غرفة زراعة العمارة (كانون الأول ١٩٣٩). واعتقل في أثناء الحرب العالمية في تموز ١٩٤١، ونقل إلى سجن الفاو فالعمارة. توفي شيخاً مسناً سنة ١٩٥٠.

الحاج رايح العطية

هو ابن الحاج عطية الغضبان المشيمش من شيوخ عشائر الحميدات في الشامية بلواء الديوانية.

ولد في نحو سنة ١٨٩١، وعيّن في أثناء الحرب العظمى، وهو لايزال شاباً، حاكماً لبلدة الشامية على العهد التركي. ثم كان من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، فلما انتهت لجأ إلى الحجاز عن طريق حائل (تشرين ثاني ١٩٢٠). وعاد إلى العراق بعد إعلان العفو العام، في أيلول ١٩٢١.

انتخب نائباً عن لواء الديوانية في المجلس التأسيسي (١٩٢٤). ثم انتخب نائباً عن اللواء المذكور في مجلس النواب (آذار ١٩٣٣) وجدد انتخابه في كانون أول ١٩٣٤ إلى نيسان ١٩٣٥، ثم في شباط ١٩٣٧ وكانون أول ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين أول ١٩٤٣. واختير نائباً أول لرئيس مجلس النواب (٢٨ كانون الثاني ١٩٤٣) وثم في ٩ تشرين الاول ١٩٤٣. وعيّن عضواً بمجلس الأعيان في ٨ حزيران ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٥٢، وجددت عضويته في هذا المجلس في ٣٠ نيسان ١٩٥٣ إلى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

وقد عيّن وزيراً للزراعة (٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢ - ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣)، وكان بعد ذلك وزيرا بلا وزارة من ٣ آذار ١٩٥٨ إلى ١٩ أيار ١٩٥٨. وتوفي ببغداد في ٨ حزيران ١٩٧٠.

أخوه عبدالكاظم العطيّة كان نائباً عن لواء الديوانية من أيلول ١٩٥٤ إلى تموز ١٩٥٨، وتوفي ببغداد في ٢٧ أيار ١٩٦٨.

الشيخ عبادي الحسين

رئيس القيّم من فروع عشائر آل فتلة في قضاء الشامية، وهو عبادي بن حسين بن علي بن عباس ولد في نحو سنة ١٨٦٥. وكان من رؤساء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، فسجن في الحلة وأطلق سراحه عند إعلان العفو العام. انتخب نائباً عن الديوانية في تموز ١٩٢٥، وأعيد انتخابه في تشرين الأول ١٩٢٩. وتوفي بالشامية في ٢٢ شباط ١٩٣٥. وكان ابنه أركان عبادي (١٩١٥-١٩٦٩) نائباً ووزيراً.

وعبدالسادة الحسين (أخو عبادي الحسين) من رؤساء آل فتلة، ولد في مقاطعة المهناوية سنة ١٨٨٤. واشترك في الحرب العظمى إذ انضم إلى صفوف الجيش التركي في حصار الكوت، ثم ساهم في ثورة سنة ١٩٢٠. وانتخب نائباً عن لواء الديوانية في المجلس التأسيسي (١٩٢٤)، ثم كان نائباً عن اللواء المذكور في مجلس الأمة في آب ١٩٣٥ وشباط ١٩٣٧. وقد توفي في شهر نيسان ١٩٥٧.

حبيب الخيزران

الشيخ حبيب الخيزران رئيس قبيلة العزّة ولد سنة ١٨٩٥ في أراضي العظيم من أعمال لواء ديالى، وهو ابن الشيخ خيزران بن عبدالله بن محمد بن مروّح. خلف أباه المتوفّى في نحو سنة ١٩١٢ في المشيخة، وكان عضداً للقوات التركية في الحرب العظمى. واتخذ مقره في قرية دلّي عباس.

نشبت الثورة على الإنكليز في لواء ديالى في آب ١٩٢٠ فكان الشيخ حبيب من زعمائها. وقد استولى الثوار على بعقوبا وأخرجوا الإنكليز من دلتاوة ودلي عباس وشهربان وقطعوا خطّ السكة الحديد الممتد إلى حدود إيران. لكن القوات البريطانية استعادت بعقوبا في ٢٩ آب وسيطرت على لوء ديايي في أوائل أيلول. وعيّن حبيب الخيزران قائم مقاماً لقضاء دلتاوة (الخالص) بعد أمد قصير، مع أنه أبى التوقيع على وثيقة الاستسلام.

وواصل جهاده الوطني فنفي إلى هنجام في أيلول ١٩٢٢ وقضى في تلك الجزيرة أشهراً حتى أطلق سراحه في شباط ١٩٢٣. وناب عن لواء ديالى في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤، ثم انتخب نائباً عن ذلك اللواء.

في آب ١٩٣٥ وشباط ١٩٣٧ وتشرين الأول ١٩٤٣ وآذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨ وكانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ وأيلول ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨ إلى قيام ثورة تموز ١٩٥٨.

واشترك حبيب الخيزران في تمرّد العشائر على الحكومة في آذار ١٩٣٥.

توفي بعد سنة ١٩٨١.

الشيخ حميد الحسن

رئيس عشائر بني تميم في لواء ديالى الشيخ حميد الحسن السليمان المحمد الراشد، ويعرف بيت الرئاسة بالطرشان.

ولد في نحو سنة ١٨٧٦، وكان نائباً عن لواء ديالى في دورة آب ١٩٣٥ وشباط ١٩٣٧.

قال عباس العزاوي في الجزء الرابع من كتابه «عشائر العراق» إنه كان أبي النفس كريماً شهماً. وقد توفي في ٤ نيسان ١٩٥٦. وتسكن فرقة الرؤساء في مقاطعة الروز من لواء ديالى.

وقال عمران موسى البياتي مؤلف «عشائر مندلي» إن الشيخ حميد الحسن حارب الإنكليز على رأس عشيرته إلى جانب الأتراك في الحرب العظمى، ثم اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠. هاجم بلدة شهربان في ١٤ آب وحارب السلطة البريطانية واستولى على القلعة بعد معركة دامت ساعات. لكن القوات البريطانية استعادت البلدة في ٩ أيلول ١٩٢٠ وفرّ الشيخ حميد إلى عشائره.

مظهر صكب

الشيخ مظهر ابن الحاج صكب بن كربول بن طعمة بن راشد رئيس عشائر السعيد الزبيدية في أراضي الدغارة، حارب إلى جانب الأتراك خلال الحرب العظمى بزعامة أبيه الشيخ صكب الكربول، ثم تولى الرئاسة على أثر وفاة أبيه سنة ١٩١٨ واشترك في الثورة العراقية. انتخب نائباً عن الديوانية في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤. ثم كان نائباً عن اللواء المذكور في مجلس النواب في دورة تموز ١٩٢٥ وأيار ١٩٢٨ وكانون الأول ١٩٣٤ وآب ١٩٣٥ وشباط ١٩٣٧. وعيّن عضواً بمجلس الأعيان في ٢٩ أيار ١٩٣٧ إلى تشرين الأول ١٩٤١.

وأعيد انتخابه نائباً عن الديوانية في تشرين الأول ١٩٤٣. وتوفي في ١٠ أيار ١٩٤٥.

خلفه في رئاسة قبائله أخوه الشيخ شمران الحاج صكب، وقد ولد في الدغارة سنة ١٨٩١ وتوفي في آب ١٩٤٦.

ومن أبناء هذه الأسرة زيدان المظهر آل صكب، ولد في نحو سنة ١٩١٤. وانتخب نائباً عن الديوانية في آذار ١٩٤٧ وأيلول ١٩٥٤. واعتقل أمداً قصيراً بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وعثمان الشمران آل صكب، ولد في نحو سنة ١٩١٤ أيضاً. وقد انتخب نائباً عن الديوانية في حزيران ١٩٤٨ وكانون الثاني ١٩٥٣.

قالت المس بل في رسالة لها مؤرخة في ١١ حزيران ١٩٢٤ مخبرة أباها بتصديق المجلس التأسيسي للمعاهدة العراقية ـ البريطانية إن النواب الموافقين خرجوا من الاجتماع مشفقين على حياتهم، فأرسل مع كل منهم شرطي أو شرطيان لمحافظته. وأخذ نوري السعيد الشيخ مظهر صكب في سيارته، وأخرج من جيبه قنبلة وقال للشيخ إنها تقتل مائتي شخص في آن واحد. وكان هذا الكلام كافياً لطمأنة الشيخ مظهر!

شبيب المزبان

الشيخ شبيب بن مزبان بن مذكور بن جنديل بن محمد شيخ عشائر بني لام في لواء العمارة، اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠.

ناب عن العمارة في المجلس التأسيسي (١٩٢٤)، ثم انتخب نائباً في مجلس الأمة عن اللواء المذكور في آذار ١٩٣٢ خلفاً لعبدالكيم الديوان النائب المتوفى. وأعيد انتخابه في كانون الأول ١٩٣٤ وآب ١٩٣٥ وكانون الأول ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣ وآذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨ إلى تشرين الأول ١٩٥٢. واختير رئيساً لغرفة زراعة العمارة في كانون الأول ١٩٣٩.

توفي في نيسان ١٩٥٤. وقد عرف أبوه الشيخ مزبان رئيس عشائر بني لام بتمرّده على الحكومة التركية في عهد الوالي مدحت باشا (١٨٧١).

وعرف من شيوخ بني لام السابقين الشيخ عرار العبدالعال المذكور تمرّد على الحكومة العثمانية في عهد والي بغداد علي باشا سنة ١٨٠٥، فعزله وعيّن للرئاسة في محله عباس الفارس.

عرف في العهد الأخير من رؤساء بني لام الشيخ عبدالكريم الجوي (القوي) اللازم المزبان، وقد انتخب نائباً عن لواء العمارة سنة ١٩٥٣ وجدّد انتخابه بعد ذلك في المجالس المتعاقبة إلى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

محمد العبطان
و
سلمان العبطان

الشيخ محمّد العبطان من شيوخ الخزاعل، وقد قال عباس العزاوي إن الشائع إن هذه القبيلة من خزاعة المعروفة وقد نزلت في أطراف السماوة. ومحمّد هو ابن عبطان بن طلال بن بلبول بن شلال، ولد في نحو سنة ١٨٥٧. وكان مع أخيه سلمان العبطان من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، فلما خبا أوارها استسلما إلى السلطات البريطانية في تشرين الثاني ١٩٢٠ فأطلقت سراحهما فوراً.

وقد انتخب محمد العبطان نائباً عن الديوانية في شباط ١٩٣٣ وآب ١٩٣٥. وأدركته الوفاة في بلدة الديوانية في ١٦ نيسان ١٩٣٧.

أما أخوه سلمان فانتخب نائباً عن لواء الديوانية في كانون الأول ١٩٣٧. وتوفي بمدينة الديوانية في ٣ شباط ١٩٤٤.

روى عبدالرّزاق الحسني في كتابه «الثورة العراقية الكبرى» إن زعماء قبائل الشامية اجتمعوا في مضيف عبدالكاظم الحاج سكر في المشخاب في ٢٩ حزيران ١٩٢٠، وكان حاضرا علوان الياسري ونور السيد عزيز الياسري وسلمان ومحمد العبطان وعبدالواحد سكر وهادي مكوطر ومحسن أبو طبيخ وغيرهم من السادة والرؤساء. وخطب محمد باقر الحلّي فقال:

بني يعرب، لا تأمنوا للعدى مكرا   خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا

ثم قال: يا معشر خزاعة، إن لمحمد عليكم ديناً يوم قال، حينما ضرب الخزاعي من قبل أحلاف قريش: لا نصرني ربّي إن لم أنصر خزاعة! ومحمد اليوم في حاجة إلى نصرتكم، فهل تفون اليوم دينه؟

فتحمّس سلمان العبطان وقام وجرّد سيفه وهزّه في وجه الخطيب. وقام الحاضرون يهزجون، فكانت «صرخة دوّت دوي المدفع».

وعلى أثر ذلك بادرت عشائر تلك المنطقة إلى الثورة.

جاء في تقرير سري للسلطات البريطانية أن الجيش سجن سلمان ومحمد العبطان في الشامية في كانون الأول ١٩١٨.

وذكر محمد علي كمال الدين في كتابه «الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠» إن السلطات البريطانية انسحبت من الشامية خلال الثورة وحلقت طائراتها فوق البلدة. فلما اندحر الثوار وبلغ الجيش الإنكليزي الكوفة قرر رؤساء الحميدات ورجال الشامية الاستسلام، فأرسلوا وفداً قوامه سلمان العبطان ومنشي عزرا خلاصجي إلى النجف التي كانت قد عرضت الاستسلام. واتصل الوفد بعبد الحميد أسدخان الذي توسط في عودة السلطة البريطانية إلى البلدة.

لعشيرة الخزاعل تاريخ حافل في شقّ عصا الطاعة على الدولة العثمانية وتدويخ ولاتها في العراق منذ عهد الشيخ حمود الحمد في زمن الوالي عمر باشا سنة ١٧٦٤، وبعد ذلك ابنه الشهير الشيخ محمد الحمود المتوفى سنة ١٧٩٩.

ونفي كريدي شيخ الخزاعل مع شيوخ آخرين مصفدين بالحديد إلى استانبول سنة ١٨٥٠. ولم تمض سبع سنين حتى ظهر مطلق بن كريدي يعبث بالأمن، فسيّرت لتأديبه حملتان بقيادة شبلي باشا واسكندر باشا.

شعلان العطيّة

الشيخ شعلان العطيّة آل دخيل رئيس آل شبانة من عشائر الأقرع في ناحية الدغارة. كان من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، وقد سجنته السلطات البريطانية في الديوانية.

انتخب نائباً عن لواء الديوانية سنة ١٩٣٣، لكنّه لم يلبث أن استقال. وتمرّد هو وابنه موجد على الحكومة في آذار ١٩٣٥ وأيار ١٩٣٦، وحكم عليه في المرّة الأخيرة بالإعدام.

ثم خفّف الحكم إلى الإبعاد، فأقصي إلى الرمادي وعانة حيث لبث أمداً، ثم جاء إلى الكاظمية بعد العفو عنه في تشرين الثاني ١٩٣٦.

توفي في آذار ١٩٤٩. وخلفه في رئاسة عشيرته ابنه موجد الشعلان الذي ولد في سنة ١٩٠٤.

وقد انتخب الشيخ موجد الشعلان نائباً عن الديوانية في آب ١٩٣٥، وأعيد انتخابه في شباط ١٩٣٧ وكانون الأول ١٩٣٧ وكانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ وأيلول ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨. وقد اعتقل أمداً قصيراً بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

توفي الشيخ موجد الشعلان العطية ببغداد في أول شباط ١٩٧٤.

مخيف المحمّد الكتاب

الحاج مخيف المحمّد الكتاب رئيس آل غانم من عشائر عفك والدغارة، حارب إلى جانب الأتراك خلال الحرب العظمى. ثم كان من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ في لواء الديوانية. وقد اعتقلته السلطات الإنكليزية في ٢٩ حزيران وأبعدته إلى البصرة، ثم نفته إلى جزيرة هنجام (آب ١٩٢٠).

انتخب نائباً عن الديوانية سنة ١٩٣٠، فنائباً عن الحلة (شباط ١٩٣٧). وأعيد انتخابه نائباً عن الحلة في حزيران ١٩٤٨ والمجالس المتعاقبة إلى ثورة تموز ١٩٥٨.

ذكره عباس العزاوي في الجزء الثالث من كتابه عشائر العراق فقال إنه الشيخ الحاج مخيف بن كتاب الخليل رئيس فرقة الجوازرية من جبور الواوي من عشائر الزبيد.

وذكر العزاوي أيضاً في الجزء السابع من تاريخه إن عشائر الحلة والديوانية ومنها البوسلطان والجبور والخزاعل قد امتنعت عن أداء الرسوم الأميرية فسيّر الوالي مدحت باشا حملة لتأديبها بقيادته هو نفسه (١٨٦٩). وكان من رؤساء العصاة الشيخ خليل (جدّ الحاج مخيف) شيخ الجبور فعزل من المشيخة وعيّن منافسه الشيخ علي ليحلّ محلّه.

سوادي الحسّون

الشيخ سوادي الحسّون زعيم عشيرة بني عارض، ومسكنه الحمزة. اشترك في ثورة سنة ١٩٢٠، وانتخب نائبا عن لواء الديوانية سنة ١٩٣٥ وبعد ذلك سنة ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ وأيلول ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨.

توفي بالكاظمية في ٥ كانون الأول ١٩٦٨.

وسوادي الحسون آل الشيخ سلمان العون من فرقة بني عارض.

حسين الددة

السيد حسين الددة حسيني النسب من أشراف كربلاء ولد بها في نحو سنة ١٨٨٥. اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وسجنه الإنكليز في أعقابها في الحلة. وقد أُعْلِن استقلال بلدة كربلاء خلال الثورة في تموز ١٩٢٠ وأُلِّف مجلس ملّي لحكمها كان السيد حسين من أعضائه.

انتخب نائباً عن كربلاء في آذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨ إلى وفاته في السنة الأخيرة نفسها.

دوهان الحسن

الشيخ دوهان الحسن رئيس فرقة عمر لنك من عشائر جبور الواوي، ولد بناحية القاسم من أعمال الحلّة سنة ١٨٨٧ وتولّى رئاسة عشيرته وعمره ٢٠ عاماً. وقد اشترك في الحركة الوطنية ضدّ الأتراك سنة ١٩١٧ وبعد ذلك في ثورة ١٩٢٠، فسجن على أثرها في الحلة.

انتخب نائباً عن الحلة في مجلس النواب في كانون الأول ١٩٣٧، وأعيد انتخابه في تشرين الأول ١٩٤٣ وآذار ١٩٤٧.

توفي في نحو سنة ١٩٥٦.

ريسان القاصد

الشيخ ريسان القاصد من رؤساء حجام، وهم من عشائر بني مالك في سوق الشيوخ. كان أبوه الشيخ قاصد الناهي من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ في لواء المنتفق، حاصر على رأس العشائر مدينة سوق الشيوخ في آب ١٩٢٠ واستولى عليها، ثم عسكر في شرقي الناصرية. ولم يلق السلاح إلا عند خمود نار الثورة في تشرين الثاني. وقد قتل غيلة سنة ١٩٢٢ عن ٥٥ عاماً.

ولد ريسان سنة ١٩٠١. واشترك في التمرّد على الحكومة في أيار ١٩٣٥، فأشخص إلى الرمادي حيث بقي سنة واحدة.

وكانت هذه الحركة من الحركات الخطيرة التي شارك فيها كثير من العشائر بزعامة ريسان القاصد وأخيه مزهر القاصد وفرهود الفندي ومنشد الحبيّب وكاطع البطي وغيرهم، فاحتلّوا بلدة سوق الشيوخ وأعملوا فيها يد النهب والحرق. وأخمد الجيش الفتنة بقيادة الفريق بكر صدقي.

قال محمد باقر الشبيبي في مجلس النواب مشيراً إلى تلك الحركة:

«إن حوادث الفترة لم تكن نتيجة جهل الناس وطيشهم فقط - كما أشار إليه وزير الداخلية - بل كانت أيضاً نتيجة ظلم الإدارة وعسفها. والتمرّد الذي وقع من قبل فريق من عشائر الفرات لم يكن في الحقيقة تمرّداً على قوانين الدولة ونظمها، بل كان تمرّداً على ظلم الذين يمثلون الدولة في تلك المناطق..».

انتخب ريسان نائباً عن المنتفق في تشرين الأول ١٩٤٣. وجدّد انتخابه في آذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨، لكنه استقال من النيابة في آذار ١٩٥٠.

وقد توفي في كانون الأول ١٩٦١.

قال السير جون غلوب في كتابه «مغامرات عربية» إن اضطرابات عشائرية حدثت سنة ١٩٢٢ في المنتفك، فانقسمت عشائر بني خيقان على نفسها: فكانت فرقة العفريت مع جماعة فرهود الفندي من رؤساء حجام، بينما اتفق منافسه قاصد الناهي مع آل

مغشغش من بني خيقان أيضاً.

واغتيل قاصد الناهي في هذه الاضطرابات وكان عمره نحو ٥٥ سنة، وكان أعور.

وعرف من شيوخ عشائر حجام الشيخ أحمد القاصد تمرد على الحكومة التركية سنة ١٩٠٦ فأرسلت قوة عسكرية لتأديبه بقيادة والي البصرة الفريق مخلص باشا.

عزارة المعجون

عزارة المعجون الحمادي رئيس فرقة آل غانم الصفران من عشائر بني حجيم، تولّى المشيخة بعد أبيه الشيخ معجون الحمادي.

اشترك الشيخ عزارة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، وكان في مطلع شبابه. وانتخب نائباً عن الديوانية سنة ١٩٣٠-٣٢، وجدّد انتخابه في كانون الأول ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩ وآذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨.

توفي في السماوة في تشرين الثاني ١٩٥٨ عن زهاء ٦٠ عاماً.

وصفه خالد الدرّة بالطول الفارع والسمنة المفرطة والأناقة في ملابسه العشائرية، وقال إنه أكثر نواب الديوانية هدوءاً وراحة بال.

وقد ذكر عبدالعزيز القصاب في «ذكرياته» إنه حينما كان قائم مقاماً للسماوة سنة ١٩١٤، وقع خلاف بين معجون الحمادي وأخيه ملاجي أدّى إلى فتنة كادت تنتهي بالاقتتال. فعالجها بحكمته وحال دون وقوع قتال.

جاء في التقارير البريطانية إن الشيخ معجون الحمادي دعي إلى السماوة وطلب منه تسليم ٥٠٠ بندقية ودفع بقية الضرائب المتأخرة عليه وقدرها ٥٠٠ روبية، ولأجل المذاكرة أيضاً حول المصالحة مع العشائر المجاورة. ولما امتنع عن المجيء قصفت الطائرات منازل عشيرته في ٣٠ أيلول ١٩١٩ فتفرقت عشيرته في أنحاء المنطقة. واختير ناهي أخو معجون لرئاسة القبيلة، لكنه لم يستطع ضبط أمورها.

واستمرت الاعتداءات على العشائر المجاورة ونهب المناطق المتاخمة لقطار البصرة، فاضطرت السلطات البريطانية إلى إعادة قصف المنطقة في أيار ١٩٢٠. وقد مات الشيخ معجون موتاً طبيعياً قبل يومين من القصف فخلفه ابنه ناهي في رئاسة الصفران.

وتمرّد الشيخ عزارة على الحكومة في تشرين الثاني ١٩٢٣ وامتنع عن دفع الضرائب مع شيوخ آخرين في منطقته، فقصفت القوة الجوية البريطانية مضارب قبيلته وبادر إلى الخضوع للسلطة.

سعدون الرسن

الشيخ سعدون الرسن العهد رئيس آل حمد من عشائر الأقرع في عفك، كان من زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، سجنه الإنكليز وأحرقوا داره. وقد عرف بالبسالة وإجادة نظم الأهازيج (الهوسات) في المعارك.

انتخب نائباً عن الديوانية في آب ١٩٣٥، وجدد انتخابه في حزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣ وحزيران ١٩٤٨. وكانت وفاته في ١٩ كانون الأول ١٩٥٠.

وقد نقل إبراهيم الواعظ أن عشيرة الأقرع ثارت على الحكومة التركية سنة ١٨٩٩، وكان رئيسها آنذاك سعدون الرسن، فأرسلت الدولة قوة من الجيش بقيادة شامل باشا للقضاء على الفتنة. ثم اقتتل الشيخ سعدون مع عشيرة الجياف سنة ١٩١٤ فأرسلت الحكومة قوة لإعادة الأمن إلى نصابه.

وذكر عباس العزاوي في الجزء السابع من تاريخه إن عشائر الدغارة وعفك والديوانية من الخزاعل وبني حكيم والجبور والبوسلطان تمرّدت على الحكومة التركية سنة ١٨٦٩ في عهد الوالي مدحت باشا، فسار بنفسه على رأس حملة لتأديبها، وكان الشيخ رسن رئيساً للدغارة آنذاك.

بدر الرميض

الشيخ بدر الرميّض رئيس عشيرة البوصالح في ناحية البوصالح من نواحي مركز لواء الناصرية شمالي بحيرة لمحمّار.

ولد في نحو سنة ١٨٤٠، وكان جباراً شديد البأس تحدى السلطات التركية، لكنه اشترك سنة ١٩١٥ في الجهاد ضد الإنكليز الزاحفين في جنوب العراق. وتمرّد على الحكومة المحتلة وقام بالإخلال بالأمن فهجمت عليه قوة إنكليزية في شباط ١٩١٩ وأحرقت قريته ومزروعاته ففر إلى الأهوار.

وكانت له بعد ذلك يد في ثورة سنة ١٩٢٠.

عمّر طويلاً وتوفي في نحو سنة ١٩٣٢ وقد أربى على التسعين. وخلفه في الرئاسة ابنه محسن البدر الرميّض الذي انتخب نائباً عن لواء المنتفق في شباط ١٩٣٧، وثم سنة ١٩٤٤ (خلفاً للشيخ محمد حسن حيدر المتوفى) وفي كانون الثاني ١٩٤٦.

والبوصالح فرع من بني مالك، وكانت رئاستهم معقودة لآل الرميض في عهد إمارة المنتفق.

عمر وعثمان العلوان

اشترك عمرالعلوان في الحركة الوطنية بعد نهاية الحرب العامة فقبض عليه في كربلاء في ٢ آب ١٩١٩ مع نفر من المناهضين للسلطات البريطانية وجيء بهم إلى بغداد تمهيداً لنفيهم إلى الهند. لكن الميرزا محمد تقي الشيرازي شفع لهم فأفرج عنهم وسمح لهم بالعودة إلى بلدهم في أوائل كانون الأول من السنة نفسها.

ثم اشترك عمر مع أخيه عثمان العلوان في الحركة الوطنية فنفيا إلى جزيرة هنجام في حزيران ١٩٢٠. وأطلق سراحهما بعد إعلان العفو العام في ٣٠ أيار ١٩٢١.

وهما من رؤساء عشيرة الوزون. ودرس عمر في مدرسة الحقوق في بغداد وكان زميلاً فيها لصالح جبر وسعد صالح، وتخرج سنة ١٩٢٥ فمارس المحاماة. وانتخب نائباً عن كربلاء في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤، وتوفي في نيسان ١٩٣١. وأصبح ابنه سعد عمر بعد ذلك نائباً ووزيراً للشؤون الاجتماعية والمعارف.

أما عثمان العلوان فعيّن رئيساً لبلدية كربلاء سنة ١٩٢١. وانتخب نائباً عن لواء كربلاء في مجلس الأمة في أيار ١٩٢٨، وجدد انتخابه في تشرين الثاني ١٩٣٠ وكانون الأول ١٩٣٤ وآب ١٩٣٥ وكانون الأول ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩. وتوفي ببيروت في أوائل تموز ١٩٤٠.

عمران الحاج سعدون

من رؤساء قبيلة بني حسن في ناحية الكفل من أعمال الحلّة عمران وعلوان الحاج سعدون، وهما من ذرّية الشيخ عباس الذي كان رئيساً في عهد الوالي حسن باشا سنة ١٧٠٨.

عيّن الشيخ عمر قائم مقاماً للهندية عند انسحاب السلطات التركية منها إثر احتلال بغداد في آذار ١٩١٧. ثم اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، فلما خبا أوارها التجأ إلى نجد في تشرين الثاني من تلك السنة، وعاد إلى العراق توّاً.

عيّن عمران بعد الثورة قائم مقاماً لقضاء الهندية، وانتخب نائباً عن الحلة في المجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٤). وناب عن اللواء المذكور في مجلس النواب سنة ١٩٢٥-٢٨ و١٩٣٣-٣٩ وشباط ١٩٣٧، حتى أدركته الوفاة بالكاظمية في ١٩ أيار ١٩٤٢.

وكان أخوه علوان نائباً عن الحلة سنة ١٩٣٤-٣٥ و١٩٣٥-٣٦، وحزيران ١٩٣٩، ثم خلفه في النيابة عمران في تشرين الأول من السنة نفسها.

وعرف أيضاً موسى العلوان بن علوان الحاج سعدون، كان نائباً عن الهندية (لواء الحلة) سنة ١٩٤٧-٤٨ و١٩٥٤-٥٨، وتوفي في شهر حزيران ١٩٦٤.

سليمان الشريف

سليمان الشريف البندر رئيس بني زيد من العشائر الحميرية التي يسكن معظمها بطائح الغراف. اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠. وقد ناوأته الإدارة في أواخر سنة ١٩٢٢ فهدمت قلعته وانتهبت أمواله وسجنته ثلاثة أشهر.

انتخب نائباً عن لواء المنتفق في شباط ١٩٤٢ لملء النيابة الشاغرة بتعيين السيد عبدالمهدي عيناً، وجدّد انتخابه في تشرين الأول ١٩٤٣ وآذار ١٩٤٧. وقد توفي في الشطرة في آب ١٩٥٥.

داخل الشعلان

الشيخ داخل الشعلان الجبر من شيوخ آل إبراهيم من عشائر بني مالك في الديوانية، ولد سنة ١٩٠٠ وخلف أباه شعلان الجبر في الرئاسة، وكان الشيخ شعلان من المشاركين في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، فلما خبا أوارها لجأ إلى الحجاز.

وقد انتخب داخل نائباً عن الديوانية في كانون الأول ١٩٣٤، وأعيد انتخابه في شباط ١٩٣٧ وكانون الأول ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣.

وتوفي في أبي صخير في ١٥ حزيران ١٩٥٥.

قيل إن الشيخ داخل سافر إلى باريس لمشاهدة معرضها الدولي لسنة ١٩٣٧. وقد سئل كيف رأى المعرض فقال: مذ غادرنا بغداد فالدنيا كلها معرض!

الشيخ إبراهيم آل يوسف

إبراهيم آل يوسف شيخ بني ركاب من عشائر قضاء الرفاعي (قلعة سكر) في المنتفك. انتخب نائباً عن قضاء الرفاعي في آذار ١٩٤٧ وبعد ذلك في كانون الثاني ١٩٥٣.

توفي في شباط ١٩٦٩. وقد كان من المساهمين في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠. وهو غير إبراهيم يوسف نائب أربيل الذي انتخب سنة ١٩٢٥-٢٨ و١٩٣٠-٣٢ وشباط ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩.

جعفر الصميدع

الشيخ جعفر الصميدع من رؤساء بني حسن في ناحية الكفل، انتخب نائباً عن الحلة في آب ١٩٣٥. وأعيد انتخابه للنيابة في حزيران ١٩٤٨ وكانون الثاني ١٩٥٣ وتموز ١٩٥٤. وقد اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ في أنحاء الكفل والهندية. توفي في تشرين الأول ١٩٦٣.

حسين الظاهر

الحاج حسين الظاهر رئيس قبيلة الشمرت في النجف ولد سنة ١٨٧٠ . انتخب نائباً عن لواء كربلاء في كانون الأول ١٩٣٧، وتوفي في النجف في شباط ١٩٥٠.

وقبيلة الشمرت ذات نفوذ واسع في النجف. ذكر عباس العزاوي في تاريخه إن فتنة وقعت سنة ١٩٠٩ بين الزكرت والشمرت وطالت الوقيعة بينهما حتى أصبحت مضرب الأمثال. وكان من المسببين لها مهدي آل السيد سلمان من رؤساء الزكرت.

وقد انسحب الأتراك من بلدة النجف في نيسان ١٩١٥، بعد أن هاجمهم أهلوها، فظلّت البلدة مستقلة يحكمها شيوخ الزكرت والشمرت حتى الاحتلال الإنكليزي في صيف سنة ١٩١٧.

وكان حسين الظاهر من زعماء النجف في خلال الثورة سنة ١٩٢٠.

وجدير بالذكر أن اقتتال الزقرت (الزكرت) والشمرت في النجف قديم العهد. وقد انتدب الشاعر عبدالباقي العمري حينما كان معاوناً لوالي بغداد - لإصلاح ذات البين بين الفئتين، فقال:

عجبت لسكّان أرض الغريّ ... بظلّ الوصيّ استظلّوا وناموا
فهم فتية الكهف من بعدما ... أقاموا زماناً به واستقاموا
رأوا شمس قبّته كوّرت ... فظنّوا القيامة قامت فقاموا

سلمان الظاهر

الشيخ سلمان الظاهر رئيس آل مرزوق من عشائر الخزاعل النازلة في مناطق الفرات الأوسط، وقد اشتهر الخزاعل في تاريخهم ولاسيما في عهد شيخهم حمد الحمود الحمد المتوفى سنة ١٧٩٩.

اشترك سلمان الظاهر في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ واستسلم إلى السلطات البريطانية في تشرين الثاني من تلك السنة، ثم عيّن قائم مقاماً للشامية (١٩٢١). وانتخب نائباً عن الديوانية في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤، فنائباً عنها في مجلس النواب (١٩٢٥). وقد توفي بالنجف في ١٤ تموز ١٩٢٦.

أما ابنه الشيخ شعلان السلمان الظاهر فقد ولد في نحو سنة ١٩٠٠ وانتخب نائباً عن الديوانية في أيار ١٩٢٨. وجدد انتخابه في تشرين الثاني ١٩٣٠ وكانون الثاني ١٩٣٤ وكانون الأول ١٩٣٤ وآب ١٩٣٥ وشباط ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣ وآذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨. وتوفي ببغداد في ٢٧ نيسان ١٩٥٢.

وخلفه في رئاسة الخزاعل ولده علي الشعلان السلمان الظاهر، ولد في نحو سنة ١٩٢٤، وانتخب نائباً عن الديوانية في كانون الثاني ١٩٥٣، وجدّد انتخابه في المجالس المتعاقبة إلى ثورة تموز ١٩٥٨ حين اعتقل أمداً ثم أطلق سراحه.

وقد غادر العراق بعد الثورة ثم عاد إليه. وتوفي ببغداد في أول آب ١٩٧٤.

موحان الخير الله

الشيخ موحان بن يوسف الجابر الخير الله ولد سنة ١٩٠٠ في مقاطعة العبد في الغراف، وكان أبوه رئيس عشائر الحميد النازلة على الضفة اليسرى من شط الغراف، وهي من قبائل زبيد.

درس موحان على أساتذة خصوصيين، وخلف أباه في المشيخة عند وفاته سنة ١٩١٦. واشترك في الثورة العراقية، وكانت منطقة الغراف آخر المناطق التي استسلمت للقوات الإنكليزية في كانون الثاني ١٩٢١.

وانتخب نائباً عن لواء المنتفق في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤، لكنه بادر إلى الاستقالة. ثم انتخب نائبا عن اللواء المذكور في المجلس النيابي في تموز ١٩٢٥ وتشرين الثاني ١٩٣٠ وآب ١٩٣٥ وشباط ١٩٣٧ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣ وآذار ١٩٤٧ وحزيران ١٩٤٨ وكانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ وأيلول ١٩٥٤.

وقد توفي في فيينا في تشرين الأول ١٩٥٦.

فريق المزهر آل فرعون

الشيخ فريق المزهر آل فرعون من رؤساء آل فتلة في أراضي الجعارة من أعمال قضاء أبي صخير، وكان أبوه الشيخ مزهر المتوفى سنة ١٩٣٨ من شيوخ عشيرته.

ولد فريق المزهر في قرية الدار من قرى القبيلة سنة ١٨٩٩. وقد اشترك في ثورة سنة ١٨٩٩. وقد اشترك في ثورة ١٩٢٠ شاباً. وانتخب نائباً عن الديوانية في آب ١٩٣٥، وبعد ذلك في تشرين الأول ١٩٣٩. واعتقل سنة ١٩٣٧ في عهد انقلاب بكر صدقي وأبعد إلى الشمال. ألف كتاب القضاء العشائري (١٩٤١) والحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها (في جزئين، ١٩٥٢.)

توفي في ناحية المشخاب في ١٧ كانون الثاني ١٩٦٥.

وقد روى إسماعيل الواعظ في كتاب «الروض الأزهر» الذي نشره أخوه إبراهيم الواعظ أن متصرف الديوانية سامي بك جمع الأشراف ورؤساء العشائر في أثناء حرب طرابلس الغرب (أواخر ١٩١١) لجمع الإعانات، فتبرّع الشيخ مزهر الفرعون بمائة ليرة ذهب. ثم تقدم ابنه فريق - وهو آنذاك غلام - فسلّم على المتصرف والموظفين، وقال: أنا لا أملك من الدنيا سوى شيئين: نفسي هذه الصغيرة ذات السبع سنين، وهذا الطوق الذهبي الذي في عنقي، وكلاهما لا يغني فتيلاً. فأنا صغير لا أستطيع الجهاد، والطوق لا يساوي شيئاً كبيراً. والتفت إلى أبيه قائلاً: فادفع عني، يا أبت، مائة ليرة مثلما جدت عن نفسك! وقد سرّ المتصرف وهيئة التبرعات بعمل الغلام، فشكروه وأعجبوا بذكائه.

أخوه: عبدالعبّاس المزهر آل فرعون كان نائباً عن الديوانية في الدورات النيابية المتعاقبة من ١٩٤٣ إلى ثورة تموز ١٩٥٨. وتوفي بالهندية في حزيران ١٩٦٨.

وقد تولّى الشيخ فرعون رئاسة آل فتلة وعمر نحواً من مائة عام. وعرف ابنه الشيخ مبدر آل فرعون الذي مدحه السيد جعفر الحلي قائلاً:

إن في أفق السماوات العلى ... قمراً في كلّ قطر يزهر

ولـــنــا فـــي الأرض بـــدر مـــثـــلـــه مـسـتـقـيـمـاً وهـو فـيـهـا (مـبـدر)

وتمرّدت عشائر آل فتلة والخزاعل والجبور وغيرها على الحكومة التركية سنة ١٩١١، فأرسل الوالي أحمد جمال بك قوة تأديبية بقيادة سليمان عسكري بك، فنكّل بها وقبض على شيوخها مزهر ومبدر الفرعون وعبدالواحد الحاج سكر وغيرهم، فزجّوا في السجن.

تكليف المبدر آل فرعون

من رؤساء آل فتلة، ولد الشيخ تكليف المبدر آل فرعون في نحو سنة ١٩٠٠. وانتخب نائباً عن لواء الديوانية في شباط ١٩٣٧، وجدّد انتخابه في كانون الأول ١٩٣٧. توفي في كانون الثاني ١٩٥٨.

اشترك تكليف المبدر، وهو شاب، في الثورة العراقية مع شيوخ آل فتلة. وقد استسلم إلى السلطات البريطانية في تشرين الثاني ١٩٢٠ على أثر استسلام عبدالواحد الحاج سكر ومجبل الفرعون وغيرهما.

محمود رامز

ولد محمود رامز بن محمّد السعدون في بغداد سنة ١٨٧٥ ودرس في المدرسة العسكرية في استانبول وتخرّج فيها سنة ١٩٠١. وكان من زملائه في الدراسة مصطفى كمال (أتاتورك) ومحمود السنوي وأحمد عارف قفطان.

خدم ضابطاً في الجيش التركي في الشامية وغيرها من الأنحاء، وشهد معارك العراق في أثناء الحرب العظمى وكان آمراً لخطّ المواصلات ومستودع الأرزاق. وانسحب مع الجيش إلى الموصل وتركه بعد الهدنة (١٩١٨) .

وعاد إلى بغداد بعد الحرب برتبة رئيس أول، فاشترك في الحركة الوطنية، ثم مضى إلى ساحة الثورة في الفرات الأوسط. ولما خبا أوارها فرّ إلى الحجاز عن طريق حائل، وعاد بعد إعلان العفو العام في ركاب الأمير فيصل (حزيران ١٩٢١). وانتمى إلى الجيش العراقي في تلك السنة ورفّع إلى رتبة مقدّم (١٩٢٤)، ثم ترك الخدمة العسكرية في السنة التالية.

انتخب نائباً عن المنتفق سنة ١٩٢٥ فنائباً عن بغداد (١٩٢٨-٣٠). وعرف في مجلس النواب معارضاً جريئاً وخطيباً وطنياً مفوّهاً. وحمل لواء المعارضة بعد ذلك على منبر الصحافة، فأصدر جريدة «صدى الوطن» في تشرين الثاني ١٩٣٠، وقد استمرت شهراً ونصف شهر، ثم جريدة «الثبات» (٣٠ كانون الأول ١٩٣١)، واحتجبت في ٧ شباط ١٩٣٢، وكانت الجريدتان تنطقان بلسان الحزب الوطني. وقد أعاد محمود رامز إصدار جريدة الثبات (٣ آذار ١٩٣٤) أمداً، وجيزاً.

وأعيد انتخابه نائباً عن بغداد سنة ١٩٣٥ و ١٩٣٧ (لكنه استقال في آذار ١٩٣٧) وكانون الأول ١٩٣٧ - شباط ١٩٣٩ و ١٩٣٩ - ٤٣ و١٩٤٣-٤٦. ووضع رسالة «الصحيفة السوداء في تفنيد المعاهدة العراقية البريطانية لسنة ١٩٣٠» (١٩٣١).

******

حدثني محمود رامز أنه كان ضابطاً في الجيش التركي، والحرب العظمى تدنو إلى

نهايتها. وكان مقرّه في العمادية، فإذا بالقائد التركي علي إحسان باشا يزور القرية. وكان في حاشيته ضابط يبدو طورانياً متعصباً تكلم بلهجة تركية أصيلة في محضر من القائد يذكر الضباط بواجبهم في الانسحاب إلى الأناضول ومواصلة الكفاح. والتفت فجأة إلى محمود رامز وقال:

«وأنت، أيها الضابط الوطني الغيور، ماذا تنوي أن تفعله؟» فأخذ محمود رامز على غرة وبادر مجيباً بأنه يفعل ما يفعله أي تركي محبّ لبلاده فيعود مع الجيش ويتفانى في الحرب...

ولم تمض أيام حتى أعلنت الهدنة (سنة ١٩١٨) وسلّمت الموصل ونواحيها إلى الجيش الانكليزي. واستقال محمود رامز من الجيش التركي المنسحب من العراق وعاد إلى بغداد، فمن تظنون وجده فيها؟ لقد التقى بذلك الضابط الطوراني الشاب المتعصب، فتعرّف به فإذا هو الطبيب فائق شاكر. ولم يكن ما تفوّه به أمام القائد علي إحسان سوى دعابة أخرجها بمظهر الجدّ والصرامة لملاطفة الضباط العرب!

وحدّثني محمود رامز أيضاً أنه استقال من الجيش سنة ١٩٢٥ إثر انتخابه نائباً، فانتمى إلى مدرسة الحقوق ليدرس القانون. وقدّمت إلى المجلس لائحة قانونية تقضي بزيادة الرسوم الكمركية على السكّر، وكان قد سمع في اليوم السابق، أن عدداً من التجار قد أقبلوا على ابتياع هذه المادة بصورة فجائية واسعة، فوقف ينتقد الحكومة على تهاونها في حفظ أسرار الدولة ويندّد بها لإفساحها المجال للتجار بشراء السكر واحتكاره والمضاربة به انتهازاً للفرصة عند زيادة الرسوم.

ولمّا فرغ من كلامه مضى إلى مدرسة الحقوق لأداء الامتحان السنوي الذي كان موعده في ذلك الوقت، وكان الموضوع التجارة والاقتصاد. قال محمود رامز: لقد أجبت على الأسئلة خير جواب، لكن الأستاذ لم يرض عن أجوبتي، فكان أن خذلت في الامتحان.

وكان ذلك آخر عهد النائب الكهل بدراسة الحقوق.

****

وحدثني أيضاً أنه كان آمر المنزل (ضابط الإعاشة) في القرى المحيطة بالموصل قبيل عقد الهدنة سنة ١٩١٨. وجاءته الأوامر من أمير اللواء علي إحسان باشا قائد الجيش بإعداد ما يلزم للجنود من حبوب ووقود ولوازم، فاضطرّ أن يصادر حبوب الفلاحين وأن يستولي على أخشاب الدور والكنائس لسدّ الحاجة الملحّة.

وكانت مدينة الموصل تعاني آنذاك مجاعة هائلة مات فيها الكثيرون. وعمد الأهلون إلى أكل النفايات والكلاب والقطط والفئران إبقاءً على رمقهم. ولم يتورع بعض من لا أخلاق لهم عن اختطاف الأطفال وقتلهم وبيع لحومهم، فقبض عليهم وأعدموا جزاء فعلتهم الشنعاء. ثم عقدت الهدنة وسلّمت الموصل إلى الجيش البريطاني، فجلب لها الأطعمة من بغداد وجنوب العراق لتغذية الأهلين.

احتفظ محمود رامز بقواه العقلية والبدنية وقد أربى على التسعين. وكرّمته وزارة الإعلام في حزيران ١٩٦٩ بوصفه من قدماء رجال الصحافة المناضلين في خلال الاحتفال بعيد الصحافة العراقية المئوي. وقد اختير هو ومريم نرمة (التي أصدرت صحيفة فتاة العرب سنة ١٩٣٧) لتكريمهما باعتبارهما من رواد الصحافة، ولم يكرّم توفيق السمعاني وغيره من كبار الصحفيين الأحياء لأسباب سياسية. أما محمود رامز فلم يخطّ كلمة واحدة في حياته، بل كان رجل عمل وخطابة، ولم يعمل في حقل الصحافة بل حصل على امتياز جريدة صدى الوطن وجريدة الثبات للحزب الوطني الذي ينتمي إليه، فصدرتا بضعة أسابيع. ومريم نرمة كانت معلمة ثم أصدرت صحيفة باسم «فتاة العرب» فلم تدم إلا أشهراً. وقد عرفت هذه السيدة فوجدتها تكاد تكون أميّة. وأخبرني يوسف يعقوب مسكوني أنه كان يحرر لها صحيفتها وهو موظف في وزارة المعارف.

أصاب الوهن والمرض محمود رامز في أعوامه الأخيرة. وظل قعيد داره ملازماً للفراش حتى أدركته المنيّة في بغداد في ٣٠ أيار ١٩٨٠، وقد بلغ المائة والخمس من عمره المديد.

قال إبراهيم صالح شكر يذكر محمود رامز: إنه يلتهب إخلاصاً ووطنية. وقال إنه وجد التضحية ماثلة فيه، وأشاد بمواقفه الباسلة في تعضيد القضية الوطنية. وقال إنه يملك قلباً كبيراً وروحاً نبيلاً ونفساً غنية وشعوراً حياً، وهو من حزب الحق الذي تطمئن إليه مصلحة البلاد. وهو حرب على دعاة السوء وأنصار الباطل وخصوم البلاد وعبيد الشهوات.

شاكر القرة غولي

الحاج شاكر بن عبداللطيف بن صالح القرة غولي، وأصل أسرته من عشائر ديالى، ولد ببغداد في سنة ١٨٩١ ودرس في المدرسة الإعدادية الملكية.

عيّن كاتباً في دائرة الولاية ثم نقل إلى السماوة. ولما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ جنّد وأدخل دورة ضباط الاحتياط، فتخرج حاملاً رتبة نائب ضابط وحارب في صفوف الجيش التركي حتى احتلال العراق.

عمل بعد الهدنة في الحركة الوطنية واشترك في ثورة سنة ١٩٢٠ مجاهداً في صفوف العشائر في جهة الفرات. وخمدت نار الثورة فالتجأ فيمن التجأ من رجالها إلى الحجاز. وعاد إلى بغداد في ركاب الأمير فيصل بعد إعلان العفو العام.

وانتمى سنة ١٩٢٥ إلى مدرسة الأعوان فتخرّج فيها ملازماً في الجيش العراقي، ونال بعد ذلك رتبة رئيس. واعتزل الخدمة العسكرية سنة ١٩٣٧ منصرفاً إلى الزراعة. انتخب نائباً عن لواء ديالى في تشرين الأول ١٩٤٣ وجدّد انتخابه في آذار ١٩٤٧. وتوفي في شهرتموز ١٩٥٦ قتيلاً في الوجيهية من قرى محافظة ديالى.

كان شاكر القرة غولي وثيق الصلة بجعفر العسكري، رافقه حينما ذهب إلى مصرعه في أراضي ديالى في ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦. وقد روى عبدالرزاق الحسني في الجزء الرابع من «تاريخ الوزارات العراقية» إن القرة غولي ترك في الطريق بينما أخذ العسكري إلى مكان آخر وقتل. ثم أحضر القرة غولي أمام الفريق بكر صدقي قائد الانقلاب فصافحه وكلفه بمهمة المساعدة في تأمين الأرزاق للقوات الزاحفة إلى بغداد، فلم يكن منه إلا أن قال جازعاً: «أنا جئت بوزير، فهل أرجع بحقيبته؟».

المصادر والمظان

١) النظارات والوزارات المصرية (بإشراف مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - القاهرة ١٩٦٩).
٢) إبراهيم مصطفى الوليلي: مفاخر الأجيال في سير أعاظم الرجال (القاهرة ١٩٣٤).
٣) شحاتة عيسى إبراهيم: عظماء الوطنية في مصر (القاهرة ١٩٧٧).
٤) عبدالرحمن الرافعي: شعراء الوطنية (القاهرة ١٩٥٤).
٥) حسن محمد درويش: الوزارات المصرية في ظل حكم الأسرة العلوية (القاهرة ١٩٢٤).
٦) الدكتور رفعت السعيد: مصطفى النحاس (القاهرة ١٩٧٥).
٧) محمد علي غريب: محمد فريد الفدائي الأول (بيروت ١٩٥٨).
٨) حسن الشيخة: عبدالعزيز جاويش (القاهرة ١٩٦١).
٩) زكي فهمي: صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر (القاهرة ١٩٢٦).
١٠) خلف شوقي أمين الداودي: ذكرى سعد زغلول في العراق (بغداد ١٩٢٧).
١١) خير الدين الزركلي: الأعلام (الطبعة الخامسة، ٨ مجلدات، بيروت ١٩٨٠).
١٢) دائرة المعارف البريطانية (باللغة الإنكليزية).
١٣) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الإنكليزية الجديدة).
١٤) أمين الريحاني: ملوك العرب (جزآن، بيروت ١٩٢٤).
١٥) مذكرات الملك عبدالله (الطبعة الثانية، عمّان ١٩٤٨).
١٦) الدكتور سامي الدهان: الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره (القاهرة ١٩٦٠).
١٧) يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية (الجزء الثاني، بيروت ١٩٥٦).
١٨) أحمد الهاشمي: جواهر الأدب (القاهرة ١٩٢٣).
١٩) الدكتور محسن غياض: شاعر العرب عبدالمحسن الكاظمي (بغداد ١٩٧٦).
٢٠) ديوان ولي الدين يكن (القاهرة ١٩٢٤).
٢١) شفيق جبري: نوح العندليب (دمشق ١٩٨٥).

٢٢) أحمد عزت الأعظمي: تاريخ القضية العربية (٦ أجزاء، بغداد ١٩٣١ - ٣٤).
٢٣) محمد مهدي البصير: تاريخ القضية العراقية (جزآن، بغداد ١٩٢٤).
٢٤) سليمان فيضي: في غمرة النضال (بغداد ١٩٥٢).
٢٥) محمد علي كمال الدين: سعد صالح (بغداد ١٩٤٩).
٢٦) مير بصري: مباحث في الاقتصاد العراقي (بغداد ١٩٤٨).
٢٧) مير بصري: أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (بغداد ١٩٧١).
٢٨) مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث (لندن ١٩٨٧).
٢٩) محيي الدين رضا: بلاغة العرب في القرن العشرين (الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٤).
٣٠) أمين الريحاني: هتاف الأودية (بيروت ١٩٥٥).
٣١) إلياس زخّورا: مرآة العصر في تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر (المجلد الثاني، مصر ١٩١٦).
٣٢) عباس العزاوي: عشائر العراق (٤ أجزاء، بغداد ١٩٣٧- ٥٦).
٣٣) القاضي حسين العرشي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام (نشره الأب أنتاس ماري الكرملي، القاهرة ١٩٣٩).
٣٤) الدكتور عبدالأمير هادي العكّام: تاريخ حزب الاستقلال العراقي ١٩٤٦-٥٨ (بغداد ١٩٨٠).
٣٥) إبراهيم صالح شكر حياته وآثاره (إعداد عبدالحميد الرشودي وخالد محسن إسماعيل وجميل الجبوري) (بغداد، ١٩٧٨).

ومن المصادر الأخرى الصحف والمجلات العربية والأجنبية وتقارير السلطات البريطانية وبعض الكتب الإنكليزية والفرنسية.



Designed & Printed by Idea Ads 01/ 815420